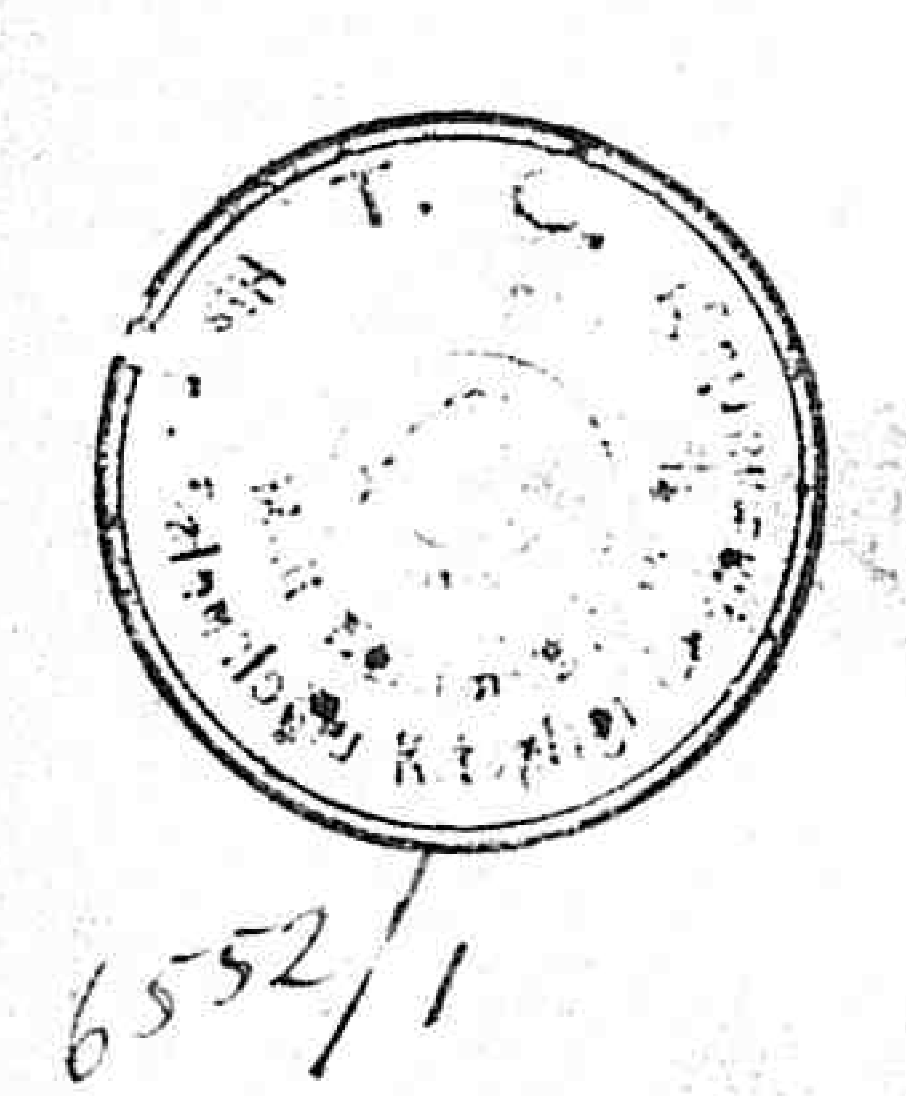
﴿ فهرست الجزء الاول من كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار ﴾

صحيفة



صحيفة

القسم الثانى من الكتاب

صحيفة

صحيفة

صحيفه

صحيفة

صحيفة

صحيفه

صحيفة

صحيفة

صحيفه

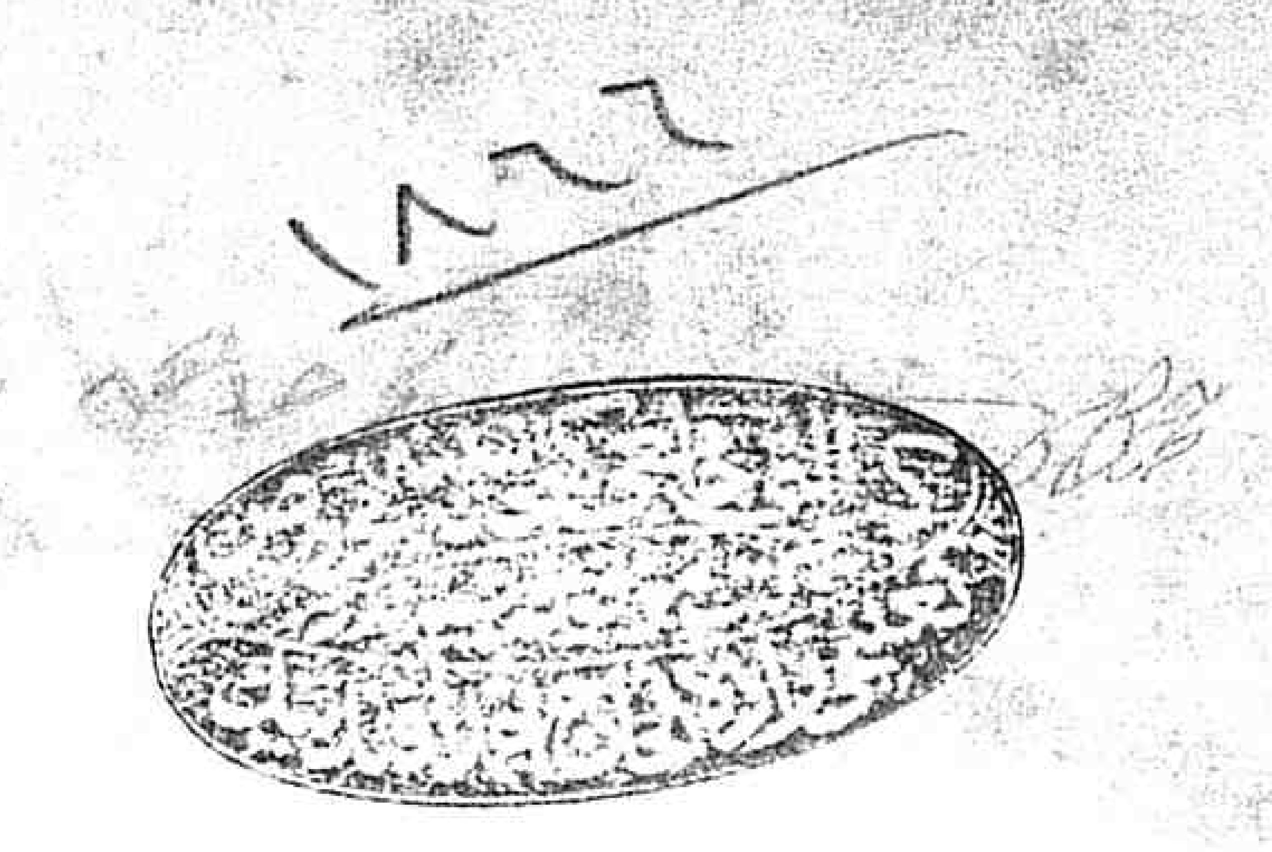
صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفه

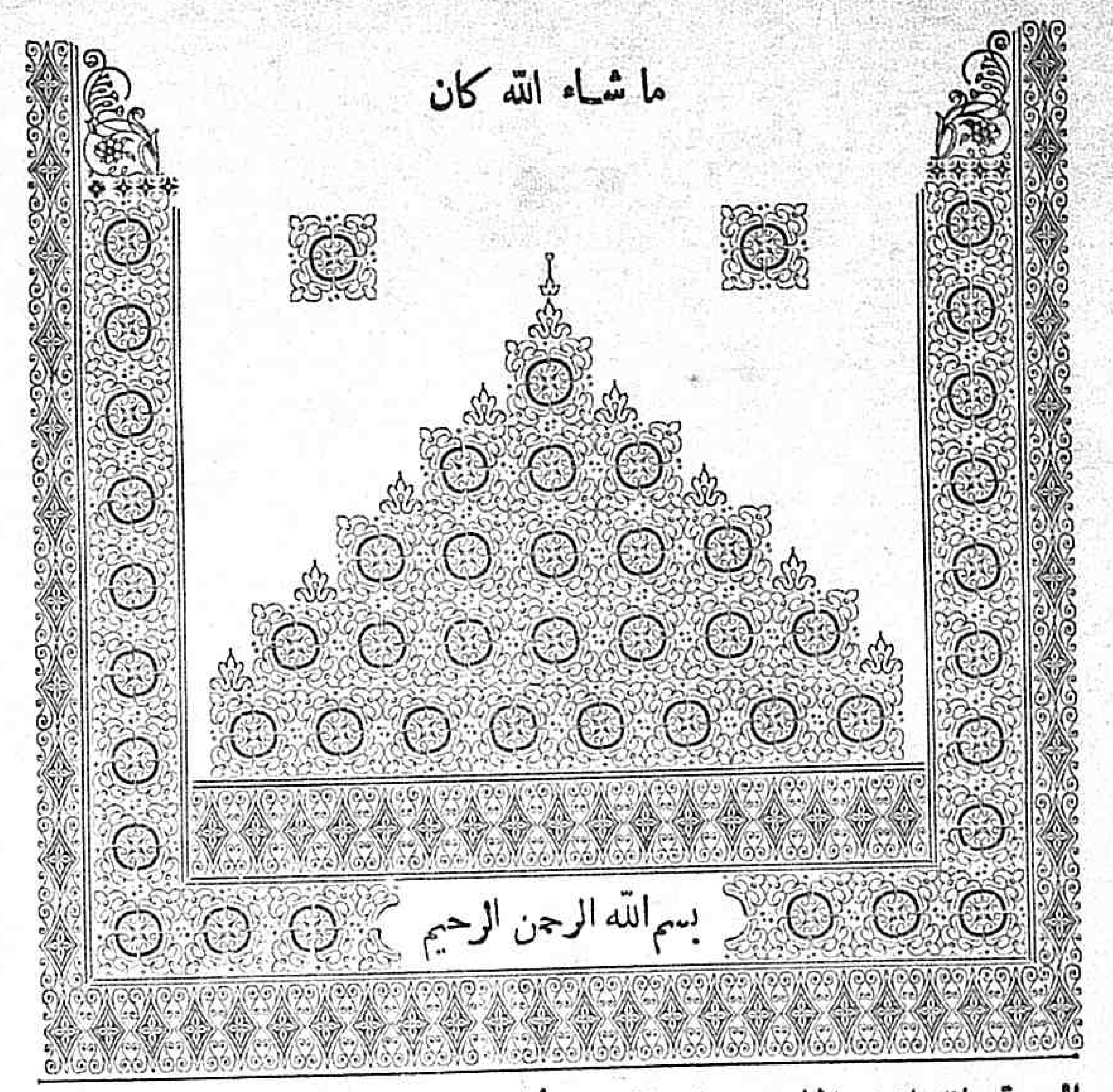
﴿تمت الفهرست﴾



هذا كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار تأليف الفاضل المحقق والاستاذ المدقق قدوة العلماء وصفوة الازكياء وحيد عصره وفريد دهره الشيخ محمد بيرم الخامس التونسى نفعنا الله به وبعلومه آمين

﴿الجزء الاول﴾





❊ الحمد لله مالك الملك والممالك ❊ خالق النور والظلمة والضلال والهدى الى أقوم المسالك ❊ سبحانه الخالق الحكيم ❊ المبدع للكون ومافيه من حقير وعظيم ❊ رسم عليه دلائل وحدانيته لتدبر المتبصرين ❊ ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين ❊ والصلاة والسلام الاكملان الاتمان على تاج العالم المصون ❊ ومظهر الكمالات المسرى به الى المسجد الاقصى والمقام المكنون ❊ سيدنا ومولانا محمد رسول الله ❊ المطهر عنصره الجثمانى ❊ والمنزه جوهره الروحانى ❊ من الكدر والاشتباه ❊ وعلى آله الطاهرين ❊ وأصحابه الذين جابوا الارض فى هداية المخلوقين ❊ (أمّا بعد) فان الله جلت عظمته اقتضت حكمته الباهرة ❊ ان ربط فى هاته الدار الاسباب بالمسببات خفية كانت أو ظاهرة ❊ واخفى مراده فى التكوين ❊ فكان مدار تكاليف الشرع هو اعتبار الاسباب رحمة بالمؤمنين ❊ وتفويض ماوراء ذلك الى خالق المسبب يجرى على مقتضى تقديره فى الازل ومايدرك أسرار حكمته الا قليل من الكاملين ❊ وكان مما عرض للعبد الحقير

الحقير ❊ ان بليت بمرض اعيى علاجه أطباء قطرنا الشهير ❊ وأشير على بالسفر لاجل ذلك الغرض ❊ فاستخرت الله تعالى واستشرت الاصدقاء لتحصيل ذلك الحق المفترض ❊ فجبت بحارا وقفارا ❊ ومدنا وامصارا على حسب ما يسره المقدور ❊ وساعفت الوسائل على الوصول الى مشاهدته من المعمور ❊ ورأيت بعينى البصر والبصيره ❊ أمورا عجيبة خطيره ❊ أحببت نظمها فى عجالة حفظا لها من الاهمال ❊ وتطفلا على منحى العلماء أولى الكمال ❊ كل سر جاوز الاثنين شاع ❊ كل علم ليس فى القرطاس ضاع ❊ وهى وان كانت بالنسبة لمعارف الكاملين والفحول ❊ ليست مما يلتفت اليه أو يلاحظ بالقبول ❊ لكنها على كل حال بضاعة من علم ❊ تلاحظها بالاغضاء أعين أهل الحلم ❊ فلعل الله بفضله يفيد بها أهل وطننا واخواننا المسلمين ❊ ويهدينا الى احياء معالم ديننا المتين ❊ (وسميتها) صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار ❊ معتمدا على فضل المانح الجليل ❊ وهو حسبى ونعم الوكيل ❊ فنقول ان هاته الرحلة مرتبة على مقدمه ومقصد وخاتمة فالمقدمة فيها (ثلاثة) أبواب (الباب الاول) فى السفر من حيث هو ويشتمل على ثلاثة فصول (الباب الثانى) فى السفر لغير أرض الاسلام وفيه فصلان (الباب الثالث) فى تقسيم أحوال أهل الارض وفيه خمسة أقسام وستة وثمانون فصلا والمقصد فيه ثلاثة عشر بابا (الاوّل) فى سبب سفرى (الثانى) فى مملكة تونس (الثالث) فى مملكة ايطاليا (الرابع) فى مملكة فرانسا (الخامس) فى قطر الجزائر (السادس) فى مملكة انكلتره (السابع) فى جزيرة مالطه (الثامن) فى قطر مصر (التاسع) فى الحجاز وجزيرة العرب (العاشر) فى بقية الممالك العثمانية (الحادى عشر) فى مملكة اسفيسره (الثانى عشر) فى مملكة النمسا (الثالث عشر) فى مملكة الرومانيا وكل باب يشتمل على فصول حسبما فيه من الفروع (الخاتمة) فيما ينبغى للامّة الاسلامية اتخاذه من زيادة بث المعارف وماتثمره من الخيرات

❊ المقدمة وفيها ثلاثة أبواب ❊

الباب * الاول

❊ فى السفر من حيث هو ❊

❊

الفصل الاول

فيما جاء في ذلك من الكتاب العزيز

(اعلم) ان الله تعالى قد أمر في كتابه العزيز بالسير في الارض للاعتبار والاستدلال على وجوده ووحدانيته فقال تعالى قل سيروا في الارض في آيات من الكتاب المجيد وفي بعضها قال ثم انظروا وفي آخر قال فانظروا فكان العطف تارة بالفاء وتارة بثم اشارة الى ان النظر والاعتبار كما يلزم في حالة السير يلزم بعده حتى لا يكون الزمن والعمل خاليا عن فائدة صحيحة في نظر الشرع فأوّلا يحصل النظر الاجمالي في حالة السير ثم يحصل النظر التفصيلي بالاعتبار عند الانفصال منه حتى يستقرّ في النفس بغاية التروّي ولا يخفى ان القاعدة الاصوليه عندنا هي ان الامر (للوجوب) وهو حقيقته ولا يصرف الى غيره الا عند القرينه الصارفة وقد اشتملت الآيات المذكورة على أمرين وهما الامر بالسير والامر بالنظر فكلاهما واجب غير ان الاول واجب لكونه وسيلة للثاني والثاني واجب مقصود لذاته وافادة ترتبه على سابقه تحصل بكل من (الفاء) و (ثم) بيد انه تحصل بكل واحدة فائده خاصة (فالفاء) تفيد ترتب النظر على السير بغير مهلة (وثم) تفيد ترتبه عليه بعده حتى يكمل رسوخه و بهذا تبين الوجه في العطف بهما ولا تحتاج الى ان الاتيان (بثم) لافادة التفاوت بين مراتب الواجبين حيث ان أحدهما مقصود لذاته وللآخر مقصود لكونه وسيلة كما ذهب اليه أبو السعود والقونوى لأنّ هذا لا يكون فائدة يستدعيها المقام بخلاف ما ذكرناه ثم ان كون السير واجبا لما ذكر هو ما عليه المحققون وان سبق قلم الزمخشري وتبعه القاضي البيضاوى الى ان الامر بالسير للاباحة والامر بالنظر للوجوب فقد قال غيرهم ان ذلك ينبو عنه المقام اما أوّلا فلانه اخراج للأمر عن حقيقته وأما ثانيا فلا وجه لذكر اباحة السير للتجارة وغيرها في سياق الافحام للجاحدين ثم يعطف عليه ما هو واجب ولا يتم الا بسابقه وأما ثالثا فقد تقرّر في الاصول ان ما لا يتم الواجب الا به يكون واجبا فكيف يكون النظر في آثار المكذبين واجبا بدون سير فان قيل انا لم نر في دواوين أصول الدين ان من واجبات الديانة السفر كما ذكر فالجواب ان معنى الوجوب معلق بما اذا لم يحصل الاعتبار المفضى للاعتقاد الا بالسفر لانه يؤدّى الى رؤية الآيات بالمشاهدة التى

لها

لها من التأثير ما ليس لغيرها أما اذا حصل الاعتقاد فلا داعى حينئذ لوجوب السفر وانما هو مباح ولهذا كانت الآيات المذكورة في سياق الحجاج للعاندين وكأن ما ذكر هو الذى أدّى بعض المفسرين للقول بان الامر للاباحة وقد ذكر الغزالى في الاحياء ان السفر تعتريه الاحكام الخمسة من الوجوب والندب والاباحة والكراهة والحرمة لانه من الوسائل فيأخذ حكم ما قصد به وابان ذلك بيانا شافيا واذا تقرّر ان السير واجب لاجل الاعتبار فنقول ان المعتبر به أشياء منها ما دلت عليه الآيات المذكورة من الاعتبار بعاقبة المكذبين للرسل ومنها ما دل عليه قوله تعالى ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم فان المسافر يرى من عجائب قدرة الخالق جل وعلا من اختلاف الطباع واختلاف الاشكال والهيئات واللغات والبشرة ما يقضى بوجوب وجود صانع ذلك المختار في أفعاله اذ لو كان الامر مستندا للطبيعة لجاءت الخلق على هيئة واحدة في جميع ما تقدّم مع انا نرى الاختلاف والتباين تارة مع قرب المناخ وتارة مع بعده مع ان الارض واحدة وعناصرها واحدة وأصل البشر واحد ومزيد البسط لهذا في كتب الكلام (ومنها) ما دل عليه قوله تعالى قل أنظروا ماذا في السموات والارض الآية فأمر تعالى بالاعتبار بما خلق من الاجرام العلوية وكيفية وضعها وحركاتها كما أمر تعالى بالاعتبار بما خلق في الارض من الجماد والنبات والحيوان وفي هاته الآية اجمل المنظور فيه وقد فصله في آيات كثيرة من كتابه العزيز للاستدلال على وجوده ووحدانيته فقال في سورة الرعد الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى (الآية) فذكر ان الاجرام العظيمة الهائلة قد بقى كل منها في مركز مخصوص من الجوّ وله حيز يمتاز به عن غيره من غير اضطراب ولا تلاطم وليس لكل منها ما يعتمد عليه من الاجرام المرئية مع ان اجرامها هي في نفسها مرئية على خلاف المعهود فلا بد أن يكون جميع ذلك لموجب أوجبه فان قيل ان موجبه هو وجود أعيانها وذواتها فهذا مردود لوجهين (الاوّل) ان الاجسام متساوية في تمام الماهية ولو وجب حصول جسم في حيز معين لوجب حصول كل جسم في ذلك الحيز (والثانى) ان الخلاء لا نهاية له والاحياز المعترضة في ذلك الخلاء الصرف غير المتناهية وهي باسرها متساوية ولو وجب حصول جسم معين في حيز لوجب حصوله في جميع الاحياز ضرورة ان الاحياز متساوية فثبت بهذا ان وجود الاجرام الفلكية في احيازها ليس هو لذاتها وانما هو لمدبر حكيم قادر خص كلا منها

بما شاء (ثم ان) كمال الاعتبار بترتيب تلك الاجرام العلوية وكيفية أوضاعها وأشكالها انما يتم على أكمل وجه بالسير فى الارض فما يرى منها فى جهة القطبين لا يرى من المناطق المعتدلة وكذلك ما يرى فى أحد نصفى الكرة لا يرى من النصف الآخر ثم قال تعالى عقب الآية السابقة وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون قال المفسرون انه تعالى لما قرر الدلائل العلوية أردفها بالدلائل الارضية بالاعتبار بذات الارض وما احتوت عليه من عجائب قدرة الخالق الحكيم القاضية بوجوب وجود صانعها فان حكماء المتأخرين الذين وصلوا بالمعارف والتحاليل والآلات الى مالم تبلغه فلاسفة الاقدمين حتى زيفوا لهم كثيرا من خرافاتهم وبينوا خطأهم فهؤلاء حذاقهم قد أقروا بانه لابد من خالق لما هو موجود اذ ما يعللون به كثيرا من الاشياء من قولهم الجاذبية والنواميس والطبيعية وغير ذلك قد صرحوا بانها عبارات اصطلاحية والا فحقائقها أمور مجهولة يلتزم متتبعها الاعتراف بالصانع فمن هؤلاء الحكيم المتبحر فيلكس لامروس وهو من مشاهير فحول علمائهم فى القرن التاسع عشر المسيحى حتى ان كتابه فى الجغرافية الطبيعية الموسوم بالدراسة الاولية عليه مدار تعاليمهم فى المدارس وأختير للتعريب ليعلم ويعمل به فى المدارس المصرية وقد صرح هذا فى كتابه المذكور فى بحث الجو وكرة الهواء بقوله واذا فرض زوال التثاقل العمومى من الهواء فانه يتشتت فى الفضاء الى أن قال لكن الحكمة الالاهية اقتضت الآن حفظ الاشياء وضبطها فى مواضعها الشاغلة هى لها بموجب قوة مجهولة ذاتها لا افعالها تسمى بالجذب وهى كلمة يعلم منها الفعل لا السبب اذ هذا الاخير مع كثرة بحث الطبيعيين عنه وتفتيشهم عليه لم يزل مجهولا الى الآن وعلى المتولع بدراسة العلوم ان لا يأخذ بظواهر مثل هاته الكلمات العلمية التى يوضح بها سبب أو أسباب طبيعية مجهولة لحادث من الحوادث فاذا قيل هنا مثلا ان الاجرام تزن أو تثقل لانها مجذوبة لغيرها أو انها جارية على مقتضى نواميس الجذب كان ذلك الدور المعيب (الخ كلامه) ثم ان الاعتبار باحوال الارض المشار اليها فى الآية الكريمة هى من جهات أولها هيئة الارض وهى كونها جرما عظيما حتى ان مقدار ما يصل اليه بصر الانسان منها يراه مبسوطا مع انها هى كرة قال العلامة الرازى انه لا ينازع فى كونها كرة الا من لا تدبر له (وقد) ألف الشيخ محمد بيرم الثالث قدس سره رسالة فى ذلك استدل على تكويرها بكلام الحكماء والفقهاء

وأهل

وأهل الباطن وها نحن نسرد هنا نبذة من ذلك مع اختصار وزيادة فاما كلام الحكماء فمنه ظهور اعالى الاشباح من بعد ومنه ارتفاع الشمس والكواكب فى جهات من الارض بخلاف جهات أخرى حسبما حرر ذلك بموازين أخذ الارتفاع وأما كلام الفقهاء فقد ذكروا فى كثير من المسائل انه لا عبرة لاختلاف المطالع فى الصوم فيجب على أهل المشرق برؤية أهل المغرب للهلال لان الوجوب معلق بشهود الشهر لطائفة من الناس بخلاف الامساك والفطر فانه يكون لكل أهل قطر بحسب ما عندهم لان الوجوب معلق بدخول الوقت للمكلف وذكروا فى الصلاة ان بعض الجهات تطول فيها الاوقات وبعضها تقصر حتى يفقد بعض الاوقات كالعشاء فى بعض الجهات الضاربة الى أقاصى أحد القطبين وذكروا فى المواريث اذا مات متوارثان فى يوم واحد وزمن واحد منه لكن أحدهما فى المشرق والآخر فى المغرب فان المغربى يرث المشرقى لما ان وقت المشرقى متقدم بالوجود على وقت المغربى كالزوال مثلا وأما كلام أهل الباطن فقد نقل عن سيدى عبد العزيز الدباغ رضى الله عنه ان ساعة الاجابة من يوم الجمعة الوارد فيها الحديث بانها من عند جلوس الامام على المنبر الى انقضاء الصلاة قال ان ذلك خاص بوقت صعود امام المدينة المنورة ولما كان ذلك الوقت لا يتحد فى جميع البلاد منّ الله بساعة النبى صلى الله عليه وسلم وجعلها تختلف باختلاف صعود الأئمة على المنابر من ذلك اليوم وجميع ما تقدم انما يتأتى على القول بان الارض كورية ولو كانت بسيطة لما تأتى شئ من ذلك اذ الشمس اذا ظهرت تظهر على الجميع فى آن واحد ومن كلام القطب سيدى أحمد بن عروس رضى الله عنه الصريح فيما نحن بصدده وهو من أنواع النظم المسمى بالملحون قوله

واديّنا مثلتها دلاعا ❀ تتكركب فى جلة أدلاع
ماذلقوها من طماعا ❀ ورماتهم فى بير مالو قاع

وهو صريح فى تكويرها ودورانها على ما سيأتى وليس فى القرآن ما يعارض ذلك اذ مساق الآيات لما يشاهد والمشاهد البسط فى نظر العين ولما كان خطاب التكليف بهاته الشريعة المطهرة عاما لجميع طبقات الناس كان خطابهم على اسلوب يقتدر به كل على التوصل الى قدر مدركاته هذا فى مسائل التكاليف العامة كالاستدلال على وجود الخالق وصحة الرسالة والعلم بدخول أوقات الصلاة والصوم واشباه ذلك اما ما يكتفى فيه بالاستغناء من الغير فقد خص الله به الفقهاء (فقال تعالى) فاسئلوا أهل الذكر

ان كنتم لا تعلمون وهذا أصل نافع يجرى فى كثير من الاشياء وقد بسطه الشاطبى فى موافقاته (وثانى) الجهات المشار اليها فى الآية الاستدلال بالجبال المعنون عنها بالرواسى فان عظم خلقتها واختلاف أوضاعها واختصاص كل بحد محدود قاض بوجود مدبر خصها بتلك الحالات ولو كانت بمجرد الطبيعة التى هى اسم بلا مسمى لتساوت فى جميع الحالات مع ان المشاهد هو اختلافها هذا بحسب الظاهر وأما اذا دق النظر فيما تختلف به مما تشتمل عليه من أنواع الصخور والتراب والطين والمعادن فذلك أمر يبهر العقول ويوقف الاذهان ومن أراد الاطلاع على أسرار ذلك فليراجع كتب الطبيعيات والكيمياء (وثالث) الجهات المشار اليها فى الآية الاعتبار بالانهر واختصاصها بأحوالها التى هى عليها مما يقتضى وجود مخصص لها والاغلب فى نظم القرآن قرآن الانهر بالجبال اشارة الى ان تكون الانهر بسبب الجبال اما من الثلوج المذابة منها أو من منابع العيون المنفجرة فيها وكأن سبب كثرة هاته المنابع فى الجبال هو ان الجبال من أسباب جذب الابخرة والامطار وعلى قدر تشرب سطح الارض المياه يكثر فى باطنها اجتماعها ففى الاراضى البسيطة تتصاعد تلك المياه بخرة لسهولة نفوذ البخار فى أجسام الارض المتخلخلة بخلاف الاراضى ذوات الجبال فانها بصلابتها تمنع نفوذ الماء بخارا كما تحميه من تأثير حرارة الشمس فلا يزال الماء يجتمع فى طبقات الجبال الى ان يتكون منه مقدار عظيم فينفذ بقوة لانه أعلى مما حوله من الارض فتتكون منه الينابيع والعيون وتسيل جداولا ونهيرات فاذا اجتمعت فى حوض تكون منها نهر و يعظم و يصغر بحسب ما يلتقى فيه من الانهر والينابيع (ورابع) الجهات المشار اليها فى الآية الاعتبار بما فى الارض من الثمرات وانها كلها مثل الحيوان ذكر وانثى وهذا التفسير البين المحمولة فيه الآية على حقيقة اللفظ من (قوله تعالى) ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين انما اطلعنا عليه من ترقى العلوم الطبيعية والفلاحية فقد تبين بالتجربة والمشاهدة وقرره جميع فلاسفة المتأخرين فى كتبهم ان جميع أنواع الثمرات بل حتى الزهور أيضا تشتمل على ذكر وانثى واذا افرد أحدهما عن الآخر لا تتولد الثمرة غير ان بعض الانواع تكون فيه الشجرة الواحدة مشتملة على البزر الذكر وعلى البزر الانثى وتتلاقح مع بعضها بالريح وهو المشار اليه (بقوله تعالى) وأرسلنا الرياح لواقح وبعض الانواع تكون فيه شجرة الذكر مفردة عن شجرة الانثى وهذا النوع الاخير كان معلوما منه سابقا بعض افراد كالنخل والتين لكن الآن قد تحقق ان جميع الانواع لا تثمر الا

بالتلاقح بين الذكر والانثى حتى اذا تتبع قطع أحد الصنفين من شجرة تشملهما وأبقى نور الآخر بحاله ولم يكن فى ذلك الموضع شجرة أخرى مثلها فان ما بقى فيها من النور لا يثمر وقد حرر ذلك وعلمت علامات الذكر وعلامات الانثى فى كل نوع بحسبه فسبحان القادر الحكيم الذى أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم حقا وصدقا باوضح المعجزات فقد أنبأ بهذا منذ أكثر من ثلاث عشرة مائة سنة عندما لم يكن هنالك حكيم يختلج هذا بفكره فضلا عن الامة الامية وهو أحدها لا يقرأ ولا يكتب فلا شك ان هذا انما هو بوحى من الخالق الذى يعلم ما خلق سبحانه وتعالى ولدقة هذا الامر وغرابته قد اعترف منصفوا أهل هذا العصر بان الحكمة قد فازت بها الامة العربية منذ بعث فيها رسولها واستندوا لما اشتمل عليه القرآن من بديع الحكم فان معرفة كون الريح تلقح الاشجار لم تعلم عند الحكماء الا فى آخر هذا القرن والقرآن الكريم ناطق بها ولهذا قال مستر اجنيرى (حرف ج ينطق به بين التاء والشين) الانكليزى معلم اللغة العربية فى مدرسة عامة الفنون فى بلد اكسفورد الكائنة جنوبى لندرة ان أصحاب الابل قد عرفوا ان الريح تلقح الاشجار والثمار قبل ان يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرنا أقول وكذلك كون الثمار تشتمل على الزوجين وما ذاك الا بتعليم الخالق لا بواسطات ولا تعلمات ولا تجربات وتحليلات كيماوية وبذلك يعلم حقية قول من قال ان القرآن لم يفسر على حقيقته وانما كانوا يبينونه على قدر ما تصل اليه العقول وعلى قدر الحاجة فى الاحكام وبما تقدم يظهر انه لا حاجة الى تأويلات المفسرين فى قوله تعالى ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين حيث حملوا الزوجية على معان أخر كاختلاف الطعوم والطبائع مما ينبو عنه التأكيد باثنين فان ما ذكروه لا ينحصر فى اثنين الا بالنظر للمقابل وحيث تبينت الحقيقة فلا داعى الى التأويل ويخالف ما قالوه من التأويل ويؤيد ما حررناه من الحمل على الحقيقة ان ما أولوا به لا يستقيم على نمط واحد فى آيات القرآن العظيم الواردة فى هذا المقصد كقوله تعالى فى سورة الحج وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج فان ما قالوه من اختلاف الطعوم أو الطبائع لا يطرد فى جميع ما تنبته الارض بل فيها المتوافق فى ذلك وان كان بحسب التشخص مختلف الانواع بخلاف ما قلناه فانه مع الحمل على الحقيقة هو مطرد أيضا (وبما تقدم) يعلم وجه طلب العلوم الرياضية على ما سيأتى فى محله ان شاء الله تعالى حيث ان التفسير المتقدم فى الجملة الشريفة انما تبين بها كما ان تمام الآية اشتمل على اشارة غريبة من ذلك القبيل وهو الجهة (الخامسة) من

جهات الاعتبار المشار اليها بقوله تعالى يغشى الليل النهار فقد تقدم انه تعالى بعد ان ذكر فى الآية السابقة الدلائل العلوية ذكر بعدها الدلائل الارضية ونسق فيها تعاقب الليل والنهار فجعله من الحوادث الارضية فقال المفسرون لظهوره فيها وان كان هو من متعلقات العلويات وهو الشمس واعلم ان مسئلة حركة الارض أى هل هى التى تدور أو ان الشمس هى التى تدور هى من المسائل الظنية أعنى ان أدلتها ظنية وكثير من مسائل علم الهيئة هو على هذا النحو الى الآن كمسائل الابعاد بين الكواكب ومقادير اجرامها وطبائعها وما تشتمل عليه وعلماء هذا الفن مقرون بذلك كما يأتى ويشهد له انهم كانوا مطبقين على ان بعد الزهراء من الشمس مقادير معلومة ففى سنة ١٢٩٣ كان اقتران الشمس بالزهراء يعنى ان الزهراء تمر حائلة بين الارض والشمس فاعتنوا لذلك من قبل وأرسلوا العارفين الى الجهات التى يمكن منها رؤية ذلك لتحرير الرصد بالآلات فحرروا ذلك ووجدوا ان جميع حسابات السابقين خطأ فان البعد الذى حرروه أقل مما كانوا يحسبون وكذلك مقدار جرم الزهراء ومن الجائز أيضا ظهور الغلط فى هذا التحرير فى وقت آخر وحيث كانت المسائل فى هذا الفن ظنية اختلف علماؤه فى أسباب وجود الليل والنهار واختلاف الفصول بالحر والبرد بعد الاجماع على ان ذلك من آثار تقابل الشمس والارض فقدماء الفلاسفة ذهبوا الى ان الارض هى التى تدور والذين بعدهم ذهبوا الى أن الارض مركز للفلك وبدوران الفلك يحدث الليل والنهار وان الشمس هى التى تدور معه ولها سير خاص بها يحدث منه الصيف والشتاء واشتهر هذا المذهب وزاد انتشارا عندما انتشر هذا العلم وتهذب فى الامة الاسلامية لما استفحل فيها العلم وكان ذلك المذهب هو المشتهر ممن أخذوا عنهم العلوم الرياضية ثم أحيى المذهب الاول وتأكد الآن عند علماء العصر بهذا الفن وانكره المنتسبون للعلم من المسلمين ظنا منهم ان المذهب الآخر هو من عقائد الاسلام أو ان المذهب الآخر مصادم للنصوص والحق ان ليس شئ من هذا ولا من ذلك هو مما يجب اعتقاده عندنا وانما المدار عندنا على الاعتبار بالآثار المشاهدة من الليل والنهار واشباه ذلك واثبات جريان للشمس وأما كيفيته فلا تعلق لها بالعقائد وسير الشمس ثابت على كلا المذهبين لان المتأخرين يثبتون لها حركة رحوية على نفسها وحركة ثانية على منطقة لها أيضا ثم حركة ثالثة لها مع جميع ما يتبعها من الكواكب حول شئ مجهول كما ان هاته الدورة مجهولة المستقر أيضا وكأنها هى المشار اليها بقوله (تعالى) والشمس تجرى لمستقر لها

ذلك تقدير العزيز العليم وذلك ان المستقر أوتى بلفظه منكرا للابهام فيفيد انه غير معلوم للخلق ولهذا أوتى به مضافا الى الشمس باللام فكان منكرا ولم يقل مستقرها بالاضافة المفيدة للتعريف لان ذلك المستقر غير معروف وعلماء هذا الفن الآن من غير المسلمين مقرون بذلك فهو (حينئذ) اجماعى بيننا وبينهم ثم ان كون حدوث الليل والنهار هو من آثار دوران الارض ربما كانت آيات عزيزة تشير اليه فمنها الآية المتقدمة فانه (تعالى) بعد ان ذكر الدلائل على وجوده من السماء ذكر الدلائل الارضية وخرط فيها الليل والنهار فيشير ذلك الى انهما من آثار الارض لان وجودهما وان كان يستلزم الشمس والارض معا لكن تخصيصه بالانخراط فى الدلائل الارضية يدل على تعلق خاص وهو كون دورانها هو السبب على ان منطوق الآية فيه تدعيم لهذا حيث قال يغشى الليل النهار فجعل الليل الذى هو ظلمة الارض يغشى به النهار الذى هو ضوء الشمس ففيه تلميح الى ان الارض هى التى تحدث ذلك بفعل الله ومن الآيات المشيرة الى ذلك أيضا (قوله تعالى) والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشيها فجعل النهار الذى هو مقابلة وجه الارض للشمس مجليا لها والليل الذى هو الظلمة الاصلية للارض مغشيا لها فاسند فاعلية ذلك لغير الشمس بل لفاعل آخر وهو الليل والنهار الذى هو من آثار الارض واذا كان هذا ثابتا فما يدل من الآيات على طلوع الشمس وغروبها وغير ذلك يمكن تأويله باعتبار الابصار والعرف الجارى فى اللسان (ثم اعلم) أنه لا يلزم من دوران الارض نفى السماء على ما يتوهمه غير العارف لان السموات لا شك فى وجودها للنصوص القطعية عليها غير ان جرمها غير معلوم لنا وانما نعتقد أنها اجرام شداد هى بالنسبة لكل من على الارض فوقه كما هو المفهوم اللغوى للفظ سماء وأما ماهية اجرامها فالله أعلم بها ونعتقد أنها سبع طبقات شداد ثم طبقة أخرى تسمى بالكرسى ثم طبقة أخرى تسمى بالعرش ولا يلزم من كونها شدادا ان لا تخترقها الكواكب بسيرها فان ذلك مشاهد لنا كما انه لا يلزم من سير الكواكب انعدامها حتى يقولون ان الكواكب ملقاة فى الفضاء لان ذلك متوقف على معرفة كنهها وهو فوق عقولنا لان العقول انما تتوصل الى المعهودات للحواس وما لا تعهده الحواس يعسر ادراكه على حقيقته ولهذا كان علينا ان نصدق الصادق ونكل معرفة ذلك الى خالقها فقد قال سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه عند قراءته (لقوله تعالى) وأكواب كانت قواريرا قواريرا من فضة ما معناه ان القوارير الزجاج الذى لا يحجب ما وراءه

والفضة اذا طرقت ما عساها ان تطرق لا تكون الا كثيفة فهاته الفضة هى نوع آخر لا نعلمه ونكل علمه الى الله بل الاغرب ان مثل هاته المسائل أقر بها الحكماء الذين لا يعتقدون الشرع فقد قال أحد حكماء الفرانسا وبين المتأخرين ما ترجمته ان للعقل حدا محدودا لا يتجاوزه كما ان للبصر حدا محدودا لا يتجاوزه فاتعاب العقل فى التوصل الى معرفة كنه الاجرام العلوية وماهيتها كاتعاب البصر فى ان يرى ما فوق السقف من أسفله فهب انك اعنته بأعظم المرايا المكبرة فانه لا يمكن ان يخترق السقف حتى يرى ما فوقه (اهـ) ويمكن لنا ان نقرب لاولئك المنكرين للسماء فهم وجودها على مقتضى علم الهيئة الذى هم عليه الآن بأنهم يسلمون وجود كرة الهواء محيطة بالارض وانها عظيمة شديدة حتى قرروا ان ذات الانسان المتوسط مضغوطة وحاملة لا كثر من ثلاثة وثلاثين ألف رطل من الهواء ومع ذلك فان هاته الكرة العظيمة الشديدة تخترق كيفما أراد المخترق لها فلم لا يجوز أن تخترق الكواكب السيارة السموات على هذا النحو ثم ان هاته الكرة الهوائية نهاية ارتفاع سطحها الاعلا عن سطح الارض نحو ستة عشر فرسخا وهى فى ذاتها تختلف طبقاتها وما فوقها ليس بخلو لانه لا يوجد فى الكون خلو مطلق كما هو رأى قدماء الفلاسفة ومتأخريهم كما قرره الحكيم لامروس فى كتابه السابق ذكره فلم لا يجوز أن يسمى الشئ المعمر لحد محدود من الفضاء بالسماء وما فوقه من حد آخر بسماء آخر وهكذا وان كنا نجهل حقائقها لكنا نقول انها لا تمنع من سير الكواكب فى مناطقها ومن ذلك الارض فالارض التى يقع بها الاعتبار بالاوجه المتقدمة لا يكمل مزيد الاعتبار بما فيها من اختلاف أقطارها حرا وبردا وثمارا وأنهارا وجبالا وسكانا الا بالسفر ومشاهدة عجائب خلق الله فيها

الفصل * الثانى

فيما ورد فى السفر من السنة روى السيوطى فى الجامع الصغير عن ابن السنى وأبى نعيم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه (عن النبى صلى الله عليه وسلم) أنه قال سافروا تصحوا وتغنموا فارشد الرسول صلى الله عليه وسلم الى ان فى السفر ثمرتين راجعتين الى الجسم زيادة على ما تقدم من الثمرات الروحية (الاولى) هى الصحة لما يشتمل عليه السفر من الرياضات البدنية اذ لا يخلو غالبا عن مشقة ولهذا رخص فيه من الرخص ما هو معلوم

فى

فى الفروع بقطع النظر عن العلة الباعثة عليه كما هو المذهب الحنفى واتعاب البدن يثمر صحته وأيضا الاستنشاق المسافر الهواء السليم الذى هو أنفع للجسم من الاكل والشرب لان الانسان لا غنى له عن التنفس فى كل لحظة بخلاف الاكل والشرب لامكان الصبر عليهما مدة ما (وبيان وجه احتياج الانسان الى الهواء فى كل لحظة للتنفس) هو ان الله قدر بحكمته تركب الجسم الانسانى على أبدع وجه وجعل سبب قوامه هو الدم المصفى من الغذاء فبعد هضم الغذاء فى المعدة يمتص صفوه فى قناتين توصلانه الى القلب بعد اجتماعهما فى قناة واحدة وهو اذ ذاك فى لون البياض وقبيل الوصول الى القلب يصب ذلك فى قناة دم الدورة الراجع الى القلب أيضا والقلب شكل صنوبرى منقسم داخله الى قسمين يمين وشمال وكل منهما منقسم الى قسم علوى وقسم سفلى وبينهما حاجز فيه منفذ يوصل بينهما له غطاء ينفتح وينطبق فالقناة المتقدمة تصب فى الطبقة العليا من القسم الايسر ومن هنالك ينفتح له الغطاء فيصب نقطة فى الطبقة السفلى ثم ينقبض الغطاء بسرعة ثم نقطة أخرى وهكذا وكلما انطبق الغطاء ضربت جميع الانباض التى فى البدن فحركتها تابعة لحركة الغطاء قوة وضعفا سرعة وبطأ ثم يخرج الدم من القسم الايسر السفلى فى عرق عظيم هو مجتمع عروق الانباض فيصعد الى أعلا ثم يتفرع منه فروع وهاتيك الفروع تتفرع منها فروع آخر أقل منها حجما وهكذا الى ان يعم جميع اجزاء البدن وهى عروق الانباض وكلما انتهى نبض الى حد يتلقى الدم منه عرق من عروق الشرايين التى لا تتحرك وهاته وظيفتها ارجاع الدم الى القلب فتمكن عند اتصالها بالانباض صغيرة الحجم ثم لا تزال تجتمع فتعظم الى ان تصير عرقا واحدا فيصب فى القسم الايمن من القلب الذى هو مقسوم أيضا مثل الايسر وحركته مثل حركته غير ان الدم يخرج من الطبقة السفلى منه فى عرقين يوصلانه الى الرئة ولا يخفى انه أى الدم اذ ذاك قد دار فى جميع البدن ونقص من أصل كميته بما ترشحه العروق الى اللحم والعظم وقد تغيرت عناصره فقل منه الاكسوجين وزاد فيه الحامض الفحمى حتى يتغير لونه فيصير مسودا بعد ان كان أحمر فلو بقى على حالته لضر بقاؤه فى البدن لكن حكمة الله تداركت هذا الملم بالالطف فجعلت الرئة تجذب الهواء الذى هو مركب فى حالة سلامته الاصلية من الازوت وهو أكثر اجزائه ولا يضر ولا ينفع الحيوان ذا الدم اذا كان مخلوطا مع بقية الاجزاء ومن الاكسوجين الذى هو الجزء النافع للحيوان ذى الدم وأقل منه كمية الحامض الفحمى الضار للحيوان المذكور ومن شئ يسير من الماء حالة كونه بخارا فاذا

دخل الهواء الرئة استرجع الدم منه الاكسوجين الذى فقده ودفع فيه ما عنده من الحامض الفحمى المضر ثم أخرجته الرئة بالتنفس وأخذت هواء آخر لما ورد اليها من الدم أيضا وهكذا فى كل لحظة وعندما يصفو الدم فى الرئة برجوعه الى اعتداله ينبعث منها فى عرق عظيم ويرجع الى القلب من الجهة اليسرى على نحو ما قدمناه وهكذا (فسبحان القادر الحكيم اللطيف) وبهذا البيان ظهر وجه احتياج الانسان للهواء أكثر من الغذاء واذا علم ذلك علم وجه كون السفر مثمرا للصحة لان الهواء فى الاماكن المسكونة يكثر فيها الجزء الحامض الفحمى المدفوع بتنفس السكان بخلاف الاماكن الغير المسكونة فان هواءها يكون أصفى وأنقى من غيرها والمسافر لا بد له من قطع مفاوز وبحارا فيستنشق ذلك الهواء الحسن فيصفى دمه ويصح بسببه بدنه كما قال (عليه الصلاة والسلام) وبما قررناه فى التنفس والهواء يعلم وجه كراهة النفخ على الماء والطعام شرعا لان الهواء المنفوخ به يكون حاملا لجزء كثير من الحامض الفحمى الذى هو مضر بالصحة واعلم ان ما قررناه فى حسن الهواء وسلامته للمسافر هو بالنظر الى الغالب الكثير فلا يعترض عليه بأن هناك اماكن خالية عن السكان ومع ذلك هى وخمة لما يعرض لها من تعفن أو غيره فلا يكون هواؤها سليما الا ان ذلك قليل والحكم على الغالب (وهكذا القول فى الغنيمة أى الربح المالى اذ شأن المسافر الاطلاع على أحوال التجارة والسعى فيها فيربح اذا سعى لها ولا يعترض بكون المسافر لا يربح اذا سافر لمقصد سياسى أو تنزهى أو بدنى أو غير ذلك اذ مدار حصول الشئ على السعى فى أسبابه

الفصل * الثالث

فيما ورد فى السفر من كلام الحكماء والادباء اعلم انه قد ورد فى مدح السفر كثير من كلام البلغاء والحكماء فلا نطيل بجلبه هنا ونقتصر على كلام الامام الشافعى رضى الله عنه حيث قال

تغرّب عن الاوطان فى طلب العلا * وسافر ففى الاسفار خمس فوائد
تفرّج هم واكتساب معيشة * وعلم وآداب وصحبة ماجد

فقد جمع من فوائد السفر ما تتشوق النفوس الى اكتسابه

الباب * الثانى

﴿ فى السفر لغير أرض الاسلام وفيه فصلان ﴾

الفصل * الاول

﴿ فى النصوص الدالة على الجواز ﴾

لا خفاء ان الاعمال بمقاصدها فاما أن يكون السفر لمقصد صحيح شرعا كمقصد مصلحة عامة أو مصلحة خاصة لا مندوحة عنها أو يكون لمجرد توسع فى المال وتنزه وعلى كلا الوجهين فالسفر جائز غير انه يختلف حكمه بالنسبة للمروءة وحفظها حتى تبقى العدالة أو لا تبقى بانعدام المروءة وها نحن ننقل ما اطلعنا عليه فى المسألة ففى الفتاوى البيرمية نقلا عن خط الشيخ محمد بيرم الرابع ما نصه سئل جدى رحمه الله عن ركوب البحر والذهاب لدار الحرب هل يسقطان العدالة أم لا فأجاب بما نصه أما نفس ركوب البحر فانه لا يمنع قبول الشهادة الا عند ظن الهلاك وأما الذهاب الى دار الكفر فينظر فيه للسبب الحامل عليه فان كان مصلحة اما عامة للمسلمين أو خاصة بالذاهب كما اذا كان به مرض عجز عن علاجه هنا فهذا لا بأس به ولا تسقط العدالة بسببه واذا كان لغرض التجارة والاستكثار من حطام الدنيا فهذا هو الذى تسقط به العدالة هذا ملخص ما فهم من كلام أصحابنا كما فى الوهبانية وشروحها والله تعالى أعلم انتهى وفى الفتاوى الهندية من كتاب السير بعد ان ذكر ان الرجل لا يخرج للجهاد الا اذا رضى أبواه أو من يقوم مقامهما على التفصيل المقرر هناك قال وان أراد الخروج للتجارة الى أرض العدو فكرها خروجه (أى الابوان) فاذا كان أميرا لا يخاف عليه منه أو كانوا قوما يوفون بالعهد يعرفون بذلك وله فى ذلك منفعة فلا بأس بان يعصاهما ثم ذكر مسائل تحوم على ان المدار فى الجواز وعدمه على غلبة الظن بالامن فاذا حصل ذلك جاز له السفر ولو بغير رضى الوالدين فتلخص مما تقدم ان السفر الى أرض غير المسلمين جائز كيفما كان المقصد على شرط الامن وانما يختلف الحكم بالنسبة للعدالة ولا يخفى ان العدالة مدارها على حفظ المروءة والتنزه عن الرذائل وسفاسف الامور فاذا كان يقتحم الاخطار من السفر المذكور لمجرد الزيادة فى التحسينات كالتنعم بالنظر أو بزيادة المال كان ذلك قادحا فى العدالة وان لم يكن محرما وأما اذا كان

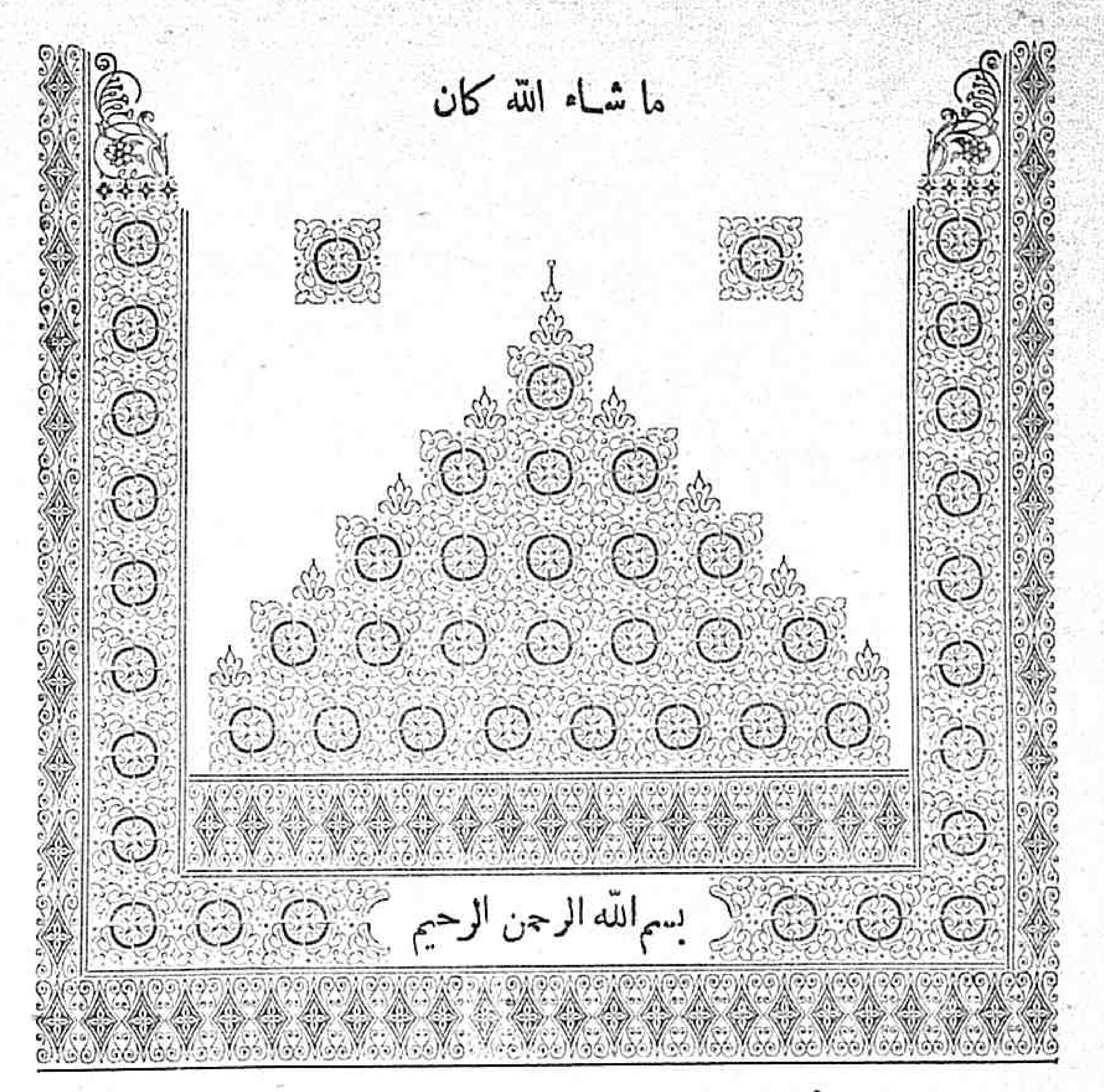
السفر المذكور لغرض صحيح ولو لتجارة محتاج اليها له خاصة أو له ولغيره فهو مع كونه مباحا لا يسقط العدالة أيضا بل له الاجر الاخروى اذا صحح النية وأخلصها التى هى أساس العبادة وقد علم مما مر ان شرط الجواز هو الامن وهذا الشرط لا يختص بأرض غير الاسلام بل هو شرط أيضا فى أى أرض كانت كما فى حواشى الشيخ ميارة على لامية الزقاق حيث قال أثناء الكلام على الامامة ما مفاده ان الانسان ان لم يستطع كف الظلم والمعاصى تجب عليه الهجرة فاذا كانت تجب الهجرة منها فكيف يجوز الاقدام على الدخول اليها والله تعالى يقول ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ثم ان الامن يعلم حصوله وعدمه من الباب الآتى اذ أهل الارض الآن مختلفوا الصفات والاحوال

الفصل * الثانى

فى تطبيق الحكم على سفر العبد الضعيف الى ممالك أوروبا سيعلم من المقصد الوجه الحامل لى على السفر الى ممالك أوروبا وهو اما التداوى بعد العجز عن علاج المرض فى بلادنا أو مصلحة أو ضرورة وكل الوجوه الثلاثة مما يسوغ السفر بلا سقوط العدالة واذا اعتبرنا ما حصل من ثمراته وأقله الحمل على جمع هاته الخلاصة فانى أرجو من كرم الله تعالى ان يعفو عن زلاتى ويعاملنى بمحض جوده وفضله سيما والبلاد التى قصدناها من بلاد الاجانب هى تامة الامن كما يعلم من الباب الآتى

القسم الثانى من الجزء الاول من صفوة الاعتبار

ما شاء الله كان



الباب * الثالث

في تقسيم أحوال أهل الارض الآن

وفيه سبعة وثمانون فصلا

اعلم ان الله جلت قدرته قد قسم الخلائق في هاته الارض وخالف بين عوائدهم واصطلاحاتهم ولغاتهم وان اتحد الجميع في أصول الاحتياجات كالطعام والملبس والوازع وقد قرب الجغرافيون سكان كرة الارض من اثنتي عشرة مائة مليون الى ثلاثة عشرة مائة مليون وقسموا الارض الى أقسام خمسة وهي (آسيا) و (أوروبا) و (أفريقيا) و (أمريكا) و (استراليا) وهي أقسام اعتباريه اذ الارض واحدة ومافيها متقارب متماثل

القسم

القسم الاول آسيا

اعلم ان القسم الاقدم عمرانا والاكثر سكانا والاشرف معنى لما حواه من كونه مصدرا للديانات الالهية ودارا للرسل (عليهم أفضل الصلاة والسلام) ومنبع سطوع النور العظيم الحاوي للذات الشريفة المحمدية (عليها أفضل الصلاة وأزكى التحية) هو قسم (آسيا) الشامل لمكة والمدينة والقدس وهو يحده شرقا خليج برنغ والمحيط الشرقي وجنوبا المحيط الهندي وخليج فارس والبحر الاحمر وغربا البحر الاحمر والبحر الابيض وبحر مرمرا والبحر الاسود ونهر دون وجبال أورال وشمالا المحيط الشمالي وهذا القسم يشتمل على عشرين مملكة

الفصل * الاول

في المملكة العثمانية

اعلم ان أعظم الممالك الاسلامية في هذا القسم هو المملكة العثمانية لاستيلائها على أغلب الممالك الاسلامية التي كانت تقسمت واتحادها تحت سلطنتها ولاشتمالها على الحرمين الشريفين ولان سلطانها هو صاحب الحرمين الشريفين ولامتدادها على ممالك وسيعة اسلامية في أفريقية كما ان لها في أوروبا ممالك واسعة فتألف من المجموع مملكة عظيمة تختها القسطنطينية وتسمى فاروقا لفرقها بين أرض آسيا وأرض أوروبا ولفرقها بين البحر الابيض والبحر الاسود فكان لها بهذا الموقع عظيم الاعتبار وسكان هاته القاعدة زهاء مليون ونصف وأقسام هاته المملكة هي الاناضولي وفيه آسيا الصغرى والشأم والعراق وديار بكر وأرمينية والجزيرة والحجاز واليمن ولها في أوروبا قسم الرومللي ولها فيه ولايات ممتازة وهي ايالة البلغار والروملي الشرقية وفيه جزائر البحر الابيض التي منها ماله امتياز كجزيرة كريد وسيواس ولها في أفريقيا ممالك أيضا وهي طرابلس ومصر وتونس وهاتان الاخيرتان لهما امتيازات خاصة في الادارة وتشتمل المملكة الآن في الاقسام الثلاثة من الارض على نحو اثنين وعشرين مليونا عدى الممالك التي لها امتيازات فاذا انضم ذلك كان الجميع يناهز الاربعين مليونا والذي يخص قسم آسيا فقط من السكان نحو ستة عشر مليونا وقد ابتدأ تأليف هاته المملكة من سنة ٦٩٩ تحت سلطنة السلطان عثمان في أرمينية ولا

زالت تعظم الى ان بلغت نهاية السطوة على جميع ممالك المعمور ثم ابتدأت الروسيا في حروبها وتداخلت الدول الاوروباويه تارة بالدفاع عنها وأخرى للربح منها ولازالت بين الدول لها اعتبار وحكومتها شوروية في الرسم لكنها الآن تحت الحكم العرفي ولم تزل سلاطينها يحضون على الامن في جميع انحاء المملكة وفي جميع انواع السكان الذين أغلبهم مسلمون وهم نحو ستة عشر مليونا وباقيهم أغلبهم نصارى على مذاهب شتى والباقي من ديانات مختلفة ولزيادة توطيد الامن واجراء العدل أسس المقدس السلطان عبد المجيد التنظيمات الخيريه في سنة ١٢٥٧ ثم أكدها ولده السلطان المعظم عبد الحميد بالقانون الاساسي الذي أصدره في سنة ١٢٩٣ وفقه الله لما يرضاه وبقية التفاصيل المتعلقة بهذه المملكة تأتي ان شاء الله تعالى في المقصد وقوتها المالية والحربية تأتي في آخر المقدمة في جدول قوات الدول بحول الله وارادته

الفصل * الثاني

﴿ المملكة الثانية هي مملكة فارس ﴾

وهي مملكة اسلامية قاعدتها ايران وعدد سكانها من الخمسة ملايين الى سبعة ما بين سنيه وشيعيه ولها تقدم في الحضارة وبعض رجال دولتها مهذبون لهم معارف كافية في السياسة ورئيس الدولة يلقب بالشاه وهو الآن الشاه ناصر الدين من آل البيت المطهر وقد التفت الى الاصلاحات التي يقتضيها الحال لما شاهده في أوروبا وغيرها عند أسفاره لها منذ استدعته الدولة النمساويه (في سنة ١٢٩٠) للحضور للعرض الذي فتحته فأجاب دعوتها كما أجاب السلطان عبد العزيز العثماني دعوة دولة فرانسا لمعرضها (في سنة ١٢٨٧) والشاه المشار اليه زار في سفرته المذكورة الدولة العلية فانه بعد ان وصل الى لندره على طريق الروسيا والمانيا رجع على طريق فرانسا ثم النمسا المدعو اليها ومن هنالك توجه للاستانة ولما علم السلطان بقصده لزيارته أرسل له باخرة جليلة سلطانية لركوبه وجفنين مدرعين يحفانه وأرسل له فيها وزير البحر فركب الشاه الباخرة من احدى فرض ايطاليا بعد زيارته لملكها فوصل الى جناق قلعة في يوم الاحد (٢٢) من جمادى الثانية (سنة ١٢٩٠) فأطلقت له المدافع من القلعة واصطفت له العساكر واقتبله هنالك الصدر رشيد باشا في باخرة سلطانية ومعه سفير الشاه في الاستانة والى جزائر البحر

الابيض

الابيض وفي يوم الاثنين لاقاه في بحر مرمرا سفراء الدول في بواخرهم الرسمية ووجوه تجار الفرس في ستة بواخر أخر ولاقاه هنالك أيضا فرقة من الاسطول العثماني فوصل في موكبه البهي الى الاستانة من يومه وأرسى قبالة قصر بكار بيك المعد لنزوله فأطلقت له المدافع وتوجه السلطان للقائه في الباخرة ورحب به وآنسه واستمر مليا والمترجم بينهما ميرزا حسين خان صدر دولة الشاه ثم نزلا معا الى القصر وأطلقت المدافع من جميع الاسطول العثماني ثم رجع السلطان الى قصره بباشكطاش ثم زاره الشاه بعد الاستراحه وآنسه وكان كل منهما متقلدا بنيشان صاحبه وزينت له سائر الدواوين الملكية ومنازل تجار الفرس وحصل له من العناية ما أكد له مزيد الالفة بين السلطنتين ثم عاد الى بلاده وأخذ في فتح الطرق للتقدم لكن السير فيها بطيء ثم عاد الى أوروبا سنة (١٢٩٥) لزيارة معرض باريس على وجه غير رسمي وزاد استبصارا فيما ينبغي اتخاذه وشرع في شيء من التنظيم سنة (١٢٩٦) تداركا لما يحيط به سياج الحفظ لامته ومملكته التي أخذت منها الروسيا قسما عظيما في أواسط القرن الحالي وهاته المملكة حكمها الآن استبدادي مطلق غير ان ما لا باعث عليه من الجزئيات يجري فيه الحكم الشرعي الاسلامي والغرباء لهم الامن من جهة الحكام اذا دخلوا المدن العظيمة منها وحلوا فيها ﴿أما غيرها﴾ فلا اطمئنان فيها الا اذا أخذ المسافر وصيات من رؤساء الحكام أو خفراء له ودخل هاته الدولة وخروجها يأتي ان شاء الله تعالى

الفصل * الثالث

﴿ المملكة الثالثة هي مملكة أفغانستان ﴾

وموقعها شرقي فارس وقاعدتها كابل وقد كانت هاته المملكة مقر المملكة الغزنوية ثم السلجوقيه ثم استقلت بولاية أحمد شاه في القرن الثاني عشر ثم دخلت تحت السابقة الذكر ثم استقلت في عشرة السبعين بعد الالف والمائتين باعانة الانكليز وسكانها نحو الستة ملايين وقيل ثمانية والاول أقرب اكثرهم أهل بادية وسكان جبال والديانة العامة هي الاسلامية السنية والحكم استبدادي مطلق ولا راحة تستقر فيها لكثرة الثورات وعدم انقياد القبائل ثم تعارض سياستي الروسيا والانكليز فيها حتى أفتر أميرها وحارب الانكليز فوقعت المملكة في قبضتهم وخذلته الروسيا حيث تم لها جل

قصدها من حرب سنة ١٢٩٤ بتسليم الانكليز لها ومن عادات هاته المملكة أن يكون نحو عشر السكان عساكر دفاعية عن الوطن وفيهم المشاة والخيالة وهم غير منتظمين ولا يبقون فى الخدمة العسكرية الانوبا والاهالى تقوم بهم فان كل مقاطعة أو ولاية عليها مقدار معلوم من العساكر بما يلزمهم ثم هم يقسمون اللوازم على ما يقتضيه الحال فأصحاب الاملاك يقودون بالخيالة وغيرهم يقومون بالمشاة ﴿وأما الطوبجية﴾ فنهم خيالة ومنهم مشاة وكلهم ملازمون للخدمة والدولة تقوم بهم وتجرى لهم مرتبات وحدث فى جندهم بعض تنظيم على النوع الجديد منذ مدة قريبة وتقدير دخلها مجهول

الفصل * الرابع

﴿المملكة الرابعة هى مملكة بلوجستان﴾

وتسمى سابقا بالسند أى داخلة فيه وموقعها جنوبى المملكة السابقة وعدد سكانها نحو المليونين وهم متفرقون تحت رؤساء شتى وأعظمهم الآن خان كيلات والديانة الغالبة هى الاسلام على مذهب أهل السنة لكن كأنها بالنظر للغالب اسم بلا مسمى حيث كانت الغارات مستمرة بينهم وسفك الدماء يفتخر به سيما فى الاقوام المشركين الذين بقوا فى الجبال فهم لا يبقون هناء للمسلمين وحيث كانت أراضى هاته المملكة رديئة وهواؤها ردىء وتجارتها قليلة لم يرغب فيها الانكليز ورضوا باستمالة رؤساء القبائل اليهم بعضهم بالارهاب وبعضهم بالارغاب وبما تقدم يعلم حال هاته المملكة

الفصل * الخامس

﴿المملكة الخامسة هى مملكة الهند الانكليزية﴾

وموقعها على شاطئ البحر المحيط الجنوبى الهندى وتتوغل فى داخل القارة الى جبال هملاى وهى محاذة للمملكتين الاخيرتين فى الذكر من شرقيهما وهى مملكة عظيمة جدا تشتمل على ما ينوف عن المائة والتسعين مليونا من النفوس منهم مسلمون نحو أربعين مليونا وازدادوا فى السنين الاخيرة نحو خمسة عشر مليونا بدخول الاهالى فى دين الاسلام طوعا عند وقوع المناظرات الآتى ذكرها والجميع تحت الاستيلاء الانكليزى غير ان بعضهم لهم استقلال فى ادارتهم الداخلية وهم عدة ملوك وأمراء وعدد هاته الممالك

الممتازة ثمانية عشرة مملكة وسبب استيلاء الانكليز على هاتيك الممالك الرحيبة على وجه الاجمال ان هاتيك الممالك كانت فى القرون الاخيرة انقسمت الى امارات وملوك طوائف يتناصرون على مدى الزمان سيما بعد ضعف المملكة الاسلامية هنالك عند انقراض دولة السلطان محمد شاه فى أواسط المائة الثامنة هجرية الموافقة للمائة الرابعة عشر مسيحية فمن ذلك الوقت تزايدت المناقشات بين ملوك تلك الاقطار وزاد انقسامهم الى طوائف صغار مع ان نفس أجسامهم وخلقتهم ليست بمستعدة للحروب والاتعاب لانهم أناس نحاف الاجسام فيميلون الى الراحة والتنعم بالملابس الرائقة والمآكل الخفيفة والاستكثار من المال والجوهرات لاسيما أهل الاقطار الجنوبية لحرارة أقاليمهم بقربها من خط الاستواء ولهذا من قديم كانت سلطة الافغانستان متوالية عليهم من غربيهم وشمالهم فداموا على تلك الحالات التى سئمت منها نفوسهم وضجروا أشد الضجر لما باينتها طباعهم وقد كان أهل البرتغال من الاوروباويين فتحوا السير على طريق رأس الرجاء الصالح من أوروبا الى الهند وتملكوا بعض مراكز فى تلك الجهات سنة (٩٠٣ ه و ١٤٩٧ م) ثم قادهم فى التجارة غيرهم من الاوروباويين حتى عقدت شركة انكليزيه للتجارة فى الهند وعينت أولا سفينتين عظيمتين شراعيتين ومحتويتين على قوات دفاعية للخوف مما عساه يطرأ عليهما من تحرى أهل تلك الاقطار الذين كانوا يجهلون تفصيل أحوالهم لبعد المسافة وطول الطريق الذى هو رأس الرجاء الصالح وكان هذا فى سنة (١٠٥٣ ه و ١٠٦٤٠ م) فنفقت التجارة الانكليزيه هنالك وكثرة خلطة الانكليز بالاهالى وتعرفوا أحوالهم بما سهل لهم التداخل فى سياستهم وتداخلوا فيها واليد لتلك الجمعية التجارية الى أن وقعت الحرب بين فرنسا وانكلترا فى سنة (١١٥٩ ه و ١٧٤٦ م) فحينئذ ابتدأ النفوذ السياسى وابطلت الشركة وتسلط الانكليز على بعض الشطوط الهندية مع النفوذ والوجاهة فى غيرها حتى ان بمباى أعطيت من الهنود مهر الكاترينه زوجة كارلوا الثانى ملك الانكليز فى عشرة الستين وسبعمائة وألف أى حدود سنة ١١٧٥ والممالك التى استولت عليها دولة الانكليز بدون واسطة الشركة التجارية هى الممالك المعروفة بحكومة الخلجان ومنها جزيرة سيلان التى هى فى الجنوب الغربى من الهند وسكانها نحو ٢٣٧٥٠٠٠ وكذلك جهات الخلجان فالجميع استولت عليها دولة الانكليز بلا واسطة ولهذا كانت ادارتها هنالك مخالفة لبقية ممالك الهند فلحكومة الخلجان ادارة منفردة تحت حاكم عام له

مجلس شورى ومجلس نواب للنظر فى مصالحهم وتأليف ما يصلح بهم من القوانين وأعضاؤهم كل ذى وظيفة فى تلك الحكومة من الاهالى وأعضاء أخر من الانكليزيين توظفهم الدولة ثم الرئيس العام هناك يرجع نظره لوزير المستعمرات لا لوزير الهند ويخاطبه بدون واسطة الحاكم العام فى الهند (وأما بقية) الممالك الاخر فقد أخذتها الدولة من الشركة المارّ ذكرها ولم تزل سلطة الانكليز تتقدم هناك حتى استولوا على بنغالة فى سنة (١٢٧١ هـ و١٨٥٧ م) وازدادت حينئذ السلطة تقويا ونفوذا وامتدّت فى تلك الممالك حتى دخلت فى حوزتها جميعها من غير كبير مشقة الى أن حدثت ثورة عامة شديدة هائلة من الاهالى وأوقعوا بالانكليزيين الذين هناك أشد وقعة فى سنة (١٢٧٤ هـ و١٨٥٧ م) حتى آيس الانكليز من تلك المملكة وأيقنوا بتقاص ظلهم منها لولا اغترار الافغانستان ومعاضدتهم للانكليز على قهر الهنود فقهروهم وقتلوا منهم خلائق لا تحصى ومثلوا بهم شر مثلة وعادت السلطة الانكليزية سلطة تامة ولم يحصل للافغانستان الا التسلط على سياسته ومملكته عالم يستقر معه قرار الى الآن ثم ان الانكليز لقبوا ملكة انكلترا بامبراطورية الهند فى سنة (١٢٩٣ هـ و١٨٧٦ م) وعقدوا له فى الهند موكبا حافلا لم يسمع بنظيره وحضره كل ملوك الهند الذين تحت ولاية الانكليز وحيث كان من العجائب بمكان رأينا أن نثبت هنا ما ذكره أحد مراسلى الصحف العربية فى شأن ذلك الموكب ونصه بينما الناس فى فترة واذا بالانكليز اخترعوا طريقة أنتجت جملة فوائدهم ولرعيتهم وهاك بيانها تفصيلا وهى تلقيب ملكة الانكليز بامبراطورة الهند فلهذا أجمعت جمعية عمومية من ملوك الهند ومن أمرائها فى بلدة دهلى التى كانت قبلا تخت ملك ملوك الهند فبعد ان حضر جميع هؤلاء الملوك والامراء وأهل الثروة العظمى ونصبوا خيامهم الفاخرة خارج البلدة كرت الناس من كل فج عميق الى دهلى ما بين متفرج وتابع وما بين تاجر وصانع وعامل الى أن غصت المدينة بالناس وصار المحل الذى أجرته عادة فى الشهر خمس روبيات مائة روبية والعجلة التى تكرى عادة بربع روبية بعشرة روبيات فكأن السماء أمطرت والارض أنبتت بنى آدم فان شارع دهلى عرضه أربعين مترا وكان المار فيه يخشى على نفسه من شدة الازدحام وجل هؤلاء الناس وصل الى دهلى بواسطة سكة الحديد فانها متشعبة فى جميع أقطار الهند كتشعب عروق الجسد وهذه الجمعية الكبرى تسمى بلغة أهل الهند بالدربار فجميع ما شاهدته فى هذا الدربار يعجز لسانى عن بيانه وقلمى عن حسابه

وانما

وانما أشرح لك فصلين (أحدهما) فى كيفية دخول حكمدار الهند الى دهلى وكيف استقبلته ملوك الهند وأمراؤها وكيف مشوا فى صحبته وانقادوا فى موكبه وخلف ركابه ﴿ والفصل الثانى ﴾ فى صورة الجلسة أى هيئة اجتماع الملوك وكيف ألقى عليهم خطاب امبراطورتهم وكيف تلقوه بالاحتفال والقبول ﴿ أما الفصل الاول ﴾ فهو انه فى السادس من ذى الحجة سنة ١٢٩٣ بعد الظهر بساعتين اصطفت العساكر الانكليزية البيض وهم فى أحسن الملابس وبغاية النظام فى الطول والاستواء من محطة سكة الحديد الى محل قيام الحكمدار وهو مسافة ثمانية أميال وارتصوا من طرفى السوق الكبير من الجانبين فبعد الساعة الثانية سمعنا صوت المدافع ايذانا بوصول الحكمدار وشرع أول الموكب فى المرور وكان أولهم فرقة من خيالة على خيل حمر بغاية الجسامة على لون واحد وسروج بلون واحد ولباس فرسانها بلون واحد وعددهم نحو الخمسمائة ثم تلتها فرقة أخرى خيالة نحو الخمسمائة على خيل بيض جسام كنظام ما قبلها ثم تبعتها فرقة أخرى خيالة نحو الخمسمائة على خيل شهب فى غاية الضخامة كنظام ما قبلها ثم أعقبتها سرية أخرى خيالة نحو الخمسمائة على خيل بلق كنظام ما قبلها ثم جملة أخرى على خيل شقر ثم أخرى على خيل صفر ثم وثم وثم الى أن مر نحو خمسة آلاف خيال جميعهم بغاية الأبهة ثم أقبلت الطوبجية ومعهم مائة مدفع خلف بعضها فى غاية الضخامة وحسن النظام وحسن الآلات والعدد مع كبر الخيل وحسن هيئتها ثم أقبلت سرية الفيلة وأولها فيل عجيب الشكل أظنه أعلا فيل فى أرض الهند ونابه بارزان عن شدقيه نحو ذراعين وعليهما أطواق من الذهب حلية له وعليه تخت جسيم جميعه من الفضة الخالصة ورخت طويل الى الارض مرصع وعلى ذلك التخت اللورد ليتون حكمدار الهند وهو رجل ضخم الجسم أحمر اللحية وكان على يساره زوجته وخلفه فيل مثله فى الحلية عليه بنتان صغيرتان وخلفهم نحو عشرة أفيال أقل من الفيل الاول فى الحلية وعليهم اتباع ذلك الحكمدار وخدامه ثم أقبلت أفيال أخر نحو العشرة وجميعها بالحلى الفاخر وعليهم حكمدار مدراس وأتباعه ثم جملة أفيال أخر نحو العشرة وعليهم حكمدار بمباى وأتباعه ثم سرب أفيال أخر نحو العشرة عليهم حكمدار لاهور ثم أفيال أخر عليهم حكمدار السند ثم فرقة أفيال أخر نحو العشرين وهى مركوب سلطان حيدر أباد وأتباعه ورخت الفيل الاول منها مرصع بالجواهر ثم فرقة أفيال أخر نحو العشرة عليها راجا جيت يورا ووزراؤه (وهكذا) اقبلت أفيال خلف أخر عليها

ملوك الهند والراجات وعددهم نحو التسعين وكانوا كلهم خلف الحكمدار بغاية
الوقار والرزانة والخضوع والتؤدة ويقال ان عدد الافيال فى ذلك الموكب نحو ألف
ومائتين فيل وليس فيها كلها أعلا من فيل الحكمدار (وهكذا) انتهى الموكب الذى
لم يسمع بمثله منذ نزل (آدم عليه السلام) على جبل سرنديب ولا أظن انه سيحصل مثله
وكان مبدأ مروره من الساعة الثانية افرنجية الى الساعة الرابعة واغلقات ان هذا
الموكب لم يسمع بمثله لانا ما سمعنا ان ملكا من ملوك الهند المتقدمين أطاعه جميع
النواب وجميع الراجات بدون توقف ولا مخالفة ولا توان أو أنهم مشوا خلفه فى موكبه
وتحت ركابه وهو جالس بالتعاظم على فيل أعلا من جميع أفيال الدنيا وجميع الملوك
ينقادون خلفه مع الادب والتؤدة واذا أمكن لاحد قياصرة أوروبا العظام وملوكها
الفخام أن يحشر اليوم عسكرا مثل هذا العسكر ومدافع مثل هاته المدافع فمن أين له ألف
ومائتا فيل تنقاد خلفه وعليها تسعون ملكا فوالله لو لم يكن للانكليز فى الشرق فخر
الا هذا الموكب لكفاهم (الفصل الثانى) فى صورة الجلسة أى كيفية اجتماع الملوك
وكيف ألقى عليهم الحكمدار خطاب امبراطورتهم وكيف تلقوه بالقبول والاحترام وكان
ذلك يوم ١٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٣ وهيئته نصف دائر جنوبى ونصف دائرة
شمالى وجميعه مسقف بالقماش وبين الشطرين طريق فاصل للمرور فالنصف الجنوبى
عليه ملوك الهند أرباب التيجان وهو عبارة عن دكة مرتفعة بدرجتين عرضها نحو أربعة
أذرع وطولها نحو مائة ذراع وعليها كراسى الملوك مصطفة بحسب رتبتهم والنصف
الشمالى هو قسمان بينهما طريق فاصل وارتفاع الربعين نحو أربعة أذرع وله
درجات للجلوس وفى وسط الدائرة دكة مرتفعة نحو أربعة أذرع مساحتها خمسة فى خمسة
ولها مرقاة للصعود عليها فهذه الدكة الوسطى جلس عليها حكمدار الهند ووجهه الى
جهة الجنوب جهة الملوك والربع الذى عن يمينه جلس عليه الانكليز المتفرجون
أرباب المناصب والربع الذى على يساره جلس عليه أعيان أهل الهند وأمراؤها غير
أرباب التيجان وهم المدعوون للحضور وقطر هذه الدائرة نحو مائة ذراع وحولها دائرة
أخرى كبيرة خالية عن الناس لها حاجز من درابزين خشب فاصل بين المتفرجين العوام
وبين مجلس الامراء والمسافة بين الدائرة الداخلة والدائرة الخارجة نحو مائة ذراع ومن
حول الدائرة الخارجة عسكر الانكليز نظاما وخيالة مرتصين فى ذلك الفضاء وعددهم
بالتقريب نحو العشرين ألفا وأكثرهم من الانكليز البيض ومسافة ما بين المجلس

وما

وما بين دهلى ستة أميال فى صحراء واسعة بقرب جبل صغير يسمى جبل الفتح فان الانكليز
فتحوا دهلى من هذا الجبل سنة ١٢٧٤ ثم اجتمع الناس المتفرجون من كل فج عميق
ما بين ماش وراكب حتى ملؤوا ذلك الفضاء فصار من بيده تذكرة العزيمة يدخل
فى الدائرة الداخلية ومن ليس بيده تذكرة يقف خارج الدرابزين الخشب ففى الساعة
الثانية عشرة أقبل حكمدار الهند وهو لابس من فوق السترة والبنطلون جبة واسعة
الاكمام وطويلة الذيل وهى أشبه بالفرجية التى تلبسها كبار العلماء بمصر ولونها
رمادى وجميع أطرافها مطرزة بالذهب ومع الحكمدار زوجته ومن خلفه ابن السلطان
لكهنؤ وابن أخى سلطان نيبال فى صورة خادمين فلما صعد على درج التخت رفع
الغلامان أذيال جبته عن التراب الى أن استقر فوق التخت فأجلساهما على كرسيين
صغيرين خلفه وجلس هو على كرسى مذهب وزوجته على يساره ثم أخرج الحكمدار
من جيبه ورقتين أعطاهما لرجل انكليزى جهورى الصوت فقرأ الاولى وهى باللغة
الانكليزيه ومضمونها ان الملكة لقبت بامبراطورية الهند وان جميع الامم ارتضوا
بذلك ثم قرأ الورقة الثانية وهى باللغة الهنديه ومضمونها مثل الاولى فعند ختامها قام
جميع ملوك الهند وصاحوا بارك الله لها فى هذا اللقب ونحن أيضا جميعا راضون بذلك
فأطلقت المدافع من طرف عساكر الانكليز ومن طرف ملوك الهند واشتغلت آلات
الموسيقى بأحسن الالحان وانفض المجلس فى الساعة الواحدة فكانت مدة جلوس
الملوك نحو ساعة ومدة جلوس الحكمدار وقراءة الورقة نحو ربع ساعة ثم نورت جميع
البلدة ليلتين جرى فيهما من ألعاب البارود ما يعجز عن تصوره وكيفية وصول ملوك الهند
الى الدربار ان كل ملك قدم بعساكره من أبناء جنسه وبمدافعه فلما وصلوا الى محل
الجلوس دخلت الملوك وجلسوا على كراسيهم تجاه الحكمدار ووقفت عساكرهم
وأفيالهم خارج الدائرة وعددهم نحو التسعين ملكا وهم مرتبون بحسب العدد
(وهكذا) المدافع التى كانت تقابلهم بالسلام عند قدومهم أعنى انه عند قدوم ملك
حيدر اباد على قلاع الانكليز أطلقوا له واحدا وعشرين مدفعا ولراجا بروده كذلك
ومثلها لراجا جيتمور وتسعة عشر لراجا كشمير وثلاثة عشر لنواب رامبور وغالب على
خان لان رتبته بالنسبة لاقرانه هى العدد الثانى والخمسون (وهكذا) يتقهقر العدد
فى مدافعهم الى آخرهم وهم نواب دجانة اذ لم يطلق له سوى ستة مدافع فكانت كثرة
الاطلاق باعتبار كبر دولتهم وكثرة ايرادهم واتساع دائرتهم بالحرية والتصرف المطلق

وأكثر ملوك الهند من الوثنيين أما المسلمون فهم خمسة عشر ملكا ثم ان الانكليز
استفادوا من هذا الدربار ثلاث فوائد (احداها) انهم جعلوا أهل الهند وملوكها
رعية لهم برضاهم واختيارهم لا بالسيف وطريق التغلب كما مر في الازمان السابقة
(الفائدة الثانية) انهم جمعوهم ليختبروا حالهم من جهة المال والقوة العسكريه وهل
عندهم أسلحة جديدة يخشى بأسها أولا فوجدوهم على الحالة الهمجية القديمة
في الاسلحة وآلات الحرب حتى ان بعضهم كان لعساكرهم البنادق والفتيلي أي المشادلي
وبعضهم يحمل القوس والنشاب والرمح وبعضهم يلبسون الدروع والخود على العادة
الجاهلية فاطلعوا على قوتهم وعرفوا انهم ماداموا يجهلون الاسلحة الاوروباوية
فلا يمكن للخناس الذي وسوس للصرب ان يوسوس لهم (الفائدة الثالثة) ان تجار
الانكليز ربحوا من هذا الدربار عشرة ملايين ليره لما حصل عنه من رواج التجارة
ونفاق السلع حتى فاق على معرض باريس في زمن نابليون حيث جلب اليه من كل
غريبة ونادرة وعجيبة فان عدد تذاكر سكة الحديد التي بيعت الى السفر الى دهلي بلغت
نحو مليوني تذكرة وبعض الوفود رحل من محل بعيد عن دهلي مثل أهل كلكته
وأهل مدراس وأهل السند وأهل بمباي وأهل بشاور وكان بعضهم يركب في الدرجه
(الاولى) وبعضهم (في الثانية) وبعضهم (في الثالثة) فالدرجة (الاولى) أجرتها نحو
(عشرين) جنيها والدرجة (الثانية) أجرتها نحو (عشرة) جنيهات والدرجة (الثالثة)
نحو (ثلاثة) فاذا ضربت القليل في الكثير والقريب في البعيد كان المدفوع من
كل واحد جنيهين في الاقل وفي رجوعه الى بلده أيضا جنيهين فيكون جملة المدفوع من
مليوني نفس ثمانية ملايين ليره وجميع ملوك الهند حضروا ذلك الدربار امتثالا لاوامر
الحكمدار ما عدى ملكة تنجاور فانها اعتذرت بانها في حالة الولادة ونواب وامير
وغالب علي خان فانه تعلل بأنه مريض بداء البرص وانه لا يمكنه الحضور في مجمع الملوك
لئلا تنفر طباعهم منه (انتهى) ثم زار تلك الممالك ولي عهد مملكة انكلترا واحتفلوا به
وهادوه بهدايا نفيسه ملوكية يأتي الكلام عليها في الكلام على معرض باريس من
المقصد ثم ان استيلاء انكلترا كما تقدم كان شيئا فشيئا فبعض الملوك والامراء سلموا اليه
السيادة وابقاهم على ولايتهم عند قصده لهم بالحرب وأبقى لهم ما يكون من المال
والمجوهرات في خاصة ذاتهم وبعض التصرفات والتصرف الحقيقي بيد الانكليز سواء
كان في الادارة المالية أو السياسة (وأما العسكرية فلكل عساكر تحت أمره وكثيرا ما تأتي

العساكر

العساكر الانكليزية لارهاب الولاة والملوك واخضاعهم فالتصرف حقيقة للانكليز
لكن للملوك الأبهة والاسم بحيث ان التصرفات تنسب اليهم بالاسم كما ان بعضا من
الملوك والامراء طلب الدخول لما رأى العواقب آيلة اليه فلذلك لم تزل الى الآن
ممالك مستقلة بارادتها تحت ولايته فمنها ما يؤدي لهم خراجا ومنها ما يأخذ الملك وحكومته
مقدار ما يكفي لقيام مصالحهم وما بقي يرجع الى حكومة الهند العامة وتصرفهم على نحو
ما سبق وقد قسم الانكليز تلك الممالك الهندية عدى حكومة الخلجان المتقدمة الى
(ثلاثة) أقسام كبيرة فالقسم (الاول) مملكة بنغالة وقاعدتها كلكوته وهي مقر
الحاكم العام ويتبع هذا القسم من الممالك الممتازة بالادارة (احدى عشرة مملكة
فأولها) مملكة نيزام وهي واقعة في وسط أرض دكين بين مملكة بمباي من غربها وبين
مملكة مدراس من شرقيها وتخت هاته المملكة مدينة حيدر أباد التي سكانها نحو
أربعمائة ألف نفس والانكليز ساكنون في بلدة صغيرة من غربها تسمى سكندر أباد
وبهاته المملكة بلد تسمى أهور بها معابد عجيبة تحت الارض دالة على مهارة مهندسي
ذلك العصر عندهم وسكان هاته المملكة نحو عشرة ملايين وملكها من الهنود وله
زيادة استقلال في ادارته على ما للممالك التابعة للانكليز ويؤدي لهم خراجا معينا سنويا
وهي مملكة اسلامية (وثانيها) بوندلكند وبها عدة خانات كل خان يحكم على
قبائل وجهات خاصة وعدد سكان هاته المملكة الموزعة على الخانات نحو ستة ملايين
ولكل خان مركز هو تخت حكومته (وثالثها) مملكة بوبول ولها ملك أيضا وسكانها نحو
ستمائة ألف وسبعين ألفا وتختها بوبول (ورابعها) مملكة شنديا ولها ملك أيضا وسكانها
نحو مليونين ونصف وفي هاته المملكة بلدة أوجين التي تعتبرها الهنود مبدأ خط الطول
وتختها كواليور (وخامسها) مملكة هلكار ولها ملك أيضا وسكانها نحو ستمائة
ألف وتختها هندور وهاته الممالك الاربعة الاخيرة في الذكر كانت هي مملكة
المهرجات سابقا (وسادسها) مملكة راجابوتان ولها ملك وسكانها نحو سبعة ملايين
وتختها أوديبور (وسابعها) مملكة بهوبال ولها سلطانة اسلامية بالوراثة للملك من
آبائها وزوجها مباشر للتصرفات بالنيابة عنها وهو رجل عالم كما ذكرنا في غير هذا
المحل وسكانها نحو ستمائة ألف وتختها بهوبال (وثامنها) مملكة لادرك ولها أمير
وسكانها نحو مائة ألف وسبعين ألفا من الانفس وتختها لادرك (وتاسعها) مملكة
بدستان ولها ملك له زيادة امتياز في الادارة وسكانها من المسلمين وقاعدتها على نهر

السند تسمى اسكردو وتسمى هاته المملكة أيضا به لادالبلتسى (وعاشرها) مملكة كاو ودوهى صغيرة وعدد سكانها قليل ولها أمير (وحادى عشرها) مملكة سيرمور مثل المتقدمة عليها وتختها نحمين (والقسم الثانى) من الاقسام الكبرى هو ممالك بونباى ويتبعه من الممالك الممتازة خمس ممالك (فأولها) مملكة كاش وتختها بوهج (وثانيها) مملكة كانبى وتختها كانباى (وثالثها) مملكة اكوى كووا وسكانها نحو مليون وثمانمائة ألف نسمة وتختها بارودة (ورابعها) مملكة ساوندوارى وتختها ساوندوارى (وخامسها) مملكة كولابور وتختها مدينة كولابور (والقسم الثالث) من الاقسام الكبرى هو ممالك مدراس ويتبعه من الممالك الممتازة اثنان (فأولها) ميسورا وتختها ميسورا وسكانها نحو ثلاثة ملايين (وثانيها) مملكة ترافانكور وعدد سكان هاته المملكة مليون وثلاثمائة ألف نسمة وتختها بلدا يزيفان ديرام ولكل حاكم مستقل بامتياز فى الادارة على نحو ما تقدم ذكره فما تقدم هى الاقسام الكبرى التى لكل منها أقسام صغرى تحتها وممالك ممتازة ترجع اليها كما انه يوجد أربعة أقسام صغرى ليست داخلة تحت الاقسام الاولى وانما لها ادارة منفردة تحت نظر الحاكم العام الانكليزى وهى أقسام أربعة داخلة بتاتحت الانكليز وادارتها بيدهم مثل الاقسام الكبرى وهاته الاربعة أقسام (أولها) المسماة بولاية الشمال الغربى (وثانيها) المسماة اود (وثالثها) المسماة بنجاب (ورابعها) المسماة بالولاية الوسطى كما تتبع ممالك الهند الانكليزى مملكة كشمير لكنها لما كان لها زيادة امتياز ذكرناها منفردة وسيأتى الكلام عليها والممالك الممتازة ان كانت اسلامية فرئيسها يلقب بنائب لانهم فى السابق كانوا نوابا لسلطان المسلمين الذى تختة بالدهلى وان كانت الممالك غير اسلامية فرئيسها يلقب براجا هذا (وأما كيفية الادارة السياسية والعسكرية فى جميع الممالك الهندية فان جميع الاقسام ترجع الى حاكم عام انكليزى يرتبط مع دولة انكلترا بواسطة وزارة الهند فى لوندره ثم هو فى نفسه قد وظفته دولته بهذا الاسم فى (سنة ١٢٧٥) هـ و (١٨٥٨) ورتبت للهند قانونا خاصا فمن مهمات كلياته أن الحاكم العام له النظر العمومى على أقسام المملكة كلها وما يتبعها وتصرفه مقيد بمجلس شورى مركب من أعيان الانكليز المقيمين فى الهند ومن أحد كبراء الاهالى وهذا المجلس والرئيس عليه الذى هو الحاكم العام تحت احتساب مجلس الندوة فى لندرة ومسؤل له والواسطة بين الدولة والحاكم العام هو وزير الهند

فى

فى لندره وله فى الوزارة مجلس عدد أعضائه خمسة عشر وكاتبان ومن حقوق مجلس الهند المذكور انشاء القوانين العامة فى الهند وتنظيم الادارة السياسية والعسكرية وانشاء الاحكام العامة وما ينشيه هذا المجلس اذا وافق عليه مجلس الندوة فى لندره يصير معمولا به فى ممالك الهند ثم لكل من الاقسام الثلاثة الكبرى المذكورة حاكم خاص ومجلس شورى مركب من أعيان الاهالى وأعيان الانكليز تحت رئاسة الحاكم ومن وظائف هاته المجالس انشاء قوانين الاحكام الخاصة بقسمهم وعرضها على الحاكم العام وبعد نظره هو ومجلسه فيها والتصديق عليها يرفعها الى الندوة بلندره كما تقدم كما ان للمجالس الثلاثة المذكورة الاحتساب على سيرة الحكام فى قسمهم والنظر على الضابطة المكلفة بالامور السياسية والاحوال العرفية ولهم النظر على الملوك والامراء الراجعين الى قسمهم كما ان لحكام هاته الاقسام المقيد تصرفهم بالمجالس قوة على التنفيذ بواسطة القوة العسكرية ثم لكل قسم ولايات فرعية ومنها الممالك والامارات المستقلة وكل من هاته الولايات لها مجالس ادارة تحت رئاسة الوالى أو الامير أو الملك ويتصرف بمشاركة نظر المجلس فى الادارة السياسية والمالية والعسكرية والموظفون يكونون بحسب أهالى الولاية اما من مسلمين فقط أو هنديين فقط أو مختلطين والتصرفات الصادرة من هؤلاء سواء كانت حكمية أو سياسية أو مالية يمكن رفعها لمجلس القسم الراجعة الولاية اليه وله تحقيق النظر فى النازلة على قواعد عندهم فى ذلك وهكذا الاحكام الشخصية فى كل ولاية لها مجالس وقوانين يتصرفون بمقتضاها وهاته القوانين قواعدها الكلية هى قواعد أحكام الانكليز غير ان لكل ولاية قوانين خاصة مطابقة للعوائد والعرف المتعارف فيها أما ما يرجع الى الزواج والارث والملك فان الاهالى تجرى عليهم أحكام دياناتهم بواسطة مجالس من أهل الديانة ويمكن رفع أحكامهم الى مجلس الولاية ومنه الى غيره الى ان ينتهى الى المجلس العام والديانات التى لها موظفون هناك من الدولة هى الديانة الاسلامية والبرهمية وما أشبههما من الديانات المجوسية والوثنية ولهم خرافات مبسوطة فى كتب الكلام والسكان الآن مختلطون من عرب وفرس وأوروباويين وهنود أصليين والمعارف عندهم الآن فى تقدم سيما العلوم الكيماوية والحكمية لفتح الانكليز هناك المدارس مشتملة على ما فى أوروبا من المعارف واقتدت بهم الاهالى حتى ضعفت تجارة الانكليز بما ينتج من مصنوعات البلاد والعلوم الاسلامية نافقة السوق ولها فحول مؤلفون منهم سلطان بهوبال الذى طبع الآن

من تأليفه فى مطبعته ومطابع الممالك العثمانية كثير من تآليفه فمنها تفسير للقرآن سماه فتح البيان فى مقاصد القرآن نحا فيه التوسط بين المنقول والمعقول ومنها المحصول فى علم الاصول ومنها القطة العجلان فيما تمس الى معرفته حاجة الانسان وهو كتاب بديع فيه تحرير كثير من المسائل الاصولية والكلامية والفرعية وله عدة تآليف أخرى وهذا العالم الملك هو من نوادر هذا العصر فانه مع اشتغاله بمهام السياسة التى تقلدها بالنيابة عن زوجته سلطانة تلك المملكة قد تبحر فى الفنون العلمية سيما الشرعية وآلاتها وفصاحته فى نسج تآليفه يحمده عليها أهل اللغة العربية وعلى الخصوص فى هذا الزمن الذى كادت أن تتلاشى فيه اللغة والعلوم من الامة الاسلامية ومن فحول علمائهم فى هذا العصر الشيخ العلامة رحمة الله صاحب تأليف اظهار الحق الذى ألفه بسبب مجادلات دينية فتح بابها قسيسو البروتستانت راغبين دعوة أهل الهند المسلمين الى ديانتهم فأفضى الحال الى مناظرتهم مع الشيخ المذكور وآل الحال الى مناظرتهم بالتآليف فأفحمهم بتأليفه المذكور مستندا فى الرد الى كتبهم وأقوال علمائهم بما ينبئ عن اتساع باعه واطلاعه وهذا التأليف قد ترجم الى الفرنساوية وغيرها من اللغات وهو بديع فى بابه وقد صار الآن عزيز الوجود مع انه طبع مرتين وشاعت منه آلاف من النسخ وفى هاته المملكة علماء آخرين (ولله الحمد) كما ان لاهلها تقدما فى الحذق والصناعات سيما النقش والترصيع فى الخشب والعاج من قديم الزمان ومنسوجاتها وطرازها شائعة فى أغلب الاقطار كما ان أهلها هم الذين اخترعوا الارقام الحسابية ولذلك تسمى بالارقام الهندية الى الآن وهو اختراع عجيب شمل جميع الاعداد فى تسعة أشكال ويكفى للدلالة على ما كان عندهم من الحذق فى الصنائع المعابد التى فى جزيرتى الفيلة وسالسيت الكائنتين قرب بنباى فان تلك المعابد منحوتة فى الصخر نحتا عجيبا فى الصناعة والاتقان كما انه فى ايالة بيجابور فى نحات مدينة فيزيابور التى كانت تخت الملك المسلمين هناك وفيها بناآت بديعة والآن خربت وهاته المملكة لما كانت متسعة جدا فهواؤها مختلف ولكن تغلب أمراض تقل فى غيرها وتشتمل على أغلب النباتات المعروفة فى غيرها ولها نباتات تختص بها كالقمارى وجوز الطيب وغيرها وقد امتدت فيها الآن طرق الحديد تخترقها فى أغلب الجهات كما ان المواصلات فى انهرها العظيمة متوفرة بالسفن كما ان الطريق الحديدى اخترق أهم جهاتها ودونك أهم ما وصل اليه فمنه فرع من كالكوته الى دكة ومنها الى ميرزابول ومنها أيضا الى دهلى ومنه الى ابادالى

المملكه

بنباى ومنها الى كوراتشى ومنها أيضا الى مدراس ومن هاته الى بيبول ومنها الى نيغاباتام ومن مدراس الى كالكوته ومن كوراتشى الى حيدر أباد ومن ملتان الى لاهور ومنها الى بيشاور ولازالوا يمدونها فى أغلب الجهات حتى قربت الى حدود الافغانستان ويمكن ان تصل الى الصين والممالك العثمانية اذ التفكر فى ذلك مستمر بحيث ان السفر الآن فى الهند مع الامن فى غاية السهولة والمواصلة بالطرق الحديدية والعادية والانهر والترع كما ان السلك الكهربائى واصل بعضها ببعض كما وصلها بأوروبا بحيث ان انكلترا تصل لها الاخبار من الهند على ثلاثة طرق (فأولها) من الهند الى خليج فارس الى الممالك العثمانية الى بقية أوروبا (والثانى) من لندره الى جبل طارق الى مالطه الى السويس الى عدن الى الهند (والثالث) من لندره الى فرنسا الى الجزائر الى مالطه الى البقية مما تقدم ولا يبعد أنه يصل أيضا على طريق رأس الرجاء الصالح فانه وصل من لندره الى هناك ومنه الى زنجبار فلم يبق الا منها الى الهند ومن اخشابها المنفردة بها عود القمارى وأما قوة هاته المملكة الحربية والمالية فستأتى ان شاء الله فى جدول الدول

الفصل * السادس

﴿ المملكة السادسة ﴾

هى مملكة بورما وهى الى الشمال الشرقى من المملكة السابقة وعدد أهلها نحو ثلاثة ملايين ونصف وديانتهم بوذية مشركون وحكمهم استبدادى مطلق وهم أهل مكر وخديعة وليس لهم ولوع الا بعلم النجوم والارصاد والسحر وأكثرهم يعلم القراءة والكتابة ولاراضيهم نتج حسنة وتجارة واسعة مع مجاوريهم من الهند والصين وقاعدة المملكة مدينة أفاقى القديمة والآن مدينة مندلاى والداخل اليهم يكون فى قبضة البخت من حكامهم وان كان الانكليز فى هاته الازمنة مرشدة اليهم بعد ان أخذت منهم قسما فى سنة ١٨٢٥ وقد صارت تأمرهم بالعدل حتى أنكرت على ملكهم فى سنة ١٢٩٦ قتله لثمانين نفسا من الرجال والنساء والاطفال شر قتلة وهم من عائلات الملك وكادت ان تعقد معه حرب لاجل استتباب الامن جوار الهند ودخل هاته الدولة وخروجها مجهول وقوتها من النوع الهمجى وكأنها الا تلبث أن تدخل فى حكم الانكليز

الفصل * السابع

﴿ المملكة السابعة ﴾

مملكة سيام أوصيام وهى جنوبى المملكة السابقة وشرقى بقية المملكة الهندية الانكليزية وعدد أهلها مع ما يتبعها فى جزيرة مالقا وغيرها نحو ستة ملايين ونصف وديانتهم وحكمهم مثل المملكة السابقة ومعارفهم أقل من سابقيهم لكنهم يوصفون بالامانة وتجارتهم من معادن بلادهم الغنية مع الهند والصين والاوروباويين وقاعدة المملكة صيام فى القديم والآن مدينة بانجوك والدخل والخروج والقوّة كلها مجهولة وهى فى القوّة على غير نظام

الفصل * الثامن

﴿ المملكة الثامنة ﴾

هى مملكة كوشين الصين أوانام وهى شرقى المملكة السابقة وعدد أهلها قبل استيلاء الفرانسيس على قسم منها بين اثنى عشر مليونا الى ستة عشر مليونا لكنها الآن نحو تسعة ملايين وقاعدتها مدينة اووى وبلسان الهنود فوشواش وقيل وهو الاصل مدينة هو يفو وهى مربعة الشكل يحيط بها نهر هو من جانبين وترعة من الجانبين الآخرين عرض هذه الترعه سبعون ذراعا وكل ذكر عندهم ملزوم بالدفاع عن الوطن من سنّ العشرين الى الستين ولهم خلق بشوش ولبس النساء والرجال سواء وهو سراويل وجبة الى الكعب والرجال لا يزيلون شيأ من شعورهم وانما يربطونها ومن عاداتهم اباحة السكر ولا ديانة عندهم وانما يعتقدون خرفات كثيرة والنسوة لا يحتجبن ويتعاطين الاشغال مثل الرجال وملكهم له اعتناء بتعليم الاهالى العلوم الرياضية ويرسل خمسة عشر تلميذا من أبناء أعيانهم الى فرانسا للتعليم فى مدارسها وعند رجوعهم يعوضهم بغيرهم وهم يبثون علومهم فى الاهالى وبعد استيلاء الفرانسيس على قسم من مملكته صار محافظا على موالاتهم وحفظ عهودهم حتى أرسل سفيرا مخصوصا الباريس مدة ولاية الرجل الشهير تيارس رياسة الجمهورية الفرانساوية كما رتب هذا الملك جيوشه

على

على الطراز الاوروباوى وستأتى قوّتها العسكرية فى جدول الدول وأمّا المالية فمجهولة وأمّا العادات الحكمية فلا تخرج عن عادات الممالك السابقة

الفصل * التاسع

﴿ المملكة التاسعة ﴾

مملكة كمبوديا وهى غربى بعض المملكة السابقة وجنوبى بعض صيام وعدد أهلها نحو مليون وقاعدتها مدينة سايكون فى القديم والآن مدينة بنوم بنه ويقال فى ديانتهم وحكمهم وقوتهم ما هو واقع فى الممالك المجاورة لهم وقد استولى الفرانسيس على قسم من هاته المملكة عند مصب نهر كمبوديا وقد صارت هاته المملكة تحت حماية فرانسا منذ سنة (١٢٨٠ هـ و ١٨٦٣ م)

الفصل * العاشر

﴿ المملكة العاشرة ﴾

هى مملكة ملقا وهى شبه جزيرة الى الجنوب من مملكة صيام ويحيط بها البحر من جميع بقية الجهات وعدد أهلها نحو ثلثمائة وخمسة وسبعين ألف نسمة والديانة الغالبة فيها هى الاسلام وحكمهم الصورى ملك مستقل مستبد لكنه قليل النفوذ وأغلب القبائل تعيش بحرّيتها تحت رئاسة كبرائها وكل قبيلة تدافع عن نفسها ولذلك يعدها الجغرافيون منقسمة الى أربعة قواعد (الاولى) براك (والثانية) سلنكور (والثالثة) جوهر (والرابعة) باهنك وأراضيهم غير مخصبة لكنها فيها معادن غنية وأشجار الافيون كثيرة فتجارتهم فيه مع الصين واسعة وقد استولى الانكليز على جهات من هاته المملكة منها مدينة ملقا

الفصل * الحادى عشر

﴿ المملكة الحادية عشرة ﴾

هى مملكة الصين وهاته المملكة هى أكثر ممالك العالم سكانا وأغناهم لاحتوائها

على أقاليم مختلفة ففيها جميع أنواع النبات والمعادن وتجارتها متسعة مع جميع الاقطار
ولاهاليها شهرة قديمة فى الصنائع وأهمها صناعة الخزف فانها اشتهرت باتقانه على
جميع النواحى فيتنافس الناس فى اقتناء أوانى الخزف الصينى تنافسا كليا وبعضهم
يبلغ به درجة خارقة للعادة وللاعتدال سيما فى أوروبا حتى تجد الواحد منهم يزين بيته
بترصيف تلك الاوانى التى تتكلف عليه بعثمات الالوف وكذلك ملوك الهند وما والاه
يتنافسون فى اقتناء الرفيع من أوانى ذلك الخزف وقد يبلغ ببعض الناس اشتراء صحن
واحد بألف فرنك فما فوق وعلى وجه العموم كل الناس يرون رقته وحسنه غير ان هاته
الصناعة الآن انحطت فى هاته المملكة عما كانت عليه بكثير لعدم الاتقان السابق
فالتنافس والتغالى انما هو فى الخزف القديم وله صفات كثيرة تميزه عن غيره فمنها أنه هو
وان كان كثيفا لكن النور يظهر من ورائه ومنها انه اذا ضرب عليه يكون له حسن
طنينة كأنه طنين معدن مطرق من المعادن العزيزة ومنها حسن الالوان فيه كما انهم
لهم اتقان فى صناعة النقش والتصوير فى سن الفيل وغيره (وأما المعارف والعلوم)
فالظن انها كانت لهم فى القديم فنون كثيرة وبقيت فيهم الدعوى فقط بحيث يرون
أنفسهم أعلم أهل الارض لكن فى الواقع ليس لهم الاشئ من الحكميات والنجوم
مغرمون باستخدامه فى علم الغيب وأشباهه مما لا طائل تحته وحدث فيهم أخذ
بعض الطبيعيات عن الاوروباويين واستخدموها فى منافعهم كالبخار والكهرباء لكن
لم يتجاوزوا الى الآن المقدار الذى أخذوه ولم يخترعوا شيأ فيه وقد كانوا اكتشفوا
بيت الابرة وقد أثبت بعض المؤرخين انها من اختراع العرب كما ان أهل
الصين اخترعوا البارود ولم يعرف انهم استعملوه فى حرب قبل استعماله فيها عند غيرهم
وانما كانوا يستعملونه للاصلاح كدك التلال وغيره وان وجد من آثار سلاحهم
قديما ما يدل على انهم كانوا يستعملونه فيه وأول ما عرف البارود فى جهاتنا من
العرب سنة (٧٣٧) هجريه وموقع هاته المملكة من مبدأ الشطوط الشرقية من آسيا على
المحيط الشرقى الى ان تتصل باملاك الروسيا ومن الجهة الجنوبية تبتدئ من جبال
هملاى جنوبا الى سبيريا من جهة الشمال فهى حينئذ تحاد الهند من شماليه وما والاه
من الممالك الشرقية منه وعدد سكان هاته المملكة نحو الثلث من سكان العالم كله وهم
على ما تحرر فى سنة (١٢٨٦ هـ و ٨٦٩ م) قريبا من خمسمائة وسبعة وثلاثين مليونا
من النفوس وهذا المقدار يساوى الضعف من سكان أوروبا كلها ومع هاته الكثرة التى

هم

هم عليها كانوا فى السالف لا تكاد تجد منهم خارج مملكتهم الا النادر القليل لاعجابهم
بأنفسهم ولان اصطلاحات أحكامهم تمنع الخروج من الوطن الا باذن خصوصى مع
التشدد فيه حتى يتبين وجه أكيد لمريد السفر ثم مع ذلك اذا غاب المسافر عن وطنه
مدة ثلاث سنين يمنع عن العود اليه والدخول فيه كما أن من أحكامهم منع دخول أجنبى
الى أرضهم الا برخصة مخصوصة فاذا نالها كان أين ما حل مكرما محروسا (وأما) اذا دخل
بغير رخصة فلا يأمن على نفسه سيما من الحكم وقد بقوا على هاته العوائد الى أواسط
هذا القرن ثم أطلق الاذن لمن يريد السفر فصار يخرج منهم الكثير الى الهند وجزائره
والى أمريكا والخارجون لهم براعة فى التجارة وتكاثر الخارجون لضيق الارض بهم حتى
انهم فى وطنهم يضطرون الى السكنى على الالواح فى الشطوط بل انهم يجعلون على الالواح
بساتين لان الارض لا تكفيهم لكثرتهم واتقانهم لتعميرها بالفلاحة حتى انهم يعملون من
أنواع السرقين ما لا يعلمه غيرهم الى الآن وهذه المملكة تنقسم الى ثمانى عشرة ولاية
تسمى كل واحدة منها بلغتهم سنغا (وأولها) المحتوية على تخت السلطنة تسمى باكنغ
أو باأوتاش أوبى ويبلغ عدد سكانها أربعين مليونا ثم ان كل ولاية تنقسم الى أوطان
يقال للواحد منها بلغتهم فو وكل وطن من هاته ينقسم الى أجزاء يسمى كل واحد منها
تشيو ثم كل جزء ينقسم الى أقسام متعددة صغار تسمى هيان وكانوا يمنعون اقامة نواب
الدول الاجانب فى مملكتهم فضلا عن قاعدتها وحيث كانت دول أوربا فى هاته القرون
الاخيرة لهم مزيد الاعتناء باتساع تجارتهم طلبوا من تلك الدولة الاذن لتجارهم بالاشتغال
فى المملكه والاقامة بها كما يقيمون سفراء لهم عندها وبعد مشقات شديدة حصلوا على
الرخصة فى وفود تجارهم لكن بخصوص مراسى معلومة على البحر وكذلك السفراء على
شرط ان لا يبيت أحد منهم فى البلد أو فى البر وانما يبيتون فى سفن حول الشاطئ ثم
فى أواسط هذا القرن أرادت الدول زيادة اتساع الخلطة والتقدم فى الالتحام بأن يكون
لتجارهم الدخول الى دواخل المملكة مع التعهد من الدولة بحمايتهم وان يكون
سفراؤهم يقيمون فى قاعدة المملكة وحيث كان أهل الصين أشد الناس تحفظا على
عوائدهم امتنعوا من ذلك وجرت من تجاسر الاوروباويين مهاوش قتل فيها منهم كثير
ممن وجد فى مراسى المملكة مخالفا لما أذن له فيه فتعصبت حينئذ دولتا انكلترا وفرنسا
على محاربة الصين وحاربوهم فما كانت بضع أشهر حتى وصلت عساكر أوروبا الى
قاعدة المملكة وعقدوا صلحا على نحو ما طلبوا وبهذا يتبين للمطالع حالة أهل المملكة فى

الشجاعة والفنون الحربية لانهم مع كثرتهم المفرطة قهرتهم دولة الانكليز والفرانسيس بعساكر قليلة لما لا يخفى من كثرة البعد بين أوروبا والصين سيما وقد كان ذلك قبل فتح خليج السويس الذى سيأتى الكلام عليه فى المقصد ان شاء الله تعالى فكان طريق الوصول انما هو رأس الرجاء الصالح نعم ان لكل من الدولتين مراكز حربية فى الهند لاسيما دولة الانكليز التى مملكتها فى الهند أعظم من مملكتها فى أوروبا لكن هبهم بلغوا ما بلغوا فلو كانت دولة الصين على كثرة سكانها لها الاستعداد الحربى مع الرجولية فى السكان لامكن لهم الفيضان على جميع العالم فضلا عن المدافعة عن أنفسها وكان السبب فى عدم اقتدارهم كثرة استعمال الافيون الذى هو مصيبة عامة فيهم وتبالغ بعضهم مبالغ نسئل الله تعالى منها اللطف والحماية غير ان هاتك الخلة لا تعم جميع أقسام المملكة وذلك ان هاته المملكة الرحيبة تنقسم الى ثلاثة أقسام كبرى (الاول) منشورية وهو الجهة الشمالية الشرقية من المملكة (الثانى) المقاطعات الثمان عشرة وهو الجهة الشرقية والوسطى من المملكة وهو الصين الاصلية وتغلب عليه أهل القسم الاول ثم تغلبوا على القسم (الثالث) وهو الاملاك الاضافية مثل المغول والتبت وغيرها وصار الجميع مملكة واحدة معروفة بالصين فأهالى الصين الاصليون هم الذى تغلب فيهم الصفة المتقدم ذكرها وأما المنشوريه والمغول وغيرهم فانهم أقوياء وأشداء لاسيما التتر المغولى (ولهذا) كانت السلطة لغير الصينيين الاصليين ولما تفطنوا فى السنين الاخيرة لما لحقهم من قهر الاوروباويين لهم مثل ما تقدم من جهة انكلترا وفرنسا ومن جهة أخرى قهر الروسيا لهم من جهة الغرب الشمالى وحمايتها لبعض ممالك التتر المغول منهم جدوا الآن فى الاستحضارات الحربية حتى روى بعض الاوروبا ويين عنهم انهم أحدثوا ترتيبا فى القوات الحربية يمكنهم من احضار خمسة ملايين من العساكر تحت السلاح وشرعوا فى الاستكثار من الآلات الحربية وجلبها من أوروبا على الطراز الجديد كما فتحوا معامل فى ممالكهم لاجل ذلك وكذلك القوات البحرية استحضروا منها فى ممالكهم معامل لاجل السفن والمدرعات والتربيد واستصنعوا فى أوروبا كثيرا منها فان تم استحضارهم على نحو ما تقدم يمكن ان يصيروا على حالة الهجوم بقوات مفجعة (وأما الديانة) فانهم ليسوا على دين واحد بل على (ثلاثة أقسام) كبرى ﴿أولها﴾ وأقدمها الدين الذى أسسه حكيمهم المسمى عندهم يو وقيل انه كان أول سلطان فى عائلة هيا وذلك قبل هذا التاريخ بنحو أربعة

آلاف

آلاف سنة وعقائد هذا القسم وفروع عباداته لهم فيها تآليف يعتبرونها كأنها كتب سماوية وفى القرن السادس عشر قبل التاريخ المسيحى هذب لهم تلك الديانة حكيمهم المسمى كنفوشى ومضمون هاته العقائد الاقرار بالخالق سبحانه وتعالى وبالحشر ومن أخلاقهم السماحة ولا يغضبون على ديانتهم أحدا ولا يحتقرون ديانة من خالفهم ﴿القسم الثانى﴾ هو الدين الذى أسسه حكيمهم لاوتسو ومضمون عقائدهم القول بالتناسخ وعدد أتباع هذا الدين نحو مائة مليون ﴿القسم الثالث﴾ الدين الذى أسسه حكيمهم فواوصا كيا أو بدهة ويعرف بالمذهب البدهى وكان أول ظهوره أواسط القرن السابع قبل الميلاد وعندهم من الكتب تآليف عديدة منقسمة الى مجموعين (احداهما) يقال له غندجور وهو مائتان وأربعون مجلدا ويوجد من كل منها نسخة تامة بمكتبة باريس الكبرى قيل ان المجموع (الثانى) اشترته دولة الفرانسيس بأربعين ألف فرنك كما انه يوجد أقسام أخرى من الديانات كالبراهمة وغيرهم من عبدة الاصنام أو النصارى واليهود والديانة الغالبة فيهم هى البوذية وهى نوع من الوثنيين كما ان فيهم قسما عظيما من المسلمين يبلغ الى ما ينيف عن الستين مليونا فمن هؤلاء نحو أربعين مليونا متفرقين فى الممالك أصلهم من الاهالى ومن العساكر المسلمين الذين جلبهم ملك الصين فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور حيث ثارت عليه رعاياه فاستنجد بالخليفة على ان يؤدى اليه معلوما اذا أنجده فأرسل له أربعة آلاف من صناديد المسلمين وقهر بهم رعاياه وجازاهم عن ذلك بجواز الاقامة فى مملكته مع جواز التزوج ببنات الاهالى ومصاهرة الاعيان واعطائهم ما يحتاجون اليه فأقاموا على شروط وهى استقلالهم فى ادارتهم الخصوصية وعبادتهم واشهارها فاجازلهم مطلبهم لكن فرقهم على المدن العظيمة فى مملكته وصار فى كل مدينة مدينة مستقلة بالمسلمين على حسب كثرتهم وقلتهم مستقلين فى أحكامهم الخصوصية مشهرين لشعائر الدين ولهم قضاة وأئمة بحيث لا يتداخل فيهم الحكم الصينى الا فى عموم السياسة ومنهم فى مدينة باكين قاعدة المملكة نحو عشرين ألفا ولهم جامع ضخم قديم حسن جدا ويسمونه بلغتهم هوى هوى ومساجد أخرى نحو العشرين منها اثنان لاهل الشيعة حيث حدث فيهم هذا المذهب فى القرون الاخيرة وأغلبهم أهل سنة على مذهب أبى حنيفة وكذلك بقية المسلمين فى الصين مثل ما ذكر من القسمين ومن عادات هؤلاء المسلمين أن ينشر فى رأس كل سنة تقارير تشتمل على بيان أوقات الصلاة مكتوبا

بأعلاها من أركان الاسلام الخمس كلمة الشهادة والصلاة والزكاة والصوم ولا يذكرون
الركن الخامس وهو الحج قال بعضهم ان علماءهم أسقطوا ذلك لعدم تحمل مشقة
الطريق لبعد مسافة الحج عندهم وأظن ان علة منع الخروج من ممالكهم هى الباعث
على ذلك والافليست مملكة الصين بأشق فى السفر من أهالى سمطرا وأقصى الغرب
ودواخل السودان فجرت على ذلك عادتهم ولو بعد انتفاء المانع وسهولة السفر بحرا
فى البواخر ومن عاداتهم أيضا أن يكتبوا على أبواب الجوامع خواى خوى ثانغ أى محل
الجماعة الاسلامية وأن يكتبوا تسين جسن سواى معبد الاله الحقيقى ويسمون علماءهم
لاوجوفو أى المعلم الاكبر وأما أهل الصين فيسمون جوامع المسلمين ليطاسواى محل
العبادة الاسبوعية وحيث كان الدين الاسلامى لا يجوز مناكحة المشركين أسلم كثير من
نسائهم بل وعائلات النساء وتزوج بهن المسلمون وتناسلوا الى أن بلغ عددهم نحو
الاربعين مليونا فى هذا العصر ولم يزالوا على الاستقلال الادارى حتى حكى طرفا منه
ابن بطوطه وهم عليه الى الآن ومن المسلمين أيضا أقسام فى الجهة الغربية والغربية
الشمالية من المملكة فمنهم المجتمع والمفترق وتسلطت على ممالكهم دولة الصين ولا
يزالون ينتهزون الفرص للخروج عنها فتارة يتمكنون من ذلك وتارة تعود للاستيلاء
عليهم مثل مملكة كاشغار فى الجهة الشمالية الغربية فقد استقلت تحت ملك فى عشرة
الثمانين ومائتين وألف وهو الامير يعقوب خان الذى ولد فى جوار تشقند وحصل العلوم
فى سمرقند واشتهر فى أعظم مدارس بخارى مع مهارة فى السياسة أهلته لان يكون مشيرا
مطاعا عند أمير خوقند وأرسله حاميا للمهاجمات الروس على قلعة اكمتشيت ثم توجه الى
كاشغار للحرب مع الصينيين وحصل على انتصار عظيم أورثه شهرة وثقة من المسلمين به
هنالك وطمع فى تعويض مملكة سلطنة الصين بمملكة اسلامية وكسر لهم جيشا فيه
أزيد من مائة ألف مقاتل واستولى على جهات معتبرة حتى ارتعدت منه مملكة الصين
فى سنة (١٢٩٣) وحيث كان بين عدوين مال الى مسالمة الروسيا وعقد معها معاهدة
تجارية ورام أحكام وحدة الاسلام فبايع بالخلافة للسلطان العثمانى وتلقبه الدولة
العثمانية بالامير أدبامع الخليفة وجلب هو من قاعدة الخلافة معلمين للفنون الحربية
والصناعات الهندسية ونظم الجيوش فاخترمته المنية قبل رسوخ المملكة وتناحر بنوه
وقسموا المملكة فانتهزت دولة الصين الفرصة واستولت على الجميع والى الآن أحوالها
مخضرمة (وهكذا) أنشأت دولة اسلامية فى أواسط الصين يميل الى الغرب تحت
سلطنة

سلطنة رجل يسمى السلطان سليمان فى حدود السنين المذكورة وجعل قاعدة مملكته
مدينة طليفة وانشاء السلاح فى ممالكه وطلب التعرف به من الدول وانه متسلطن على نحو
الستين مليونا من مسلمين وغيرهم فلم يكن الا حلما وانتزعت منه السلطنة (ومن عجائب)
مملكة الصين السور العظيم الذى يبتدئ من الشطوط الشرقية ويمتد بوسط المملكة
الى حيث العرض أربعين درجة شمالية والطول تسعة وتسعون شرقيا فمجموع
طوله نحو ألف ومائتين وخمسين ميلا وسمكه من الاسفل نحو خمسة وعشرين قدما ومن
أعلا نحو خمسة عشر قدما وارتفاعه ما بين خمسة عشر الى عشرين قدما وفى أماكن منه
حصون يبلغ ارتفاع بعضها الى أربعين قدما وهو مبنى بالحجارة والآجر والقرميد وبعض
أماكن طين فقط بناه بعض ملوكهم قبل التاريخ المسيحى بنحو مائتى سنة وعشرين سنة
قاصدا به رد المهاجمات على المملكة الصينية الاصلية من المغول والقبائل الشمالية ولم
يجده نفعا اذ هم الذين سلطوا على المملكة والسور الآن خراب فى جهات كثيرة وقد غلط
من توهمه السد الذى بناه ذو القرنين لمنع فساد يأجوج ومأجوج محتجا على ما يقول
بأن ليس فى الارض سور ذو عظمة غير ذلك ورد قوله ظاهر لان الصفات المذكورة
فى القرآن للسد غير الصفات التى عليها ذلك السور ثم ان صفات يأجوج ومأجوج
المذكورة فى النصوص المروية غير موجودة فى أولئك الاقوام ودلت النصوص أيضا
على أن ذلك السد يدك قرب الساعة وتحدث منهم حوادث لم تظهر الى الآن فلا يكون
حينئذ ذلك السور هو السد ولا يخفى ان بعض الاوروباويين الآن لهم دعوى مثل بقية
البشر الغير متبصرين من العجائب بما هو عليه وادعاء بلوغ النهاية فى العلوم حتى انهم
انكروا وجود السد لدعواهم ان كرة الارض صارت الآن معلومة ولم يجدوا فيها السد
فهاته الدعوى هى فى الواقع مبالغة منهم وانما يقال ان اكتشافهم الآن للكرة أكثر
من اكتشاف الامم السابقين الذى وصلت الينا مؤلفاتهم وان احتمل اطلاع غيرهم على
ما اطلع عليه الآن أو أكثر لكن لم نجد لذلك أثرا ولا يلزم من عدم وجود الدليل
انعدام المدلول أما الاحاطة بجميع كرة الارض وعلم جميع ما فيها فهو غير مسلم لوجوه فمنها
ان جميع علماء الجغرافية نصوا فى تآليفهم ان جهة القطبين لم يمكن الاكتشاف عليها
الى الآن وأن المجهول جهة القطب الجنوبى أكثر من المجهول جهة الشمالى لانه أى
الجنوبى أشد انحرافا عن وصول الاشعة الشمسية اليه مستقيمة ومنها ان الاكتشافات
لازالت تتوالى شيأ فشيأ فانه منذ أربعمائة سنة لم تكن أمريكا معروفة وكان علماء ذلك

العصريرون ان ماوراء شطوط القارات القديمة انما هو بحر صرف حتى ان من ضمن
فى وجود عمران وراء ذلك سخروا منه تارة واضطهده جهلاء علماء الديانة تارة أخرى كما
يأتى الكلام عليه فى أحوال أمريكا ثم تبين بالواقع وجود ذلك العمران الذى يحسب
﴿القسم الثانى﴾ من أقسام الارض ثم منذ ستين سنة اكتشفت استراليا التى هى
القسم الخامس من القارات ولازالت الاكتشافات متتابعة الى الآن فى أمريكا وفى
غيرها ومنذ أربع سنين فقط اكتشف سواح الانكليز جزيرة صغيرة جهة الشمال
معمورة بخلق صغار الجثث فطس الانوف كبار الاذان يأكلون نوعا من السمك ويلبسون
جلده ويوقدون عظمه وكذلك اكتشف منذ قريب قوم من البشر على نحو تلك الصفة
فى شمالى أمريكا الشمالية ينحتون من جبال الثلج بيوتا ويجعلون للطواقى المنفذة للضوء
قطعا من الثلج الصفيق لكى لاتمنع الضوء وتقيهم مرور الارياح (وهكذا) لازال
الاكتشاف يتتابع ومايعلم جنود ربك الا هو ومن تأمل سياق الآية الكريمة فى حكاية
حال ذى القرنين الى بلوغه الى يأجوج ومأجوج ظهر له من السياق انهم جهة أحد
القطبين (اذ قال تعالى فاتبع سببا حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين
حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا قال أما
من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء
الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع
على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ثم اتبع سببا حتى
اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لايكادون يفقهون قولا قالوا ياذا القرنين
ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم
سدا قال مامكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما آتونى زبر الحديد
حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا
فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا قال هذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى
جعله دكا وكان وعد ربى حقا الآية) فذكر ان ذا القرنين اتخذ أولا طريقا الى أن بلغ
منتهى الارض من جهة الغرب فوجد الشمس هناك تغرب فى ماء أسود كأنما هو
بالحمئة أى الطينة السوداء وهو والله أعلم البحر المحيط الغربى لشدة عمقه يترا آى انه
أسود وسمى عينا نظرا الى سياق عظمة قدرة الخالق وما اطلع عليه ذو القرنين الذى البحر
المذكور بالنسبة اليه ماهو الا كالعين الى آخر الآية ثم ذكر اتباعه لطريق آخر وصل

به

به الى منتهى مطلع الشمس من الارض وقص ماوقع هناك أيضا ثم ذكر اتباعه لطريق
آخر فظاهر السياق انه لغير المشرق ولغير المغرب فهو حينئذ الى أحد القطبين وهو الذى
ذكر فيه قصة يأجوج ومأجوج وعلى ذلك فذو القرنين سافر الى أقاصى ثلاث جهات من
الارض والله أعلم أى القطبين الذى هو الجهة الثالثة ويؤيد هذا الفهم المأخوذ من
السياق ماروى من أن سيدنا الخضر كان وزير الذى القرنين وانه اجتاز معه أرض الظلمة
حتى وجدا عين الحياة الخ وأرض الظلمة لاتكون الا فى احد القطبين أو ماقاربه لانه هو
الذى يطول مغيب الشمس عنه كما هو معروف عند الحكماء والفقهاء وبنى عليه هؤلاء
أحكاما فى الصوم والصلاة مقررة فى دواوين الفقه وليست هى أرضا غير المعروفة وانما
أتتها الظلمة مما أشرنا اليه ثم ان قارات الارض ان كانت اذ ذاك على حالتها الآن
ربما تقتضى ان القطب الذى وصل اليه هو الشمالى هذا اذا كانت هيئة الارض
اذ ذاك هى على نحو ماعليه الآن أما اذا كانت على شكل آخر فيمكن أن يكون القطب
هو الجنوبى أيضا وانما قلنا هذا لان الارض تتغير أشكالها على طول الزمان بما
يحدث فيها من الزلازل العظيمة وانخفاض جهات من اليابسة وارتفاعات فى جهات من
البحر (وهكذا) فان امريكا على ماسيأتى كانت متصلة بقارة آسيا من جهة بوغاز برن بل
ان جهة من مملكة تونس الشرقية تسمى برج بو الشاطر فى عمل بنزرت كانت قديما
مرسى لسفن فى دولة القرطاجنيين والآن صارت محترثات خصبة والبحر يبعد عنها
نحو خمسين ميلا وكذلك فى الجهة الجنوبية جنوبى الجريد كان فيها بحر يدخل الى
داخل القارة الافريقية والآن صار صحراء وهى المسماة بالصحراء الكبيرة وسيأتى بقية
الكلام عليه فى الكلام على تونس وكذلك خليج السويس كان بحرا موصلا بين البحر
الابيض والبحر الاحمر ثم سد ثم فتح الآن على ماسيأتى الكلام عليه أيضا فى محله (ان شاء
الله تعالى) فقد قال المفسرون فى قصة سيدنا (موسى) وسيدنا (الخضر) عند (قوله
تعالى) حتى اذا بلغ مجمع البحرين الآية ان المراد بمجمع البحرين هو محل اتصال بحر
الروم ببحر فارس وهل ذلك الا من السويس أو من مكان آخر من آسيا اليابسة وهو أيضا
يفيد المطلوب فتقلب حالات الارض لايبعد أن يكون سد يأجوج ومأجوج جهة
القطب الجنوبى الذى هو وما قاربه أكثر مجهولية من الشمالى سيما وآثار سلسلة الجزائر
الى استراليا كالآثار الدالة على الاتصال ويؤيد أنه فى أحد القطبين الصفات التى ذكرت
ليأجوج ومأجوج فى خلقتهم فى الاحاديث الصحيحة كما فى البخارى وغيره من الصحاح

وهى صفات تقرب كثيرا من الصفات التى وجد عليها أهالى الجزيرة التى ذكرناها قريبا جهة الشمال واكتشفها الانكليز وشاع أمرها وذكرها فى صحف الاخبار ورسمت فى خارطات الجغرافيين ووصول ذى القرنين الى هاتيك الجهات وماوراءها ليس بغريب اما أولا فلأن حرارة الارض اذ ذاك ليست هى التى عليه الآن فجهات القطبين لم تكن على هاته الدرجة من البرودة ولذلك أدلة مسلمة فى كتب الجغرافية الطبيعية خلاصتها على مذهب المتأخرين الذى لايخالف الشرع ان هاته الارض كانت كوكبا نائرا نارا يا ثم انطفت طبقتها العليا ولا تزال تثخن تلك الطبقة وعلى قدر ثخنها تبرد وتنحصر الحرارة فى جوف الارض ومركزها ومهما وصلت الطبقة الى درجة من الاعتدال الصالح لخلق من مخلوقات الله يخلقه الله فيها (وهكذا) على التدريج الى أن تم ما أوجده الله فيها واضمحل منها من أنواع الحيوان مالم تبق صالحة له كنوع يشبه الفيل وهو أضخم منه وأنيابه مرتفعة الى فوق فانه الآن انعدم مما هو معروف من الارض واكتشف على عظامه فى طبقات سفلى من الارض بالحفر جهة سيبريا ويشهد بصحة هذا القول الاحاديث الواردة فى التكوين وان (آدم عليه السلام) خلق بعد الارض بمدة طويلة وان الخيل خلقت قبل (آدم عليه السلام) بكثير الى غير ذلك من الصفات الواردة عن الشارع فى كيفية التكوين وقد وجد فى سيبريا من عظام الحيوانات التى لا تعيش الا فى الارض الحارة كالفيل وغيره بكثرة مما يدل على انه ليس بمجلوب وانما هو حيوان أصلى هنالك ما يقضى بأن تلك الجهة كانت حارة ليست على ماهى عليه الآن من شدة البرد فيحتمل أن زمن ذى القرنين كانت الحرارة معتدلة هنالك حتى يمكن الوصول الى تلك الجهة بلا مشقة ولا يقال ان التاريخ من زمن ذى القرنين الى الآن لا يقتضى هذا التغير الكثير لانا نقول ان ذا القرنين هذا هو عربى كثر ذكره فى أشعار العرب واسمه الصعب ملك من ملوك العرب العرباء معاصر (لابراهيم عليه السلام) أو يقرب منه هذا هو الصحيح وان غلط الرازى وغيره فى توهمه انه اسكندر المقدونى ومقدار زمنه لا يمكن الوقوف على تحقيقه وذلك ان ذا القرنين كان قبل (موسى عليه السلام) بكثير حسبما تقدم فى كون (الخضر عليه السلام) وزيره وهو الذى عاش وتعلم منه (موسى عليه السلام) وجميع التواريخ القديمة يعتمد فيها المؤرخون على التورات وهى قد وقع فيها التحريف قطعا فى كثير من الآيات لاسيما ما يتعلق بالتاريخ تحريفا فاحشا ولا يلتفت لغلط ابن خلدون فى دعواه عدم التحريف بعد اثباته بالعيان وفيما أثبته الشيخ رحمة

الله

الله قدس سره فى كتابه اظهار الحق من الاختلاف الكثير فى التاريخ بين نسخ التوراة القاضى بعضها باجتماع (نوح وابراهيم) وبعضها بالبعد الكثير بينهما وحرره مؤرخوهم انه سنة (٣٥٢) مع ان العبرانية تقتضى باجتماعهما الان نوحا مات بعد ولادة (ابراهيم) ٥٨ سنة والسامرية تقتضى ان (ابراهيم) ولد بعد موت (نوح) ٥٩٢ سنة واليونانية تقتضى انه بعده (٧٢٢) سنة والاولى يخالفها الاجماع والأخر بينهما التناقص التام وغاية ماتحقق ان (ابراهيم) لم يجتمع (بنوح) فى عصر (عليهما السلام) والاختلاف على هذا النمط وعدم التحرير فى التواريخ كثير جدا فلا اعتماد حينئذ على ماهو موجود من التوراة نعم ان متأخرى المؤرخين قد اعتنوا بهذا الفن وحرروه باستدلالات من الآثار القديمة والاطلاع على لغات قديمة لكن لم نطلع الى الآن على أدلة وجدوها تثبت مدة زمن ذى القرنين على فرض تعيينه وكم عدد السنين بيننا وبينه وأما ثانيا فلا يبعد ان يكون لذى القرنين اذ ذاك من آلات حمل الاثقال وتيسير السفر مالا يعلم الآن ويدا عمه (قوله تعالى) فى حقه (انا مكنا له فى الارض وآتيناه من كل شئ سببا) مما يقتضى اتساع اقتداره وتهيء الاسباب لمقاصده كعلم جر الاثقال مثلا الذى شوهدت الآن آثاره مما لم يقدر عليه متأخروا هذا العصر وكذلك النحت للقطع الهائلة التى لم تعلم كيفية قطعها ونقلها اسيما وقد وجد فى مصر من صورة السلك الكهربائى والرتل ما يقتضى علمهما بقا مع صور آلات أخرى غير معلومة كما سيأتى الكلام عليه فى أحوال مصر فيمكن أن تكون حالة الارض على هيئتها هاته ولذى القرنين وعلمائه وجنوده من المعارف والآلات ما تيسر لهم به الوصول الى الاماكن الصعبة مما لم نعلمه الآن وأما قول بعض المؤرخين ان الواثق من بنى العباس أرسل معتمدين الى السد وقاسوا بابه وقفله الى غير ذلك من الصفات التى ذكرت له فانا لم نكن على ثقة منه ولم نعتمد عليه سيما ولم يعين أولئك المؤرخون مكانه وانما يقتضى كلامهم انه فى الجهة الشمالية الشرقية من آسيا فلا يبعد أن يكون ما وصلوا اليه هو سور الصين واذا فرضنا انه هو المراد بالسد فى النصوص الواردة يلزم حمل الصفات المذكورة فيها على بقاع من ذلك السور ككونه من زبر الحديد ومفرغ عليه النحاس والصدفان (حينئذ) طرفان من ذلك السور كما تأول صفات يأجوج ومأجوج الى ما يصح اطلاقها به على التتر والمنشوريه ويكون وعد الله الذى يدك فيه السد هو قرب الساعة ولاشك أن الساعة قربت كما أعلم به

(رسول الله صلى الله عليه وسلم) في قوله بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى كناية عن مزيد القرب وكما (قال تعالى) اقتربت الساعة وانشق القمر الآية فما بقي من الدنيا بالنسبة الى ما مضى شئ قليل جدًّا والطبيعيون أنفسهم مقرون بذلك لما يستدلون به من كيفية تكوين الارض وارتباطها بالاجرام العلوية (وحينئذ) يكون الفساد الموعود به في النصوص من أولئك القوم هو ما وقع من التتر المغولي من الفساد في الممالك وكفى بوقائع جنكس خان وما عثاه هو وأصحابه في الدنيا مصداقا لذلك فان من له المام بتاريخه يرى فيه العجب العجاب وهي مصيبة عظمى لم يحدث على المسلمين مثلها وانما تطاول الزمان وعدم علم الجمهور بها هو الذي لم يصير لها اعتبارا الآن وكل هذا الاخير مستبعد وانما يلزم المآل اليه اذا فرضنا الاحاطة حقيقة بجميع أطراف الارض والحاصل انه مهما وجدنا نصا عن الصادق يلزم التسليم اليه والتصديق به فان وجدنا ما يخالف فهمه في الوجود وجب فهمه على مقتضى الوجود اذ يستحيل مخالفة خبره للواقع وقد نص على هذا العلماء الراسخون ومنهم سعد الدين التفتازاني في التلويح (ثم ان) لمملكة الصين من الانهر العظيمة الحاملة للسفن الشراعية والبخارية ما أغناهم عن تكثير الطرق الصناعية في الارض (وأما الجهات) التي لا تصل اليها الانهر فانهم يصنعون فيها ترعا متصلة بالانهر ميسرة للسير وحمل الاثقال حتى ان منها ترعة هي من عجائب الدنيا طولها نحو ستمائة وخمسين ميلا وصنعت في عدة أجيال من الجيل السابع من تاريخ المسيح أي القرن الثاني الهجري الى القرن الثامن من الهجرة ولم تحدث فيها الطرق الحديدية الى الآن (وأما المعادن) فعندهم أغلب المعادن المعروفة ولكنهم لقلة مهارتهم في استخراجها وتصفيتها يحتاجون الى جلبها من خارج (وهكذا) نباتات هاته المملكة فيها أغلب نبات المعمور لاتساعها واختلاف أقاليمها وكذلك الحيوانات والهواء وقاعدة المملكة هي مدينة باكين التي هي من أعظم مدن العالم سكانها أزيد من ثلاثة ملايين ولها سور يحيط بها وأغلب أبنيتهم طبقة واحدة مقسمة الى عدة أقسام الا قصور الملوك ففيها طبقات والاهالي يتزوّجون امرأة واحدة شرعية ويتخذون غيرها كالسراري على انهن خديمات لها ولهم شارات في التفاخر والدلالة على البيتوتية والغنا منها ان الاغنياء والاكابر يخلدون الى الراحة حتى لا يكادون يتحرّكون وتغلب هاته الصفة في نسائهم فكان من عجائب عاداتهم فيهن ان بنت الاعيان اذا ولدت يجعلون لها حذاء من حديد أو ما أشبهه من الاشياء الصلبية ويلبسونه لها في سن المهد

وتترك كذلك الى انتهاء شبابها فتكون أقدامها صغيرة جدًّا بحيث لا تستطيع المشي وكذلك كفوف يديها حتى لا تقدر أن تشتغل ولا ترفع شيأ مع الاعتناء بتسمينها فتصير ذاتها ضخمة وكفها وقدماها في غاية الصغر دلالة على انها لا تحتاج لعمل شئ بنفسها وكل الضروريات وغيرها تفعلها لها الخوادم فيصنعون مساطب لحملها على الاعناق عند ما تريد المشي لاي جهة كانت وهكذا جميع الحركات ويستكثرون من الخدم على قدر البسطة في المال والجاه وعادة الحمل على الاعناق عامة حتى في الرجال الكبراء والاغنياء وهاته الخلة جارية أيضا في أهالي الهند (وأما حكم) هاته المملكة المتسعة فهو يرجع الى عامل واحد ذي حكم استبدادي مطلق وله وزراء يديرون ويحررون أمر المملكة على ارادته ثم في الجهات أمراء مستبدّون في التصرّف في اماراتهم تحت أوامر السلطان العام الذي يقلد ويعزل منهم حسب ارادته ومع ذلك الاستبداد فانهم لتحفظهم على العوائد القديمة تجد كأن أحكامهم قانونية لاجرائهم الحوادث شبه بعضها ولا يتجاسرون على خرق العادات القديمة في جميع تصرفاتهم الا في أمر أكيد عظيم وقلما يقع ولهم اعتقادات في ملكهم ربما أدتهم الى اعتقاد ألوهيته ولهم أيضا دواوين يضبطون بها ادارات التصرف والاموال وأرزاق العساكر فمن نظر الى مجموع تصرفات المملكة يجدها مشابهة أعظم مشابهة الى الدول القانونية وكان ذلك هو سبب قدم هذه الدولة وعدم تلاشيها الان السلطان عندهم وان كان له ان يفعل ما يشاء الا انه لا يفعل شيئا الا بمشاورة رجال دولته وأرباب مجالسه في جميع الامور وكل من أمرائه لا يتصرف الا بمشاورة رجال مجالسهم ولا يتوظف أحد في خطة أيا كانت الا أن يكون من أصحاب العلوم والمعارف الذين هم وجهاء الامة كما يشترط في كل متوظف أن يكون متأهلا وجديرا بالخطة التي يتقلدها ومن عاداتهم الشبيهة بالقانونية ان المتوظف اذا ظلم أحد الرعايا ولو في أقل الاشياء يعاقب أشدّ العقاب بل انهم مطلوبون كل على حسب خطته بما يطرأ على الاهالي من المصائب السماوية التي يكون في وسع البشر تداركها كفيضان الانهر وسقوط الجدران وما شاكل ذلك ويعاقبون عليه بالعزل ولهم صحيفة رسمية قديمة قبل أن تعرف الصحف في أوروبا بقرون ولها نحو ستين صحيفة تنشرها يوميا ولا تحتوي الا على الحوادث الخاصة بدولتهم وتصرفاتها وحيث كانت الكتابة عندهم صعبة جدا (لانها فيها) علامات عوضا عن الحروف منها أصلية ومنها فرعية تدل على الكلمات فكانت نحو ألفين وخمسمائة علامة وهي المستعملة الآن (أما)



العلامات القديمة التى لم يبق استعمالها الا نادرا فهى نحو أربعة وأربعين ألفا وأربعمائة وتسعة وأربعين شكلا فلذلك كانت معرفة الكتابة عندهم قليلة جدا وقد تعارفوا صناعة الطبع قبل معرفتها فى أوروبا بكثير وهى على غير الصورة المعروفة الآن فانهم كانوا ينقشون الكتابة فى ألواح بحيث تكون على عدد صفحات الكتاب الذى يريدون طبعه وان شئت قلت ينسخون الكتاب أو الكتابة بالنقش فى ألواح ويطبعون بها ما شاؤا ثم يدخرونها الى وقت الحاجة فيعيدون الطبع متى أرادوا (وأما) الغناء فى المملكة فهو كثير لكثرة موارد الثروة وكثرة السكان ومع ذلك هو بالنسبة لغنى الممالك المتمدنة ذات الصنائع المخترعة قليل نظرا لعظم المملكة وما فيها وقد تقدم ما فى عزم دولتها وما شرعت فيه من القوة الحربية (وأما القوة المالية) فهى غير معروفة لاختلاف أنواع الأداء وتفرقه على المتوظفين كل منهم له كيفية فى الاستخلاص على وظيفته من الاهالى

الفصل * الثانى عشر

﴿المملكة الثانية عشر مملكة الروسيا فى آسيا﴾

هاته المملكة تبتدئ من الشمال الاقصى من القارة ثم تنعطف مع حدود الصين الغربية وتصل الى مملكة نيران من شمالها والى المملكة العثمانية من شرقيها فهى متسعة جدا ولا تزال تتوسع فى الممالك الصغيرة بأواسط آسيا حيث تفرقوا شيعا فصارت تتغلب عليهم بتسليط بعضهم على بعض وانتصارها لبعضهم حتى تبتلعهم شيأ فشيأ بحيث لم يبق منهم الا القليل كما سيأتى الكلام عليه بعد وحكمها فى هاته المملكة سيبين فى الكلام على هاته الدولة فى ممالك أوروبا وكذلك بقية التصرفات السياسية وانما نقول هنا ان فيها قسما يسمى سيبريا وهو شمالى الصين فى نهاية شدة البرد وهو قليل السكان والحيوانات الا بعض الحيوانات المتجلدة على البرد كالدب الابيض والذئب الكبير وقد اطلع علماء الطبيعة على ان تلك الجهة كانت عامرة بأنواع من الحيوانات التى تألف الجهات الحارة كالفيل وبعض أنواع من الحيوانات فقدت الآن مثل حيوان أكبر من الفيل ويشبهه فى الخلقة وله شعر صلب مستطيل يمتد من مبتدأ رأسه الى مغرس ذيله يكون مرتفعا مفرزا عن بقية شعر بدنه وله أنياب طوال متجاوزة لشفتيه مثل أنياب الفيل غير انها مرتفعة الى فوق واطلعوا على وجود هاته الانواع هناك بكثرة عظامها فى طبقات

سفلى

سفلى من الارض تدل على ان تلك الجهة كانت حارة كما تقدم وهى الآن من شدة بردها اتخذتها الروسيا منفى لاصحاب الجرائم الشديدة فايصلون اليها الا بعد فقدان أكثرهم فى الطريق ومن وصل منهم لا يبقى سالما وتحدث لهم وللسكان الاصليين أمراض فى الاعين من شدة الضوء المنبعث من سطوع الاشعة الشمسية فى بياض الثلج المتكاثر الدائم ويوجد فى هاته المملكة أعنى بقية مملكة الروسيا فى آسيا أنواع شتى من الفراء العالى وفيها أنواع النبات المختلف الذى يوجد فى أغلب الاقطار الباردة والمعتدلة وتجارتها متصلة مع جميع الاقطار لكنها ليست بمتسعة لصعوبة النقل حيث لم تتم الطرق الكافية الموصلة لشواسع هاته المملكة المتسعة ولاجل انحطاط درجة المعارف والصنائع التى يمكن بها مماثلة الاوروباويين فى هذا العصر ولا يخفى ان مملكة متسعة مثل هاته تشمل أصنافا من البشر لا بد ان يكون أهلها مختلفى الطبائع والعادات فالمسلمون كالجركس والكرج هم أهل شجاعة وتجلد وصبر على اقتحام المشاق مع تعصب لبعضهم وغيرهم من المسلمين وغيرهم كأهل خيوا والقريم والداغستان هم أيضا فيهم تلك الصفات غير انها أقل من سابقيهم ودونهم أيضا فى التعصب وقد استولت الروسيا على هاته الممالك تدريجا فمنذ نحو ثلاثمائة سنة وهى تمتد فيهم شيأ فشيأ ومع كون الروسيا استبدادية فالمسلمون الذين طال استيلاؤها عليهم وتناسوا العداوة تعاملهم الآن بالرفق وحرية الديانة بحيث يكون الاذان والصلوات فى المساجد وعقد الانكحة كلها قائمة وكذلك تعلم العلوم الدينية ولسانهم هو أيضا مباح ولا يتعرض لهم بشئ وتجرى عليهم بقية الاحكام الشخصية والسياسية مثل بقية الروسيين حتى فى اتخاذ العساكر منهم لكن أكثر العساكر منهم هم على غير نظام مما يسمى قزاق نوع من الخيالة الغير النظامية وأما المسلمون الذين تسلطت عليهم من قريب فتجرى فيهم أنواع القهر والغلظة من الحكم العسكرى البحت ما تنفر منه الطباع وذلك للتحرس من ثورتهم وتربية الجيل الناشئ على المذلة والخضوع الى حكمها ولله الامر من قبل ومن بعد

الفصل * الثالث عشر

﴿المملكة الثالثة عشر مملكة هرات﴾

هاته المملكة موقعها شرقى ايران وغربى بعض الصين والهند وجنوب الروسيا وشمال

أفغانستان وكانت تابعة لايران ثم استقلت عند استقلال الافغانستان وأهلها مسلمون سنيون والظن أنها لا تلبث أن تلتهمها بعض الدول المجاورة لها لصغرها بالنسبة اليهم والاقرب رجوعها لايران باعانة الانكليز في هاته المدة لاتمام مأربه هو في الافغان حيث انهم موافقون لهم في المذهب ويعدونهم بالاعانة على حرب الانكليز فلذلك أغرى ايران بالحرب لهم والاستيلاء عليهم بيد ان سياسة الروسيا عطلت ذلك وعدد الاهالي مجهول الحقيقة وعلى التخمين انهم نحو مليونين تحت ملك مسلم استبدادي مطلق من ذرية أحمد شاه الذي أنشأ في أفغانستان وماوالاها مملكة ذات شأن والاحكام الشخصية شرعية ولهم أيضا فيها احكام سياسية لكن النفوذ قليل لان أغلب السكان قبائل رحالة فيهم حرية البداوة وهم من أصل التركمان وكانت في المملكة مدن عظيمة في أودية بين الجبال التي على جنوبي صحراء خوارزم هدمت كلها بتخريب جنكس خان التترى وقاعدة المملكة مدينة هرات وهي مدينة عظيمة تسقى بنهر يتشعب في شوارعها ودورها ولها تجارة حسنة في نتائج أراضيها المخصبة مع الممالك المجاورة وفيها من النباتات كل نبات الاراضي المعتدلة لاعتدال هوائها وسلامته وكانت مناخا للعلوم ومنبتا للعلماء الافاضل حتى قال ياقوت في المشترك ان علماءها لا يحصى كثرتهم الا الله وهي الآن دون ذلك وانما فيها من العلماء حسب الحال ولاهلها من الصنائع الجيدة السيوف وآلات القطع لان تيمورلنك نقل اليها ماهري هاته الصناعة عن دمشق فبقيت فيهم الى الآن ولهم مهارة في صناعة البسط والاقمشة الحريرية ويقال في قوتها الحربية والمالية ماقيل في أفغانستان على نسبة عدد سكانها

الفصل * الرابع عشر

﴿المملكة الرابعة عشر هي امارات التتر المستقلين﴾

هاته الامارات موقعها غربي الصين وشرقي وجنوبي بعض الروسيا وشمالي وشرقي هرات وبعض ايران وجميع السكان مسلمون سنيون وحقيقة عددهم مجهول وانما يقال على التقريب انهم نحو سبعة أو ثمانية ملايين وقد كانت الممالك منقسمة الى (خمسة) أقسام كل قسم مستقل تحت حاكم يلقب بالخان (وهي) خيوه وبخارى وتشقند وخوقند وقبائل التركمان الرحالة المعروفة بتكى (واما الآن) فان خيوا دخلت في حوزة الروسيا

وصارت

وصارت جزأ من ممالكها وان أبقيت لها بعض امتيازات ظاهرية كابقاء خانها ولقبه غير انها في الواقع هي من مملكاتها الداخلة في حكمها وتحت أمرها (وأما بخارى) فهي أيضا مثل خيو غير ان امتيازاتها أكثر منها وعلى كل حال فكلاهما يصح أن يقال انهما مستقلتان بالادارة الداخلية تحت الامر الروسي ويؤديان له الخراج السنوي ولهما عساكر بقدر ما تسمح لهما به الروسيا للتحفظ على الراحة في المملكة أو لاعانة الروسيا فيما تأمرهما به (وأما تشقند) فقد صارت ولاية روسية تحت حكم جنرال روسي فهي حينئذ مشمولة بالكلام الذي سبق في أحوال مملكة الروسيا (وأما خوقند) فلا زالت مستقلة تحت امارة خانها وحكمها استبدادي وعدد سكانها نحو مليونين (وأما قبائل التركمان) فقاعدة مملكتهم هي (مرو) وموقعها جهة الشرق الجنوبي من بحر قزبين المستملكة جميع شطوطه الروسيا وعدد السكان نحو مليونين ونصف لكنهم ليسوا خاضعين حقيقة للخان وانما هم قبائل لكل منها رئيس وكأنها مع أختها لا تلبثان أن تلحقا اخواتهما اذ الحرب الآن قائمة على ساق بين الروسيا وقبيلة تكى وقد كسروا الروسيا في هذا العام وهو سنة (١٢٩٧) مرتين انكسارا هائلا ولا زالت تستعد لحربهم واخوانهم ممن استولت الروسيا عليهم وغيرهم ينظرون اليهم كما كانوا هم ينظرون الى حربهم معها الى ان ينفذ حكم الله الذي لا معقب لحكمه وتكون له الحجة البالغة (سبحانه وتعالى) حيث تفرق المسلمون شيعا للاغراض والاهواء النفسانية ولم يجروا الشرع في الاحكام الكلية والجزئية واخلدوا الى الجهل والتنعمات الزائلة حتى تمكن العدو منهم وصارت بلدان الاسلام ومناخ العلوم لعبة بأيدي الاعداء وأصحاب الاهواء (ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم) فوا أسفاه على بخارى وسمرقند وغيرهما من مدارس الدنيا في الفنون والعلوم الدينية والرياضية ووا أسفاه على تلك الدقائق والاستنباطات والاختراعات لتأسيس العلوم وتهذيبها واتقانها ورحم الله أولئك الرجال الذين عمروا الارض وحموا الدين ولم تزل الامم تستنفع بمعارفهم الى الآن ولم يعملوا بها بل ولم يتعلموها حق علمها حتى كادت أن تصير في خبر كان والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

الفصل * الخامس عشر

﴿المملكة الخامسة عشر هي ممالك الائمة في جزيرة العرب﴾

هاته الممالك يحيط بها البحر من جهتين فمن الشرق خليج فارس ومن الجنوب المحيط
الشرقي ويحدها غربا الحجاز واليمن من توابع الممالك العثمانية وعدن التابعة
للانكليز ومن الشمال العراق العربي للدولة العثمانية وهاته الممالك هي المعروفة
سابقا بنجد وتهامة واليمامة وأخلاقهم هي أخلاق العرب في هذا العصر من التجرد عن
أغلب الصفات التي كانت للعرب السابقين وأما الديانة في الجميع فهي الاسلام وأما
المعارف والعلوم فكادان لا يعرف عندهم منها اسم ولا مسمى الا القليل منهم في قليل من
علوم الدين والحاصل انهم أمم يقرب بهم الجغرافيون بستة ملايين من النفوس على البداوة
وأغلبهم رحالة ينقسمون في الاحكام الى شيع كثيرة يلقب كل رئيس منهم بالامام كامام
مسقط وامام رياض بنجد من الوهابيين أعني أتباع عبد الوهاب الذين ظهروا في أوائل
القرن الثالث عشر ناشرين دعوة شيخهم محمد بن عبد الوهاب حيث كان مدعيا بحفظ
السنة وابطال البدعة فتجاوز الحدود حتى منع المباح وقويت شوكته وكثرت أتباعه حتى
تسلط على الحرمين الشريفين وقطعة من العراق الى كربلا ومسجد علي وخربه وهدم
البناآت على القبور وأزال الكتابات التي عليها وأراد أن يحمل الناس على الاتباع
حتى في العادات الدنيوية وان اختلفت الاعصار ولم يتقيد بمذهب خاص بل انه يدعي
العمل بالحديث على مقتضى ما يفهمه وسيأتي ما يتعلق بهاته المسئلة في فصل من المقصد
عند الكلام على رجوعي من السفر الاول الى باريس وملخص الكلام ان هاته الفرقة
تجاوزت المقصد الصحيح في الدين الذي ينبغي التيقظ اليه وان كانت تدعيه كما ان بعض
الرادين عليها تجاوز واحد ما ينبغي وخرجوا أعمالها كلها عن حدود الشرع بل كادوا
أن ينسبوها الكفر وقد ألفت تآليف كثيرة في الرد على مذهبهم من علماء مصر
وتونس وغيرهم لما استفحل أمر هاته القبيلة واستولت على الحرمين الشريفين ونشرت
دعواها في تأليف خاص وبقيت على ذلك الى ان تجرد لها ابراهيم باشا من أمراء مصر
وقهرها وأسر رئيسها سعود بن عبد العزيز العنزي من ربيعة الفرس حيث كان هذا
من أعظم أنصار الوهابي والقائمين بدعته وانتشار مذهبه الى ان مات في ضراعة وتلاشت
من ذلك الوقت تلك الدعوة والدولة ولم يبق لها اعتبار الا في نجد وأمامها الآن أحد
نسل سعود المذكور وهو في التصرف أشبه بشيخ قبيلة بعيد عن الملك وانتظامه وشارته
وهكذا سائر الائمة المتقاسمين بتلك الجهات والاحق ان لا يعتبروا مملكة مستقلة وانما
يعتبرون كأنهم قبائل في أطراف الممالك العثمانية غير خاضعين اليها ولو انها احسنت
التصرف

التصرف بالدين والسياسة فانها بارادة الله تضمهم الى ممالكها وتنتظم أمرها على
أحسن ترتيب فينصلح حالهم وتتقوى بهم الدولة الاسلامية لان في أراضيهم أودية
فسيحة خصبة وجبالا غنية بالاشجار والمعادن لاسيما في نجد مع كرامة خيلها في الدنيا
والرغبة فيها من جميع أهل العالم العارفين بالخيل وكذلك عندهم من الحيوانات
الانسية والوحشية ما هو مورد للثروة فكما امتدت الدولة العلية بالولاية على اليمن شيئا
فشيئا الى العهد القريب كذلك ان شاء الله تجمع كلمة الاسلام هناك على خليفة واحد
وكان سبب بقائهم الى الآن لم تستول عليهم احدى الدول هو اتساع أراضيهم وكون
أغلبها صحارى وقفارا وأكثرهم قوم رحل فلا ينضبطون بسهولة لانهم يلتجئون الى
الدواخل والدولة العلية يسهل عليها ذلك لاتحاد الدين والاستيلاء على أغلب حدودهم
فلا يصعب عليها المدد والاستعانة ممن جاورهم وبالعلماء في هداياتهم حتى تجري فيهم
التراتيب الشرعية وتنتفع بهم الامة كما ينتفعون هم بالعدل والتمدن والمعارف ولاشك
ان لاتحادهم اعتبارا عظيما عند ما يتقدمون لاسيما وأصل الغريزة العربية سليمة ولله
الحمد أصفى قابلية للتقدم من غيرها وشاهده ما حصل من العرب بعد غرس الحكمة فيهم
بالدين الاسلامي وأهم هؤلاء القبائل وأئمتها الآن هي قبيلة مسقط ولها امام وقد أدخل
تحته طوعا قبيلة ظفار في هاته السنة وهي (سنة ١٢٩٧) وله نوع احتماء بالانكليز
كما سيأتي في الكلام على زنجبار من أفريقية

الفصل * السادس عشر

المملكة السادسة عشر

هي مملكة نيبول وموقعها بين جبال هملاي الوسطى وتراي وبين سكين من شرقيها
وكماوون من غربها فهي واقعة بين الصين والهند الانكليزي فلها الصين من
الشمال والشرق الشمالي والهند من الجنوب والغرب والشرق وعدد سكانها نحو
مليونين ونصف وعوائدهم مثل أو قريب من الهمج من الدول الشرقية مع شجاعة
وكذلك أحوال ديانتهم

الفصل * السابع عشر

﴿ المملكة السابعة عشر ﴾

هى مملكة بوتان أو بهتان وهى أرض بين جبال همالاى وأسام وهى شرقى المملكة السابقة وتفصل بينهما قطعة من ممالك الهند الانكليزى فيحدها جنوبا الهند الانكليزى وكذلك شرقا وغربا ويحدها الصين شمالا وسكانها نحو مليون من النفوس وديانتهم وثنية ولهم ملكان أحدهما دينى ويعتقدون حلول الاله المسمى عندهم بودا فيه ويلقبون هذا الملك دورمه رجا والثانى هو الملك السياسى وبيده القوة الحربية والحكمية ويلقبونه دب رجا ويتصرف فى العسكريه بواسطة أميرين أحدهما فى مشرق المملكة والثانى فى مغربها وهم فى الحقيقة همج اذ القبائل غير خاضعين للحكام

الفصل * الثامن عشر

﴿ المملكة الثامنة عشر ﴾

هى مملكة كشميرا الشهيرة بما لها من المنسوجات الرفيعه وتختها مدينة كشمير وقد صارت دولة مستقلة من (سنة ١٢٦٣ هـ و ١٨٤٦ م) غير انها تؤدى خراجا سنويا الى الانكليز وموقعها فى الشمال الغربى من ممالك الهند الانكليزية فيحدها جنوبا ماذكر وشرقا الصين وشمالا التتر المستقلين وغربا افغانستان وأهلها نحو سبعمائة ألف لكنها ازدادت اتساعا بما استولت عليه من قبائل الجبال التى فوق التتر وأهاليها مسلمون ولها ملك بادارة استبداديه شبه القانونيه وعليه نظر الحاكم العام الانكليزى فى الهند لكن لكثرة امتيازاته ذكرناه مستقلا وكذلك يرسم فى الخرايط

الفصل * التاسع عشر

﴿ المملكة التاسعة عشر مملكة الجابون ﴾

هاته المملكة هى أول ممالك الجزر التابعة لآسيا وهى متكونة من عدة جزر شرقى مملكة الصين وكانت فى القديم تابعة للصين وأهلها مثل أهل الصين فى الشكل

والعادات

والعادات والحذق بالصنائع وعددهم نحو ثلاثة وثلاثين مليونا وثلاثمائة ألف وستمائة وخمسة وسبعين نفسا ثم استقلوا فى أحكامهم وملكهم وفى أواخر هذا القرن أعنى منذ نحو عشرين سنة استولى ملكهم رجل عاقل من عائلة الملك وشمر عن ساعد الجد فى احداث عصر جديد للمملكة حتى خرجت عن أن تشبه الممالك الشرقية وصارت كأنها دولة ومملكة أوروباوية غربية من أعظم الممالك ذات السطوة والشأن والتمدن والتقدم والمعارف والصنائع وذلك انه تولى ملكهم المسمى الميكادو وكان حدث السن ذا أخلاق حسنة وتربية صالحة وكان معجبا بأحوال الاوروباويين القادمين الى دولته للسياحة والتجارة وكان سمع من أحوال أوروبا وتقدمها ما هو معروف ورأى من تقهقر مملكته وما جاورها ما أوجب له العزم على تغيير حالتها ولكنه خشى من تمسك قومه بالعادات القديمة التى يحافظون عليها كأهالى الصين لكنه استعان بالحالة المخصوصة بها أمته وهو اعجابهم بالحوادث الجديدة فابتدأ بتغيير زى المتوظفين ورؤساء الدولة وجعله على النحو الاوروباوى وبقى هو فى ذاته على الزى القديم مختبرا لافكار القوم بذلك فلم ير منهم الا الاسراع والاستحسان لما أمر به فلم يلبث ان غير زيه فى نفسه وأرسل سفراء الى أوروبا لاستقراء ما فيها من أصول المنافع والصنائع وآلات الحرب وحركاته وجلب المبادى المحتاج اليها فى مملكته من علماء وآلات وغير ذلك ثم ألزم أمته باعطاء الحرية العمومية حيث كانوا تحت حكم الاشراف بمعنى ان كل عائلة شريفة تملك قسما من الاراضى بمن فيها من الناس يكونون تحت عبوديتهم وامتثال أوامرهم فابطل هاته العادات وانتخب من قوانين ممالك أوروبا ما صلح فى نظره وصلحه على مقتضيات عادات بلاده وأمر بالعمل به كما ألزم العمل بالطريقة العسكرية فى حركات الحرب المعمول بها فى أوروبا وألزم كل ذكر يبلغ سن العشرين بالانتظام فى سلك العسكرية للدفاع عن الوطن على قانون معروف وفتح المكاتب والمدارس فى العلوم الرياضية وغيرها وكثرها التكثير اللازم وألزم الاهالى بعقد الشركات للبريد وأنواع التجارة والفلاحة وفتح الطرق الحديدية واستخراج المعادن وزيادة عما جلبه من السلاح الاوروباوى من الطراز الجديد أحدث معامل فى مملكته وانشاء السفن حتى كانت عنده احدى عشرة مدرعة وبالجملة فان انقياد الامة الجابونية الى هذا الملك وتقدم هاته المملكة فى أسرع وقت من عجائب هذا القرن التى تخلد فى التواريخ وستأتى قوتها الحربية والمالية فى جدول الدول وعلى ما تقدم فتعتبر كاحدى الدول

الاوروباوية الاول المتقدمة وفيها من الثروة والتمدن والغناء ما في ممالك أوروبا وما في مملكة الصين وقاعدة هاته المملكة مدينة جدو في جزيرة نيغون التي بها جبال بركان كثيرة ولاجلها يكثر فيها الزلزال ومعادنها غنية وأصل ديانتهم كديانة أهل الصين

الفصل * العشرون

﴿المملكة العشرون مملكة اتشين﴾

وهي قاعدة جزيرة سومطرى وهاته الجزيرة خصبة جدا وفيها معادن جيدة ومغاص على اللؤلؤ ويقسمها خط الاستواء الى قسمين وهواؤها على العموم جيد في الجبال ردىء في الاودية وسكانها نحو ثلاثة ملايين وكان من الحق ذكرها في اتباع الدوله العثمانية لكن التغافل من بعض المتوظفين أوجب اهمال الدولة لحقوقها فيها على ماسيأتي وأوجب التكلم عليها باستقلالها وذلك ان هاته المملكة كانت في الزمن القديم تحت رؤساء من المجوس الى أن فتحها السلطان (جودشاه) من أمراء الهند في ٤ رمضان (سنة ٦١١) وأسلم كل أهلها وتمذهبوا بمذهب الشافعي وفي (سنة ٩٢٢) في ولاية سلطانها (فرماه شاه) بايعت بالخلافة للسلطان (سليم خان) وحصلت منه على فرمان متضمن لقبول حمايتها وابقاء سلاطينها على يد الوزير سنان باشا ثم جدد ذلك السلطان عبد المجيد (سنة ١٢٦٧) وأرسل الى سلطانها (علاء الدين منصور شاه) فرمان التبعية ونيشانا مرصعا ونشرت على قلاعها وسفنها الراية العثمانية وعدة سلاطين تلك العائلة الى (سنة ١٢٩٣) ستة وثلاثون سلطانا وبمقتضى ما لهم من الرخصة في ادارة المملكة مع تكاثر الاجانب وحبهم التسلط في جهات الهند وجزره عقد أحد سلاطينهم المسمى علاء الدين محمود شاه سنة ١١٥٥ معاهدات مع الهلانديين على أحوال التجارة والسياسة ومنها ان لا يقع منهم التعدي على أحد رعايا اتشين ولا التعدي على حقوقها وممالكها ثم معاهدة أخرى مع الانكليز سنة ١٢٤١ ايام السلطان جوهر العالم شاه وبموجب ذلك سوغ للمملكتين المتاجرة في مملكة اتشين فاما الانكليز فمازالوا قائمين بعهدهم الى الآن وأما الهلانديون فاخلوا بالعهد منذ سنة ١١٨٠ فاستولوا على بعض جوانب من المملكة لكن لما كان أهلها نافرين عن سلطانهم وبينهم عداوة سكتت دولة اتشين على الاستيلاء عليهم كما هي المصيبة في هذا الزمن بالمسلمين من الشماتة ببعضهم بدخول الاجانب فيهم حتى يتمكنوا منهم جميعا

جميعا الاقدر الله ثم لازالت هولانده تفتح في أبواب التسلط على المملكة الى ان فتحت عليهم حربا فجأة سنة ١٢٩٣ وكان سلطانها اذ ذاك حديث السن وهو (محمود شاه علاء) وعند غيبة الناظر عليه ومدبر أمور مملكته الامير عبد الرحمن الزاهر حيث توجه الى الاستانة لاستنجاد الدولة العلية أيام السلطان عبد العزيز فلم يساعد واشتد الحرب بينهم ولا زال الهلانديون يفتحون في تلك المملكة الى الآن وان وجدوا من الحمية والشجاعة ما عاقهم من انفاذ غرضهم عن محل لكن اعانهم خذلان بعضهم لبعض مع عدم آلات الحرب وعدم معرفة آلاته الجديدة وأما قوة هاته الدولة المالية والحربية فغير معلومة وكانها لا تلبث ان تصير من أتباع هلاند كما وقع في جزيرة جاوة وجزاير واقواق وغيرها مما استولى عليها الفرنسيس والهلانديون وغيرهم من الدول الاوروباوية فان لكل من هاته الدول مستعمرات في هاته القارة في شطوط الهند وفي شرقيه وجزره وتجرى فيهم أحكام الدول المتغلبين لكنها ليست كأحكام ممالكهم وانما هي أحكام استبدادية عسكرية بمراعاة العوائد للاهالي ولما كانت هاته المستعمرات لا تبلغ الى مستعمرات الانكليز لم نذكرها على حدتها مثل ماذكرنا الهند الانكليزية ولله ميراث السموات والارض

﴿القسم الثاني من الارض﴾

هو قارة أوروبا هاته القارة يحيط بها البحر من جميع جهاتها الا الجهة الشرقية فتتصل بقارة آسيا المار ذكرها والحد بينهما هو جبال ارال ونهر دون الذي مصبه في البحر الاسود ثم يحدها جنوبا البحر الاسود وبحر مرمرا والبحر الابيض وبغاز طارق وغربا المحيط الغربي والمانش وشمالا المحيط الشمالي والمنش والبالتيك والمنجمد القطبي وهاته القارة الآن رمقها السعد بألحاظه وحط لديها ركابه فكما تسعد أفراد الانسان وتنحس كذلك بقاع الارض حاشا البقاع المكرمة بالانوار الالهية وانما نعني البخت الدنيوي فان هاته القارة كانت قد لبثت مدة وهي في الحضيض الاسفل ما بين خلاء وخراب ودثار وتوحش فيما سلف من العصور الى أن حدثت فيها دولة الرومان واليونان وتشعشعت فيها المعارف وارتقى فيها التمدن والصنائع لكنها لم تلبث ان عادت كما كانت عليه من التوحش والبربرية لاقتصار تلك المبادي الحسنة على افراد وان كانوا كثيرين في مراكز مخصوصة وانحصار السلطة القهرية في تلك المراكز فزال التقدم بتقهقر تلك السلطة غير انها حدث فيها تمدن آخر في مدة الامبراطور شارلمان المعاصر للخليفة هارون

الرشيد الذى أكب على المعارف وملازمة أهلها وبث منها فى ممالكه ما وسعه الامكان غير انها تقهقرت بعده أيضا وشرع فيها التمدن منذ خمسمائة سنة على خلاف المعهود سابقا وامتد فيها تدريجا الى أن بلغت فى هذا العصر الى الدرجة القصوى من التهذيب والتمدن والمعارف الدنيوية حتى صار لاهلها الوجاهة والنفوذ على جميع أقسام الارض ودونك انموذجا الاخبار ذلك الترقى وحاصله ان أهالى اوروبا استفادوا من العلوم التى باللسان اللاتينى واليونانى اللذين تحفظت عليهما الكنيسة وكان أهلها فى مدة الجهل العام يبذلون أقصى الجهد فى التحفظ على تعلم ذينك اللسانين وترقى تلامذتهم فى العلوم الموروثة من الرومان واليونان كما استفادوا من الامة العربية فى المغرب بمجاورتها فى الاندلس فأخذوا عنها العلوم الرياضية وتهذيب الاخلاق والجغرافيا التى علمها المسلمون بالاسفار للحج من الاقطار القاصية والفتوحات الممتدة شرقا وغربا والاعتناء بالتجارة حتى ان ملك صقلية دعا اليه العلامة الادريسى وألف عنده كتابه الغريب المسمى نزهة المشتاق فى الجغرافيا واستفادوا أيضا من الاسلام فى المشرق فى مدة حروب الصليب فخالطوهم وتعلموا منهم مسالك الترقى والقوة وفنون المعارف فانبثت فيهم فى جهات عديدة فى وقت واحد فكانت فى القرن الثالث عشر المسيحى الموافق للقرن الخامس والسادس الهجرى علماء فى الفلسفة وغيرها فى كل من فرانسا وايطاليا والمانيا واجتهدت من ذلك الوقت كل جهة فى ترقية نفسها والتشبث بالوسائل التى لا تحوجها الى غيرها وأعظم الوسائل التى أعانتهم على بلوغ المعارف صناعة طبع الكتب التى كثرت بها الكتب ورخصت حتى تيسر الاطلاع عليها حتى لغير ذى الثروة ولما انفتحت بصائرهم وعلموا ان العوائق عن بلوغ المقصود منحصرة فى عدم انسجام الادارة والاحكام على مقتضى المصلحة وعدم صرف النظر الى منافع الامة حيث لم تكن لهم شريعة تضبطهم وانما الملوك المستبدون هم الذين يتصرفون كما أرادوا وجذبوا اليهم العلماء بالترغيب والترهيب فأعانوهم على العامة الى ان وصلوا الى درجة الاضمحلال فلما انفتحت بصائر الامم تحزبوا فى جهات الى تقييد التصرف من الملوك بمشاورة رؤساء الامم ووجهائهم وان تكون الادارة على قانون معلوم موافق لعادات الامة وما يقتضيه حالها وان يستوى الشريف والمشروف فى الحقوق الشخصية وان لا يمتاز قسم من الناس بالاشياء الضرورية كالعلوم والاراضى والتجارة وغيرها فحصل هذا المقصود فى بعض تلك الممالك باراقة الدماء الغزيرة بين الملوك المستبدين وبين الامة

وفى

وفى بعض الممالك تفطن عقلاء ملوكها الى وجوب العمل بذلك الوجه اما لحذقهم وايثارهم للمصلحة العامة على الخاصة بهم حيث علموا انها أى الخاصة لا تدوم الا بدوام الامة فآثروا مصلحة الامة أو اتقاء من ايلولة أمر المملكة الى ما آل اليه غيرها مما الاثمرة لهم فى الاصرار على منعه فسارعوا الى منح الاهالى القوانين والحرية منة منهم وما حصل فى احدى الممالك اجراء القوانين على أى وجه من الوجوه المتقدمة الا اخذت فى الترقى والثروة لانكفاف الظلم المؤذن بالخراب فتحسنت أحوالها ونمت سكانها وعمرت أرضها وكثرت صنائعها وانتشرت فيها المعارف وزادت اتقانا واختراعا وامتدت تلك المملكة بسطوتها على من لم يجاريها فيما هى عليه وسرى العمل على ذلك النحو فى جميع ممالك أوروبا تدريجا الى ان عم جميعها ولم يبق منها الآن مخالفا لبقيتها الا مملكة الروسيا بحيث يصح ان يقال ان جميع أوروبا كانها مملكة واحدة على نمط واحد وغاية الاختلاف بينها انما هو بزيادة الثروة والقوة والحضارة أما أصول هاته الاشياء فهى موجودة فى الجميع ولذلك نتكلم على هاته القارة كلاما عاما ونذكر أسماء ممالكها وقواها اذ هذا كاف فى المقصود من هذا التأليف حيث ان المقصود هو معرفة الممالك الآمنة من غيرها سيما ونحن سنذكر ان شاء الله تعالى فى المقصد تفاصيل ممالك مهمة منها فيقاس عليها غيرها اذ هى متشابهة على التقريب وانما نفرد دولة الروسيا المخالفة سيرتها لبقيتها وأما الدولة العلية فقد تقدم الكلام عليها فى قسم آسيا فاحكامها جارية فى الجميع على السواء غير انها لما كانت لها فى قسم أوروبا ولايات ممتازة وولايات غير ممتازة فنعيد ذكرها هنا أيضا وعلى ذلك فنقول ان أوروبا تنقسم الى دول جنوبية ودول وسطى ودول شمالية وجميعها ثمانية عشرة مملكة كلها نصرانية الا الدولة العلية كل منها مستقل عن الآخر وان كان بعضها يتألف من أكثر من مملكة واحدة فالدول الجنوبية ستة وهى الدولة العلية والجبل الاسود واليونان وايطاليا واسبانيا والبرتقال والوسطى ستة أيضا وهى فرانسا واسفيسرا والبلجيك وأوستريا والصرب والرومانيا والشمالية ستة أيضا وهى الروسيا والسويد والدانيمرك وهلاندة والمانيا وانكلتيرة

الفصل * الحادى والعشرون

فأما الدولة الاولى فهى الدولة العلية وتختها القسطنطينية فحالتها العامة تقدم الكلام

عليها وأما الخاص منها بهاته القارة فان لها ممالك رحيبة فمنها ماهو ممتاز ويؤدى اداءسنويا معلوما وادارته فى نفسه مستقلة كولاية البلغار التى قاعدتها صوفية فانها بعد معاهدة برلين الناتجة من حرب سنة ١٢٩٤ التى سياتى تفصيلها فى المقصد ان شاء الله تعالى صارت هاته الولاية أمارة نصرانية مستقلة وادارتها على نحو الايدارات العامة فى ممالك أوربا ذات القوانين التى يرد الكلام عليها عن قريب ان شاء الله تعالى وأغلب سكانها بلغاريون وبقية سكان الامارة من المسلمين واليونان وكل منهما فى أشد الضنك لاسيما المسلمين من قساوة القسم الغالب الذى صارت له السيادة على الجميع لانهم ولان كانوا ظاهرا ادارتهم حرة قانونية لكن الباطن استبدادية تحت اشارة الروسيا المستمدة المواددة للامارة المذكورة وهاته الامارة ليس لها حق فى انشاء حصون على حدودها والحصون التى كانت فيها للدولة تهدم بمقتضى معاهدة برلين وعساكر الامارة يكونون من الاهالى وأغلب رؤسائهم الآن من الروس والى الآن لم يتعين مقدار الاداء السنوى الذى يلزمها اداؤه للدولة العلية بسبب التراخى عن اجراء جميع فصول معاهدة برلين وكذلك للدولة العلية فى هاته القارة ولايات أخر مستقلة فى الادارة ومازاد من دخلها عن مصارف مصالحها الذاتية يؤدى الى خزنة الدولة الا الكمرك والدخان فهما راجعان للدولة وهاته الولايات نصرانية وشروط واليها أن يكون نصرانيا يولى من الدولة بعد موافقة الدول عليه ولا يعزل قبل اتمامه لخمس سنين وأما العساكر فليس لها أن تنظم جيشا وانما تحدث حرسا أهليا لانفاذ الاحكام وحفظ الراحة المعتادة وان أحوج الحال الى قوة عسكرية فان الدولة ترسل للوالى مقدار ما يطلبه لذلك وللدولة أن تقيم فى الحصون والحدود عساكر على حسب ما يظهر لها بشرط أن لا يكون على الاهالى منهم أدنى كلفة أو تعاق وهاته الولايات هى الرميلى الشرقية واكريت والسوسام والاحكام الجارية فيها قانونية بواسطة مجالس من الاهليين كما ان للدولة ولايات أخر فى هاته القارة ليس لها امتياز عن غيرها من بقية الممالك وهى ولايات الرميلى كادرنة وشقودرة وسلانيك وجزاير البحر الابيض وأما بوسنة وهرسك فكلاهما تحت تصرف النمسا وهما من حقوق الدولة ولذلك كان لها فيهما العلم بحيث ينشر كل من علم أوستريا وعلم الدولة معا والخطبة باسم السلطان العثمانى والمتوظفون العثمانيون ان صلحوا فى نظر الوالى الاوستورياوى يبقون كما ان أوستريا أدخلت عساكرها مشاركة للعساكر العثمانية فى صنجق نوفى بازار مع بقاء الادارة بيد الدولة وكل ذلك بموجب معاهدة

برلين

برلين فيحد أملاك الدولة فى أوروبا الآن شمالا الانهر الطونة وغربا النمسا والصرب والجبل الاسود وبحر البنادقة ويحدها جنوبا بوغاز القسطنطينية وبحر مرمرا وبوغاز جناق قلعة وبحر الجزر والبحر الابيض واليونان وشرقا البحر الاسود وبحر الجزر

الفصل * الثانى والعشرون

وأما الدولة الثانية وهى الجبل الاسود فانها استقلت بعد الحروب الواقعة سنة ١٢٩٢ وكانت تابعة للدولة العلية ولازالت تلقب بالاماوة ثم ضم اليها قطع من ممالك الدولة العلية وصار الآن سكانها نحو ثلاثمائة ألف ويحد هاته المملكة شمالا فى البعض أوستريا وغربا بحر البنادقة ومن بقية الجهات الدولة العلية وقاعدة المملكة ستين

الفصل * الثالث والعشرون

وأما الدولة الثالثة وهى اليونان فانها كانت تابعة للدولة العلية أيضا واستقلت فى سنة ١٢٤٦ وكان اذذاك عدد سكانها نحو ثمانمائة ألف فتكاثروا الى ان بلغوا الآن الى مايزيد على المليون ونصف ولهذا الجنس الشهرة التامة فى التقدم وفنون العرفان فى الاعصر السابقة الا انهم لم يبقوا على ما كانوا عليه والى الآن لهم اعتناء زائد بالاسفار وقوة البحر وهذه المملكة شبه جزيرة فى البحر الابيض فيحيط بها من جميع الجهات الا الجهة الشمالية فتحدها الدولة العلية ولها جزاير أخر بقربها تابعة لها وقاعدتها اتينا

الفصل * الرابع والعشرون

وأما الدولة الرابعة وهى ايطاليا فقد كانت منقسمة الى عدة أمارات وممالك ثم فى أواسط هذا القرن أخذت فى الاتحاد الى ان تم اتحادها بجعل مدينة رومة تختا لها فى سنة ١٢٨٧ وصارت دولة من الدول العظام سكانها نحو سبعة وعشرين مليونا ويحدها البحر الابيض من الغرب فى البعض وفى الباقى فرانسا ويحدها جنوبا البحر المذكور ويحدها من الشرق بحر البنادقة فى الجل وفى البعض أوستريا ويحدها شمالا أوستريا فى البعض وفى الباقى سفيسرة وفرانسا وسيأتى مزيد الكلام عليها بانفرادها فى المقصد ان شاء الله تعالى

الفصل * الخامس والعشرون

وأما الدولة الخامسة فهى دولة اسبانيا وقد كانت متلاشية فى شمال الاندلس ولما أكب المسلمون هنالك على شهواتهم وعملوا بالظلم بعد ان بلغوا الدرجة القصوى من العدل والمعارف والقوة حتى فتحوا قسما عظيما من فرانسا ثم تركوا ما كانوا عليه وانقسموا ملوك طوائف كما قال شاعرهم

مما يزهدنى فى أرض أندلس ❁ ألقاب معتضد فيها ومعتمدى
ألقاب سلطنة فى غير موضعها ❁ كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

فحينئذ استعانت دولة الاسبنيول بذلك الانقسام والظلم واعانت بعضهم على بعض وتستبد هى بالفائدة الى أن تسلطت على الجميع وفعلت من التوحش والقسوة ما تنفر عن سماعه الآذان حيث ألزمت المسلمين اما تبديل دينهم أو القتل فهرب من قدر منهم على النجاة أفواجا أفواجا حفاة عراة وتشتتوا فى المغرب والجزائر وتونس ايدى سبا ثم استفحل أمر تلك الدولة أى الاسبنيولية الى أن كانت هى وحدها اذ ذاك ذات التقدم على سائر الدول الاوروباوية لما فازت به من ثمرات فنون المسلمين وصنائعهم وكانت وحيدة فى القوة البحرية حتى ان أول من اكتشف أمريكا كان من اسطولها كما سيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى وعمرت مستعمرات فى أمريكا والبحر الهندى وأفريقية غير انها فيما بعد اثخن فيها الاستبداد جراحه سنة الله فى أرضه فتقهقرت الى ان كادت أن تتلاشى وخرج عنها كثير من مستعمراتها وخربها الظلم ونقصت فيها الانفس والاموال والثمرات الى أن استفاقت الامة من غفلتها وثاروا ثورة واحدة حتى حصلوا على ترتيب دولة قانونية وامتد أمرهم فى تحصيل مقصودهم بضع سنين وهى من سنة ١٢٨٦ الى سنة ١٢٩٣ فاستقر حالهم على حكومة حرة وملكوا عليهم ابن ملكتهم السابقة التى ثاروا عليها بعد ان سيروا الحكومة الجمهورية ثم عدلوا عنها وارادوا أحد عائلات ملوك أوروبا فملكوا عليهم ابن ملك ايطاليا ثم بدا له منهم النفرة فخلع نفسه وأوصلوه الى بلاده محروسا مكرما وعادوا الى الجمهورية فأنف منها شرفاؤهم وأغلب الاهالى فاستقر أمرهم على ابن ملكتهم المذكور على ان يكون تحت القوانين المرتبة وخاضعا لها فاستقام حالهم بذلك وأقبلوا على اصلاح شؤونهم بيد ان ذلك لما كان حاصلا من عهد قريب وبعد

حروب أهلية لم تتراجع دولتهم الى ان تعد من الدول الاولية وسكان هاته المملكة عدى ما بقى لها من المستعمرات سبعة عشر مليونا ولها مستعمرات فى أمريكا وفى شطوط أفريقيا وآسيا وجزر الاقيانوس يبلغ عدد سكانها نحو تسعة ملايين وهاته المملكة يحدها جنوبا بوغاز طارق والبحر الابيض وشرقا البحر الابيض فى البعض وفرانسا فى الباقى وشمالا المحيط الشمالى وغربا المحيط المذكور ومملكة البرتقال وقاعدتها مدريد

الفصل * السادس والعشرون

وأما المملكة السادسة وهى مملكة البرتقال فقد كانت قسما من الاندلس ثم اسبانيا وعند تقهقر هاته استقلت عليها واجرت القوانين فكانت مستقيمة السيرة على قدر حجمها وسكانها نحو أربعة ملايين ونصف ولها مستعمرات فى شطوط افريقية والصين والهند يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة ملايين ونصف ويحد هاته المملكة غربا المحيط الغربى ومن بقية جهاتها اسبانيا وقاعدتها اشبونة بالتسمية العربية وحرفوها الآن فصارت لزبون

الفصل ❁ السابع والعشرون

وأما الدول الوسطى فاولها دولة فرانسا ذات النخوة والشأن المتقدمة فى التمدن والسطوة والعرفان وسيأتى تفصيل الكلام عليها ان شاء الله تعالى وانما نقول هنا ان هاته المملكة حوت من المحاسن والصفات ما أقر لها به معاصروها ومنافسوها ولولا تقسيم أهاليها الاحزاب مع سرعة العمل بينهم لما جارتها دولة وهى تشتمل على نحو ستة وثلاثين مليونا من النفوس ولها مستعمرات فى جميع القارات يبلغ عدد سكانها نحو خمسة ملايين واستقلالها قديم وتختها مدينة باريس ويحدها جنوبا البحر الابيض وايطاليا واسبانيا وشرقا ايطاليا وسفيسرة وجرمانيا والبلجيك وشمالا البلجيك والمانش والمحيط الشمالى وغربا المحيط المذكور وهى من اقدم الدول القانونية وان طرأ عليها فى الوسط شئ من الاستبداد لكنها ازاحته وحكومتها جمهورية وقاعدتها باريس

الفصل * الثامن والعشرون

وثانيها دولة سفيسرا ويحدها جنوبا ايطاليا وشرقا أوستريا وشمالا المانيا وغربا فرانسا

وقد كانت تداولها كل من فرنسا والمانيا مدة قرون وفى خلالها يحصل لها فى بعض الاحيان استقلال الى أن تم استقلالها باعتراف جميع الدول الكبيرة وضمانتهم لاستقلالها وذلك (سنة ١٦٤٨) أى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى ولازالت على ذلك وسكانها نحو مليونين ونصف وحكومتها جمهورية خالصة بمعنى ان المجالس العليا ينتخب أعضاؤها من أنفسهم سبعة أشخاص لمدة ثلاث سنين يكونون بمثابة الوزراء فى ادارة الامور على نحو ما تتفق عليه المجالس وينتخب لهؤلاء السبعة رئيس لمدة عام واحد يكون هو رئيس الدولة العام وتخت المملكة مدينة بارن

الفصل * التاسع والعشرون

وثامنها دولة البلجيك فيحدها جنوبا وغربا فرنسا وشمالا بحر المانش والمحيط الشمالى وشرقا المحيط الشمالى وهولانده والمانيا وعدد سكانها نحو خمسة ملايين وتخت المملكة مدينة بروكسل وكانت من ملحقات فرنسا ثم استقلت بأمرها مع اتحادها بهولانده بعد سقوط نابليون الاول ثم استقلت بتا (سنة ١٨٣٠) مسيحية الموافقة (سنة ١٢٤٦) هجرية فسبقت أيضا فى العمران والثروة

الفصل * الثلاثون

ورابعها مملكة دولة النمسا المتركبة من دولتين مستقلتين وهما أوستريا وهنكاريا وكل منهما لها ادارة خاصة بجميع داخليتها ووزراء يباشرون الادارة فى كل منهما ولهما ملك واحد يلقب بامبراطور أوستريا وملك هنكاريا ولهما قانون معلوم فى كيفية الاتحاد والانفراد وحدود كل منهما ومنها أن يكون وزير الخارجية وعلائقه متحدا فى كل من المملكتين ودولة أوستريا من أقدم دول أوروبا وكانت فى مبدئها صغيرة ثم تعاظمت ودخلت فى العصبة الالمانية حيث ان من أهاليها قسما عظيما من الجنس الالمانى وصارت لها الرياسة على العصبة مدة الى ان انتزعتها منها دولة بروسيا (سنة ١٢٨٤) فى حرب عاضدتها فيها ايطاليا واستقرت الآن منفردة عن العصبة الالمانية وصار عدد أهالى هاته الدولة نحو سبعة وثلاثين مليونا ويحدها جنوبا الرومانيا والصرب والدولة العلية وبحر البنادقة وايطاليا وغربا سفيسرة والمانيا وشمالا المانيا والروسيا وشرقا

الروسيا ورومانيا وقاعدة المملكة الاولى هى مدينة فينا وقاعدة الثانية هى مدينة بست وتحت تصرفها بوسنة وهرسك

الفصل * الحادى والثلاثون

وخامسها دولة الصرب وانما صارت دولة مستقلة بعد حرب سنة ١٢٩٣ وكانت أمارة مستقلة بالادارة تابعة للدولة العلية وتؤدى لها الخراج وبمقتضى معاهدة برلين صارت دولة مستقلة يحدها جنوبا الدولة العلية بامارة البلغار وغيرها وشرقا هى أيضا ونهر الطونة وشمالا النهر المذكور والنمسا وغربا ولاية بوسنة وهرسك الراجعة للدولة العلية وتصرفها بيد النمسا وعدد سكان هاته الدولة مع ما أضيف اليها بمقتضى المعاهدة المذكورة نحو المليونين وقاعدتها بلغراد

الفصل * الثانى والثلاثون

وسادسها دولة الرومانيا يحدها جنوبا الدولة العلية بولاية البلغار فى البعض وفى الباقى نهر الطونة ويحدها شرقا البحر الاسود والروسيا وشمالا الروسيا والنمسا وغربا النمسا وقاعدتها بخارست وعدد سكانها نحو خمسة ملايين وبقية أحوالها مثل الدولة المتقدمة عليها فى الذكر لكنها متقدمة فى التمدن والمعارف والقوة وعندما كانت تابعة للدولة العلية كانت تسمى بالولايتين أى الافلاق والبغدان حيث كانت منقسمة اليهما ثم اتحدتا فى عشرة السبعين والمائتين وألف تحت أمير واحد ثم استقلت بمقتضى معاهدة برلين بعد ان دخلت فى اعانة الروسيا على كره من الاهالى ولازالوا محبين للترك الى الآن

الفصل * الثالث والثلاثون

وأما الدول الشمالية فالدولة الاولى منها دولة انكلاتيرة السابقة فى الحرية والثروة وهى جزيرتان منقطعتان فى المحيط الشمالى يحيط بهما البحر من جميع الجهات وأقرب جهة من القارة اليهما هى مملكة فرانسا ويفصل بينهما بحر المنش واضيق جهة منه بينهما نحو عشرين ميلا وسكانها نحو ثلاثين مليونا وقاعدتها مدينة لندرة ولها مستعمرات فى جميع أقسام الكرة فمنها الهند وجزره وعدن فى أسيا كما تقدم الكلام على ذلك

ومنها رأس الرجا الصالح وغيره فى أفريقيا ومنها آيالات فى أمريكا الشمالية وأخرى فى الجنوبية وأعظم جزائر أوستراليا وعدد جميع من يتبعها فى المستعمرات نحو مائة وتسعين مليونا وسيأتى الكلام على هاته المملكة مفصلا فى باب خاص من المقصد ان شاء الله تعالى

الفصل * الرابع

(والثلاثون)

والثانية منها دولة هلاندة ويحدها شمالا وغربا المحيط الشمالى ويحدها جنوبا البلجيك وشرقا المانيا وقد كانت تداولتها دول جرمانيا وفرانسا واسبانيا الى أن استقلت مع البلجيك بعد سقوط نابليون الاول ثم انفصلت عنها البلجيك سنة ١٨٣٠ م و ١٢٤٨ هـ وعدد سكانها نحو ثلاثة ملايين وثمانمائة ألف نفس ولها مستعمرات فى جزائر الهند وجاوا وسمطرا وأمريكا وأفريقيا عدد سكانها نحو عشرين مليونا من الانفس وقاعدة المملكة مدينة هالك

الفصل * الخامس

(والثلاثون)

والثالثة منها دولة المانيا المتؤلفة من ستة وعشرين دولة كل منها مستقل بادارته الداخلية ولهم قانون فى الوحدة ومجلس يشترك فيه الجميع عدد أعضائه على قدر مناسبة سكان الممالك المشتركة فيه والرياسة على جميع هاته الدول الآن لدولة بروسيا وملكها ملقب بامبراطور المانيا ويحد جميع المملكة شرقا الروسيا والنمسا وبحر البالتيك وشمالا البحر المذكور والدانيمرك وغربا هلاندة والبلجيك وفرانسا وجنوبا سفيسرة وايطاليا والنمسا وعدد سكان الممالك احد وأربعون مليونا والقاعدة الكبرى للجميع هى برلين وهذه أسماء الدول المتألفة منها العصبة مع عدد السكان وأسماء القواعد

عدد سكان الممالك	أسماء القواعد	أسماء الممالك
٢٥ و ١٧١ و ٠٠٠	برلين	بروسيا
٠٤ و ٨٦٤ و ٠٠٠	مونيخ	بافير
٠١ و ٨١٨ و ٠٠٠	استوتكادر	فورتنبرغ
٠١ و ٤٦١ و ٠٠٠	كارلس	بادن الكبرى
٠٢ و ٥٦٠ و ٠٠٠	درازد	الساكس
٠٠ و ٠٩٧ و ٠٠٠	نيوستراتس	مكلنبورغ ستراتس
٠٠ و ٣١٦ و ٠٠٠	أولدنبورغ	أولدن بورغ
٠٠ و ٢٨٦ و ٠٠٠	ويمر	الساكس ويمر
٠٠ و ١٨٨ و ٠٠٠	ميننجن	الساكس مينجن
٠٠ و ١٧٤ و ٠٠٠	غوطا	الساكس كوبري غوطا
٠٠ و ١٤١ و ٠٠٠	التنبورغ	الساكس التين بورغ
٠٠ و ٠٧٥ و ٠٠٠	رودول استاد	اشفارزبورغ
٠٠ و ٠٦٨ و ٠٠٠	سوندرسوزن	شوراشبورغ سوندرسوزن
٠٠ و ٠٨٩ و ٠٠٠	شلايز	أدليس شلايز
٠٠ و ٠٤٥ و ٠٠٠	غرايز	أوليس غرايز
٠٠ و ٢٠٣ و ٠٠٠	ديسو	أنحلات
٠٠ و ٣١٢ و ٠٠٠	ابرونزويك	ابرونزويك
٠٠ و ١١١ و ٠٠٠	ديتموله	ليب ديتموله
٠٠ و ٠٣٢ و ٠٠٠	بوكي بورغ	ليب شاومبورغ
٠٠ و ٠٥٦ و ٠٠٠	ادرسن	فالديك
٠٠ و ٨٥٣ و ٠٠٠	دارمستاد	اس دارمستاد
٠١ و ٥٤٨ و ٠٠٠	(كولما)	(استرسبورغ) (ميتس) للعاس واللورين
٠٠ و ٣٦٠ و ٠٠٠	هانبورغ	بلدة هامبورغ
٠٠ و ٠٥٢ و ٠٠٠	لونك	بلدة لنك
٠٠ و ١٢٣ و ٠٠٠	بريم	بلدة بريم
٤١ و ٠٠٣ و ٠٠٠		

وكلها ذات قوانين والسياسة الخارجة متكفلة بها الدولة الرئيسة

الفصل * السادس

﴿ والثلاثون ﴾

والرابعة منها دولة السويد المتألفة من دولتى السويد والنورويج وكل منهما مختصة بادارتها الداخلية والوزارة والديوان والعساكر بحيث لا يجمع بينهما الا كون الملك واحدا والسياسة الخارجية أيضا لحكومة السويد وكانت المملكة قديما ذات عظمة فاستقلت عنها الدانمرك وأخذت قسما عظيما منها الروسيا واستقرت على الحالة التى هى عليها الآن منذ سقوط نابليون الاول فمجموع سكان المملكتين نحو خمسة ملايين ونصف يخص السويد نحو أربعة ملايين ويخص النورويج نحو مليون ونصف وقاعدة الاولى استكولم وقاعدة الثانية كريستيانية ويحد المملكتين اللتين هما شبه جزيرة تمتد الى نهاية القطب الشمالى فمن الجنوب بحر البلتيك وخليج بوتنيا وشمالا المتجمد الشمالى فى القطب وغربا خليج الصوند والبحر الشمالى وبحر الاسكندنافيا اللذان هما من المحيط الشمالى وشرقا الروسية فى البعض وفى الباقى الخليج الفاصل بينهما

الفصل ❀ السابع

﴿ والثلاثون ﴾

والخامسة منها دولة الدانمرك وانفردت عن السويد والنورويج فى أواسط القرن الثالث عشر من الهجرة ثم فى أوائل عشرة الثمانين ومائتين وألف هجرية حاربتها كل من بروسيا والنمسا وامتلكتا منها ولايتى الشلسويغ وهولستين التى هى أول شرارة القيت لانقلاب الموازنة السياسية فى هذا القرن كما يأتى تفصيله فى المقصد عند ذكر ايطاليا ان شاء الله تعالى فاستقرت المملكة شبه جزيرة ممتدة من الجنوب الى الشمال ويحدها جنوبا حيث تتصل بالقارة المانيا البروسيانية وشرقا خليج الصوند وبحر البلتيك الفاصلان بينها وبين السويد وشمالا خليج سكاجراك الفاصل بينهما أيضا وغربا البحر المحيط الشمالى وسكانها نحو مليون وستمائة ألف ولها مستعمرات فى جزائر البحر الشمالى من أوروبا ولها فى أمريكا أيضا مستعمرات ومجموع سكان مستعمراتها نحو مائة ألف وخمسة وعشرين ألفا وقاعدتها كوبنهاغ

الفصل

الفصل * الثامن

﴿ والثلاثون ﴾

والسادسة منها دولة الروسيا ومملكتها بالنظر لسطح الارض هى أكبر الممالك وقد تقدم الكلام على قسميها من آسيا وأما فى أوروبا فيحدها شمالا المتجمد الشمالى وشرقا جبال أورال ونهر دون الفاصل بين آسيا وأوروبا وجنوبا البحر الاسود والرومانيا والنمسا وغربا المانيا والسويد وعدد جميع سكان المملكة بين آسيا وأوروبا نحو نيف وثمانين مليونا من النفوس منهم نحو ستين مليونا من المذهب المسمى ارتيدوكس وهو مذهب اليونان من المسيحيين وكلهم من نوع البشر المسمى بالسلاف وبقية العدد منه نحو ثمانية ملايين مسلمون والباقى من مذاهب شتى من الديانة المسيحية وغيرها والدولة على المذهب الارتيدوكس وهى وان لم تجبر غير أهل ذلك المذهب على تبديل ديانتهم أو مذهبهم غير انها تمنعهم من حرية المذهب واشهار تعاليمه بل تجبرهم على تعليم أبنائهم فى مكاتبها وتجبرهم أيضا على ترك لغاتهم ولا يخفى ان أهل مملكة مثل تلك فى الاتساع وكثرة الاجناس لابد أن يكون لهم لغات شتى حتى قيل ان اللغات الاصلية فيهم تتجاوز الخمس عشرة لغة وهاته الدولة تكونت على الصفة المار ذكرها فى مدة قليلة فان هاته المملكة كانت قديما لا يعرف منها الا أهل الجنوب باسم قبائل الى القرن الثالث المسيحى فتألفت فى روسية أوروبا سلطنة عظيمة من أمة الغوت ثم تلاشت بالحروب الاهلية وبهجمات الامم الشرقية على أوروبا وتمادت على ذلك الى ان استولى على أغلبها التتر فى مدة باتوخان ابن جنكزخان ثم ابتدأ تأسيس المملكة سنة ١٤٨١ م و٨٨٦ ه على يد ايفان الملقب بالامير الكبير وخضعت له ولذريته القبائل المتكونة منها روسية الاصلية ثم انقطعت عائلته وحدث فى المملكة تقهقر أشرف بها على الاضمحلال الى أن تولاها ميشال رومانوف وهو الذى أسس الدولة الموجودة الآن وذلك سنة ١٦١٣ م و١٠٢٢ ه فأخذت فى الراحة الاهلية وضم ما كان خرج عنها الى أن تولاها بطرس الاكبر محيى تلك الدولة فهو الذى أسس اسمها بين الدول المعتبرة واجتهد فى ترقيتها وكان مع مزيد اعتنائه بالسياسة ومباشرتها بنفسه تحمل أتعاب السفر الشاق فى ذلك الوقت لتعلم الصنائع بنفسه حثا لامته على الاقتداء به وبقى مدة فى ترسخانة هلاندة لتعلم صناعة النجارة حتى اتقن تعلمها وجلب للمملكة معلمين من عدة صنائع وأخذت من ذلك الوقت فى الترقى والاتساع مع حزمه هو ومن

خلفه ومهارتهم فى الفنون الحربية والمكايد السياسية الى ان بلغت الآن الى ماهى عليه
من مزيد القوة والاتساع ولوانها كانت فى المعارف والحرية مثل بقية ممالك أوروبا
لما كادت ان تسلم منها دولة بعد ان بقاءها على اصول الاستبداد أوجب فيها قلة الثروة
والمعارف فلم تقدر على انجاز كل ما تضمره وان كان القيصر الموجود الآن وهو
الاسكندر الثانى قد حرر الفلاحين من تملك الاعيان لهم حيث كان سابقا ان قسم الاعيان
من المملكة من ملك منهم أرضا ملكها بمن فيها من البشر ويستعملهم استعمال العبيد
بحيث يتصرف فيهم تصرفه فى المتاع كما كانت تلك العادة جارية فى أوروبا حتى ان الفلاح
اذا أراد التزوج بعد الاذن له من سيده يأتى بعروسه ليلة عرسه الى سيده ولا يمكن له أن
يدخل بها قبل أن يبارك له عليها سيده وان أراد الاختلاء بها فله حق ذلك وقس على
ذلك من أنواع الشناعة ما شئت ففى سنة ١٨٦٧ م و١٢٨٤ هـ أبطل القيصر اسكندر
الثانى ذلك الحكم وحرر الفلاحين وأما ادارة هاته المملكة فهى من قبيل الاستبداد
المطلق بمعنى ان رئيس المملكة ويلقب عندهم باكزار بمعنى قيصر أو امبراطور مع انضمام
معنى الرياسة الدينية فهو الذى يتصرف فى الكليات والجزئيات على حسب ارادته
واختياره ومن ينوب به فى الوظائف يتصرف مثل ذلك التصرف باسم الاكزار وللاكزار
رياسة التصرف فى الديانة وفى الملك وفى العسكر وفى الشخصيات ومع ذلك لهم ترتيبات
ومجالس لتدبير الملك وادارة الولايات فأول هاته المجالس المجلس المسمى بمجلس
السلطنة وهو مجلس تشريع وادارة وحكم فيستشار فى جميع الامور المهمة غير السياسة
الخارجية فانها مختصة بالملك ويستعين بوزرائه فيها ولهذا المجلس النظر فى احداث
القوانين واجرائها وتعيين المداخيل والمصاريف وتدقيق النظر فى محاسبات الوزراء وترفع
اليه الاحكام الشخصية الثقيلة ويتركب من الوزراء واعضاء العائلة الملكية واعضاء
ينتخبهم الامبراطور لمدة حياتهم وحضور الاعضاء فيه على نوعين فالاول لازم الحضور
والثانى يحضر بالاستدعاء لداع يقتضيه وله تقاسيم فى الادارة كل قسم مناط به شئ مما
يتعلق بالوظيفة المجلس الثانى هو مجلس السناتو الذى أسسه بطرس الاول ووظيفته
حراسة القوانين والمراقبة على سيرة كبار المتوظفين والولاة والحكم النهائى فى الجنايات
السياسية الاخصوص نوازل يختص بها الامبراطور وهو ينقسم الى أقسام مراكزها
فى عدة جهات من المملكة فى المدن الكبيرة ويجتمع فى أوقات الاجتماعات العامة
المجلس الثالث مجلس ينظر فى خصوص المعاريض المقدمة للامبراطور وهل للمشتكين

من

من الحكام عرض نوازلهم على أحد المجلسين المذكورين سابقا المجلس الرابع المجلس
الدينى المركب من اساقفة الايالات الكبيرة ووظيفته تسمية كبار الكنائس والنظر
فى ادارتها اذا أمضاه الامبراطور والمجلس الخامس مجلس الوزراء المؤتلف من تسعة وزراء
فأكثر على ما يقسم الامبراطور ادارة الوزراء اليه والمجلس السادس مجلس الرقيب العام
أعضاؤه مثل الوزراء ثم ان المملكة تنقسم الى أقسام وهى أيضا تنقسم الى أصغر منها الى
آخره سواء كانت فى المدن أو فى البوادى فالاقسام الكبار المتصرف فيها هو الوالى
العام البلدى وهو المطالب للامبراطور بجميع ما يحدث فى ولايته ولذلك كان له
الاطلاق أيضا فى امضاء ما يراه مجلس الولاية أو دحضه وهكذا كل رئيس فى قسم أصغر
منه هو مطالب لمن فوقه فلا جدوى فى ان كان لكل منهم مجلس مركب من أعضاء من
أهل المكان وفى كل قسم كبير جمعية تسمى جمعية الاعيان عدد أعضائها على حسب
الدوائر والمشيخات الراجعة لذلك القسم ورئيسها يلقب عاريشال الاعيان ووظيفتها
تعيين غالب المتوظفين فى كل ثلاث سنين اذا امضاه الوالى أو الامبراطور وفى كل مدينة
أو قرية مجلس بلدى تحت رياسة أحد أعيانهم والذى ينتخب أعضاء المجلس والرئيس
هو البلدية من البلدان ومعنى البلدية هو الاعيان والاواسط من الناس وأما أصحاب
الخدم البدنية فليس لهم هذا المقام ووظيفة المجالس البلدية ادارة الاشغال العامة
ومصالح البلدان والحكم فيما يحدث بين البلدية فى التجارة كما انه يوجد فى هاته الاقسام
مجالس للحكم فى الجنايات ومجالس للحكم فى الامور العرفية وامضاء الحكم مناط برئيس
القسم كما تقدم كما ان لكل مشيخة بالبادية جمعية من كبار عائلاتهم لفصل نوازلهم وتقسيم
الاداء اللازم للدولة وتعين من يدخل للعسكر ورؤساء هاته الجمعيات هم أقدمهم
فى المشيخة ولهم الخيار أيضا فى تنفيذ رأى الجمعيات ومن مجالسهم مجلس الصلح وهو الذى
يوبخ المتوظفين عن تجاوزهم أموريتهم والحكم فى الجنايات الخفيفة والماليات التى لا تبلغ
أربعمائة فرنك ومن قواعدهم ان الخصمين اذا حكما أحدا يمضى حكمه على شرط تقييده
فى دفتر مخصوص لذلك أما أحكام الحكام فهى شفاهية ويشترط فى المتوظفين ان يكون
أصحاب عرض وان لا ينقص سن أحدهم عن الخمس والعشرين سنة وفى خصوص
الولايات التى فى حدود المملكة يوجد حاكم عسكرى مع الحاكم المدنى وله الرياسة عليه
وبخصوص ولاية فلاندا وزارة خاصة فى قاعدة المملكة ومجلس سناتو يسميه الامبراطور
فى كل ثلاث سنين وتخت جميع المملكة هى صان بطرسبوغ فادارة هاته المملكة وان

كانت لها مجالس وقوانين وكثير من متوظفيها انتخبهم الاهالى لكنها فى الواقع استبدادية حيث ان اجراء كل شئ وتنفيذه مناط بالامبراطور ثم بخلفائه ولهم الخيار فى التنفيذ وعدمه من غير تقييد بمرجع ولا يخفى ان ذلك الرئيس وان كانت أغراضه لا تعم جميع الجزئيات لكنه له حواشى وأتباع فيراعى لكل منهم بعض الوجوه ولكل منهم علائق وأغراض فيتسع الخرق فى المراعاة والمداراة وتجرى الامور على الشهوات ولهذا لما كثرت الصحف الخبرية فى نفس المملكة وكثرت فيها الصحف الاجنبية وكثرت المدارس التى تعلم اصول التهذيب وكثرت المواصلة ببقية ممالك أوروبا بالطرق الحديدية انفتحت بصائر أهالى المدن الكبيرة فى الروسيا وسرى الامر منهم لمدن ثوانى فى جهات من المملكة فحصل منهم سنة ١٢٩٦ ثورات عديدة ولازالت مستمرة الى الآن لكن تارة تشتد وتارة تخف فى طلب اجراء الحرية والقوانين مثل بقية أوروبا وزادهم حملا على ذلك ما رأوه من دولتهم عند اعلانها الحرب على الدولة العلية سنة ١٢٩٤ الآتى خبرها فى المقصد ان شاء الله تعالى حيث حررت أهل البلغار مع انهم أحسن ادارة منهم وجعلت لهم ولاية ممتازة ادارتها قانونية فقالوا ما لنا نتحكم على جيراننا وننفع غيرنا ونهرق لاجلهم دماءنا وأموالنا ونحن فى حالة أتعس منهم فكأن لسان حالهم يقول

يا أيها الشيخ المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم

فالحاصل ان مملكة الروسيا انما تقدمت بالسطوة والقوة لمجرد حذق أمرائها فان القيصر ولان كان له التصرف المطلق لكنه دائما يراعى مصلحة المملكة ويقدمها على حظوظه الخاصة ولا يصرف من أموال الدولة الا فى مصالحها وهو فى حد ذاته فى غاية الاقتصاد ثم انه يستعين بالرجال العارفين الحازمين الصادقين ولا يغير أحدا من الكبراء من منصبه الا لمصلحة مهمة أو ذنب ثابت حتى ان وزيره الاكبر الآن وهو غرتشقوف له فى الوزارة سبع وعشرون سنة مع كبر سنه الذى يبلغ الثمانين ولم يغيره بل انه مرض مرضا شديدا فى هاته السنة وهى سنة ١٢٩٧ واضطر للاستعفاء فلم يعفه وجعل له نائبا عنه لمباشرة الاشغال الى ان يتيسر له مباشرة الاحوال وعاده بنفسه فى مرضه كما انه استعفى مرارا ولم يجبه الى ذلك وهو أى القيصر منقاد لتدابير وزرائه والناصحين العارفين وهكذا أسلافه فان الوزير نسلرود الذى كان قبل غرتشقوف مكث فى الوزارة ثلاثين سنة وبذلك حصل التقدم للدولة وصارت مدنها الكبيرة لا يفرق بينها وبين

مدن أوروبا القانونية لا فى الادارة الحكمية ولا السياسية ولا التحسين التشخيصى اما غيرها من بقية المملكة فكأنما الناس عبيد مستعملون للرعاة حتى حكى لى أحد السواح الثقاة ان مشايخ القرى يضربون الرعية بالسياط وهم مارون بالطريق ولا يأمر الشيخ أحدا بشئ الا ويتبعه السوط ضربا لاجل ضيافة السائح فتعجب السائح من ذلك وقال له يا أيها الشيخ لا لزوم لهذا الاكرام حيث ان الواقعة هى ان السائح لما قدم للقرية وبيده توصيات من الحكومة فى الالتفات اليه من الرعاة واكرامه عمل شيخ القرية بذلك وأمر فى الحال أحد الاهالى بالاتيان بعلف الدواب من عنده وأمر آخر بالاتيان بالاكل الطيب من عنده أيضا وأتبع الامر بالضرب والشتم فقال له السائح المقالة المارذكرها فأجابه بدع عنك هذا الكلام ان هؤلاء الكلاب لا يصلح فيهم الا هذا العمل فلو انى طلبت منهم ما طلبت باعلا ما يكون من الثمن عن طيب نفس لما أجابوا الشئ وكلام هذا الشيخ وان أمكن ان يكون فيه مبالغة لكنه لا يخلو عن الصحة لان الاهالى أعنى أغلبهم تربوا على السذاجة الحيوانية ولم تتهذب أخلاقهم مع النشأة على الذل والهوان والتحكم الشديد فلو طلب منهم الحاكم شيأ اعتادوا على اعطائه مجانا بالوعد بالثمن لما صدقوا بذلك ورأوا ان رزقهم يؤخذ منهم قهرا وحب المال مجبولة عليه الطباع فيتكاسلون عند اعطائه الا بالغضب فيصنع الحكام معهم ذلك الصنيع ولو انهم عودوهم من الصغر والنشأة على مكارم الاخلاق واكرام الضيف ورأوا منهم مرارا اعطاء الحقوق والثمن لما خالفوا طبع سائر البشر واعلم ان فى أقسام هاته المملكة أقواما كثيرين من المسلمين منهم أهالى ولاية قازان الذين أسلموا منذ العصر الاول اذ قيل انهم أسلموا فى عصر بنى مروان فى كبد القرن الاول من الهجرة وقيل فى خلافة المأمون وقيل فى خلافة الواثق ابن أخيه وانتشر فيهم الاسلام باسلام ملك بلغار الماس خان بن سلكى خان فى خلافة المقتدر فتسمى بالامير جعفر وقاعدة هاته الولاية مدينة بلغار المذكورة فى كتب الفقه للاختلاف فى وجوب العشاء على أهلها فى مدة الصيف حيث لا يغرب فيها الشفق وانما أفردت بالذكر مع شمول الحكم لكل ما قرب الى أحد القطبين لانها هى التى كانت اذ ذاك معروفة باسلام أهلها ولم يحدث الخلاف فى الوجوب الا فى المائة السادسة اذ لا نص عن المتقدمين وقد أفرد المسئلة بتأليف بديع أحد علماء هاته البلدة فى هذا العصر وهو العلامة هارون ابن بهاء الدين المرجانى ابن شهاب الدين البلغارى أيد القول بالوجوب وله نفس بديع وقول مصيب اختصره ملك بهوپال السيد محمد

صديق خان فى لقطة العجلان فلله الحمد على وجود أمثالهم فى هذا العصر الذى تغرب
فيه الدين فضلا عن العلم وتلك المدينة واقعة على عرض خمس وخمسين درجة شمالا
ونحو سبع وار بعين درجة طولا شرقيا من باريس وهى على نهر الفالكى الشهير

الفصل * التاسع والثلاثون

وخلاصة الكلام على جميع قسم أوروبا هو ان يقال ان جميع الممالك المار ذكرها الا
ما استثنى كلها ممالك قانونية يعنى ان ادارتها منضبطة فى السياسات بأمور محدودة
مكتوبة يعلمها الخاص والعام ولا يجوز للمتصرف مجاوزتها والمباشر لاجرائها هم الوزراء
باذن رئيس الدولة على اختلاف لقبه من امبراطور أو ملك أو رئيس جمهورية وعدد
هؤلاء الوزراء يختلف بحسب كبر الممالك وصغرها حتى تحتاج الادارة الى زيادة
الفروع أولا وأصول الادارات التى لابد منها فى كل مملكة هى ادارة الداخلية ثم
الخارجية ثم المالية ثم الحربية وقد يتفرع عن هاته فروع على حسب الحاجة ولاهميتها
تنفرد بوزارة مثل غيرها من الاحوال فمن هاته وزارة الاحكام والبحر والمعارف والاشغال
العامة والديانة ويجعل لهؤلاء رئيس فى الاغلب يكون هو احدهم وتارة يكون منفردا
لرأسهم عند الاجتماع وينفذ ما يتوقف على جمعهم ورئيس المملكة ينتخب هذا
الرئيس وهو يعين لصاحب المملكة بقية اقرانه فيوظفهم وليس له بعد ذلك الامضاء
تصرفاتهم أو تبديلهم ان وافقه القانون وما يراه من التصرف انما يتصرف فيه بواسطتهم
ثم يحتسب على الوزراء مجلسان أحدهما مجلس الاعيان من الامة واختيار أعضائه بيد
صاحب المملكة او بواسطة وراثة تتوارثها بعض العائلات وقد تنتخب الاهالى بعض
الاعضاء من بعض المملكة والثانى مجلس النواب أى نواب الامة تنتخبهم الاهالى لمدة
معلومة بغاية الحرية فى الاختيار على شروط فى المنتخب والمنتخب تؤول الى صفات
تثبت حق الغيرة على الوطن ومعرفة مصالحه والاهلية لنصحه ومجموع المجلسين يصح ان
يسمى مجلس الامة أو المملكة فاذا رأى هذا المجلس فسادا فى تصرف أحد الوزراء أو
مجموعهم وأصر المعترض عليه على رأيه لزمه الاستعفاء لانه يتصرف على خلاف ارادة
الامة وهنا يكون لصاحب المملكة الحق فى قبول اعتراض المجلس وابدال المعترض عليه
أو يأذن الامة بانتخاب مجلس آخر بعد حله للاول فان وقع انتخاب الامة على أناس

موافقين

موافقين للمعترض عليه بقى الامر على ماهو وان انتخبوا أهل المجلس الاول انفسهم
أو غيرهم ممن يوافقهم فى الرأى لم يبق لصاحب المملكة حينئذ الا ابدال الوزراء المعترض
عليهم وتوظيف غيرهم ممن يوافق رأى الامة هذا زيادة عما لهذا المجلس من حفظ جميع
القوانين ومراعات مصالح المملكة فى المال والسياسة والاحكام وعقاب المذنبين من
المتوظفين ولو من الوزراء غير ان مباشرة العمل ليست بيده وانما هى لمن تعود اليه من
وزير أو مجلس حكم أو صاحب المملكة فهذا هو أصل ادارتهم السياسية وأما أصل
الادارة الحكمية الشخصية فهى منفردة عن السياسة ولا تسلط للسياسة على الحكام
الشخصيين وهم يوظفون لمدة حياتهم او انتقال لدرجة أعلى وتصرفهم مناط بمجالس
متعددة الاعضاء ووراءها مجالس أخر لرفع المحكوم عليه اشكواه من المجالس التى
اليها ووراء ذلك احتساب مجالس الامة والاحكام يستندون فيها القوانين مرتبة برضاء
مجالس الامة وتكون الاحكام علانية الى غير ذلك من الاوجه المقربة لبحث الانصاف
ودفع الظلم فهاته هى الاصول المعمول بها وتختلف فروعها بحسب الممالك وعاداتها فليس
قانون الاحكام متحدا فى جميع الممالك بل انما يتحد الجميع على أصل الجنايات كالقتل
مثلا هو ممنوع فى الجميع ومرتكبه يعاقب فى الجميع وان اختلف عقابه بحسب
العادات كما ان من الاحوال المتفق عليها ان يكون قسم مما تدفعه الاهالى الى دولتهم
يصرف فى تحسين المملكة ورونقها واصلاحها كمد الجسور والطرق الحديدية
وتنظيف الطرق زيادة على انشائها وكذلك كل ما يؤول لتوسيع التجارة والمعارف
والفلاحة وغير ذلك مما يعود على المملكة بالتحسين والتحصين

﴿القسم الثالث من الارض﴾

هو قارة أفريقيا هاته القارة صارت الآن جزيرة عظيمة جدا يحيط بها البحر من جميع
جهاتها فيحدها شرقا المحيط الشرقى والبحر الاحمر وخليج السويس والبحر الابيض
ويحدها شمالا البحر الابيض وبوغاز طارق والمحيط الغربى ويحدها غربا المحيط الغربى
ويحدها جنوبا المحيط الجنوبى وقد عرفت جميع شطوطها وما قاربها على التحقيق
وبقيت دواخلها غير مسبورة على التحقيق الى الآن لشدة حرها حيث كان خط
الاستواء قاسما لها ولصعوبة السفر من توحش أهلها وقلة الماء والطرق وتشتمل هاته
القارة على ستة وأربعين مملكة ما بين مستقل وتابع لغيره فأما الجهة الشمالية من القارة

فانها لها الشهرة التامة وتأكيت بتقدمها غيرها من القارات فى العصور السابقة ولازالت الى الآن مرعية الاعتبار

الفصل * الاربعون

فأول دولها سلطنة مراكش ويحدها غربا المحيط الغربى وجنوبا الصحراء الكبيرة وشرقا ولاية الجزائر والصحراء المذكورة وشمالا البحر الابيض وبوغاز طارق وهى مملكة متسعة اختلف الجغرافيون فى عدد سكانها من خمسة ملايين الى ثلاثة عشر مليونا والاقرب للصحة على حسب ما يسمع من أهلها الذين لهم خبرة بأحوالها ان السكان المطيعين للحكم نحو سبعة ملايين ومبتدأ الحكم النافذ من الشطوط الشمالية الى بلدة رودانة فى الجنوب وهى تبعد عن مراكش من جنوبها نحو مسيرة ستة أيام وموقعها جهة السوس الاقصى وهنالك أمم تابعون بالاسم وهم أكثر من الخاضعين للحكم وليس فيهم من أمارات الخضوع الا الخطبة باسم سلطان المغرب وهم على نوع من الهمجية وتناصر الجاهلية وجميع السكان مسلمون الا نحو ثلاثمائة ألف من اليهود وبعض الغرباء من الافرنج فى المراسى وحكمهم استبدادى فى السياسة وأغلب الاحكام الشخصية يحكم فيها بالشرع والمباشر للحكم هو قاض يختار من أعلم الموجودين والمذهب العام هو المذهب المالكى ولهم مفتون يوليهم القاضى وبعضهم يوليه السلطان وهؤلاء المولون من السلطان يستشيرهم القاضى عند طلب الخصم للشورى فى حكمه أو عند توقف القاضى فى وجه الحكم وهكذا فى كل مدينة أو قبيلة قاض وجميع ما يرجع الى تلك المدينة من الايالة يرجع الى ذلك القاضى وله نواب فى القرى الصغيرة وفوق الكل قاضى فاس وهو قاضى القضاة وفى فاس قاضيان بهاته الصفة كل منهما مستبد بجهة من المدينة وما يتبعها لانها تنقسم الى فاس القديمة وفاس الجديدة ثم فى هاته المدة زيد قاض ثالث دون الآخرين فى الرتبة وانما هو بصفة نائب عن قاضى فاس القديمة لان هذا مع كبر علمه ومزيد فضله استعفى مرارا معتذرا بكبر السن وضعف البدن فلم يساعفه السلطان لذلك ووظف له ذلك النائب وهذا القاضى هو الذى يولى جميع القضاة الا قضاة مراكش فلا دخل له فيهم اللهم الا اذا أراد السلطان أن يولى أحد علماء فاس قاضيا بمراكش فحينئذ يستشير قاضى فاس فى تعيين القاضى وكل مكان يشتمل

على

على قاض له وال يسمى فى عرفهم قائدا له فصل النوازل العادية والسياسية وبعض الشخصيات والدولة مركبة من السلطان والوزير والحاجب ووزير القضايا وكتبة ورؤساء للجند ولجهات سياسية فأما السلطان فان له عائلة شريفة ثابتة النسب برسول الله صلى الله عليه وسلم كان أرسل اليها بعض أهل المملكة وأتوا بجدهم من ينبع النخل من المدينة المنورة منذ نحو ستمائة سنة للتبرك بهم فى صلاح ثمار نخلهم حيث بانت بركة آل البيت فى جهات أخرى من المملكة ثم عند وقوع حروب أهلية وانقسام المملكة الى طوائف نادى بجدهم مولاى محمد قسم من المملكة وبايعوه فى الثلاثين بعد الالف ثم اجتمعت بقية المملكة على ولده من بعده ولم يزل الملك فيهم لكن المتولى لا يعهد الى معين من عائلته وانما له ان يوظف منهم من رآه أهلا فى كبار الاعمال وعند فقد السلطان تجتمع أعيان المتوظفين والعلماء وأعيان الاهالى وينتخبون أحد أعضاء العائلة ويبايعونه بالسلطنة وبقية أعضاء العائلة يجب عليهم قراءة العلم ومن يوظفه منهم السلطان يشتغل بوظيفته ومن لا وظيفة له يشتغل بصناعة يتعيش منها وهى لا تكون الا عالية كالتجارة والتدريس والفلاحة ومع ذلك يجعل لهم من بيت المال شئ لا يكاد يسد من عوز وأما الوزير فينتخبه السلطان ولا يكون الا عالما ذا وجاهة من الاهالى وهو وزير القلم على الطريقة القديمة فى دول العرب من أن يكون الوزير هو وزير الانشا ولذلك يجب ان يكون ماهرا فى فنون الادب مع مشاركة حسنة فى غيرها ولعمرى ان صناعة الانشاء فى الدول باللغة العربية كادت الآن أن تكون مقصورة على دولة مراكش وأما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا وكادت كتابتهم أن تخرج عن الاسلوب العربى بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن والكلمات البربرية بخلاف كتاب المغرب وهذا ديدنهم من قديم ومما يحسن ذكره هنا ان حموده باشا رحمه الله الرجل الشهير من أمراء العائلة الحسينية بتونس المتولى فى أوائل هذا القرن كان وقع فى أثناء ولايته قحط شديد اضطر بسببه لطلب الميرة والحبوب من سلطنة المغرب لان أرضها كانت خصبة فى ذلك العام ولم تكن المواصلة فى أوروبا وغيرها من الاقطار سهلة فى ذلك الوقت وكان من عادة سلطنة المغرب ان تمنع خروج الحبوب من مملكتها فأرسل حموده باشا العالم المقدس سيدى ابراهيم الرياحى لطلب ذلك المهم ووجه معه مكتوبا كان من جملة عباراته تبق تأذن بخروج القمح الخ فقوله تبق عبارة بربرية اعتادها كتاب التونسيين فى الاوامر الرسمية ولما قرأ ذلك الكتاب تعجب وزير القلم بدولة المغرب من

تلك العبارة واشتد حنقه منها كيف يخاطب السلطان بها ولولا تبحر سيدي ابراهيم في العلوم لخاب المسعى فقال لهم انها عبارة عربية وهي جملة دعائية في صورة الخبر ايذانا بتحقيق الاجابة ببقاء السلطان ومابعدها جملة حالية ايذانا بأن بقاءه يكون دائما مشمولا بالكعب الذي تحتاج اليه المسلمون من الاقطار وهو دايم الاذن بما ينفعهم ثم قال لهم وعلى فرض لحن العبارة هل يسوغ لسلطان من المسلمين ان لايرحم عصابة اسلامية ويتركهم بها لكون جوعا لسوء عبارة من جهل الكاتب وقرائن الحال حافة بحسن المقصد على انها لها محل وجيه الخ فنجح سعيه رحمه الله وأما بقية المتوظفين فينتخبهم السلطان ايضا على حسب ارادته والسلطان يجلس يوميا صباحا ومساء لقبول المشتكين كيفما كانت الدعوى ويكون قبل جلوسه قد هيأ له وزير القضايا تقريرا في جميع من ورد ذلك الوقت مع بيان دعوى كل واحد ثم ينتظم مجلس السلطان بوقوف وزيره والحاجب وكبار الاعوان ويمكن وزير القضايا التقرير من السلطان فيقرأه ويأذن بادخال المشتكين على حسب ترتيبهم في كتاب التقرير ويسمع من المشتكي دعواه ويطابقها على التقرير وعند ذلك لهم طريقتان الغالبة هي أن السلطان يجيب المشتكي بما يراه في فصل نازلته اوتحويلها الى الشرع ثم ينفذ وزير القضايا ما أمر السلطان به والطريقة الثانية هي انه بعد فراغ جميع المشتكين وتطبيق شكواهم على التقرير يوقع السلطان على التقرير في كل نازلة بما يراه ويدفع التقرير الى ذلك الوزير وهو يخرج من بين يديه وينفذ ما أمر به السلطان وسيرة عموم الدولة على السنن القديم في الامم التي لم يتسع نطاقها في التمدن وفي الاغلب محافظون على الشعائر الدينية وسوق العلوم الدينية رائجة جدا بحيث لاتخلو المملكة من فحول في كل وقت ومن أهم صفات سلاطينهم العلم وأما العلوم الرياضية فاما أن يقال انها منقطعة عندهم بالمرة أوأن بعض فروعها لم يزل فيه رمق على النمط القديم وذلك مثل علم الاسطرلاب والهندسة كما ان لبعضهم ولوع ودعوى في علم الطلسمات وسر الحرف وكذلك علم الكيمياء يعني قلب بعض المعادن الى الذهب الذي ضاعت في البحث عنه رجال وأموال من غير طائل وأغلب السكان غليظوا الطباع على السذاجة البربرية أهالي شجاعة واقتحام للشاق ورضاء بشظف العيش ولاهل المدن اخلاق جيدة وصفات جيدة متمسكين بالديانة ومتحاشين عن المعاصي وكل قادح في العدالة ولهم اليد الطولى في التجارة بحيث إن تجارة داخل المملكة أعني غير المراسي التي على البحر هي بيد الاهالي

ويرسلون

ويرسلون منهم الى أقاصي الممالك لتعاطي الاشغال التجارية ووصلها بمملكتهم حتى لاتكاد تجد مدينة شهيرة للتجارة في احدى قارات أوروبا وآسيا وافريقيا الا وفيها من تجارهم من له مزيد الرواج والثروة ولهم براعة في ادارة التجارة يناكبون بها الاوروباويين ولازالوا يحترسون من تداخل الاجانب في أحوال مملكتهم حتى انهم يمنعونهم من السكنى في غير المراسي التي على البحر وسفراء الدول يسكنون في مرسى طانجه ومن أراد منهم مواجهة السلطان يرسل اليه يطلب ذلك فيرسل له السلطان خفراء مخصوصين ويقدمون به من هنالك الى تخت المملكة فينزل في احدى القصور الملكية ويعين له يوما للمواجهة فيخرج فيه ويقف في ساحة أوطريق رحيبة معلومة وتقف العساكر والمتوظفون يمينا وشمالا ثم يأتي السلطان راكبا في خاصته وحاشيته وهم مشاة الى أن يقرب من السفير فيتعرض له وعند الوصول اليه يوقف السلطان سير جواده ويسلم على السفير ويلقي اليه السفير الكلام الرسمي المعهود للاقبال فيجيبه السلطان بمثل ذلك ويعلمه انه اذن وزيره باقباله والتفاوض معه في مأموريته ويستمر في سيره وينفصل الموكب وبعد ذلك يقع التفاوض بين الوزير والسفير الى أن يستقر القرار على شيء فيعود السفير الى البلد المستقر به محفوفا بالخفر ومن عوائدهم في أمن الطرق ان كل قبيلة حول أحدى الطرق تكون كفيلة بمن يمر في ذلك الطريق على حدود معلومة ثم يدخل المسافر في كفالة غيرها وهكذا على شرط ان لايسافر ليلا وان يعطي على كل دابة أجرا مخصوصا لتلك القبيلة وهذا الاجر لايجحف بالمارين فاذا حصلت مضرة لاحد المسافرين تغرمها القبيلة التي وقع في حدودها ذلك الحادث واذا دخل وقت الغروب فيجب على المسافر المبادرة الى أحد المنازل الواقعة على الطريق لتلك القبائل وهم يرحبون به ولهم منازل كثيرة حول الطريق وكذلك البريد له في كل بلد شيخ وله أتباع يحملهم المكاتيب ويأخذ عليها أجرا زهيدا ويسافر به الحامل ومعه رفيق لكي لايقع التعطيل بمرض أوغيره ويمشون راجلين ويمكثون المكاتيب في كل بلدة بيد شيخ بريدها وهو يوزعها مالم يعرض أمر خاص فلصاحبه ارسال بريد خاص بأجر وافر على حسب بعد المكان ولاصحاب البريد سرعة في السير أما بريد الدولة فهو في عهدة القياد يرسلونه من واحد الى آخر الى أن يصل لمقره وأصحابه ركاب ولايسمح لاجنبي مطلقا أن يقيم بداخل المملكة واليهود يسكنون في المدن وغيرها على صفة أهل الذمة غير ان عوائدهم القديمة معهم تجاوزوا فيها حد الشرع في اهانتهم واذايتهم حتى فتحوا

عليهم بابا لمداخلة الدول بواسطة الجمعيات اليهودية فى ممالك أوروبا وكانت أرسلت فى
أواسط هذا القرن دولة الانكلاتيرة طالبة من السلطان تغيير تلك العوائد فأجابهم
لطلبهم قائلا ان الحكومة تسلك معهم هذا المسلك وأما الاهالى فحيث كانوا غير منقادين
لجميع الاوامر فعلى الحكومة مراقبتهم بقدر الاستطاعة ولما علم اليهود بذلك امتنعوا من
قبول تلك المنح وأرسلوا الى أوروبا قائلين دعونا على عادتنا المألوفة ولا تتداخلوا فينا
واعلنوا للحكومة والاهالى بذلك طالبين التألف بهم والامان على أنفسهم فأمنوهم
واستقروا على ما كانوا عليه ووجه سلوكهم ذلك المسلك أمران أحدهما ظاهرى وهو
ان ديانتهم قاضية عليهم بتحمل الهوان والمشاق الى خروج المسيح لكى ينقذهم على
دعواهم وثانيهما وهو الباطنى انهم يعلمون تسلط الاهالى عليهم وعدم معارضة
الحكومة لهم اما عجزا أو تعاجزا فيقعون فى الهلاك وعلى فرض أخذ الدول لثارهم فما
فائدتهم بعد انقراضهم وصرح بذلك بعض رؤساءهم لانهم أحرص الناس على حياة وفى
هاته السنة وهى سنة ١٢٩٧ أحرق الاهالى يهوديا فعادت الكرة من الجمعيات المذكورة ❀
آنفا ووجدت دولة اسبانيا الفرصة للتداخل تعاميا عما فعلته هى مع اليهود مما هو من
ذلك القبيل أو أشد وما بالعهد من قدم كانت تمنع دخولهم الى مملكتها ولم يزل ذلك الا
عند اعطاء الحرية العامة فى اسبانيا منذ عهد قريب ولكن مريد التداخل يفتش
على ما يوافق قصده فلذلك دعت دولة اسبانيا جميع دول أوروبا لعقد مؤتمر للنظر فى
أحوال اليهود ورعايا الاجانب فى مملكة المغرب لان اليهود أكثروا بالرحيل الى بعض
الممالك الافرنجية ويحصلون منها على الحماية ثم يعودون الى المملكة المغربية ويسكنون
باماكنهم الاصلية وعند اجراء الاحكام والعادات عليهم يتجاسرون باظهار الحماية
الاجنبية فلم تعترف لهم الدولة المغربية بذلك وتقول اما أن تكون أجنبيا فلا تدخل
للمملكة واما أن تكون أهليا فتجرى عليك الاحكام هذا على تسليم الحماية ودولة
اسبانيا تريد الانتصار للمحتمين وأن يكون لهم السكنا فى دواخل المملكة بدعوة تعميم
التجارة وبعض الدول يوافقها لكى يتسع باب التداخل فى المملكة حتى يتسلط عليها
والدولة المغربية مصرة على الامتناع والتمسك بالمعاهدات والعادات المألوفة فعقدوا
لذلك مؤتمرا فى مدريد فى شهر جمادى الثانية سنة ١٢٩٧ وكانت كل من دولتى فرنسا
وانكلاتيره مساعدة لدولة المغرب أما فرنسا فلمجاورتها لها فى الجزائر وهى قد رأت
من أهالى الجزائر متاعب شديدة فانها استولت عليهم منذ خمسين سنة وهم لازالوا يحدثون

الثورة

الثورة عليها مهما سنحت لهم الفرصة مع قلة الفائدة بالنسبة للخسارة فتريد توكيد
المودة مع دولة المغرب لكى لا يحدث لها بمشاحنتها هيجان فى الجزائر سيما وهى تعلم ان
الاستيلاء على المغرب غير متيسر لمعارضة دول اوروباوية قوية فى ذلك وأما انكلتره
فتريد استجلاب دولة المغرب وبقاؤها لكى لا يتسلط على خليج طارق دولة قويه يمكن
أن تمنع الانكليز من المرور به الى البحر الابيض كما تخشى أيضا من انها اذا أظهرت لها
التشدد عليها ربما تميل الى دولة أخرى ذات اقتدار وتحالفها ويصير الجميع ضدا
للانكليز فى وقت الحاجة ومثل هاتين دولة المانيا فكثيرا ما تظهر المودة لدولة المغرب
رجاء أن تمكنها بمرسى على احد شطوطها ولا أقل من ان تكون مجرد حليفة لها حتى
يخشى الفرانساويون عند عقدهم الحرب مع المانيا من هجوم المغرب على الجزائر وبقية
الدول لا أرب لهم هنالك ولذلك يظن ان لا يحصل ضرر على هاته الدولة من ذلك المؤتمر
لان اسبانيا وحدها لا تقدر على جلب مساعدة الدول اليها وهى بنفسها ولان كانت قادرة
على التسلط على المغرب لكن الدول السابقين الذكر اللاتى لها منافع هنالك تعارض
اسبانيا فى قصدها ومع هذا كله فانهم لا بد ان يظهروا شيأ لتلك المملكة حتى تراعى
الاتحاد الاروباوى وياليتهم تجنبوا ما نهى عنه الشرع ولم يعملوا مع أهل الذمة الا
ما أمر به الشرع لان مجاوزة الحدود تقضى بالانقلاب ولا حول ولا قوة الا بالله ثم ان صناعة
النقش فى الجص على ظواهر الحيطان المسمات فى العرف بنقش حديدة لها اتقان عظيم
بهاته المملكة وكذلك دبغ الجلود واما القوة الحربية فان لهم قبائل مخصوصين معفون ❀
من جميع الاداء للدولة وهم القائمون بحمايتها مع اعطاء الدولة اليهم المعاشات والسلاح
والخيل وعلى بقية القبائل زيادة على الزكاة والعشر ان يدفعوا للدولة مقادير معينة من
الخيل اما عند حدوث الحرب فيلزم جميع المملكة أداء ما يحتاج اليه من الكراع والذخيرة
ولا زال سلاحهم على الطرز القديم وكذلك حركاتهم العسكرية لكن منذ نحو ثلاثين
سنة ابتدؤا بتنظيم العسكر على الطرز الجديد وألفوا جيشا يحتوى على ستة عشر ألفا
ومعلموه من عساكر تونس ولكنه انخرم وهرب أغلبه ولكن قد أخذ السلطان المتولى
الآن وهو مولاى حسن فى تنظيم الجيوش على مقتضى الطرز الجديد وأرسل تلامذة الى
مدارس فرانسا والمانيا لتعلم الفنون الرياضية والله ينجح سعيه ويحرس المملكة

الفصل * الحادى والاربعون

❊ المملكة الثانية ❊

هى مملكة الجزائر وهى شرقى السابقة ويحدها شرقا تونس وجنوبا الصحراء وغربا المغرب وشمالا البحر الابيض وهى تابعة لفرانسا منذ سنة ١٢٢٧ وسيأتى تفصيل الكلام عليها فى المقصد وانما نقول هنا ان عدد سكانها نحو مليونين ونصف وأكثرهم مسلمون وقاعدة المملكة هى بلد الجزائر والاحكام السياسية والضبط مثل فرانسا والاحكام الشخصية بين شرعية اسلامية وبين قانونية فرانساوية

الفصل * الثانى والاربعون

❊ المملكة الثالثة ❊

هى مملكة تونس ويأتى تفصيل الكلام عليها فى المقصد ان شاء الله تعالى والاجمال انها مملكة اسلامية تابعة للدولة العثمانية مستقلة بالادارة وحكمها استبدادى محض وسكانها نحو مليون ونصف وقاعدتها مدينة تونس ويحدها شرقا وشمالا البحر الابيض وغربا الجزائر وجنوبا الصحراء الكبيرة وطرابلس

الفصل * الثالث والاربعون

❊ المملكة الرابعة هى طرابلس الغرب ❊

وهى مملكة اسلامية من عهد سيدنا عمر رضى الله عنه وكانت فى أيام دولة الرومان والقرطاجنيز فى غاية العمران والخصب وان كانت المياه بها قليلة لكن الآثار القديمة دالة على اخراج منابع المياه بها من العيون والآبار وحفظ ماء المطر غير انها الآن قليلة الخصب والسكان فسكانها لا يتجاوزون المليون والمعمور منها أودية خاصة وقاعدتها طرابلس ويتبعها ولايات مثل برقه وغدامس وفزان وبنغازى وهاته الاخيرة تارة تفرد بالادارة وتارة تتبع طرابلس وقد استولت الدولة العثمانية على هاته المملكة فى المائة العاشرة من الهجرة سنة ٩٥٨ وذلك ان الدولة الحفصية التى قاعدتها تونس لما ضعف

امرها

أمرها واستبد عليها الولات فى الاطراف كان من جملة من عصى عليها والى طرابلس التى كانت تابعة لها وجار فى الاهالى فجهز اليه السلطان الناصر الحفصى وغلبه وأولى على طرابلس أبا محمد عبد الواحد ابن حفص فقبل الولاية بعد امتناع طويل على شروط أولها ابقاءه واليا الى أن يعيد البلاد الى أعز ما كانت عليه من الغناء والراحة الثانى أن يستقل بالادارة مدة ولايته بحيث لا يعارض ولا يرد أمره فى شئ الثالث أن ينتخب مقدارا من العساكر حسب ارادته لا بقائهم فى اعانته فأجيز له ذلك وبقى فى الولاية الى أن مات وولى ابنه الذى هو على شاكلته فاستقر العدل والغناء فى المملكة حتى بلغ النهاية واخلدت الاهالى الى الراحة وترك السلاح لما ضجروا منه سابقا حتى كان ذلك سببا لطمع العدو فيهم وذلك انه قدمت الى ثغر طرابلس سفينتان مشحونتان تجارة فاشترى جميع ما فيهما رجل واحد ونقد الثمن حالا واستدعى من فيهما الوليمة أعدها لهم وبعد احضار الطعام أخذ لؤلؤة فاخرة ذات قيمة عظيمة ودقها فى الهاون بمرأى منهم وذرها على الطعام قائلا هذا لكم مقام الفلفل ثم أحضر بطيخة خضراء وأراد قطعها فلم يجد سكينا فسأل منهم سكينا ولما سئل عن سبب عدم السكين عنده قال ان الاهالى كانوا ضجروا من حمل السلاح ليلا ونهارا أيام الظلم والعدوان ولما استقر الامن والعدل صار السلاح بيننا حمله معيبا ومن حمله أهين بين الاهالى فتعجب المدعوون الذين هم من الاسبنيول القائم فى ذلك الوقت كما يرد خبره فى تاريخ تونس فأخبر اصحاب السفن دولتهم بما رأوا فطمعت فى طرابلس وكان عندها ابن السلطان الحفصى مستنجدا بها على أبيه فحملت بجيش قليل على طرابلس وامتلكتها باسم أحمد الحفصى الابن المذكور وجار فى البلاد أشد الجور هو والاسبنيول ولما رأى ذلك النابطان الذى هو أحد ممالك ايطاليا تداخل بين الاهالى بالافساد ووعدهم بالحماية من الظلم وانهم اذا أطاعوه حماهم من المظالم ولا يتداخل فى أمورهم وانما يستولى على الحصون فقط فكان ما كان واجرى فيهم الامر أولا على نحو ما وعد ثم ابتدأ بالتداخل فى أمرهم فامتنع بعض أعيان الاهالى وتحصنوا فى (تاجورى) وكانت الحرب بينهم قائمة غير انهم علموا ضعفهم عن امتداد المقاومة فارسلوا وفدا منهم الى الاستانة مستنجدين بالدولة العثمانية فى انقاذهم ودعوها للاستيلاء على جميع البلاد حيث كانت هى اذذاك أقوى دول الاسلام وجمعت تحت رايتها أغلب الممالك الاسلامية كمصر والشام والعراقين ولما وصل الوفد الى الاستانة تعجب من شكلهم كل من رآهم ولم يجدوا أحدا يفهم لغتهم حتى صادف أحد

الطواشيين فى القصر السلطانى الجمع المحتبك للتفرج فيهم وكان عالما باللغة العربية فعلم القصد وكان هو الواسطة فى ابلاغ مطالبهم للدولة فاولته هو على تلك البلدة وأرسلته معهم مع حامية ضعيفة لانهم سهلوا الامر على الدولة لكنه لما ان وصل ذلك الوالى وعلم حقيقة الامر أرسل بتفصيل الاخبار الى الدولة وكان اذ ذاك اسطولها الموجه الى الاستيلاء على تونس على أهبة السفر تحت رياسة سنان باشا فأمر بالتعريج على طرابلس أولا فافتكها من أيدى النابلطان وبقيت مستقلة بالادارة وليس للدولة عليها الا هدايا واعانات فى وقت الحرب الى ان عصى يوسف باشا قرهمنلى وحاربته الدولة فى أواسط هذا القرن أى سنة ١٢٥١ واستولت استيلاء باتا على المملكة وصارت ادارتها مثل ادارة سائر الولايات العثمانية ومركز الولاية مدينة طرابلس الغرب وسكانها يميلون للبداوة ولو أهل المدن ويحدها شرقا مصر وشمالا البحر الابيض وتونس وغربا تونس وجنوبا الصحراء الكبيرة

الفصل * الرابع والاربعون

المملكة الخامسة هى مصر واجمال الكلام عليها انها مملكة اسلامية مستقلة بالادارة تابعة للدولة العثمانية وقاعدتها مصر ويتبعها ممالك مثل النوبة ودارفور وكردفان وزيلع وغيرها من ممالك السودان وجميع سكانها مختلف فى عددهم من الثلاثة عشر مليونا الى الستة عشر مليونا والاخير باعتبار الاضافات اللاحقة بها أقرب وحكمها ظاهرا قانونى بين شرعى وسياسى ويحدها شمالا البحر الابيض والصحراء وغربا طرابلس وشرقا الشأم وجزيرة العرب والبحر الاحمر وجنوبا الحبش والسودان والصحراء الكبيرة وتفصيل الكلام عليها يأتى فى المقصد ان شاء الله تعالى

الفصل * الخامس والاربعون

المملكة السادسة هى الحبشة ويحدها من جميع جهاتها السودان المصرى وعدد أهلها نحو خمسة ملايين على التوحش والبربرية والديانة عندهم الغالبة نوع بين النصرانية واليهودية والوثنية أعنى انها كانت نصرانية ثم امتزجت بفروع من تلك والحكم استبدادى متوحش ولا يعرفون حقائق العلوم ولا التمدن ولذا لا يعلم كم دخلها

ولا

ولا خرجها وهى لا تزال فى ضعف من الحروب الاهلية وبين أهلها كثير من المسلمين دخلهم الاسلام من عهد البعثة

الفصل * السادس والاربعون

المملكة السابعة هى مملكة الزنجبار وموقعها على شطوط افريقية الشرقية على المحيط الشرقى وقاعدتها فى جزيرة امام القارة وهاته المملكة هى اسلامية عربية من قديم وتارة تكون تابعة لغيرها من ملوك جزيرة العرب وتارة تستقل وفى أوائل هذا القرن استفحل ملك أحد أئمة مسقط بجزيرة العرب وهو المسمى بالسيد سعيد من أعيان ملوك الاسلام المتأخرين فعبر السيد سعيد البحر واستولى على زنجبار وجعلها مقر مملكته وأشاد فيها الحصون ورتب فيها الادارة الملكية مع انتحال شعائر الدين الاسلامى وكان من أتباع المذهب الوهابى كما أنشأ اسطولا بحريا يتألف من أربع سفن كبار حربية ذات طبقتين ومن عمل مداركه السياسية انه لما علم ازدياد القوات الاوروباوية وطموح أنظارهم الى الجهات الشرقية وغيرها كما حصل بالفعل فى شطوط أفريقية والهند راكن حينئذ دولة الانكليز وجعل معها عهدا حتى تكون كافلة بحماية مملكته من تسلط الغير لانها أقوى دولة أوروباوية لها شوكة فى تلك الاقطار وفى آخر حياته أولى على مسقط أحد ولديه وهو المسمى السيد توينى مستقلا بها كما أولى على الزنجبار ولده الآخر المسمى السيد ماجدى وبعد وفاته حصلت نفرة بين الاخوين وعزما على الحرب فتداخلت بينهما دولة الانكليز وتصالحا على اداء ملك الزنجبار الى امام مسقط مقدارا سنويا حيث ان المملكة الاولى أغنى من الثانية والثانية أقوى وكانت مملكة الاولى ثم ازداد غناء مملكة الزنجبار واعتبارها بعد فتح خليج السويس لاعتناء سلطانها السيد برغش واجرائه للعدل ولاهلها تمدن وفطانة عربية وقد زار سلطانها السيد برغش ممالك أوروبا فى أوائل عشرة التسعين بعد المائتين وألف وأخذ ينحو منحى التمدن الاوروباوى فى بعض أشياء سالكا مسلك الاستشارة الذى هو أساس العدل ودخل هاته المملكة يأتى ان شاء الله تعالى فى جدول دخل الدول وأما عدد السكان فهو نحو مليونين تقريبا

الفصل * السابع والاربعون

المملكة الثامنة هى مملكة برنو وهى فى دواخل القارة فى الجهة الشمالية الشرقية ويحدها شرقا واداى وجنوبا الاراضى المجهولة وشمالا الصحراء الكبيرة وغربا قبائل بنبرا وهى مملكة سودانية اسلامية يقال فى صفتها وأحوالها مايشبه مملكة مراكش ومالكها من نسل العرب ويقال من الاشراف وتختها كوكا أو كوكو قرب بحيرة اتشات أكبر بحيرات دواخل أفريقية وهذا التخت منقسم الى قسمين كل قسم له سور وفيها بلدان للتجارة منها مابه معامل للصبغ واخرى لنسج الثياب القطنية وسلطانها مستقل ويلقب فى عرفهم بالشيخ ومن دونه يلقبون سلاطين وله اقتدار ويوسم بالعلم بل يقال عنه انه يقرأ درسا من تفسير البيضاوى ودرسا من صحيح البخارى ولمملكته قبائل تؤدى خراجا له وهى مركى وتختها دورا ومندرا ولوكون ولهم صنائع فى النسج وغيره ولسلطان برنو جيش من السودان على أنواع غير نظامية وله معسكر خاص يقدمه بين يديه على أحسن صورة وأكمل خلقة أشداء لهم رماح وأقواس من الحديد ولكل فى ذراعيه حلق من حديد ماسكة لزنديه علامة على القوة ولا لبس لهم الا مايستر العورة وبأصابعهم خواتم من حديد تعين على جذب القوس لصلابته ليبعد رميه ولا يلبس العمامة الا السلطان وهى عمامة كبرى بيضى ولدولة المانيا معه مواصلة ومهادات لاعانة جمعية الجغرافيا على الاكتشاف ويقال انه يقدر ان يعسكر من الفرسان أزيد من مائة ألف من عموم الاهالى ويستعمل عندهم الاسلحة النارية ولغة الدولة هى العربية وفيها العلماء وعدد السكان باعتبار الاضافات نحو ثمانية ملايين تقريبا

الفصل * الثامن والاربعون

لا يخفى ان بقية أفريقيا لما كانت غير مكتشفة حق الاكتشاف بجميعها وليس لاهلها من التقدم مايماثل بقية الممالك قد قسمها الجغرافيون الى احد عشر قسما كبرى فأولها سموه بالسودان ويحده شرقا ولايات مصر السودانية مثل دارفور ويحده شمالا الصحراء الكبيرة ويحده غربا سانيغال ويحده جنوبا كينيا العليا وبلاد الكفر وهذا القسم يشمل عدة ممالك وقبائل مستقلة *(تنبيه)* لما كان غالب أسماء

هاته

هاته الجهات والقبائل منقولة من لسان أعجمى الى الفرانساوى ومنه نقلنا أغلبها فربما وقع تحريف فى الاسم ولكن على كل حال يفيد تقريبا المقصود بالمادة ومن ممالك هذا القسم سلطنة برنو المتقدمة وأكثر الممالك التى فيه أهلها مسلمون وفيهم علماء أجلة لهم تأليف الى هذا العهد ولكن الاطلاع على تفاصيل أحوالهم بالنسبة الينا لما كان عسرا اكتفينا بالذكر الاجمالى

الفصل * التاسع والاربعون

مملكة واداى وهى مملكة اسلامية لها ملك مستقل ولها تجارة واسعة مع مصر وطرابلس الغرب ولاهلها وفاء عظيم بالعهد ذكر لى ثقة ان أحد أهالى واداى قضى عليه بالاسر فبيع فى طرابلس والحال انه حر وبذلك يعلم اصابة منع التملك الذى هو مباح للخوف من الوقوع فى الحرام حسبما يشهد لذلك ما كتبه عالم أفريقية سيدى ابراهيم الرياحى من المالكية وشيخ الاسلام بيرم الرابع لاحمد باشا عند أمره بعتق العبيد فكتب اليه كل من العالمين المذكورين كتابة جيدة فى اصابة رأيه ثم ان ذلك الاسير بعد ان أقام مدة وصل فيها الى سن الشيخوخة بطرابلس اعتقه مالكه ورجع الى بلده وكان غنيا وبعد نحو ثمان سنين قدم على معتقه ومعه هدية ثمينة وفاء بحق الصحبة ومعه تجارة وقضى أمره ورجع الى بلاده وعدد أهالى هاته المملكة نحو امن مليونين ونصف وتختها مدينة وره وعادات هاته المملكة وأحكامها على نحو مملكة برنو تقريبا

الفصل * الخمسون

فى بقية ممالك القسم المسمى بالسودان فأولها قبيلة كانم بو وهى فى الجهة الشمالية من برنو وقد كانت سابقا مستقلة ثم صارت الآن تابعة الى واداى المتقدمة مع امتياز وقاعدتها ماو ثم قبيلة باكرمى وهم تابعون الى واداى أيضا بامتياز وقاعدتهم ماسنا وهى غربى السابقة ومن غريب مافيها ان عندهم نوع من النمل يحفر بيوته كبيرة جدا بحيث يكون ارتفاعها نحو عشرين ذراعا واتساعها نحو مائة وعشرين ذراعا وهاته الممالك والتى قبلها هى حول أعظم بحيرة فى قسم السودان المسمات اتشاد فواداى من شرقها وكانم من شمالها وباكرمى من جنوبها ويليها قبيلة موزكو ومن غريب

عاداتهم ان الرجل والمرأة اذا تشاجرا فاذا ابتدأ أحدهما بالكلام خيط الآخر فمه بالخيط حتى اذا انتهى صاحبه فتح هو فاه وفعل صاحبه مثل فعله لكى لا يقطع عنه الكلام ولذلك ترى أفواههم مثقوبة من الصغر لاجل ذلك ويدعى انهم يأكلون الاسرى بل وان من تفطنوا به منهم انه أصابه مرض أكلوه قبل ان يحف فلا يصرح أحد بمرض للخوف على نفسه

الفصل * الحادي والخمسون

مملكة فلاتا ومركز قوتهم بلد هوسا التى بها شبان أقوياء من السودان ويسمون باسم بلدهم وهم خاضعون الى فلاتا وهؤلاء جلهم مسلمون حسن السيرة على ماهم عليه وتحتهم بلد سا كاتو ولهم سلطان مستقل مسلم ومسكنه بلدة ورنو وأعظم بلاد للتجارة عندهم بلد كانو وأهلها مسلمون ولهم بعض صنائع جيده كالدبغ والصبغ والنسج ولهاته القبيلة السيادة على جميع القبائل المجاورة لها الانحو ثلاثة قبائل جوار الصحراء وهى كوبر ومريادى وكاغو ولذلك كانت فلاتا مملكة وموقعها غربى الممالك السابقة على نهر نيجر الذى هو أعظم أنهر قسم السوداز ولهم عليه قوة عظيمه

الفصل * الثانى والخمسون

القبائل المتحدة المسمات بركو المتألفة من تنبكتو وكورما واتباكو وقد كان الجميع تحت سلطنة واحدة جمعهم عليها أحد علماء فوت المسمى عمر الفوتى وهو من العلماء الاجلاء من كبار تلاميذ سيدى احمد التجانى رضى الله عنه وتوصل باجتماع التلامذة عليه الى ان صار ملكا وجمع هاتيك القبائل واتى يأتى ذكرها تحت سلطنته لكن فى أخر الامر وقعت حروب معه الى ان قتل بالغ يقال انه اثاره على نفسه لما أيس من الحرب وكان ذلك فى حدود سنة ١٢٨٣ وله عدة تآليف وجميع هاته القبائل مسلمون وفيهم الصالحون ولهم تجارة مع المغرب لكنهم الآن حكمهم كأنه حكم جمهورى تحت عدة رؤساء متعاضدين على دفع مهاجمات الفلاتا من الجنوب والتوارك من الشمال ثم يلى هاته المملكة من غربيها قبائل (بنبره) وقاعدتهم سان سان دنك وهاته القبيلة مستقلة تحت رياسة حاكم منهم وبقربها مكان كان يسكن به قبيلة يربا والآن لا يعلم من به

﴿القسم الثانى﴾

هو أراضى سانيغال أوسانيغانبى وهو يشتمل على عدة أمم ويحده شمالا الصحراء وشرقا قسم السودان وجنوبا مملكة جبال الاسد وكينيا العليا وغربا وبعض الجنوب المحيط الغربى وفيها جبال كثيرة ونهران عظيمان وعدد جميع سكانها نحو اثنى عشر مليونا وقد استولى الفرانسيس والانكليز والبرتقال على أكثر شطوطها

الفصل * الثالث

﴿والخمسون﴾

فى المستقل من سانيغال قد بقيت دواخلها منقسمة الى عدة حكومات أكبرها ثلاثة الاولى بالس الثانية ماندنيك الثالثة كيولوفس ثم البقية صغار متفرقون

الفصل * الرابع

﴿والخمسون﴾

ممالك تيمانى وسوليمانه وموقعها فى جنوب السابقة بينها وبين كينيا العليا وتحتها فالاپاو بأزاء هاته قبائل كورانكو وتحتها كورا كونكا

﴿القسم الثالث﴾

هو كينيا العليا وفيها قبائل وأقسام وهذا القسم ممتد مع شاطئ البحر الغربى منعرج معه الى الشرق ثم الى الجنوب الى مبدأ خط الاستواء القاسم للقارة ويحده جنوبا كينيا السفلى عند خط الاستواء والمحيط الغربى وغربا المحيط وشرقا بلاد الكفر وشمالا قسم السودان فى الاغلب وفى الاقل سانيغال

الفصل * الخامس

﴿والخمسون﴾

أول أراضى هذا القسم هى المسماة كرومان وهى قبيلة من الاصليين هنالك ذات أخلاق حسان وهم أقوياء تألفهم الغرباء ويوفون بالعهد وهم فى شمال كينيا العليا وعلى الاجمال فجميع سكان كينيا العليا متوحشون من السودان وبينهم مسلمون ونصارى ارتحلوا الى هنالك ومنهم من صار لهم فيها مستعمرات

الفصل السادس

(والخمسون)

فى مستعمرات الانكليز بهذا القسم وهى الاراضى المسماة جبال الاسد وسكانها من السودان وتختها فريتوفن

الفصل السابع

(والخمسون)

فى مملكة ليبريا هى مملكة جمهورية مستقلة تسمى ليبريا سكانها من السودان المعتوقين من امريكا وتعرفت بها دول أوروبا من سنة ١٢٥٦ هـ ١٨٧٤ م وسكانها نحو خمسمائة ألف من السودان ولها مجلس نواب الى غير ذلك من سمات الدول المتمدنة ولغتهم انكليزية ونهاية مساعيهم تحرير العبيد السود فى الدنيا وموقعها على الشاطئ الغربى المذكور وتختها مدينة مرنوفيا وتحت هاته الجمهورية ولاية أخرى انشأتها الجمعية الحرة المذكورة ومن قانونها ان لا يدخلها الا السودان الذين يقسمون ايمانا على ان لا يشربوا مسكرا واسم تختها هدبر

الفصل الثامن

(والخمسون)

فى أرض شطئ الفيل وهى تلى المملكة المتقدمة وهى من أراضى كينيا يحدها المحيط المذكور جنوبا بقرب خط الاستواء ولم يمكن للسواح التوغل والاقامة بها لفساد هوائها وان اصلح الفرنساويون أماكن أقاموا بها وشرقى الارض المذكورة الارض المسماة بشطئ الذهب سميت بذلك لغناها به واستعمرها الانكليزيون ببلدان كثيرة

الفصل التاسع

(والخمسون)

فى دواخل كينيا العليا وفى دواخل كينيا عدة ممالك سودانية منها قبائل فانكى كانهم

عصبة

عصبة ضد حرب قبائل اسهانتى التى هى فى الدواخل المذكورة وهم مثل أمة قوية مخوفة لسفكهم الدماء حتى انهم يضحون الآدمين فى جنائز كبرائهم وعند انتصارهم وتختهم يسمى كوماسى

الفصل * الستون

فى بقية شطوط كينيا العليا ودواخلها ثم شرقى الشاطئ الذهب شاطئ الممالك يسمى باسم التجارة الرائجة هناك ثم فى دواخله ممالك داهوميه سكانها نحو ثمانمائة ألف من السودان ولها ملك له عشرون ألفا من العسكر منهم خمسة آلاف نساء ويضحون المآت من الآدمين فى أفراحهم وتختهم (أبوميخ) ثم فى شرقى ما ذكر ممالك (هاونكالا وأتا كالا) وهوى (وبالى) وشرقيها ممالك (يربا) تمتد الى ان تصل الى قرب ممالك برنو وما جاورها وقد تقدم ذكرها وبازائها قبيلة (أكياس) الذين التجؤا من كثرة الحرب معهم الى جبال صخرية وانشؤا هناك بلدا متحصنين بها وعددهم نحو مائة ألف تحت رياسة رئيس بانتخابهم ولهم رئيس حرب واسلم منهم كثير وأمنوا سبلا الى مملكة تنبكتو وشرقى السابقة مملكة بنين وشرقى هاته شاطئ كالابار ثم جنوبى هاته محاذا لها على الشاطئ مستعمر فرنساوى يسمى كابون وهو نهاية ممالك كينيا العليا

(القسم الرابع)

(من الاقسام الكبرى قسم افريقية الجنوبية)

الفصل * الحادى

(والستون)

فى ممالك رأس الرجاء الصالح فى نهاية الجنوب على الشاطئ من المحيط الجنوبى رأس الرجاء الصالح وهو مستعمر للانكليز وتختها بلد الرأس سكانها سبعمائة ألف ويليها شمالا فى داخل القارة ولايات صغار وهى تاما كاس وكوراناس وبوشمس

(القسم الخامس)

(من الاقسام الكبرى بلاد الكفر)

وهو شمالى الرأس وهو أراض واسعة عظيمة تنتهى الى الشاطئ الغربى والشاطئ

الشرقى وتتوغل فى القارة وتسمى بلاد الكفر ومنهم قبائل الزلوس وقبائل ناتال وجمهورية نهر أورنج وجمهورية ترانزفال وبلاد البتجوأناس وبلاد أوتانتو

الفصل * الثانى

(والستون)

فاما الزلوس فهم أقوياء أشداء أهل حرب وقد حاربوا الانكليز سنة ١٢٩٦ كما هى عادتهم معه ومات فى هاته الحرب ابن نابليون الثالث امبراطور الفرانسيس لترؤسه على عسكر انكليزى ثم قهر الانكليز الزلوس وأسروا ملكهم الذى يعتقد نفسه كنابليون الاول وخضعوا الى الانكليز على شروط استقلال ادارتهم

الفصل * الثالث

(والستون)

وأما أراضى ناتال فسكانها انكليز وهلانديز وزلوس وباستوس بربريس وهنود وجميعهم نحو أربعمائة ألف نسمة وتختها ماريس بورك

الفصل * الرابع

(والستون)

وأما جمهورية نهر أورانج وهى شمال رأس الرجا وسكانها من الكفر المسمون بوتجوانس وهلانديز وتختها بلوفيم فنتين ولهم رئيس ومجلس شورى ومجلس نواب وديانتهم برتستانت وهنالك قبيلة من الكفار مستقلة تسكن بالجبل الازرق

الفصل * الخامس

(والستون)

وأما جمهورية ترانسفال فهى واقعة فى بلاد الزلوس وعددهم نحو ثلاثمائة ألف وثلاثين ألفا وتنقسم الحكومة الى أربعة أقسام لكل مجلس ورئيس ومنفذ وكاتب وتختها

وتختها بوتش شيفستروم ومن قوانينهم ان رئيس الجمهورية معه اثنا عشر عضو الادارة الحكومية يبقون ثلاث سنين

الفصل * السادس

(والستون)

وأما مملكة بادجوانه فتختها كورومان وبجوارها مملكة اوتانتو وهم فاسدوا الاخلاق حتى شبهوهم بالمغول وعقولهم رديئة حتى انهم يدخلون منازلهم يمشون على أيديهم وارجلهم كالحيوانات وفى كلامهم يلصقون لسانهم بلهاتهم وفى شمالى نهر أورنج صحراء تسمى كالاهارى لاماء فيها ولا نبات الا اذا صب المطر فتنبت عروقا وبطيخا بكثرة ويوجد الفيل هنالك بكثرة والجاموس والزرافة والنعام والكركدان وهنالك نوع من البشر وحشى يصطادونه كما تصطاد السباع ثم أراضى الزنبيز يسكنها نوع من السودان يسمى ماتيونا وانتنفى وكولولو وغيرهم

(القسم السادس)

من الاقسام الكبرى كينيا السفلى وهى على شاطئ المحيط الغربى يحدها شمالا كينيا العليا وغربا بالمحيط وشرقا بلاد الكفر وجنوبا قسم الرأس وهى أرض غنية بها نوع من القصب عجيب يسمى بانبو يدوم من الاربعة الى الخمسة آلاف سنة وساق شجرته محيطه نحو ستين ذراعا وبها نوع من القردة أكثر شبها بالانسان لكن بها نوع من الذباب قتال لمن يلسعه وأغلب السكان من السودان وحشيون ومنقسمة الى عدة عمالات

الفصل * السابع

(والستون)

فى ممالك كينيا السفلى فالاولى تسمى لونقو وتختها بوالى ثم عمالة كاكونكو وتختها كين كلى ثم عمالة نكويو وتختها كانبدا ثم عمالة كونكو وتختها بنزا كونكا ثم عمالة انكلا تحت استعمار البرتقال وتختها لوواند ثم عمالة بنكلا للبرتقال أيضا تختها صان فليب وهذان سكانهما نحو ستمائة ألف من السودان ولكل حاكم وفى جنوبيها صحراء سيم بيازى

﴿القسم السابع﴾

من الاقسام الكبرى هو المسمى موزنبيك وهو شمالى بلاد الكفر على الشاطئ الشرقى للمحيط ولا يعرف منه الا الشط وهو مستعمر للبرتقال ومنقسم الى سبع حكومات

الفصل * الثامن

﴿والستون﴾

فى ممالك هذا القسم وهى مركزوانهانبانى وسوفالا وسيناو كيليمانى وموزنبيك وديلكاد ويحد هذا القسم شمالا مملكة الزنجبار التى تقدم ذكرها

﴿القسم الثامن﴾

من الاقسام الكبرى قسم سومو ليس وهو فى الشرق الشمالى من زنجبار ويحده شمالا جون عدن وشرقا المحيط وجنوبا المحيط وزنجبار وغربا زنجبار

الفصل * التاسع

﴿والستون﴾

فى ممالك هذا القسم فسكانه من بربر افريقية الشمالية والعرب والسودان وهاته المملكة هى المسماة بزيلع وكانت شطوطها للدولة العلية ثم سلمتها الى مصر بالزيادة فى خراجها وفى نهاية شمالها بلاد عدل واغلب سكانها مسلمون ولهم امام من العرب وفى الشمال الغربى منها بلاد هرر وقاعدتها مدينة هرر سكانها نحو الثمانين ألفا كلهم مسلمون على أوصاف جيدة وبلادهم حصينة ذات اسوار والتجار آمنون ولهم تجارة واسعة مع اليمن وغيره مع خصب الارض وسلامة الهواء فى أغلب الجهات وهى داخلة فى الممالك التابعة لمصر

﴿القسم التاسع﴾

﴿من الاقسام الكبرى﴾

هو القسم المجهول وهذا القسم الكبير الاوسط من افريقية الجنوبية مجهول ويحده شرقا زنجبار وما حولها وغربا كينيا السفلى وما حولها وشمالا برنو وماوالاها وجنوبا بلاد الكفر ويخرقها خط الاستواء ويمتد منه جنوبا نحو عشرة درجات وكذلك شمالا

ولا

ولا يعرف منها عند الجغرافيين الا ثلاث عمالات أولها عمالة كازمب وتختها لوسندا وثانيها أونيام وزى وتختها كوخ وثالثها وجيجى وتختها كاولى

﴿القسم العاشر هو الجزائر البحرية﴾

وأما الجزائر التابعة لافريقية وهى فى المحيط كلها الا اعتبار لها الا جزيرة سنتيلين المقابلة لجون كينيا فى دواخل المحيط وانما اشتهرت لكونها مات بها نابليون الاول منفيا فى أسر الانكليز وأغلب تلك الجزائر فى تملك دول أروبا الا ما يتبع الزنجبار وكذلك ما يتبع جزيرة ماداغسكار التى هى الجزيرة الوحيدة فى افريقية فى المحيط الشرقى تجاه شاطئ موزنبيك كما سيأتى

الفصل * السبعون

فى مملكة ماداغسكار أو كسكار وهى من الجزائر الكبيرة المعتبرة فى الدنيا وهى غنية وفيها نوع من السباع اسمه ما كيز وهاى هاى وغيرها من الحيوانات الغير المعروفة وسكانها نحو خمسة ملايين وكلهم من السودان ونوع يسمى هو واس يظن انهم من نوع سكان الهند وعددهم نحو ثمانمائة ألف والدين الغالب هو الكفر من عباد الاوثان والجميع تحت حكم واحد وعليهم ملكة أنثى اسمها رانافولو الثانية وقد أمرت باحراق جميع آلهتهم وهدم جميع معابدهم وأمرتهم بالديانة البروتيستانت فاطاعوها وهم على ذلك الآن لكنهم بالاسم فقط اذ لا يعتقدون شيأ وكان ذلك الامر فى سنة ١٨٦٨ وتخت المملكه بلدة تنانار يفو وقد اكتشف هاته الجزيرة العرب قبل البعثة وعرفها أهل الصين وأهل همالاى

﴿القسم الحادى عشر﴾

من الاقسام الكبرى قسم الصحراء فتنقسم الى ثلاثة أقسام (أولها) صحراء المغرب (وثانيها) الوسطى أو بلاد التوارك (وثالثها) الشرقية أو بلاد التيبوس فالاولى هى بين مراكش وسانيغال على شاطئ المحيط الغربى والشاطئ فى البحر مملوء صخرا والريح الغربية تخرج من البحر رمالا تحدث فيه جزرا متنقلة وقد تحقق ان وسط هاته الصحراء يكون الرمل دائما متنقلا الى الجهة الجنوبية الغربية وكان ذلك أحد أسباب عدم النبات بها وتسمى هاته الصحراء بالساحل ويوجد بها عدة جزائر

بالنبات على خط واحد اما الوجود ماء جار على منحاها تحت الارض أوندى والقوافل
تمر دائما على سمتها للسقى من آبارها والتزود من عشبها

الفصل ❁ الحادى

❁والسبعون❁

فى ممالك الصحراء الغربية ويسكن بهاته الجزائر فى بعض الاوقات نوع من البشر
يسمون زنقا وكذلك التوارك والعرب يجذبهم الى هنالك ربح تجارة العبيد وكلهم
يتعيشون من القوافل المارة عليهم وتارة يسرقونهم وتارة يسافرون معهم هداة للطريق
والاصليون من سكان الصحراء المذكورة مسلمون وهم مركبون من عرب بنى حسن
الذين يقال انهم رحلوا من اليمن فى القرن الحادى عشر ميلاديا وفيها عمالة تسمى
تيريس فى الشمال الغربى على الشاطئ تأتيها الحيوانات من المغرب وسانيغال
والرعاة لرعى حيواناتهم زمن الربيع لكثرة الخصب وسكانها اولاد دليم وهم أقوياء
شداد متسلحون ويخترقون الصحراء بالهجائن السريعة ويتعيشون بالنهب وفى جنوبها
بلاد بها كثرة سباخ يتزود منها الملح جميع أهالى الصحراء الى بلاد تنبكتو كما ان فى صحراء
المغرب جزائر نباتية تسمى ادرار على نحو ثلاثين ميلا من سانيغال وبها جبال كثيرة
وبلدان وقرى وتحتها يسمى وادان وسكانها بين عرب وبربر ثم جزائر تاغانيت كان
يسكنها قبائل زاغانا وتحتها تيشيت ثم جزائر والاتا فى الجنوب الغربى وبلاد الهث
ضاربة فى الجنوب تحتها كسانبرا وبقرب سانيغال بلاد ترارزاس وبراكاس وبلاد
سيدى هاشم الذى كان دخل الى مراكش

الفصل ❁ الثانى

❁والسبعون❁

فى ممالك الصحراء الوسطى وأما الصحراء الوسطى فيسكنها العرب المنتقلون الى هنالك
بالاستيطان والتوارك ويمتدون من حدود فزان ببلاد طرابلس الى بحيرة تشاد ومركز
قوتهم فى رباعلى شكل مثلث وبها جبال كثيرة ونهيرات وثلاثة جبال كبرى بمحل يسمى
غات وخارج المثلث المذكور جهة الجنوب الغربى بلاد ازاود وبقية الجهات قفراء
والتوارك يسمون انفسهم ايموشاك بمعنى مستقلين واشراف واسم التوارك اطلقه

عليهم

عليهم العرب وهو بمعنى التاركين اتركهم الحق فى الصدر الاول (وأما) الآن فهم
مسلمون ولغتهم تسمى تاماشك وينقسمون الى عدة قبائل توارك هرر فى جبال هكار
وتوارك أزقر فى جبال غات وتوارك مويدير فى جبال سكارن وتوارك الفوقاس وفى
الجنوب جهة تنبكتو توارك الفراج وتوارك أنّهو وأولاد أحمد والقبائل وتالغوى
وجميع هؤلاء القبائل ينقسمون الى أربعة أقسام كبرى وهى توارك هكار وتوارك ازقر
فى غات وتوارك كلوى وتوارك والى منيدن فى شرق تنبكتو والقسمان الاوّلان معروفان
لكثرة التجارة معهم من الجزائر ويدعون بأنهم أشراف البربر وهم بيض حسان الخلقة
شجعان يحملون الرماح والسيف والمكحلة أى البندقة والسكين ويركبون الهجين
السريع للغاية مع قوته ويلبسون قميصا أبيض أوأسود وعلى رؤسهم شواشى طوال ولثام
بحيث لا تظهر الا أعينهم ولهم ملك يحكم مع كبار القبائل وولد أخت الملك هو وريث الملك
(هكذا) قانونهم وحكمهم ليس بقبرى مطلق بل لهم نوع من الحرية ومن عاداتهم
أن لا يتزوج الرجل الا امرأة واحدة شرعية ولغيرها ودّ بانهم الآن الاسلام ليسوا
بمتغالين فيها كما هى حالة مجاوريهم ولهم غنم اصوافها قصيرة وأليتها كبيرة للغاية ولهم معز
وابل لحمل الاثقال وهجائن للركوب ولهم نوع من الخيل من أجود الجياد وفى جزائر
الصحراء لهم نخيل كثير والقبائل الرحالة هم الحارسون للقوافل المارة فى بلادهم بين
شواطئ أفريقية الشمالية والسودان باجرة مقوننة معروفة والقادم من فزان يجد غات
على مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما من لغوات والامطار هنالك قليلة جدا ومرض الاعين كثير
وهو أصعب طريق بين السودان وطرابلس ومن شهر سبتمبر الى غاية شهر نونبر يجتمع
فى بلاد غات أزيد من ثلاثين ألف جمل باحمالها وفى الجنوب الغربى هضاب على
جبال هقر تكادان تسمى سفيسرة افريقية لانهابها جبال ذات آجام وغابات ووهادات
تسقى من عيون غزيرة ويدوم فيها الثلج من دجنبر الى مارس ومن هاته الجبال منبع
أعظم أنهر الصحراء المسمى ايغرغر ويذهب جهة الشمال وينقطع قرب تكررت
فى حدود الجزائر وهى مسكن التوارك الخالصين المخيفين لمن جاورهم بقوتهم وشجاعتهم
واكبر بلدانهم تسمى ادلى وفى الشمال الغربى جهة مملكة مراكش عمالة توات
المكونة من عدة جزائر نباتية متقاربة وبها نوع من الشجر يسمى كرك هو أحسن
فحم للبارود وأرضهم خصبة لجميع النبات ولهم حيوانات كثيرة والسكان أناس طيبون
مسلمون متصلبون ويتجرون مع المغاربة والجزائريين ومع غات والسودان وأكبر

مدنها يتميوم وادرار وتامنتيت وتجتمع الطرق فى بلد أولف ولذلك كانت موقعا مهما للحرب وفى الجنوب عمالة ابر فى طريق السودان وهى متكونة من جبال صخرية وفى الاودية ينبت كل نبات وفى شهر استمبر تنزل أمطار غزيرة والسكان يسمون كاوى أصلهم مابين التوارك والسودان وتحتهم يسمى اوكاديس ولهم ملك يسكن بها وفى حدود السودان بتوغل فى الجنوب ايالة دامركو وفى الغرب منها قرب نهر دوريبا ايالة والى مانيدن وبها بلدة مبروك الواقعة على الطريق بين تنبكتو وغات

الفصل * الثالث

﴿ والسبعون ﴾

فى مملكة الصحراء الشرقية وأما الصحراء الشرقية المحادة لمصر من غربها فهى ليست كبقية الصحراء لانها بها الطفل نوع من الطين بكثرة وبها جبال لونها رصاصى أو اصفر وبها ربا من الرمل رحالة الى جهة الجنوب وجهة الغرب وسكانها يسمون تيبوس من السودان من نوع القانورى التابع لبرنو وينقسمون الى عدة قبائل وهى الرشاد وقران وبركو وباتلين وغيرها والطريق مابين مرزوق الى كوكامارة على سلسلة من الجزر النباتية طويلة جدا واكبرها تسمى كوار وهو حقيقة اسمها وان سموها باقما ويوجد فى هذا القسم جزائر أخر وهى تيبستى وبركو وموقعها بين مرزوق ووادای ثم جزيرة كوفارا التى بها بلدة كبابو الواقعة فى الشمال وجهة الشرق من هذا القسم تسمى ليبيا بها بعض جزر تابعة الآن لمصر وهاته الاماكن التى عبرنا عنها بالجزر تسمى فى العرف بالواحات (والخلاصة فى افريقية) ان جميع سكانها عدى الممالك الشمالية والممالك التى على الشطوط نحو مائة مليون وأهم الشطوط بيد ممالك أوروبا ولهم فيها حكم استبدادى بمراعاة للعوائد غير انهم يستعملون القوة القاهرة لتوحش السكان وبقية السكان غير الممالك التى مر ذكرها بتفصيل حالتها هم أناس متوحشون كالحيوانات العجم ودأبهم غزو بعضهم بعضا ولبعضهم رؤساء يلقبون بألقاب الملك ويجرون الحكم القهرى ولهم عادات مبنية على خرافات وجلهم اشد الناس تعلقا بالسحر وزعمائه ويعتقدون له من التأثير أمورا عجيبة يكاد السامع أن لا يفهمها حتى ان بعضهم يستعمل السحرة فى الحرب بل ويعتقدون فيهم

الاحياء

الاحياء والاماتة ومن هذا القبيل فى حكاية ما يعتقدونه ما أخبرنى به ثقة عدل راويا عن والده الذى هو شاهده انه رأى من عجائب سحرهم ان قبيلة ونقره من عادتهم التجارة ويرحلون لاجلها الى بلد جنى من بلاد قسم السودان فيتهيأ لذلك كل عام نحو ثمانية أو عشرة من كبرائهم أهل السحر ويعلنون بذلك فلا يزال الناس يأتونهم بأقربائهم ووكلائهم المريدين للسفر ويستودعونهم عندهم الى ان يجتمع منهم آلاف كل منهم يحمل بضاعته على عاتقه ويسافرون (هكذا) مشاة فاذا مات أحد المستودعين اجتمع السحرة وطلوه بأشياء من نوع شجر عندهم لكى لا يفسد جسمه ثم يأخذون ذنب بقرة مستودع فيه السحر على زعمهم ويمسكونه بيده ثم يوقفوه ولا يزال سائرا معهم الى الليل فيمد ميتا (وهكذا) ذهابا وايابا وبضاعته على عاتقه وهو ميت الى ان يرجع الى صاحبه ولولا تواتر الاخبار بمثل ذلك فى أنواع سحرهم لما أثبتناه هنا للعلم بأحوال ما يعتقدونه ودياناتهم شتى من أنواع الكفر وبعضهم يعتقد الالوهية فى ثعابين أو عقارب أو حيات أو أصنام أو ملوك حتى اعتقد قوم منهم فى سائح أبيض انه ابن الشمس وعبدوه ولما أراد الرجوع خاف على نفسه منهم من غصبه على البقاء بين أظهرهم الى أن اختفى ونجا وهكذا يعتقدون الالوهية فى كثير من الحيوانات وبعضهم له لباس وبعضهم عراة بالمرة والنساء كانات الحيوانات المشتركة وبعضهم يتستر على العورة الغليظة وبعضهم يلبس شيأ من الثياب وبعضهم يسكن تحت السماء ويتقى البرد والحر بظل الاشجار وبعضهم يتخذ بيوتا من الهشيم أو أغصان الشجر وبعضهم له قرى وهم يتفاوتون فى هاتيك الخلال شدة وضعفا وفى هؤلاء الاقوام قبائل من المسلمين وهم على توحشهم أحسن حالا من غيرهم لان الديانة هذبت من أخلاقهم نوعا ما وان كان بعضهم لا يعلم من الديانة الا الانتساب اليها وبعضهم يعلم الكليات الخمس الواجبة اجمالا من غير معرفة تفصيلها واذا قام أحدهم الى الصلاة يصير يركع ويسجد من غير عدد مخصوص لانهم انما يعلمون وجوب الصلاة التى هى قيام وركوع وسجود من غير تفصيل ولا عدد ولا ترتيب وهكذا يوجد فى افريقية أقوام ينتسبون الى الديانة النصرانية واليهودية وليست على قواعدها المعروفة ولا زال الاوروباويون يرسلون دعاة لادخالهم فى النصرانية هم وغيرهم من أمم تلك القارة كما يرسلون سواحا للكشف عنها وتحقيق ما فيها وكأنها لا تلبث أن تصير مطمح الانظار ومحطا للتقدم فقد اعتنوا من كل الجهات بالبحث عن ذلك رغبة فى ازدياد التجارة والربح ونجح كثير من سواحهم فى

الحصول على اكتشافات نافعة من خصب أقطار وكثرة سكان ووفور معادن وغير ذلك من حيوانات وحشية وأهلية لها فائدة فى التجارة والغوا فى صفات البلدان التى شاهدوها كتبا مفيدة وعلى الاجمال يقال ان قارة افريقية لازالت غير معروفة حق المعرفة الاما يفناه منها منفردا وقد رأيت أبياتا للشيخ أحمد بابا التونبكتى وهو عالم مشهور من علماء السودان فى أوائل هذا القرن قدم من بلاده تنبكتو قافلا للحج مارا على المغرب وتونس وهاته الابيات تفيد معرفة أسماء قبائل من السودان ومعرفة ديانتهم وهى

كل الذى من صنف متش قدما * عليك بالكفر عليه فاحكما
كذلك كرم كند كل ويربا * تنبع ويركبس وبوبا كنبا
فهم يجوز فيهم السباء * وبعضهم يجوز والشراء
واحكم باسلام بلاد برنو * كشنكاغ وكنو وعفنو
مولى وكوبروصفى كذلك * وجل فلات وبعض زكزكا

القسم الرابع من الارض

هى قارة أمريكا يدعى غالب أهل العصر ان هاته القارة كانت مجهولة عند القدماء الى سنة ١٤٩٢ مسيحية الموافقة لاوائل القرن العاشر من الهجرة فاكتشفها رجل اسمه كرستوف كلمبوس وهو من أهالى جنوه متخذا صناعة الملاحة وهى اذ ذاك تستلزم معرفة الحروب لكثرة الحروب البحرية سيما فى شطوط أوروبا وكان الفتى فى فكره وجود أرض وراء المحيط الغربى والجزائر الخالدات لمعرفته بالجغرفيا ورسم الخارطات فسعى الى ذلك مع ملك البرتغال ثم مع ملك جنوه وخاب أمله وبعد المحاولات الطويلة مع ايزابلا ملكة اسبانيا فى مدة ثمان سنين حصل على المساعدة بثلاث سفن والعهد اليه بأن يكون خليفة الملك عما يكتشفه ويأخذ العشر من المداخيل لنفسه ثم بعد مقاسات شديدة له من الملاحين الذين أرادوا قتله ليأسهم من النجاح كلل سعيه بالنجاح بعد سبعة وعشرين يوما من شطوط اسبانيا الى جهة الغرب وأول جزيرة اكتشفوها سماها سان سلفدورى ولازال يكتشف فيها جزيرة بعد أخرى كلها فى غاية النضارة وسذاجة الاهالى وسلامتهم حتى انهم عراة نساء ورجالا ولونهم ذهبى ويبنون بيوتا من أغصان الشجر وبعض الجزر يبنون القرى من الحجارة والطين واكتشف فيها على البطاطس والتبغ اللذين لم يكونا معروفين من قبل وهكذا اكتشف بها على

الطماطم

الطماطم التى يقال انها هى السبب فى حدوث المواد الطيرية فى القارات لانه لم يكن معروفا ذلك المرض من قبل حتى سمى بالحب الافرنجى نسبة الى الافرنج لانه عرف منهم بجلبهم للطماطم وسيأتى الكلام ان شاء الله تعالى على وجه تسمية أهل أوروبا بالافرنج ثم ان كلمبوس رجع الى اسبانيا وعاد بأسطول وعساكر أكثر مما كان أتى به سابقا فلم يبق هناك ثم قدم بعد مدة رجل يقال له أمريكوس وهو الذى اكتشف على أمريكا الجنوبية وبه سميت جميع القارة والحق انها كانت معروفة سابقا وكذلك طريقها من جهة المحيط الغربى ودليله انهم أثبتوا ان أهالى النوريج كانت لهم تجارة ومعاملة مع أهالى كرنيلاندا من أمريكا الشمالية منذ القرن الثالث والرابع من الهجرة حيث ذكروا ان رجلا من أهالى اسكلانده التى هى الآن من ممالك انكلتره وكانت اذ ذاك تحت حماية النورويج قذفته الرياح فى ذلك الزمان فى البحار الشمالية الى ان وصل الى كرنيلاندا ثم رجع الى بلاده وصار لهم اتصال معهم غير انهم لم يثبتوا زيادة اكتشاف عما عدى ذلك مع ان القارة كبيرة جدا وكذلك رأيت فى جغرافية ابن الوردى انه قال ما معناه ان وراء الجزائر الخالدات وبحر الظلمات جزائر عظيمة جدا وفيها خلق كثير وقد وصل اليها أحد النوتية عن غير قصد بطاردة الرياح ثم رجع منها بعد ان أيس من الحياة ووصفها بأوصاف جميلة مطابقة لما اكتشف من بعد وانما قال فى المحيط الغربى بحر الظلمات لانه تتكاثف فيه جهة الشمال الابخرة حتى يصير ظلاما الليل والنهار كما هو مشاهد الآن لجميع المسافرين بين أوروبا وأمريكا حتى تضطر البواخر مدة سفرها ان تصرخ بعد كل دقيقة ببوق البخار كى لا يقع لها تصادم مع غيرها لان نور الشمس محجوب ونور المصابيح لا يخرق تكاثف الابخرة وكذلك نقل لى ثقة انه رأى فى بعض كتب الشيخ محيى الدين ابن العربى ان وراء المحيط أمما من بنى آدم وعمرانا وهو فى القرن السادس رضى الله عنه فدل هذا على معرفة تلك القارة من قديم وانما الانتفاع التام بها لاهالى هاته القارات لم يعرف الا منذ قريب ثم ان هاته القارة العظيمة التى تعد نحو نصف الارض المكشوفة هى يحيط بها البحر من جميع جهاتها ويفصلها عن غيرها من القارات الا جهة القطب الشمالى أزيد من درجة نيف وثمانين فهى مجهولة كما ان القليل من الجهات الشمالية وسط القارة لم يعرف بالتحقيق وهكذا الوسطى من الجنوبية وجميع القارة تقسم الى شمالى وجنوبى ويوصل بينهما برزخ من الارض ضيق يبلغ فى بعض الجهات الى أربعة وعشرين ميلا يسمى برزخ بناما وقد أرادت فى

هاته المدة جمعية فرنساوية تخرقه حتى يتوصل من المحيط الشرقي الى المحيط الغربي بقصر في المسافة وكأنه يتم عن قريب وسكان جميع هاته القارة يبلغون الى نحو الستين مليونا ولو أضيف اليهم أربعمائة مليون لوسعتهم الارض وقامت بجميع ثروتهم وأكثر أولئك السكان من أهالي أوروبا وآسيا وافريقيا والاصليون قليلون ثم تنقسم القارة الى عدة دول

الفصل * الرابع

﴿ والسبعون ﴾

المملكة الاولى دولة أمريكا المتحدة وموقعها في أمريكا الشمالية وتمتد من الشرق الى الغرب على جميع القارة فيحدها شرقا المحيط الغربي ويحدها غربا المحيط الشرقي ويحدها جنوبا خليج مكسكو ومكسكو وخليج كاليفورنيا ويحدها شمالا الاملاك الانكليزية والبحيرات الشمالية وسكان هاته المملكة نحو اثنين وأربعين مليونا منقسمون الى ستة وثلاثين حكومة كل حكومة مستقلة بادارتها الداخلية ومجتمعون في الاحوال العامة مما يعود الى مصلحة الجميع وتخت الجميع بلاد واشنطون يتركب فيها مجلس من جميع الحكومات وينظر في مصلحة الجميع ورئيس هاته البلاد هو رئيس جميع الدول التي هي جمهورية وهي التي لها المعاملة السياسية مع الدول الاجنبية ورياسة العساكر والبحرية وسيرة الدولة وقوانينها مثل سيرة الدول الاوروباوية الاكثر حرية وتقدما ولازالت تتقدم في الحضارة والمعارف والقوة حتى كان لها الشأن العظيم وصار لها الاعتبار التام عند جميع الدول وكانت سابقا من مستعمرات الانكليز ثم استقلت سنة ١٧٨٩ أوائل القرن الثالث عشر هجريا وهاته هي أسماء الحكومات المركبة منها العصبة وهي (نيوهمشير) و(مساشوست) و(رد ايسلند) و(كنكتيكوت) و(نيويورك) و(نيوجرسي) و(فنسلوانيا) و(دلاوار) و(مريلاند) و(ورجينيا) و(كرولينا الشمالية) و(كرولينا الجنوبية) و(جاورجيا) و(ماين) و(فرمونت) و(مشيغان) و(أوهيو) و(أنديانا) و(الينوى) و(كنتوكى) و(تنيسى) و(الاباما) و(فلوريدا) و(مسسبي) و(لوسيانا) و(وسكونسن) و(ايووا) و(مسورى) و(اركانساس) و(كانساس) و(نبراسكا) و(ارجون) و(منيسونا) و(تكساس) و(كليفورنيا) و(واشنطون) وهاته الاقسام تكونت

شيأ

شيأ فشيأ وأول ما تم منها الثلاثة عشر الاولى فاستقلت كما تقدم ثم مهما أتم قسم شروط العمران والدخول في العصبة قبل ولهذا بقيت بعض أقسام الى الآن تتمم في استعداده لكي تدخل في العصبة وسكان هاته الممالك من الغرباء وأطردوا السكان الاصليين الى شمالي القارة والاصليون يسمون بالهنود لشبههم بهم في اللون والخلقة وقد تهذب منهم أفواج ولازال أغلبهم على التوحش يسكنون مع الوحوش أما الغرباء فقد بلغوا الغاية في التمدن والحرية فمن حريتهم ان ولي رئيس الجمهورية عندهم رجل صناعته الاحذية حيث كان مستكملا الشروط الانسانية ووقع عليه الانتخاب وذلك في عشرة الثمانين ومائتين وألف كما تقدموا في فنون المعارف الرياضية والسياسية واخترعوا أشياء عجيبة من الكهرباء والبخار فاول ماعرف استعمال البلون أي القبة الهوائية للاطلاع على أحوال العدو في الحرب في هاته المملكة عند ما كانت الحرب مستعرة بين الحكومات الشمالية من الدولة المذكورة والحكومات الجنوبية منها التي نشأت بسبب منع العبودية فان الجنوبيين أصروا على ابقاء ملك العبيد وبقيت الحرب بينهم عدة سنين وذلك في عشرة الثمانين من القرن الثالث عشر من الهجرة فمن الاختراعات في ذلك الحرب ان أصعدوا ركابا في قبة الهواء مستصحبين باسلاك كهربائية ليخبروا امراء الجيش بأحوال جيوش العدو والمستترو راء جبال أو ربا ومن ثمرات قوة الاجتماع التي ظهرت عندهم الطريق الحديدية التي وصلت بها شطوط المحيط الشرقي بشطوط المحيط الغربي وكان يوم تمامها يوما مشهودا فاحتفلت له جميع البلاد وآخر مسمار انتهت به صناعة الطريق صنع من ذهب ودق بطرقة من فضة وربطت به عند آخر دقة أسلاك الكهرباء الى جميع البلاد فعند آخر دقة على المسمار حصل العلم لجميعهم بذلك في آن واحد ولهم ثروة عظيمة بالمعادن جميعا سيما معدن الذهب في كاليفورنيا الذي يحت منه الذهب صخرا عظيمة وهكذا الصنائع والتجارة مع الامن العظيم والاطمئنان التام وقد امتلكت هاته الدولة بالشراء من الروسيا أملاكها جهة الشطوط الشمالية من جهة غربي القارة

الفصل * الخامس

﴿ والسبعون ﴾

في بقية ممالك أمريكا الشمالية (فاولها) مستعمرات الانكليز في القسم الشمالي

حاذ الممالك السابقة الاملاك الانكليزية وهى يجرى فيها الحكم الانكليزى بنوع امتياز (وثانيها) مايلى ماذكر شرقا وهو قسم المتوحشين الاصليين وبقية الاقسام المريدة للدخول فى العصبة السابقة

الفصل * السادس

﴿والسبعون﴾

(وثالثها) مكسكو وهى تلى البلاد المتحدة جنوبا واستقلت أواسط هذا القرن من تسلط اسبانيا عليها ولكنها لم تزل متأخرة فى جميع أنواع العمران حتى الآن لاختلاف سكانها وحكمها الآن جمهورى وعند اكتشاف الاسبنيول عليها وجد فيها أمما فيهم بقايا التمدن ولهم ملك والموجود فيها من آثار المدن يدل على تقدم أهلها وقوتهم قديما وعدد سكانها نحو تسعة ملايين وقاعدتها مكسيكو

الفصل * السابع

﴿والسبعون﴾

(ورابعها) أمريكا الوسطى وهى تلى السابقة جنوبا وحكمها جمهورى وهى أقرب الى الخراب لتعاظم الفتنة بين أهلها واستقلت أيضا عن اسبانيا فى أواسط هذا القرن

الفصل * الثامن

﴿والسبعون﴾

(وخامسها) الجزائر الكثيرة المتفرقة وهى تابعة أما تماما أو تحت الحماية لدول متفرقة من أوروبا كانكلتره واسبانيا وفرنسا وهولاندا والدانيمرك والسويد كما ان لهؤلاء الدول أملاكا فى القارة الجنوبية وأكثرهم تملكا اسبانيا وانكلتره وحقيقة عدد السكان مجهولة لكثرة التوحش وعدم الفائدة الكبرى للدول بتهذيبهم وقد جربوا ان كل من تمدن هنالك حاز الاستقلال بادارة نفسه مع ان عدد السكان قليل فى نفسه ثم ان بقية القارة الجنوبية تشتمل على دول شتى

الفصل

الفصل * التاسع

﴿والسبعون﴾

فالدولة السادسة كلومبيا المنقسمة الى ثلاثة أقسام كل منها مستقل تحت الحكم الجمهورى وعدد جميعهم نحو ثلاثة ملايين وهم على حالة التأخر وموقعها من مبدأ البرزخ الموصل بين القارة الجنوبية والشمالية يقسمها خط الاستواء متصلة بالشاطئ الغربى والشمالى والشرقى

الفصل * الثمانون

(والسابعة) دولة بيرو وسكانها نحو مليون ونصف وحكمها جمهورى وموقعها على الشاطئ الغربى جنوبى المملكة السابقة

الفصل * الحادى

﴿والثمانون﴾

ثم يليها شرقا وتمتد الى الشطوط الشرقية وعلى جميع دواخل القارة الدولة الثامنة وهى برازيل وسكانها نحو ستة ملايين ونصف وحكمها ملكى مقيد بالقوانين ويوجد فيها عدة آلاف من المسلمين أصلهم من سودان افريقية ولكنهم لا يعلمون الا كليات الديانة على سبيل الاجمال كما يستفاد ذلك من رحلة عبد الرحمن بن عبد الله البغدادى الذى كان اماما فى بعض السفن المدرعة العثمانية وسافرت الى البصرة على طريق البحر المحيط الغربى على بغاز طارق وصادفتهم زوابع اضطرتهم عن غير قصد الى شطوط برازيل ولما خرجوا الى التفسح فى البر أقبل عليهم أقوام مسلمون وطلبوا ابقاء الامام عندهم لتعليم الديانة فبقى هنالك مدة وألف رحلته المختصرة المترجمة الى التركى المسماة مسلية الغريب وكان سفره سنة (١٢٨٢) ولا يبعد أن يكون فى جميع أمريكا أمم كثيرة من المسلمين ولا يجدون من يهديهم ولا حول ولا قوة الا بالله

الفصل * الثانى

(والثمانون)

وبين بيرو وبرازيل الدولة التاسعة وهى بوليفا سكانها لا يبلغون نصف مليون وحكمهم جمهورى

الفصل * الثالث

(والثمانون)

والدولة العاشرة هى الشيلى سكانها نحو مليون وربع وحكمها جمهورى وموقعها على بقية الشطوط الغربية الى نهاية القارة فى الجنوب

الفصل * الرابع

(والثمانون)

والدولة الحادية عشرة دولة سيونس ايرس ويقال لها الابلاتا وهى وسط القارة الجنوبية تحدها شيلى من الغرب والمحيط الشرقى وبرازيل من الشرق وسكانها مجهولوا العدد وحكمها جمهورى

الفصل * الخامس

(والثمانون)

الدولة الثانية عشرة أوروكواى هى جنوب برازيل سكانها نحو مائة وخمسين ألفا تحت الحكم الجمهورى المستقل وهى على الشاطئ الشرقى الجنوبى

الفصل * السادس

(والثمانون)

والدولة الثالثة عشرة هى بقية أمريكا الجنوبية المعروفة بتاكونى وأهلها من الاصليين هناك طوال شداد متوحشون يقال تقريب عددهم مائة وخمسون ألفا فى تلك الاراضى الواسعة

الواسعة وموقعها على الشاطئ الشرقى فى نهاية القارة جنوبا وغربها الشيلى والحاصل ان غير الدولة المتحدة لم يكن فى أمريكا من الدول ما يعتبر اذ أغلب الاقسام المذكورة ولان كانت تحت أحكام منتظمة لكن لم يتسع فيها نطاق المعارف والتقدم وألهتهم الحروب الاهلية عما يصلح شأنهم سيما وأغلبهم حديثوا عهد بالعتق من تسلط الدول الاوروباوية عليهم الذين كانوا يجرون فيهم الحكم الاستبدادى الظالم وأما أقلهم فانهم من الاهالى الاصليين الذين اما انهم تناسوا التمدن أو لم يعرف فيهم ولم يحسن الغرباء معاشرتهم وانما عاملوهم معاملة الوحوش وأطردوهم أو أفنوهم من ديارهم فبقوا على الجهل والتوحش وفى بعض الاماكن لا تساعدهم طبيعة الاقليم على شئ فقد ذكروا ان فى الجهات الضاربة لاقاصى الشمال قوم ينحتون من الجليد بيوتا ويجعلون لها مضاوى نحتا ويسدونها بطبقات من الجليد الصفيق ليمنع مرور الهواء ولا يمنع الضوء ويبقون فى تلك الدهاليز ليالى الشتاء الطويلة التى هى أغلب أيام السنة عندهم ويكتسون بجلد عجل البحر ويأكلون لحمه ويوقدون شحمه ومن أغرب ما يحكى عنهم انهم يطبخون اللحم المذكور فى قدور من الخشب وصورة طبخهم انهم يتخذون من بعض الاشجار التى تنبت فى الارض الجليدية قدورا يضعون فيها ما تجرف منها اللحم ويصبون عليه الماء ثم يأخذون الحجارة ويحمونها فى النار الى أن تصير حامية جدا فيلقونها فى القدر فتطفأ ويسخن الماء بحرارتها ثم غيرها وغيرها الى أن يصل الطبخ الى الاعتدال الذى اعتادوه وربك يخلق ما يشاء ويختار وهو القادر الفعال

(القسم الخامس من الارض استراليا)

هى مجموع جزائر جهة الجنوب من المحيط الشرقى قبالة الهند والظن انها كانت متصلة بشبه جزيرة سمطرا قديما وفصلتها زلازل هائلة قديما كما يتبين من النظر الى الخريطة ويدعى ان أعظمها اكتشف منذ أقل من مائة سنة والحال ان بها سكانا نحو مليونين من البشر وفى لونهم السواد فى أشكال من جهة التعليل بان سواد اللون من كثرة الحر تحت خط الاستواء مع ان عرض أعظم جزيرة هناك يبتدئ من عرض خمسة وثلاثين جنوبيا وذلك العرض من المناطق المعتدلة مع ان الاهالى الاصليين سود وكلهم متوحشون وانما يفترقون فى شدة التوحش وضعفه وقد أخذت بعض الجهات فى التمدن شيأما وكل هاته الجزائر تحت تسلط دول أوروباوأغلبها تملكه الدولة الانكليزية وقد جعلت أوستراليا

منفا لاصحاب الجرائم العظيمة فبالتغرب والحكم المشدد هناك تهذبوا وتقدموا شيأ فشيأ الى أن أنكروا على الدولة الانكليزية نفى المجرمين اليهم لانهم ليسوا بأهل لمعاشرتهم ثم أخذوا استقلال ادارتهم برضاء الدولة الانكليزية ولازالوا تحت حمايتها وبقية دواخل الجزر مجهولة الى الآن وهكذا جهة القطب الجنوبى واكتشف النوتية منذ أربعين سنة على أرض فى تلك الجهات واسعة ولم يروا فيها سكانا والى الآن لم يزل البحث على ما فيها وما وراءها وكذلك سنة (١٢٩١) اكتشف نوتية من النمسا أرسلتهم دولتهم للاكتشاف على أحوال القطب الشمالى فى باخرة تامة التجهيز فرجعوا بعد عامين بعد ان خاصتهم باخرة روسية عند ما كادوا ان يهلكوا لانكسار باخرتهم بالجليد ورجوعهم فى قوارب صغيرة فأخبروا باكتشافهم لارض واسعة فى درجة ثلاثة وثمانين وانهم لما انتهوا الى رأس فيها سموه رأس أوستريا وجدوا بحرا جهة الشمال ماثعا عليه يسير من الجمد لا يتحمل حمل المراكب الجليدية وحدس بذلك علماء هذا الفن على ان الحرارة من الكهرباء جهة القطب يمكن معها الحياة والسكنى أزيد من المناطق المتجمدة وهو يؤيد ما قلناه فى بحث السد عند الكلام على الصين والله أعلم بما خلق وذرأ وهو الحكيم الخبير

الفصل * السابع

﴿ والثمانون ﴾

وحيث قد تبين فى هذا الباب اجمال حالات الممالك وما هى عليه من الاحكام والامن ناسب ان نذكر هنا خلاصة فى أسماء الممالك وقواعد بلدانها وعدد سكانها وكمية عساكرها وعدد سفنها الحربية ومقدار دخل حكومتها ومقدار خرجها وكذلك قيمة السلع الداخلة والخارجة بمتجر تلك المملكة وكم على حكومتها من الدين وكمية ما مد من طرق الحديد فيها لتتبين بذلك قوة الممالك ومراتبها فى الاعتبار وهاتيك التفاصيل جمعناها من عدة مواد وتقويمات كلها فى سنين متقاربة من سنة (١٢٨٨) الى سنة (١٢٩٧) بحيث لا تتجاوز العشر سنين وانما نبهنا على هذا لان الاعداد المذكورة فى الاغلب تتغير بعضها بطول السنين لكنها فى الاغلب لا تتغير فى أقل من عشر سنين الا بأمور جزئية الا ان يطرأ على مملكة من الممالك حادث غير اعتيادى بحرب هائلة أو غيرها كما انا

لم

لم نعتبر فيما نقلناه الاعداد القليلة بالنسبة الى ما يقتضيه كل نوع من الانواع المذكورة لعدم الجدوى فيه بالنسبة لما نحن بصدده سيما وكثير من تلك الانواع هو من أصله غير محرر بالتدقيق الا فى بعض مواد فى بعض الممالك

﴿ جدول احصاآت الممالك ﴾

آخر الجزء

﴿المقصد﴾

﴿وفيه أبواب﴾

الباب * الاول

﴿فى سبب سفرى﴾

﴿فصل﴾

قد عرض للعبد الحقير السفر الى أوروبا ثلاث مرار الى هذا التاريخ وهو سنة (١٢٩٧) فاما فى مرتين وهما الاوليتان فكان السفر لاجل التداوى فقط على ما سيأتى بيانه وأما المرة الثالثة فكانت لما ذكر أيضا ولاشغال سياسية أوعزالى بها الوزير ثم عند رجوعى من هاته الثالثة نقض المذكور غزله وحملنى على مفارقة الوطن حفظا لما يوجب الله على حفظه فوجهت القصد الى أداء الحج المفروض والتشرف بزيارة أعظم الرسل (عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام وعلى آله الكرام وخلفائه الاعلام وأصحابه الفخام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) ثم استقررت بالقسطنطينية العظمى ثم سافرت الى أوروبا رابعا سنة (١٢٩٨) وعدت الى الاستانة وسنفرد كل مملكة شاهدتها بباب خاص نذكر فيه أحوالها وما شاهدته فيها كما انى أبين فى هذا الباب المرض الذى حملنى على السفر وما قيل فى التداوى شرعا وما عولجت به وحيث كان لاصل النشأة والاقاليم دخل عظيم فى العلاج كما قرره الاطباء المتقدمون والمتأخرون لزم أن نذكر طرفا من حال نشأتى ونفرد كل قسم من هاته الامور بفصل خاص والله المستعان

فصل

﴿فى نشأتى﴾

اعلم ان نهاية ما اعلم من نسبى هو ما يذكر وهو انى محمد بن مصطفى بن محمد الثالث ابن محمد الثانى ابن محمد الاول ابن حسين بن أحمد بن محمد بن حسين بن بيرم وهذا الجد الاعلى قدم الى تونس عند قدوم سنان باشا وزير الدولة العلية مع العساكر العثمانية لفتح تونس من يد الاسبنيول سنة احدى وثمانين وتسعمائة ثم أقام بها وتزوج بابنة ابن الابار أحد وزراء الاندلس وعلمائها صاحب القصيدة التى يستغيث بها على لسان

صاحب

صاحب الاندلس سلطان المغرب للأندلس عند قدومه عليه سفيرا من مخدومه (ومطلعها)

ادرك بخيلك خيل الله أندلسا * ان السبيل الى منجاتها درسا

ثم تناسل نسله الى حسين الاخير منخرطين فى سلك الوظائف العسكرية أو الملكية مع التحلى بالآداب العلمية فتزوج حسين هذا ابنة طاهرة من ذرية المولى الشريف سيدى (حسن الشريف الهندى) الشهير رضى الله عنه وبارك فى آل بيته العامر السعيد الى قيام الساعة فولدت له محمد بيرم الاول ومنه دخل النسل الى سلك العلماء الى الآن والمرجو من كرم الله ان يديم ذلك فى أعقابنا ما قدرهم بالوجود واستفحل العلم فى هذا البيت ولله الحمد حتى سمعت من شيخنا العلامة شيخ الاسلام محمد ابن الخوجه يعرّف جدى محمد الثانى بقوله أبو يوسف الثانى ومؤلفات هذا الجد تشهد لشيخنا بصدقه وكذلك لبقية علماء بيتنا تآليف عديدة عظيمة مفيدة وتقلبوا فى الوظائف العلمية الى رياسة الفتوى وتلقب منهم أربعة بشيخ الاسلام ولما تأهل (والدى قدس الله روحه) للزواج زوجه أبوه بابنة وزير البحر محمود بن محمد خوجه ووالدتها من بيت العماد ذى الشرف المعروف وقد ألف الجد محمد بيرم الثانى تأليفا خاصا فى التعريف بنسبه الجثمانى والروحانى بلغ فيه الى نفسه والعبد مذيل عليه بذكر من لم يحوه ذلك التأليف من فروع هذا البيت وماذكر فى هذا الفصل انموذج منه وكانت ولادتى فى سنة (١٢٥٥) ثم اشتغلت بالقراءة والتعلم متفرغا الى ذلك الى أن وليت خطة التدريس سنة (١٢٧٨) وكذلك مشيخة المدرسة العنقية ولم يكن لى هم بشئ من أحوال الدنيا الا مطالعات الحوادث السياسية الداخلية والخارجية الى أن توفى والدى رحمه الله ونعمه سنة (١٢٨٠) فاضطررت الى ادارة مخلفاته ولم يكن لى الا محض الوداد مع سائر السكان لبعدى عن مواقع التحاسد بينهم وتجنبى للخطط حتى ان خطة التدريس والمشيخة المذكورتين انما قبلتهما بعد الالحاح عند وفاة عمى شيخ الاسلام محمد بيرم الرابع وانحلال الخطتين المذكورتين بسبب موته حيث كانت مشيخة المدرسة اليه وانحلت وظيفة التدريس بسبب انتقال صاحبها لما فوقها وصاحب ما فوقها ترقى الى مشيخة الاسلام وهو شيخنا العلامة محمد ابن الخوجه المشار اليه آنفا وبقيت على ذلك مرتاح البال سليم الوداد الى ان ولى الوزارة الكبرى بتونس الناصح الامين خير الدين باشا ونحا منحى الحكومة الشورويه فى اجراء العدل فرأى اجتهادا منه فى انتقاء

المتأهل للخطط ان يستعين بالعبد فى بعض الخطط حسن ظن منه فلم يسعنى الامساعفته لما كنت منه على علم من توغله فى حب العدل والميل الى القوانين والشورى حتى كان أول ناشر لمفاخرها فى قطرنا بتأليفه أقوم المسالك مع امتناعى سابقا عن كل وظيفة لما أعلم من خمول الانصاف وظهور الاعتساف وعندما غلب على الظن حصول الجدوى بولاية الشهم المذكور أجبت استدعاءه وقلدت رياسة جمعية الاوقاف التى هى من مبتكرات الوزير المذكور فى تونس اذ رتب قانونا لها يحفظ الاوقاف وينميها بضبط لم يسبق اليه فاستعنت الله وبذلت مقدورى للوفاء بما عهد الى ثم ضم الى ذلك نظارة المطبعة وهكذا بذلت فيها مستطاعى غير انى فى ذاتى تحملت من الاتعاب الفكرية والبدنية مالم تتحمله نشأتى بل وكذلك الخسائر المالية لان المرتب الذى جعل لى وان كان فى نفسه نظرا للبلاد وافرا لكنه كان غير واف بما اعتدته من المصاريف التى كنت أحصل على الوفاء بها من دخل أملاكى ومعاطاة تجارتى ولما استغرقت الوظيفة الاوقات لقيامى بها حق القيام تعطل الدخل السابق فعوضا عن الاستغناء بالوظائف صرت أبيع من كسبى شيأ بعد شئ للوفاء بحاجات المعاش ولا أعد ذلك شيأ فى جنب القيام بحق الوطن بل انى أحمد الله تعالى على ما أنعم

فصل

فى مرضى وما عولجت به حيث كان نسل بيتنا متوارثا فيه ضعف الابدان وكثرة الاسقام حتى قال الجد الثانى فى تأليف نسبه المشار اليه آنفا عند الكلام على اقرائه شرح صدر الشريعة على الوقاية والسبب فى طول مدة اقرائه له كثرة ما كتب على مباحثه المهمة من التعاليق المختصرة والمطولة مع الشغل بخطة القضاء والضعف البدنى الى ان قال فانا أهل بيت باض السقم فى بيتنا وفرخ وشوى وطبخ نسأله سبحانه ان يجعل ما فاتنا من القوة فى أبداننا قوة فى ديننا وان يعافينا ويعف عنا ويميتنا على الاسلام بلا محنة انه جواد كريم وقد كان الجد المذكور مبتلى بمرض عصبى أعيا علاجه أطباء زمانه الى أن حصل له انكماش فى أصابع يديه وهو مع ذلك يطالع ويؤلف الى أن توفى سنة (١٢٤٧) وهو ابن أربع وثمانين سنة لا يفتر عن التحرير والمطالعة قدس الله ثراه كما ان والدتى رحمها الله ونعمها كان بها مرض الاعيا يعتريها بكثرة فى

ركبتيها

ركبتيها وهو من الامراض العصبية وكذلك كان بها مرض عصبى فى معدتها فلما تقدم كان مزاجى منهشا للمرض العصبى لانه من الامراض التى يعتريها التوارث ولما شقت على الاشغال الفكرية والبدنية وكانت طبيعة اقليمى مائلة الى الحرارة واشتد الحر فى الصيف كنت نستحم بالماء البارد بعد التعب بالشغل نحو سبع ساعات تطلبا للنشاط والارتياح للاستعانة بذلك على الاشغال عشية فارتكبت ذلك مرتين أو ثلاثا وعند آخرها حصل لى وجع شديد يكاد لا يطاق يبتدئ من فم المعدة ثم يمتد للجنبين مع مصاحبة الاسهال وتطول حصته من الساعة الى الساعتين وتكرر ذلك مع شدته ولم ينجع فيه شئ من علاج أطباء بلادنا مع تنوعه وكثرة اجتماع الاطباء اليه بحيث لم أبق واحدا من مشاهيرهم لم أحضره فرادى ومجتمعين وغاية ما أرسى عليه حالهم هو استعمال المسكن المسمى بكلوراتو مرفينا الذى يستخرج من روح الافيون ويستعملونه محلولا فى الماء المقطر وزن نصف قمحة من العلاج المذكور أى عشرة من مائة من غرام واحد فى ستة غرامات من الماء المذكور ثم يأخذون منه حقنة صغيرة تحمل غراما واحدا الا ربعا من الماء المدبر المذكور ويحكمون ادخال أنبوبها فى رأس أبرة خاوية الوسط وسنها فى غاية الحدة ثم يمسكون الجلد من المريض بأصابع اليد ويجذبونه الى أن يبعد شيأ ما عن اللحم ثم يدخلون الابرة هنالك ويجذبونها الى خارج الى أن لا يبقى الا آخرها داخل الجلد ويبقى محلها هنالك ممتدا وحينئذ يحقن الماء المذكور تحت الجلد ثم يزيلون الابرة وقد تم حينئذ عمل العلاج فبعد دقيقة أو دقيقتين أو أقل يسكن الألم بفضل الله وتمادى الحال على ذلك مع كثرة تردد المرض كل يوم مرة أو بعد يومين مرة وبعد كل نوبة يتركنى فى غاية التعب ويورث ارتخاء وضعفا سيما وقد كنا لا نعلم كيفية استعمال ذلك المسكن فيلزم الصبر على شدائد الألم الفادح الى أن يأتى الطبيب فما يأتى الا وقد وجد فى أخذ منى الألم مأخذا عظيما فلذلك نحل جسمى وصار يعترينى فى بعض الاحيان دوار وتارة يعترى تخضرم فى النبض مع شدة ضعفه وامتد ذلك نحو ثمانية أشهر وحينئذ ألح على الحكيم الماهر النصوح منبها لى بالسفر الى أوروبا وقد كان أشار على بذلك من أول الامر غير ان غيره من الاطباء خالفوه فأنهم قالوا لا يلزم السفر ويمكن العلاج فى البلاد لكنى لما رأيت من طول الامر وزيادة الضعف ما رجح لى كلام منبهى أعدت استشارة الاطباء فوافقوه وكان قصده من السفر (أولا) ذات السفر فانها من أسباب الصحة طبا وقد علمنا من الفصل الثانى من المقدمة ان السفر من أسباب الصحة شرعا أيضا

(وثانيا) الارتياح لى من الاشغال الفكرية التى لم يمكن لى التجنب عنها فى البلد (وثالثا)
الاقامة بمشاهير الاطباء الذين لا يوجدون عندنا كما سيعرف فى محله وهذا الاخير هو
الذى أوجب تعيين الوجهة الى خصوص أوروبا فسافرت حينئذ وكان ذلك فى دجنبر
واجتمعت بمشاهير من أطباء ايطاليا وفرنسا واستقر رأى أغلبهم وأعلمهم على ان المرض
عصبى مع ضعف شديد فى الدم ومركزه ما بين أعصاب المعدة والقلب وعالجونى بالمياه الباردة
جدا المنعشة بقوة وذلك بأن يضرب بها كفى القدمين ثم المعقبين ثم فقرات الظهر ثم فم
المعدة ثم الوجه والرأس ويتم جميع ذلك فى دقيقتين أو ثلاث ثم ينشف البدن بخرق من
الكتان مع عنف وضرب خفيف واستعجال ثم تلبس الثياب ويداوم المشى المعجول نحو
نصف ساعة أو أزيد الى أن يسخن البدن ويحصل شئ من العرق أو حك حوالى فقرات
الظهر بخرقة من الشعر الصلب ثم امرار اسفنجة مبتلة بالماء البارد على ذلك المحل عند
النوم مع تكبيس الاعضاء والظهر بالايدى وظهر لهذا العلاج بعض النفع غير أن شدة
البرد هنالك الخارقة لمعتادنا فى اقليمنا المعتدل أوجبت على الاطباء الاشارة بالعود الى
الاقليم مع التوصية بالتحذير من الأسباب المهيجة للمرض ككثرة الشغل والمآكل
العسيرة الهضم ثم تعاهد المعالجة بالماء البارد وشرب أدوية عديدة منها شئ قليل من
روح الزئبق وأشباهه من أجزاء يسيرة من عقاقير قتالة مع التحذير من مقاديرها وخف
المرض عند الرجوع الى الوطن حتى انى لم أضطر الى استعمال المسكن بالحقنة نحو ثمانية
أشهر لكن المرض لم ينقطع وانما كان يأتى خفيفا ومع العود الى الاسباب التى لم أجد
عنها مندوحة عاد الألم لما كان واضطررت للسفر ثانيا لخصوص باريس التى وجدت
بها أمهر من رأيته من الاطباء وهو الحكيم شاركو وقد ورد الخبر باكتشافه لعلاج
جديد من المعادن ولما عدت اليه عالجنى بالكهرباء التى يسرد الكلام عليها ان شاء
الله وصورة العلاج بآلات على نوعين أحدهما مسكنة للهيجان العصبى وهى آلة
مركبة من ثمانين اسطوانة منقسمة الى قسمين كل قسم يشمل أربعين اسطوانة ويوضع
كل قسم فوق القسم الآخر وكل اسطوانة مركبة من طبقات احداها النحاس
والاخرى روح التوتيه المسماة بالزنك والثالثة طبقة من الجوخ وفى مركز كل اسطوانة
عمود من سلك حديدى يخرقها ويتصل الجميع بطبقة من الكاوتشو ويغمس الجميع
فى ماء مخلوط بالنشادر وهذا الغمس لا يلزم فى كل مرة بل اذا حصل ضعف فى عمل
الكهرباء ثم يجفف من التقاطر ويوضع فى صندوق من خشب بداخله صفيحتان من

الفولاذ موصلتان للكهرباء بسطح الطبقة العليا وفى هذا السطح بيت ابرة ومسامير من
نحاس مسطحة الرأس منقوش عليها أعداد من عشرة الى أربعين يمينا وهكذا شمالا
وعمودان قصيران مثقوبان ويدان تداران على مركزهما ويوضع طرفهما على العدد
المطلوب من المسامير اليد اليمنى على المسامير اليمين واليسرى على المسامير الشمالية وعلى
بيت الابرة ضلع من خشب وعند ارادة العمل بذلك الصندوق الهوائى يلزم وضعه بحيث
يكون الضلع الخشبى الممتد على بيت الابرة متوجها جنوبا وشمالا ثم تدار اليدان لتحريك
القوة الكهربائية وتوضع احداهما على أحد الاعداد المناسبة لقوة الهيجان وقوة
المريض أيضا وهكذا الاخرى بحيث لا يبلغ بهما معا الى نهاية العدد من الجهتين التى هى
درجة الثمانين فى القوة الكهربائية لان ذلك يخشى منه من الصاعقة على الانسان ثم
يؤخذ سلكان من الفولاذ محكم لفهما بخيوط الحرير حتى لا يبدو منهما أقل جزء ويوضع
كل منهما فى أحد العمودين المثقوبين ويحكم امساكهما هنالك بلولب وفى رأس طرفيهما
الآخرين شبه ختم من معدن ملفوف فى جلد رقيق يبل بالماء لسهولة توصيل الكهرباء
وكل من الختمين له يد من خشب يمسكها العامل ويسمى أحد السلكين بالموجب
والآخر بالسالب تبعا لنوع تسمية الكهرباء والموجب هو الذى تكون اليد الدوارة
من جهته فى درجة أعلى من الجهة الاخرى فاذا ألصق الختمان ببعضهما أو اتصلا بجسم
يوصل بينهما رأيت الابرة فى بيتها تضطرب يمينا وشمالا ويشتد اضطرابها او يضعف على
حسب الدرجة المجعولة فيها قوة الكهرباء واذا حصل هيجان فى المرض يوضع الختمان
على المريض بقرب محل الألم على هيئة التقابل بين السلكين ففى بضع ثوان يسكن
الهيجان باذن الله من غير أن يحس المريض بأدنى حركة أو ألم ويسمى هذا النوع من
الكهرباء الكهرباء الساكنة وهاته الآلة من اختراع كستاف طروفية وعندما كان
يعترينى المرض بالدوار وضيق الصدر كان الحكيم يضع الختم الموجب على العنفقة
ساكنا والسالب على الجبهة يديره من أحد طرفيها الى الطرف الآخر فكان اذا قرب
من الحاجبين أرى كأن البرق يتطاير من عينى متواليا ويلزم ازالة السالب شيأ فشيأ بأن
يرفع بعض أطرافه ثم وثم الى أن ينفصل جميعه وأما الآخر فينفصل دفعة واحدة والآلة
الثانية الكهربائية هى آلة لتقوية البدن والاعصاب وصورتها مربع من خشب عليه
اسطوانتان من البلور مركوزتان على قطع من الكاوتشو (هو نوع غروى يجف
ويتصلب مستخرج من صمغ الاشجار) غير أن احداهما يحيط بها الكاوتشو الى نحو

الثلثين منها والثانية الى نحو الربع ويعد عليهما اسطوانة عظيمة من النحاس خاوية الوسط وفى أواسط كل من الاسطوانتين البلوريتين رباط من نحاس فيه موضع لوضع قطب أحد الدائرتين الآتى بيانهما وهذا القطب وسطه فولاذ وظاهره كاوتشو يتصل بدائرة مسطحة جيدة من الكاوتشو أيضا وأحد طرفى قطبها خارق للاسطوانة البلورية متصل بدائرة صغيرة من نحاس كما انه فى نحو الربع السفلى من الاسطوانتين موضع لقطب دائرة مثل تلك الكنها من البلور وانما مركزها على القطب من الكاوتشو وبقية قطبها من النحاس وأحد طرفى قطبها خارق للاسطوانة البلورية متصل بدائرة من خشب لها يد تدار بها وعلى خط نهايتها محل لوضع حبل من جلد مكرك يوصل بينها وبين الدائرة النحاسية التى فوقها المتصلة بقطب دائرة الكاوتشو وبدوران هاته الدائرة الخشبية يدور كل من دائرة البلور ودائرة الكاوتشو اللتين وضعهما بين الاسطوانتين وتبعد احداهما عن الاخرى نحو أصبع عرضا ومركز الكاوتشو أعلى من مركز البلور ثم ان المربع الخشبى تلصق به آلة ذات وسادتين لاصقتين فى خشبتين وهما جلد محشوتان بالشعر ولهما لواب يقرب بهما من بعضهما أو يبعدهما وفائدتهما هى ادخال الدائرة البلورية بينهما بحيث يلتصق بكل من سطحيها احداهما حتى اذا أديرت يحصل حكها بهما ويدلك كل الوسادتين بشئ محجر من الكبريت تقوية لاحداث الكهرباء ثم يتصل باحدى الاسطوانتين البلوريتين عند مركز قطب الدائرة العليا قوس من نحاس ينفتح وينغلق بحيث اذا أغلق يتصل طرفه بالاسطوانة الكبرى النحاسية وفى هاته الاسطوانة حلقة من جنسها خارجة عن رأس الاسطوانة البلورية ليوضع فيها رأس قضيب من نحاس وذلك الرأس منحنى ليمكن امساكه فى الحلقة وهو أى القضيب طويل أزيد من ثلاثة أمتار وجميع تلك الآلة يوضع على مائدة من خشب مرتفعة على الارض نحو ذراعين ونصف بأرجل متينة لاتضطرب عند ادارة الآلة ويكون وضعها فى محل خالى عن الندا متجدد الهواء بعيدا عن الاشجار والبحر نحو عشرة أو اثنى عشر ذراعا ووضعها هى فى المحل يكون بعيدا عن الحيطان فى الاقل ذراعين واذا كانت الكهربائية ضعيفة يربط برجل القوس عند الاسطوانة البلورية سلسلة من أى معدن وجد ويربط طرفها الآخر بالحائط ثم يوضع كرسى أرجله من البلور الثخين بعيدا عن الآلة قدر ذراعين ويوضع عليه طرف القضيب الماسك فى الاسطوانة النحاسية ويجلس على الكرسى المريض وتدار الآلة اما بالبخار أو باليد ويفتح القوس النحاسى

وعند

وعند ذلك يمتلئ الجالس بالكهرباء من غير ان يحس بشئ الا اذا قرب منه جرم ما فانه يتطاير بينه وبين الجالس شرر يشبه البرق ويحس به الجالس ضربا واحراقا لكنه لا اذية فيه ولزيادة الدواء يأخذ الحكيم عصا من نحاس ويدها التى يمسكها من البلور وفيها حلقة ترتبط بها سلسلة معدنية متصلة بالارض وللحذر من مسها للحكيم يدخلها بحلقة متسعة من النحاس موصولة بيد من البلور يمسكها الحكيم بيده اليسرى ليبعد جرم السلسلة عن نفسه من غير تعطيل لحركتها واتصالها بالارض حيث كانت تمر فى الحلقة الواسعة ثم يصوب رأس القضيب الذى بيده وهو مخروط مذبب صوب المريض الجالس على الكرسى على الجهات التى هى محل للألم واذ ذاك ترى شعلة من النار الزرقاء المبيضة خارجة من رأس القضيب ويحس المريض بريح باردة واصلة اليه وان قرب منه القضيب خرج الشرر وتارة يعوض رأس القضيب بكورة نحاسية توصل به وتارة يعوض بكورة خشبية متعددة الانواع من صلابة الخشب ورخاوته لان الصلب أشد كهربائية فيستعمل من تلك الانواع على حسب قوة المريض ويدام العمل من خمس دقائق الى عشرين دقيقة تدريجا مع تأنس المريض ونقاهته وحصل لى بهذا العلاج مدة أربعين يوما نفع عظيم ولله الحمد كاد ان ينقطع به الألم بالمرة الا بقايا قليلة لاعبرة بها وعند الرجوع الى الوطن أكد على الحكيم الحذر من الاسباب وتفقد العلاج المذكور أو شرب قطرات صغيرة من محلول الذهب الذى بان نفعه أيضا من ست قطرات فى نصف كأس من ماء الى خمس عشرة قطرة تدريجا قبل الاكل فطورا وعشاء وعند النوم فكنت أستعمل آلة الكهرباء الدوائية التى ظهر نفعها غير ان الاطباء أوصونى على عدم ملازمتها خوفا من تأنس البدن ولذلك تركتها مدة مع انى كنت اشتريت آلة واستصحبتها معى والفرق بينها وبين الآلة التى عند الحكيم فى باريس ان التى أخذتها تدار باليد والاخرى تدار بالبخار لكثرة استعمالها حيث يعالج بها كثيرين وأما التى عندى فتكفى فيها يد الادمى اذ لا يدوم العمل بها اكثر من عشرين دقيقة فى اليوم ثم عند تركى للعلاج بها مدة كنت أخاف من اشتداد الألم الذى تتظاهر مخايله من حدوث بعض الدوار والارتخاء والحزن الذى هو من علامات الهيجان للنوع الثانى من المرض وهو اعتراء برد شديد فى الاطراف وصغر فى النبض مع ألم عام لا أقدر أعبر عنه ولا أعلم مجلسه أين هو مع ارتعاش فى الاعضاء وجفاف فى الريق وصعوبة فى ابتلاع الريق والطعام وضيق فى النفس وهذا الهيجان لا تنفع فيه الآلة المسكنة الا اذا كان

شديدا واما اذا كان خفيفا فلا ومن عجيب عوارض هذا النوع من الهيجان شدة السمع حتى كنت أسمع الشئ الخفى البعيد الذى لا يسمعه الحاضرون معى مع التأذى من شدة صوته عندى فضلا عما اذا كان الصوت قريبا منى حتى يلتزم من حضر عندى السكوت بل ربما تأذيت من صوت نفسه وهكذا الشم فقبل حصول الهيجان كنت أشم ما لا يدركه أمثالى لكن وقت الهيجان يصيبنى زكام مفرط وربما هاته الحالة لا يسكنها ولا مسكن الحقنة الا بعد مدة وهى أشد على من هيجان الوجع ولذلك كنت أستعمل عند تعطيل التعاهد بالآلة العلاجية شرب ماء الذهب المتقدم ذكره وقد قلت للحكيم عند وصفه هذا الدواء وانه من مخترعات هذا العصر ان أكل الذهب للتقوى معلوم عندنا وقد كان الامام ابن عرفة فى المائة الثامنة والتاسعة يبرد كل يوم بندقيا (البندقى نوع من سكة الذهب منسوب الى البندقية وزنه نحو نصف دينار ذهبا) على دجاجة ويطبخها جيدا ويأكلها فقال البندقى كثير فقلت له حيث ان الذهب غير محلول فلا يأخذ منه البدن الا مقدار ما تهضمه المعدة وما عداه يذهب فى الفضلة فقال نعم وعلى كل حال فلهذا العصر فضل فى الاقتصاد فلم يسعنى الا التسليم وهذا العلاج بالمعدن كنت أستعمله قبل السفر ثانيا لكن على ظاهر الجسد وذلك بأن يؤخذ شئ من أحد المعادن الخالص ويجعل منه نحو سوار فان ظهر فى المريض بلبسه نوع ملايم ديم عليه والا يبدل بمعدن آخر وأول من اكتشفه طبيب نمساوى ولم يلتفت الى قوله الى ان أصغى اليه الحكيم شاركو الفرنساوى وجربه فوجده صادقا فأعان به من مجالس فن الطب بباريس وصار معمولا به غير انى وجدت فرقا بين الكيفية التى جربها الى الطبيب البارون كستانوفو وبين ما فعله الطبيب بباريس فان الاول كان يستعمل المعدن ويبقيه ان وافق وكل المعادن التى جربتها لم توافق سيما النحاس فانه يحدث التخدير الا الذهب فلما جربته لبستا خف التخدير وسخنت أعضائى وكان العرق الذى يأتى من الألم حارا على خلاف ما كان من برده ولما أعلمت بذلك الحكيم شاركو أذن الطبيب المباشر وهو فغرو بأن يجرب المعادن فأعطانى ميزان القوة وقبضت عليه بجهدى وقيد الدرجة وكذلك علم ميزان النبض ثم أول ما بدأ به من المعادن معدن المغناطيس وهو على هيئة قطعة من حديد موضوع على مائدة فالصقه بذراعى الأيمن وجعل فاصلا بينه وبين البدن قطعة من ورق فما لبث نحو دقيقتين الا وحصل هيجان عظيم فى المرض خشيت منه وكان تابعى معجلا باستعمال الحقنة للتسكين فنهاه الطبيب واستعمل الآلة الكهربائية الساكنة

المار

المار ذكرها فحصل السكون بفضل الله وتبين ان ذلك المعدن غير ملائم وهو نظرى ووافقنى عليه الحكيم شاركو وان كان الطبيب فيغرو يرى انه موافق بمعنى انه لما أحدث تأثيرا دل على تأثير البدن منه لكنى أقول ان البدن يتأثر منه بالضرر لا النفع ولم أعد اليه ولا لغيره ذلك اليوم حذرا على البدن من كثرة الاضطراب ثم جربنا النحاس وهو أيضا غير موافق كما تقدم غير انه لم يحدث هيجانا كبيرا ثم جربنا الفضة فلم توافق ولم تضادد بدليل موازنة ميزان القوة والنبض ثم جربنا الذهب فكان ملائما بحرارة البدن وزيادة القوة ونشاط النبض ولذلك استقر الرأى على عمله لكن لا يكتفى فيه بالاستعمال على ظاهر الجلد فقط بل بالشرب أيضا على نحو ما تقدم وكل معدن كان تجربته فى يوم خاص كما عولجت قبل السفر الثانى بماء البرمور وبوتاسيوم باشارة الطبيب كستانوفو ورأى فى كميته وأوقاته كيفية رآها الطبيب هنا يبنى كثيرة فلما استعملتها مع المواظبة أكثرت على النوم حتى كدت ان أكون نائما ثمانا وأربعين ساعة تماما والمقدار هو قدره ملعقة كل بعد كل ساعة من الماء المذكور وبعد رجوعى من باريس والعلاج بالكهرباء على نحو ما مر بقيت على العافية ولله الحمد مدة عام الا ستة أيام حيث تراكمت الاتعاب الفكرية والبدنية وحوادث فى البلد أوجب جميعها السفر ثالثا الى باريس والاشتغال بغير الدواء فى هاته المرة مع مصاحبة الاتعاب الفكرية أوجب عدم نجح العلاج السابق وان خف الألم شيأ ما فلما عدت بعد افراغ المستطاع وجدت الحال فى الوطن غير الحال وأخلاق الحكومة وان شمت قات الوزير بخصوصه غير ماتر كته عليه كأنى أتيت شيأ على غير أمره وتحقق لدى ما كنت أتوقعه من السوء لكل ناصح أمين غير ممالى على سوء الاعمال كما سيرد شرحه ان شاء الله تعالى فعزمت على التوجه لبيت الله الحرام ملتجأ الى الرسول عليه الصلاة والسلام لكشف الضر الخاص والعام فنلنا بجاهه المرام ولا زلنا نؤمل التمام مما التجأنا اليه فيه ومنه حسن الختام

فصل

﴿فى حكم التداوى شرعا﴾

اعلم ان التداوى قد ورد بالهداية اليه القرآن العظيم كما فى (قوله تعالى يخرج من بطونها

شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) فدلت الآية الشريفة على ان العسل دواء للآلام يستشفى به منها كما بينه الحديث الشريف الوارد فى صحيح البخارى وغيره من قصة الصحابى الذى قال (للنبى صلى الله عليه وسلم) ان أخى يشتكى بطنه فقال له (صلى الله عليه وسلم) اسقه عسلا ثم عاد وأعاد الشكوى وأعاد له (صلى الله عليه وسلم) صفة الدواء ثانيا ثم وقعت الاعادة أيضا ثالثا وقال الصحابى قد سقيته وما زاده الا انطلاقا فقال (صلى الله عليه وسلم) اسقه عسلا صدق الله وكذب بطن أخيك ففعل الصحابى وشفى المريض فان الحديث قد بين ان شفاء الناس هو تداويهم به من أمراضهم حيث قال صدق الله أى فى قوله فيه شفاء للناس ثم يدل الحديث أيضا على ان استعمال الدواء لابد فيه من مقادير وأوقات ولذلك أمره بالتكرار لانه تعالى كما له ارادة فى جعل الشئ سببا فى البرء له ارادة فى خصوص مقداره وأوقاته وانه لا ينبغى ان يهمل الدواء اذا لم ير منه نفع فى المرة الاولى اذ لعله لم يكن هو المقدار الكافى لما استعد له بدن المريض ولله سبحانه وتعالى حكم فى الاشياء لم تصل عقولنا للاطلاع على تفاصيلها فيلزمنا اتباع ما دلت العادة والتجربة على جعله سببا للمسبب بمقتضى الحكمة الازلية ومن ادعى عمل الاشياء بالطبع لا يسعه الا العجز عندما تجاريه بسؤالك لماذا كان طبعها كذا واذا عال تقول له لماذا كان ذلك التعليل وهكذا بل انهم كثيرا ما يعجزون من أول الامر فيقولون ان الشئ الفلانى يفعل كذا بالخاصية حيث لم يجدوا شيأ يمكن لهم به التعليل الاولى والحق ان ذلك جميعه بخلق الله وجعل تلك الاشياء أسبابا عادية يخلق عندها ما أراده بسابق حكمته ولما تقدم أجمعت الامة على جواز استعمال الادوية وانما وقع الخلاف فى جواز استعمال المحرم دواء ووقع الخلاف فى الترجيح عند الحنفية ومحل الخلاف هو ما اذا تعين الشفاء فى خصوص ذلك المحرم ولم يوجد شئ آخر حلال يقوم مقامه اما اذا وجد فلا يبيح (حينئذ) والقائل بالاباحة يستدل بالضرورة وانها مبيحة للمحذور فيكون كالخائف من الهلاك جوعا فى أكل الميتة ومقتضى تجويزهم للكتابة بالدم على جبين صاحب الرعاف لكى ينقطع عنه هو ترجيح للتداوى بالمحرم لان الكتابة بالدم النجس اهانة للحروف ولا سيما اذا كان فيها اسم الله وذلك محرم قطعا وانما جاز للضرورة فلا يكون اذ ذاك حراما وبه يجيبون من احتج بقوله (صلى الله عليه وسلم) لم يجعل الله شفاءكم فيما حرم عليكم فان الشئ اذا تعين فيه الشفاء يرتفع عنه التحريم وبيان هذا المعنى هو أن يقال ان الاشياء المحرمة انما حرمت لما فيها من المفاسد

والمضار

والمضار للمخلوق لانه تعالى منزه عن الاحتياج لشئ وكلما ورد به الشرع فانما هو لهدايتنا لما ينفعنا فنؤمر به أو لما يضرنا فننهى عنه وحيث لم يكن فى طوق عقولنا الاحاطة بعلم جميع ذلك لان بعضها يتوقف على علوم تشيب الغراب وهو تعالى خالقنا الرؤف العالم بنا ورسوله هو الاب الرحيم بخلق الله ونحن على يقين من ذلك ولله الحمد فما علينا الا أن نتبع ما شرع لنا موقنين ومسلمين أن ذلك هو الصالح بنا كتسليم الابن لابيه العاقل وتسليم الجند لرئيسه الخبير من غير بحث عن موجب تكاليفه مع ان المشبه به يمكن فيه حصول الاعلام بالبواعث غير انه ترك حذرا من فوات الفرص واطالة الامر بخلاف المشبه فقد علمنا عجز عقولنا عن ادراك جميع مصالحنا بتعاليلها ولذلك ما أمكن ادراكه قلنا انه معقول المعنى وما لم ندركه عملنا به وقلنا انه تعبدى والكل معقول فى نفس الامر فالشئ المحرم اذا اضطر للتداوى به ليس المعنى انه يرتفع الضرر الذى حرم من أجله بل ان الضرر الحاصل الذى يراد دفعه به أعظم من الضرر السابق فيرتكب أخف الضررين كما هى القاعدة الشهيرة فالخمر مثلا المحرم لتوقع جره الى افساد العقل اذا اغص الانسان وخشى الهلاك جاز له شرب به لدفع الهلاك الذى هو أعظم ضررا من توقع جره لافساد العقل ولا يقال انه على هذا يلزم التوقف فى كل جزئية على علم مفسدة المحرم الذى أريد استعماله وحرم من أجلها ومقايستها بالمفسدة التى يراد دفعها به مع انك مصرح بعدم علم الجميع والقائلون بالجواز لم يخصصوا ما علمت مراتبه وقيس بينها الا انا نقول القواعد الكلية فى مثل ذلك كافية فى حصول المقصود وقد علمنا منها ان حفظ النفس هو ثانى مرتبة بعد حفظ الدين وجميع الاشياء المبحوث عنها آيلة الى حفظ النفس من الهلاك والهلاك أعظم مفسدة ومضرة من كل ما يمكن ان يكون فى الاشياء المحرمة من أسباب التحريم الراجعة الى أجزاء خاصة من النفس كالعقل مثلا فيقدم حفظ النفس جميعها عليها ولا يمس ذلك الدين لان محله القلب أى الروح التى هى محل الاعتقاد وذلك لا يخرج منه الا بما دخل فيه كما هى العبارة المشهورة ولذلك صرح الفقهاء بأنه لا يفتى بالردة استعجالا حتى يثبت اضطراب العقيدة والعياذ بالله ولو صرح فى الفتاوى ببعض أشياء انها مكفرة فلا يعول عليها نعم ان جميع الشعائر الظاهرة هى من الدين أيضا ومنها حفظ النفس وقد علمنا من الشرع تقديمها على كل ما سواها الا الاعتقاد ولهذا يجوز اتلافها فى القتال على الدين وهكذا على شعائره فانهم صرحوا بأن من تركوا جميعا الاذان يقاتلون حفظا للدين وتقديما له على النفس لكن ذلك

اذا كان منبئا عن الاستخفاف الراجع للاعتقاد اما اذا تبين التأويل أو العذر المنبئ عن
صحة الاعتقاد فلا يقاتلوا (حينئذ) ولهذا لم نؤمر بقتال تاركي الجمعة بتأول وجوب
الامام المعصوم مع انها من شعائر الدين وبما تقدم يعلم جواز تلقيح الجدري من الحيوان
أو الانسان لانه قد ثبت بالتجربة المفيدة للقطع انه حافظ من الهلاك أو مما يقرب منه
ومن هذا الباب تجويزهم للكتابة بالدم مع انه فيه استخفاف بالحروف التي مرجعها
الدين وبيانه أن الاستخفاف فعل القلب والاعمال الظاهرية دالة عليه وأقيمت مقام
الحرمة بسبب دلالتها لا لذاتها فهلاك النفس تعارض مع ما يدل على الاستخفاف فقدم
دفع الهلاك للتيقن بسلامة الاعتقاد وغاب ذلك الدلالة لارتكاب أخف الضررين
فان قيل كيف يكون أخف الضررين مع ان الآخر مرجعه للدين وهو مقدم على
النفس فالجواب أن الدين قد علمت انه سالم وهو الاعتقاد ولم يبق الا الدلالة في مقابلة
النفس التي هي محل الاعتقاد والقيام بجميع التكاليف فغلب ترجيحها كما صرحوا
به في جواز التيمم لخوف المرض في أن ذلك ليس تقديما للنفس على الدين بل من باب
تقديم أغلب الدين على بعضه لان الانسان اذا سلم أقام الطهر والصلوات الكثيرة
وغيرهما من التكاليف بخلاف ما اذا هلك فتسقط بموته جميع التكاليف المتعلقة بذاته
فلا يسوغ له ان يسعى في ابطاله تكاليف كثيرة لاقامة عبادة واحدة فهو (حينئذ)
من باب أخف الضررين كما تقدم واعلم ان للعبد توقفا شديدا في دعوى جواز مسئلة
الكتابة بالدم لحفظ النفس من الرعاف (الخ) وبيانه ان صاحب الفصول العمادية
وغيره ممن نقل عنهم الشيخ بيرم الثاني في كتابه حسن النبا في جواز التحصن من الوباء قد
صرحوا بأن تعلق الاسباب بمسبباتها على ثلاث مراتب أحدها التعلق القطعي وهو
ما لا يتخلف فيه المسبب عن السبب الاعلى وجه خرق العادة كالشبع للاكل والري
للشرب وثانيها الظني وهو ما يكثر فيه ارتباط المسبب بالسبب وقد يتخلف نادرا ومثلوا
له بالادوية مع الامراض وثالثها الوهمي وهو ما لا يرتبط فيه المسبب بالسبب الا نادرا
ومثلوا له بالكي والرقى مجمعين على ذلك وغاية ما اختلفوا فيه هو ان تعاطي القسم الثالث
هل هو مخالف للتوكل أم لا واحتج صاحب حسن النبا لكونه غير مخالف للتوكل
رادا على صاحب الفصول بثبوت الرقيا من (النبي صلى الله عليه وسلم) وكذلك الكي
فليراجع ما أطال به هنالك فأنت ترى أطباقهم على جعل الرقيا من الموهوم وما تقدم
من الكتابة بالدم للراعف ليست هي الا رقيا فكيف ينطبق عليها شرط جواز استعمال

المحرم

المحرم وهو تعينه للشفاء وأين التعين من الوهم وكيف يقدم على أمر محرم باجماع لامر
موهوم فعلى الآخذ للاحكام الشرعية التثبت وعدم الاغترار ولهذا صعبت درجة
المفتي لكي لا يضل ويضل بغير علم ولا ينفعه مجرد وجود المسائل في كتب بعض المتأخرين
اذ كثيرا ما زلقت الاقدام من بعضهم فينقلها عنه غيره كأنها المذهب الذي عنه لا يذهب
والله يحفظ المسلمين من مزالق الشبهات وكان منشأ ذلك القول هو ما قاله صاحب النهاية
في مبحث جواز التداوي بالمحرم اذا تيقن فيه الشفاء وساق لذلك مثالا وهو جواز كتابة
الفاتحة بالدم للراعف على جبينه وأنفه لكنه قيد ذلك بحصول العلم الذي هو اليقين
وذلك على معرض التمثيل بدليل عطفه البول حيث قال وبالبول أيضا أي اذا حصل
العلم ومن المعلوم ان الفقهاء يصورون المسائل ولو المستحيلة تقريرا لحكمها لما عسى
ان يطرأ في زمن لا يقدر فيه على استنباط الاحكام فليس كلامه دليلا على الجواز في
تلك المسئلة لانه مقيد بالعلم وقد علمت انها من قبيلة الرقيا والرقيا من الموهوم فلا يجوز
الاستناد الى كلامه مع الغفلة عن قيده الذي هو العلم ولم نر في كلامهم من يسوغ
اطلاق العلم على الوهم وغاية ما قالوه في المسئلة ان بعضهم جعل كلام حذاق الاطباء
مما يحصل به العلم وقال العلامة السيد ابن عابدين في حواشي الدر انه لعله من
التوسع في اطلاق العلم على الظن أقول وذلك لان مسائل علم الطب على قسمين
أحدهما ما يرجع الى علم التشريح وكيفية تركيب الابدان وهي يقينية والثاني
ما يرجع الى الدواء ومسائله ظنية كما تقدم ثم اعلم ان تعاطي الاسباب بأقسامها الثلاثة
التي تقدمت في صدر هذا المبحث هو من أعمال الكاملين في الدين ولا ينافي التوكل
على الله وقد بسط المسئلة بيرم الثاني في كتابه حسن النبا المشار اليه وحققناها فيما
كتبناه على باب لا يلدغ (المؤمن من جحر واحد مرتين من البخاري) وخلاصة الكلام
ان العمل بالاسباب مع التوكل على الله في نجاحها هو المشروع ومخالفة ذلك سوء أدب
مع الخالق جل وعلا فيعصي الانسان من حيث يظن انه يطيع وقد صرح بمثل ذلك
العارف الشعراني في المواثيق والعهود حيث قال ان التوكل لا يشرع الا مع الاسباب
أو عند فقدها اما مع امكانها فهو كالعاصي وبكلامه (رضي الله عنه) يتبين الوجه
في الفرق بين حالي (النبي صلى الله عليه وسلم) مع صاحبه الصديق (رضي الله تعالى
عنه) فانه (عليه الصلاة والسلام) لما هاجر الى المدينة عند اجتماع قريش على أذيته
لم يكن له (عليه الصلاة والسلام) من الاسباب الحامية منهم مع كثرتهم وشدة عداوتهم

واتفاقهم الا الاعتماد على أمر الله له بالهجرة ووعده له بابلاغه الى المأمن وانتصار الدين وظهوره فلما سافر واختفى فى الغار مع صاحبه (الصديق رضى الله عنه) وخرجت قريش فى تطلبهم ووصلوا الى الغار ولم يكن لهم مانع ما عن تفتيشه والدخول اليه مع شدة حرصهم على ذلك كان (سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه) خائفا فزعا يدعو الله (والرسول عليه الصلاة والسلام) مطمئن يقول له ما أخبر الله به لا تحزن ان الله معنا وفى غزوة بدر لما أعد (الرسول صلى الله عليه وسلم) العدد والعدد وهيأ أسباب القتال والتقى الجمعان للطعان كان (الرسول صلى الله عليه وسلم) يدعو الله بالحاح حتى قال لان تهلك هاته العصابة فلن تعبد بعدها فى الارض أو كما قال وكان (الصديق رضى الله عنه) يقول له لا تحزن ان الله منجز لك ما وعدك من النصر ولا شك ان (النبى صلى الله عليه وسلم) أكمل حالا من جميع الخلق فكيف اختلف حاله فى الواقعتين مع ان ظاهر الامر فيهما مع (صديقه رضى الله عنه) فالوجه يتبين مما قرره الشعرانى فى القاعدة المار ذكرها وهو ان حال الغار ليس فيه مجال للاسباب لفقدانها فليس هنالك الا التوكل البحت ولذلك كان (صلى الله عليه وسلم) مطمئنا لانه أكمل توكلا واما حالة الغزوة فهى حالة الاخذ فى الاسباب ثم التوكل معها ولا يسوغ التوكل البحت ولذلك كان (صلى الله عليه وسلم) مجتهدا فى الدعاء لتكون الاسباب ناجحة وليس للامة الا اتباع الرسول فالعمل بالاسباب عند وجودها مع التوكل على الله فى نجاحها هو المشروع ولا يشكل على هذا ما ينقل عن كثير من الصالحين من تركهم للاسباب وخرق العادة لهم لانه مندفع بما قرره أبو اسحاق الشاطبى فى الموافقات من ان هؤلاء وان خرقت لهم العادة لكنهم لم يخرجوا عن الاسباب لان خرق العادة من الاسباب الخفية واستشهد لذلك بأدلة تشفى الغليل و يبينه ما وقع من العارف الربانى الامام فى علم الباطن والظاهر سيدى (عبد العزيز المهدوى) شيخ مظهر العلم (سيدى محى الدين ابن العربى) الحاتمى الذى ألف لاجله الفتوحات المكية ويخاطبه فى رسائله بقوله يا ولى فانه قد ذكر عنه ان أحد الصالحين كان مارا بطريق فوقع فى جب فمر بعض السابلة على ذلك الطريق ورأوا الجب فقالوا ان هذا الجب يضر بالسابلة لوقوعه فى الطريق فاندفع أذاه بوضع هذا الصخر العظيم على فمه وسده فيه ففعلوا من غير ان يعلموا بالصالح الواقع فيه وخطر ببال ان يعلمهم ثم قال لا ألتجئ الى مخلوق والله أعلم بحالى وبعد مامر السابلة جاء سبع وحفر فرجة من فم البئر

وأدلى ذنبه الى الرجل الصالح فقال ان هذا اذن من الله بنجاتى فتمسك بذيل السبع وأخرجه السبع من البئر وذهب الى حال سبيله وسمع منادا يقول قد نجيت من الهلاك بالهلاك وسئل الشيخ سيدى (عبد العزيز) كيف يصح هذا العمل من هذا الرجل الصالح والحال انه مخالف للشريعة لان (الله يقول ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) وعدم اعلامه للسابلة من باب الالقاء باليد فأجاب سيدى (عبد العزيز رضى الله عنه) بأن التكاليف الشرعية العملية هى ثانى رتبة من التكاليف الاعتقادية وذلك الرجل الصالح علم من نفسه ركونها للاسباب وعدم صحة توكلها فقهرها حتى يثبت صحة الاعتقاد الذى هو الدرجة الاولى فلهذا كان الرجل قد عمل بالشريعة بوضع درجات التكليف مواضعها هذا محصل كلامه (رضى الله عنه) وبه يعلم ان كل من ارتكب منهم مخالفة الاسباب لابد أن يكون له حامل خاص والا فهم (رضى الله عنهم) أشد محافظة على الشريعة فلا يغتر أحد بأن أعمالهم مخالفة لمشروعية الاسباب بل يحمل كل منهم على أمر خاص يليق بحاله وفقنا الله للاهتداء بهداهم

الباب * الثانى

﴿فى قطر تونس﴾

لما كان مسقط الرأس فى هاته البلاد وهى منبت الآباء ومستقر الاجداد ونحن بصدد التعريف والكلام على ما شاهدناه فى الاقطار على حسب مشاهدتنا لها فى التواريخ لزم بالضرورة تقديم الكلام على الوطن الثابت حبه فى القلب الثبات الحسن

فصل

﴿فى التعريف بالقطر التونسى﴾

اعلم ان موقعه على شواطئ افريقية الشرقية الشمالية على البحر الابيض ويحده البحر المذكور شمالا وشرقا وطرابلس الغرب فى بعض الحد الشرقى والصحراء الكبيرة جنوبا والجزائر غربا ويبتدئ شمالا من عرض سبع وثلاثين درجة وسبع عشرة دقيقة وعشرين ثانية هذا عند أعظم المراسى هنالك وهى مدينة بنزرت ويمتد من هنالك الى الجنوب الى ان يدخل فى الصحراء الكبيرة من غير تعين للحد وانما أشهر المدن جهة

الحد الجنوبي هي مدينة توزرو هي واقعة في عرض اربع وثلاثين درجة واحدى عشرة ثانية وعشرين دقيقة وهذا القطر طوله من الشمال الى الجنوب أكثر من عرضه من الشرق الى الغرب ممتد على ساحل البحر فيبتدئ من عرض درجة (٣٧) ودقيقة (١٩) وينتهي معموره الى درجة (٣٣) ودقيقة (١٠) ويبتدئ في الطول المؤسس على باريس من طول درجة (٩) ودقيقة (٢٢) الى نحو درجة (٥) ودقيقة (٥٠) وبه رأس داخل في البحر يسمى رأس ادار وهو أطول رأس في البحر الابيض ويتصل ببقية القارة بالمكان المسمى دخلة المعاوين كما ان بالقطر رؤس أخر وهي الرأس الابيض ورأس الزبيب الاثنان حول بن زرت ورأس سيدى على المكى ورأس جبل المنار ورأس المهدية ورأس كبودية ورأس الغدامسى ويتبع هذا القطر عدة جزر صغيرة أعظمها جزيرة جهة الحدود الجنوبية ثم قرقنه وهي امام صفاقس ثم جزيرة الكلاب والجوامير وجالطه وغيرها وبه خمسة اجوان كبيرة أحدها جون سيدى ابى سعيد وهو بقرب الحاضرة وجون قابس جهة الجنوب وجون الحمامات وجون بنزرت وجون رواد وبه ثلاث بحيرات أولها بحيرة الحاضرة وثانيها بحيرة المزوقة عند بنزرت وثالثها بحيرة الكلمية بين القيروان والساحل (وأما الانهر) فليس به الانهر واحد وهو مجرده ومنبعه من ولاية قسنطينة التابعة للجزائر وينحدر من هنالك مشرقا مع زيادة تعاظمه بالجداول التي تصب فيه الى ان يخترق القطر التونسي مارا من الغرب الى الشرق في الجهة الشمالية من القطر وتزداد مياهه أيضا بما يصب فيه من الجداول الى ان يصب في البحر في جون رواد من شماليه قرب غار الملح وهذا النهر وان لم يكن سواه في هذا القطر فهو لا يحمل الا القوارب الصغيرة في الصيف واما في الشتاء فيمكن انه يحمل القوارب الكبيرة لا السفن واذا تكاثرت الامطار فانه يفيض ويطفو على أراضى وسيعة وربما حصلت منه بعض أضرار واما الجداول فهي ليست بكثيرة جدا ولكنها خارقة لاغلب الجهات ومنها ما يجرى دواما ومنها ما يجرى عند هطول الامطار ومن أشهرها ته الجداول وادملاّن ومنبعه من جبال برقو من الجهة الجنوبية ويخترق وطن رياح ثم ينحدر الى ان يصب في البحر في رادس يبعد عن الحاضرة عشرة أميال وكثيرا ما تمنع المارة عن عبوره عند كثرة الامطار وتارة يفيض لكن لا يحصل منه ضرر لمن يجاوره غير انه يضر بمن يكون فيه من الرعاة والمارين حيث ان فيضانه يأتي دفعيا وجريان مائه سريعا لكثرة انحداره واما العيون فليست كثيرة في عموم القطر لكنها تكثر جدا في الجهة الشمالية

الشمالية في جبال ماطر وجبال طبرقة وجبال باجة وفي الكاف عين عظيمة جدا كثر ماؤه وعذوبته وبرودته حتى تقع المخاطرة في الصيف لمن يقتدر ان يرفع شيأ من قعر الماء الجارى عند منبعه ثم تنحدر من الجبل وتسيح في البساط مهملة وكذلك في اسيطاله عين عظيمة وفي زغوان وجقار عيون كثيرة وبعضها وهو أكبرها مجلوب الى تونس الآن في قنوات من حديد مع آثار القنوات القديمة التي كان جلب فيها الرومان الماء من هنالك الى قرطاجنة وكذلك في الجريد عيون غزيرة عذبة الماء وحارة كما يوجد بالقطر مياه كثيرة معدنية أشهرها ماء حمام الانف النابع من جبل أبي قرنين وهو ماء حار عليه عدة حمامات والماء نابع من عدة عيون أحسنها عين حمام العريان ثم عين الحمام الكبير وله نفع عظيم لعدة امراض قد افردت منافعه وكيفية استعماله برسالة خاصة للحكيم الكبير وترجمها ونقحها العلامة بيرم الاول قدس ثراه وهذا الحمام يبعد عن الحاضرة خمسة عشر ميلا جهة الجنوب الشرقي مطل على شاطئ البحر جامع للنزهة والنفع والتأنس حيث كان على الطريق العام الموصل الى الساحل وغيره من أكبر جهات القطر ودرجة حرارة مائه من (٤٨) الى (٤٩) من تورمومتر صانتي غرام الذى هو ميزان للحرارة الذى سفره من الجمد والمائة درجة هي درجة غليان الماء وكل ليترة منه تزن ألف غرام وعشرة غرمات وسبعة صانتي غرام ومعتاد الماء المطلق المقطر يزن ألف غرام والغرام هو نوع من مقادير الموازين كل ثلاثين غراما بأوقية وتفصيل الاجزاء التي في هذا الماء من المعادن هو ما يأتي بيانه

صانتي غرام	غرام	
٠٠	٠٢٨	ففي كل ألف غرام من الماء المذكور حامض فحم الحجر
٠٠	٠١٢	حامض المانيزيا
٠٠	٠٠٠	حامض الحديد قليل
٥٢	٠٠١	الجبس
١١	٠٠٠	ملح دسود
١١	٠٠٠	ملح بوتاس
٧٥	٠٠٩	مانيزيا كلولورد يسوديوم
٩٠	٠٠١	كلولورد كالسيوم
٥٥	٠٠٠	كلولورد مانيزيوم

٠٧ . . . كالولورديه دتاسيوم

٠٧ . . . آسيد سيليسيك أى طين البلور

وفى كل كيلو (٢٢٠) صانتى ميتر ومربع من الحامض الفحمى وفيه (٢) ميلغرام من بروموروما نيزيا واصطلاح هاته الأعداد معلوم فى الحساب وكذلك يوجد فيه حمام قربص البعيد عن الحمام السابق بحوار بعين ميلا فى الجهة الشرقية الجنوبية منه وهو أكثر عيونا وأشد حرارة وله نفع عظيم فى كثير من الامراض العصبية وأمراض المواد الطيرية ومن غريب خواصه انه اذا وضعت دجاجة فى مجرى الماء قرب منبعه نحو بضع دقايق يزول ريشها بتمامه بل ان بعضا من الاهالى يضع قدرة للطعام هناك فيطبخ اللحم أحسن طبخ وهكذا غيره الا البيض الدجاج فمع شدة تلك الحرارة ومع سهولة طبخ البيض فانه لا ينضج ولو أبقى هناك يوما تاما هكذا يروى عن كثير واجزاؤه تقرب من أجزاء ماء حمام الانف وكذلك يوجد قرب رأس الجبل من وطن بن زرت حمام معدنى غير انه لا يستعمل الا عند بعض البوادى وأهل القرى هناك ولا شهرة له مع انه كثير المنافع وكذلك يوجد فى النفيضة مياه معدنية نافعة للشرب والاستحمام وهى مهجورة كغيرها من منابع الثروة والتقدم واما جبال هذا القطر فتتصل به سلسلة جبال أطلس التى تبتدئ من عرض (٢٨) درجه وتنتهى فى عرض (٣٧) فى مملكة المغرب وأعلى رأوسها بين فاس ومراكش وارتفاعه على سطح البحر ثلاثة عشر ألف قدم ومائة قدم وفى اختراقها للقطر التونسى عدة فروع أشهرها جبال مطماطه وجبل طبرقة وجبل الرقبة وجبل زغوان وهو أعلاها وجبل الرصاص وجبل أبى قرنين ومناخ هاته الجبال هى الجهة الشمالية والغربية الشمالية ثم لا تزال تنخفض وتضيق عند توجهها للجنوب مارة بقرب سواحل البحر الى ان تتصل بجبال الودارنه من عمل الاعراض وعدى هاته لا يوجد جهة الجنوب الاربا لا اعتبار لها وليس منها جبل بلكانى الا جبل أبى قرنين فان الآثار دالة على انه كان فى الاصل بلكان حيث يوجد فى قمته العلما فوهة مسدودة الآن مع منابع الماء الحار المتدفقة منه ومع الانفجار المليغ الكائن فى أحد رؤسه التى بقرب البحر فى الجهة الشمالية منه المعروفة بضربة السيف أحادث ذلك الانفجار الهائل بسبب الزلزال الشديد الذى هو من علايق البلكانية وقد علمنا ما مران فى الحد الجنوبى (الصحراء) الكبيرة وقد قال قوم انها كانت بحرا متصلة بالبحر الابيض بخليج من شطوط قابس ومما يستدلون به الارض السواخة التى بين الشاطئ المذكور

والصحراء

والصحراء ورام فرديناند ديلسبس الرجل الشهير باعمال خليج السويس ان يحفر خليج قابس لكى يصير البحر فى وسط افريقية وحققوا أن سطح البحر أعلا من سطح الصحراء بما يحمل السفن الكبيرة وأن البحر يمتد هناك الى طول نحو ثلاثمائة ميل ورأى قوم امتناع ذلك ولكن المريد أشتغل الآن بخليج بنما فى أمريكا فترك الكلام والعمل فى بحر الصحراء (وأما) معادن هذا القطر فهى لم تزل فى حجب الترك ولا شك أنها غنية نافعة والمحقق منها الآن المعروف هو الرصاص والفضة فى كل من جبل الرصاص ودجبة وأولها كان مستعملا بكثرة وآثار خدمة الرومان له العظيمة لا زالت الى الآن واستخراج المعدن منه لا يحتاج لكبير معالجة حتى ان الاعراب تأخذ منه ما تريد ولهذا صار اسم المعدن عنوانا على الجبل وقد منح فى وزارة مصطفى خزنه دار الى احد الطليان ثم انتقلت منحته الى لجنة طليانية ولم تزل بأيديهم الى الآن من غير حصول فائدة لهم ولا للبلاد وثانيها الآن بيد لجنة فرنساوية هى صاحبة امتياز طريق الحديد والظاهر من اعمالها السريعة المجدة أنها تستخدمه عن قرب وان كانت الى الآن لم تحدث فيه شيئا كما يوجد المعدنان المذكوران فى جهات أخر من جبل الرقبة وكذلك قرب اسبيطله كما يوجد قرب هاته معدن من الذهب وفى وطن أولاد عون يوجد القزدير والزئبق و يوجد الحديد فى الجبل الاحمر قرب باردو وفى دجبة وهو غنى سهل الاستخراج فى كليهما كما يوجد السيمان فى الجبل الأحمر وهو غنى سهل و يوجد فيه الفحم الحجرى أيضا كما يوجد معدن المرمر الرفيع الاحمر والاخضر الذى كانت تستعمله الرومان والقرطاجنيز فى هيا كلهم الشهيرة وهو قرب طبربة وآثار استخراج الاقدمين موجودة تعدها البوادى غير أن تأوى اليها كما يوجد الرخام الاسود فى جبل أشكل من وطن ماطر و يوجد الكذال الرفيع الصلب فى جبل أبى قرنين وهو مستعمل الى الآن و يسمى محله مقطع الحجر وكذلك فى الجبل الاحمر الجبس كما يوجد الملح فى سباخ عديدة أشهرها سبخة سكره قرب الحاضرة وفى عشرة الثمانين والمائتين والألف ارسلت دولة فرانسا أحد علماء الطبيعيات بطلب من الحكومة التونسية وطاف فى جميع القطر بتدقيق وكتب ما يشتمل عليه من المعادن ومقدار درجتها وأماكنها لكن بعض تلك التقارير لم تصل للحكومة التونسية الى الآن (وأما أراضى) هذا القطر فهى خصبة جدا تبعا للماء السماء وكأنها لكثرة خصبها واشتمالها على اكمل الصفات الجيدة خصت باسم أفريقية من باب اطلاق العام على الخاص لمزية فيه حتى صار كأنه هو الجميع أو ان أصل الاسم خاص

بهذا القطر ثم سمى به جميع ما اتصل به من القارة ويؤيده تسمية الجهة الاكثر خصبا منه بخصوص هذا الاسم وهى الجهة الشمالية الشاملة لماطر وباجة ومابينهما فانها الى الآن تسمى على لسان العام والخاص بأفريقية غير انهم ينطقون القاف كافا مفخمة وينقسم القطر الى ثلاثة أقسام باعتبار الخصب فالجهة الشمالية التى هى أكثر جبالا هى الاكثر خصبا على مرور السنين فالمزارعون هنالك لا تكاد تجد سنة لا يربحون فيها من مزروعاتهم ولا أقل انهم لا يخسرون شيأ وعلى الخصوص فى هذا جهة جبال ماطر كما ان الخصب فى هاته الجهات لا يتجاوز الحدود المتعارفة فى الربح وأما القسم الثانى فهو الجهة الوسطى من القطر والجهة الشرقية من الجنوب على قرب من البحر وذلك كالساحل والقيروان والاعراض وصفاقس وخصب هذا القسم باعتبار السنين ومافيها من المطر قلة وكثرة وحيث كان نزول المطر فى تلك الجهات قليلا فكذلك الخصب قليل ففى العشر سنين مثلا يحصل عندهم الخصب مرة أو مرتين لكنه خصب خارق للعادة ويكاد السامع أن لا يصدق به لولا ماشهد به العيان وتواتر النقل فيه حتى بلغ حد القطع فان رجلا زرع فى أراضى الساحل التابعة لمدسوسة ربع قفيز قمحا فحصل مائة قفيز وخمسة عشر قفيزا وبلوغ هاته الدرجة قليل والكثير أن من يزرع قفيزا يأخذ من الستة عشر قفيزا الى الخمسة والثلاثين قفيزا وقد حكى الوزير أبو محمد خير الدين باشا عندما كان وزيرا بتونس الى نائب احدى الدول ما يحصل بتلك الجهة من عظم الخصب وان الامير أحمد باشا كان أتى فى أحد أسفاره بجذر من شعيرة واحدة أنبتت ستمائة سنبلة وأزيد فظهر على وجه النائب استبعاد الحقيقة وسكت الوزير اذ ذاك ثم أرسل الى عامل القيروان وجلاص بأن يبحث عند استواء الزرع على أعظم جذر وأكثره سنابل فأرسل اليه صندوقين عظيمين بكل واحد منهما جذر واحد فاستدعى الوزير ذلك النائب ومعه طائفة من الاعيان وأراهم الجذور فاعتنوا بأنفسهم بالبحث عن المنبت ووجدوا أصله شعيرة واحدة وعدوا كم تفرع فى أحدها فتجاوز وافى العد الاربعمائة والخمسين وبقى نحو الثلث بلا عد وقالوا يكفى الذى تحصل منه هذا العدد فله ان يتجاوز حتى الالف ويعظم طول السنبل أيضا حتى يحجب الفارس بفرسه اذا مر فيه والعادة عند فلاحة تلك الجهات ان يزرعوا حبات الشعير كزرع الشجر أعنى يتركون بين الشعيرة والشعيرة مسافة وسيعة وأما بقية السنين فاما ان يخسروا رأس المال أو بعضه أو يحصل لهم ربح يسير وذلك لقلة نزول الامطار

بتلك

بتلك الجهات لخلوها عن الجبال المرتفعة والاشجار الطويلة وأراضى هذا القسم يلزمها البذر القليل بالنسبة للقسم الاول فالمقدار من الارض الذى يبذر فيه قفيز فى القسم الاول يبذر فيه فى هذا القسم الربع وأقل وأما القسم الثالث فهو غير صالح لزرع الحبوب بالمرة وهو الجهة الجنوبية المسماة بالجريد لانها أراضى متسعة من الرمل وقريبة الى الصحراء الكبيرة ولا تصب فيها المطر الا نادرا واذا صبت أضرت بأهلها الان نباتهم أكثره النخيل والمطر تضر بثمره العجيب (وأما نباتات) هذا القطر فأغلب زراعة أهله فى القسم الشمالى والاوسط هى الحبوب من القمح والشعير وأقل منها الذرة والفول والدرع والجلبان والحبة الحلوى والكروية والبسباس والتابل والحبة السوداء والكتان والقطن واللوبياء والبطاطس والحمص والعدس ولكثرة خصب هاته الاشياء كان هذا القطر يسمى بمخزن حبوب روما ويزرعون من البقول الطماطم والبصل والصلق والكرنب والبروكلو والقناوية أى البامية والملوخية والفلفل الاخضر والاحمر والمعدنوس والسناخ والكرضون والدبا بأنواعها والجقاء والشدت والثوم والخس والسكوريا والبراصا والفجل والسماق والكلافس والفراولو والبطيخ الاحمر والاخضر والقثاء واللفت والكسبر وبوخريش والاسطفلينا وفيه أنوار برية عجيبة الرائحة والمنظر لا يحيط بها الا خالقها ومنها القحوان والبابونج والاتاى وهو غير مستعمل وفيه من الازهار المستنبتة زهر البنفسج وينبت بنفسه أيضا فى زغوان وغيره من أماكن المياه الكثيرة وهكذا الورد والياسمين بأنواعهما والفل والقرنفل على أنواع شتى وغير ذلك من الزهور الطيبة الزكية بحيث تكون جبال هذا القطر وأوديته وبساتينه أيام الربيع وأواخر الشتاء وأوائل الصيف روضة نضرة بألوان النبات المخضرة به الارض وأنواع الزهور والنور المختلف الاشكال والروائح ومما ينبت بنفسه القرنين الخارج من الخرشف الذى يقال انه الجزر والسكوم وينبت فيه جميع النباتات من الكلأ البرى ومن أحسنه لغذاء الحيوانات النجم وفى الجهات الشمالية (آجام وغياض) وغابات عظيمة غنية وأشهرها غابة طبرقة يستخرج منها الاخشاب لبناء السفن والخفاف وأعواد السقوف من الطرفا وغيرها مع المتانة والدوام والعجب انها مع كثرتها فتجارة الاخشاب المجلوبة من أوروبا رائجة فى أغلب حواضر القطر وبتلك الغابات أشجار عظيمة جدا ذكر لى ثقة انه راى فى غابة طبرقة شجرة من الزيتون أحاط بساقها ستة عشر رجلا كل منهم فاتح يديه للغاية .

ليمسك صاحبه وأشجار تلك الغابات هى الذرو والصفصاف والبلوط والبندق والقسطل والزان والفرنان ومنه يستخرج الخفاف وقشره لدبغ الجلود وفيه تجارة رائجة وشجر الشثم والدردار والعرعار وغيرها من غير ذات الثمر (كما يوجد فيها) ذات الثمر نحو الجوز ولأخشابه سوق نافعة كالعرعار وقه أيضا فانهم يأخذون قشرها ويستعملونه للصبغ وغيره وأكثر هذا فى جبل زغوان وكل تلك الاشجار والغابات نابتة بنفسها من غير حراسة الا الحفظ طبرقة من جهة البحر لان للحكومة معلوما على الخفاف وهى مختصة بأخشاب السفن كما لها معلوم على نوع من قشر الفرنان المستعمل للدبغ وبقية المنافع مكنوزة أو ضائعة ويستنبت فى جميع جهات القطر شجرة الزيتون المباركة الا فى الجهة الضاربة للجنوب وكيفية غراسته على أنواع فمنها ان يؤخذ قطعة من الفروع الغضة بأوراقها وفروعها فتغرس وتبقى الفروع ظاهرة ويسمى الشطبة وهو أردؤها ومنها ان يقطع من فروع الشجرة ما بلغ ولم يجف ويقطع فى طول ذراع ثم يحفر اليه عمق ذراعين فى طولهما وعرضهما وتلقى تلك القطعة المسماة بالقنوط هناك ممتدة مع خلط التراب الذى تردم به بالسرقين وهو المسمى عندهم بالغبار ومنها ما يؤخذ من قاعدة الشجرة الجافة عند بدو اللقاح منها ويقطع بآلة من حديد مكركبا حيث ان أصل خلقته فى القاعدة كذلك الى أن يبقى ماسكا للاصل شئ قليل فيجذب باليد لكى ينسلخ من القشر سالما ويغرس على النحو السابق ويسمى السلعة ومنها ان يزرع النوى وبعد كبر شجرها تلقح من شجرة الزيتون لان النابت من النوى يخرج ثمره رديا لازيت فيه وهو المسمى بالجبوز ويوجد من هذا النوع غابات كثيرة مهملة فى الجبال وغيرها وأعظمها ما بين اسبيطلة والقيروان ومنها ما يزرع من القنوط المذكور لكن ليس كل شجرة منفردة من أول الامر بل يزرع عدد كثير منها فى مكان مخصوص متقارب بعضه ويسمى بالمشتلة وبعد ثلاث سنين من نباته تنقل كل شجرة لمحلها وهذا الصنف هو الاكثر استعمالا وللاهالى اعتناء باتقانه وتنميته وسقيه والاغلب فى هاته الشجرة ان تستنبت من غير سقى الا فى السنين الاولى فاذا ثبتت عروقها ترك سقيها الا بما يأتيها من ماء المطر ولثمرها أنواع كثيرة مختلفة فى الطعم والزيت كثرة وقلة والاغلب هو النوع الاسود الصغير الحجم وهو العام ويختلف زيته بالنظر للكثرة والحسن على حسب الارض التى يزرع بها فما يزرع فى الجبال والاراضى الكثيرة الحجارة يكون أكثر زيتا وأحسن زيوت هذا القطر زيت زيتون بلد قفصة وبلد توزر فانه ألذ طعما وأنقى لونا كأنه ماء

لا يكاد يبدو من الزجاجة اذا وضع فيها ومن أنواع الزيتون الحسنة الطعم النوع المسمى بالمرسلين وهو أخضر متوسط الحجم مائل الى الطول دقيق النوى ويتقن صنعه أهل زغوان بالنارنج وأهل الحاضرة بذلك أيضا وبالليمون والفلفل الاحمر والاخضر ومثله النوع المسمى بالطازلالة الكبير الحجم جدا الاسود اللون ومن أنواعه الحسان المسمى بالمسكى وهو مكركب مائل الى البياض بخضرة وبقية أنواع الاشجار المستنبتة فمنها البردقال أى النارنج الغير المر وفيه أنواع وهى الطرابلسى والمالطى والجبالى وأغرب نوع لم أره فى غير هذا القطر مع البحث عنه البرد قال المسكى وهو لا حموضة فيه أصلا بل فيه حلاوة زائدة كأنه مخلوط بسكر أو عسل ومنها النارنج والليم الحلو والليمون الحامض وفيه أنواع منها ما يبقى فى جميع الفصول الاربعة والكمثرى وفيها أنواع لكل زمن من فصول السنة نوع وقد نقل من أوروبا أنواع أعظم كثيرا وعنى بتربيتها بعضهم فأنجبت فى السنين الاولى ثم أخذت فى التراجع والتفاح مثل ذلك والمشمش ومنه نوع يسمى بالشاشى صغير مبيض منقط بحمرة أو سواد لم أر مثله فيما رأيت من الاقاليم طعما ونكهة والاجاص بأنواع كثيرة منه الاحمر والاسود والابيض والاخضر والمكركب والمستطيل والصغير والكبير ويسمى بالعوينة وأحسنه المسكى وهو صغير مستطيل واللوز والعنب والتين والخوخ والهندى أى التين الهندى وهو نوع يخرج من شجرة لها شوك كثير ولا ساق لها وورقها مثل أظلاف الابل له شوك كثير ويسمى فى المشرق بالصبارة ويستعمل بكثرة سياجا على البساتين وهو مرغوب فيه فى هذا القطر لتعيش أقوام مثل جلاص وتفكه الآخرين ولو من أهل المدن لطيب نكهته وطعمه مع قلة ضرره الا اذا أكثر أكله على جوع فانه قابض جدا ربما قتل بذلك ومن طبيعته انه يكثر فى سنين الجدب أى فى العام الذى تقل فيه الامطار ولذلك صار الهندى أهم النبات النافع للفقراء كما يستنبت فى هذا الاقليم التبغ أى ورق التدخين والنشوق فاما ورق التدخين ففيه الجيد ولكنه لا يبلغ الى أعلى نوع منه واما ورق النشوق فانه أعلى من جميع أنواع ما يزرع منه فى غير هذا القطر سيما ما يزرع منه فى جهة باجة وتبرسق وقربة وعادة دقه فى هذا القطر انه يدق ناعما للغاية وقد كانت فيه أرباح للقطر بكثرة خروجه منه والآن صار يجلب اليه كثير من الخارج لتحجير الحكومة زرعه باطلاق حيث كان لها عليه آداء وافر وينبت أيضا الجوز والسفرجل والعناب والزعرور والرمان وبوصاع والموز والنخيل غير انه فى غير الجريد لا يثمر الا ثمرة أنواع

وهى البسر الاخضر والاصفر والرطب واما فى الجريد فله أنواع عدها بعضهم ثمانين نوعا واختص على جميع ما علمنا من الاقاليم رؤية وسماعا بالنوع المسمى بالدقلة الذى لانظير له حلاوة ولذة طعم ويحمل منه لسائر المعمور رغبة فيه الى غير ذلك من سائر نباتات الاقاليم المعتدلة لاسيما الجبال الشمالية الكثيرة المياه فانها يوجد بها حتى بعض نباتات الاقاليم الباردة وهى على ممر الايام نضرة خضرة بما كساها الله من جمال النبات والخصب (واما هواء) هذا القطر فهو معتدل الاغلب والجهة الجنوبية يغلب فيها الحر واذا هب الريح الجنوبى على أى جهة وفى أى وقت يحصل منه الحر لاسيما فى الصيف فأنه يؤذى بحره حتى بعض الثمار والاشجار وفى غير ذلك الاعتدال هو الغالب و يشتد البرد فى الشتاء لكن لا يصل الى انجماد المياه أو نزول الثلج الا نادرا نعم فى جبال الشمال المرتفعة يحصل الجمد فى كل سنة بل يبقى الثلج فى بعضها ولو فى الصيف لكنه قليل واغلب جهات القطر سليمة الهواء موافقة للصحة وفيه جهات حسنة الهواء جدا نافعة للمرضى ولو بمرض السل الذى أحسن علاجاته الهواء لان مجلسه الرئة فمن هاته الجهات الحسنة المشهورة المكان المعروف برأس الجبل وهو جهة الشمال من القطر بقرب شاطئ البحر تبعد القرية التى هى مركزه على البحر نحو أربعة أميال والبحر من شماليها وهو على سفح جبل منخفض مرمل تحف بها بساتين ناضرة الى البحر تسقى بآبار ذات ماء حلو جيد نقى وعلى شاطئ البحر عين عذبة ضعيفة الجريان لكنها نابعة من الصخر حلوة جدا نقية مسرعة للهضم كثيرا بحيث يصير الشارب منها يأكل أكثر من عادته وكذلك من الاماكن الشهيرة بحسن الماء والهواء بلدنا بل التى هى قاعدة الوطن القبلى وهى على مبتدئ الرأس الطويل برأس ادار عند اتصاله بالقارة تبعد على البحر نحو ميل وهو من شرقيها الجنوبى وهى فى وهاد مرمل وراءها جبل وامامها بحر وتحدق بها البساتين والجنان بأنواع الليمون والبرتقال وغيرهما من الفواكه وأحسن من هذين المكانين هواء الجبل المعروف بالانصارين يبعد على الحاضرة نحو ستين ميلا جهة الشمال مع بعده عن البحر فان هواءه لارتفاعه يغلب عليه البرد وفى أعاليه مسارح ومزارع متسعة وعيون دافقة وآجام وغياض نضرة لا يركد فيها الماء بل ينحدر الى أسفل والشاهد على ان هذا المكان أحسن هواء من جميع جهات القطر أن أهله لم يصبهم كثير من الامراض الوبائية مع ان كل تلك الامراض عمت القطر التونسى عدة مرار ولم يعلم أن احدا من أهل ذلك المكان أصيب بشئ من ذلك بل ان الوافد اليه يسلم عند الحلول به وسبحان من خص

ماشاء بما شاء غير أن هذا المكان به عاهة صعبة وهى كثرة الحيات المؤذية به والله لطيف كما يوجد بالقطر جهات وخمة رديئة الهواء فأولها انفرة من عمل الجريد وثانيها باجة قاعدة العمل المسمى بها فيغلب على أهاليها الامراض وترى وجوههم صفرا والوافدون عليهم فى أقل زمن يمرضون لاسيما فى الصيف وأما غير ما تقدم فالهواء معتدل سليم (وأما حيوانات) هذا القطر ففيه أغلب حيوانات أقاليم الاعتدال أنيسة ووحشية فمن الوحشية الاسد وأغلبه فى الجهة الغربية ويضرب المثل بجرءة أسد عرار من أقسام تلك الجهة والنمر فى كل الآجام القليلة العمران والضبع والذئب والثعلب والفهد والنمس وهو النسناس والخنزير وبقر الوحش والغزال والارنب والذربال والقنفذ والوعل والورل والجرذ على أنواع والبقر الجاموس كان جلب وسرح فى جبال ماطر وجبل أشكل الذى تحيط به بحيرة أشكل وهى حلوى فتناسل هنالك وتكاثر وهو على ملك الحكومة وتوحش بحيث صار اذا احتيج الى شئ منه يلزم صيده حيا وقد تأخذ منه الحكومة أو بعض رجالها الجر الاثقال واللبن وقد قل فى هاته المدة لكثرة صيد الولاة وعدم حراسته حقيقة و يوجد فى القطر (من الحشرات) الثعبان ولاسيما فى جبال الودارنة فانه يعظم جدا لكنه غير مضر هنالك بحيث يكون مساكنهم كأنه من الحيوانات الاليفة كالقط وأشباهه وهم لا يؤذونه وهو لا يضر ولا ينضر منهم ويبلغ طول الواحد الى ثمانية أذرع وغلظه أزيد من شبرين وأما فى جهات الجريد والصحراء فهنالك أنواع من الثعبان مضرة ومنه نوع يسمى بالزريق رقيق قوى جدا اذا قصد شيأ يطفر عليه فيخرقه كالسهم وكذلك الحيات القتالة وتوجد بكثرة فى الشبيكا وتامغزا من الجريد والعقارب فى الجهات غير ان كثرتها الفادحة فى الجريد وهى مؤذية ولاسيما فى القيروان وفى بعض الجهات لا أذية منها كما فى باردو ومقر الامراء بل لا تكاد توجد هنالك وفى جبل المنار توجد بكثرة صغيرة الجرم لا أذية منها وكذلك يوجد العنكبوت وتارة يعظم الى ان يصير فى حجم العصفور الصغير وهو قليل الاذية وكذلك يوجد النمل على انواع شتى وكثيرا ما يضر بالزرع من القمح والشعير وكذلك الجراد يأتى فى بعض السنين ويضر بالنبات جميعا اذا كان كثيرا والخنفس على أنواع شتى والوزغ والحرباء وغير ذلك مما هو قليل الوجود فى هذا القطر (وأما الحيوانات) الانسية فيوجد منها الخيل ومنها الجياد العتيقة العراب وأكثر الوانها الازرق أى الشهب المشوبة بالسواد وبقية الالوان كالحمر والكميت والدهم والشهب موجودة أيضا بكثرة غير انها أقل من الاول ويوجد بقلة

البلق والصفر وهذا الجنس يستعمل للركوب وجر العجلات بانواعها
والحرث ومثله البغال وأما الحمير فهي موجودة بكثرة لكنها لا تستعمل لركوب أهالي
المدن وأعيان القبائل بل عادتهم الاستحياء من ركوبها وانما تركب من عامة الاعراب
والسوقة وتستعمل للحمل ومثل ذلك الابل فلا تركب الا كما تقدم في الحمير وكذلك
يوجد البقر والضأن والمعز والكلاب على أنواع ومنها السلوقية والقط (وأما الطيور)
في هذا القطر فمنها الانيسة وهي الدجاج على أنواع والاوز والبط والدجاج الهندي
وهذا النوع اختلفت أسماؤه فترى كل اقليم ينسبه الى جهة ففي تونس قد رأيت
نسبته وفي غيرها بعض يقول رومي وآخرون فارسي وآخرون صيني الخ وكذلك يوجد
الحمام على أنواع شتى وغير هذه الاجناس يجلب بقلة مشغلة للترف وأما الوحشية فمنها
المقيم ومنها الرحالة فأما المقيم فمنه البزويش أي عصفور البيوت وهذا النوع لا تكاد
تخلو منه بلاد وان اختلفت بشدة الحر والبرد فقد رأيته في لندره كما رأيته في مكة المشرفة
لا فرق بين ذا وذا سوى تأثير في اللون ففي البلاد الباردة يميل لونه الى السواد وفي البلاد
الحارة يميل لونه الى البياض ومنه القنابر والزريص والحمام والحجل والمقنين والشبروش
ودجاج الحرث والغر والنسر والعقاب والفاس والبرني والعصفور الكانالو وغيرانه يربي
والزراعة وبورأس والغراب وغراب الزرع والفاخت وخادم الحجل والطوطو والمرل
وأما الرحالة فمنها الاوز والبط والزرنوق والكركي والدراج والسمان والبلبل والمنيار
والبيبط والزرزور والابابيل والخطاف والهدهد (وأما مدن) هذا القطر فقاعدته
تونس وهي في عرض ست وثلاثين درجة وست وأربعين دقيقة وثمان وأربعين ثانية
شمالا وطول تسع درجات شرقا من باريس بقرب من ساحل البحر الابيض على جون
سيدي أبي سعيد على تسعة أميال منه يفصل بينهما بحيرة ملحة لها منفذان الى البحر
تمر بهما القوارب احدهما عبر في حلق الوادي والثاني بينه وبين رادس والبحيرة قليلة
العمق بها جزيرة تسمى شكلي بها حصن قديم وعلى شاطئها على حافة البلاد مرسى
للقوارب الحاملة للبضائع والركاب بين القاعدة ومرسى حلق الوادي ويتصل بهاته
المرسى أي مرسى البحيرة بالحاضرة فرع من طريق الحديد الغربية ويقال انه عقدت
مع لجنة فرنساوية تسمى لجنة بون كالمه وهي صاحبة امتياز طريق الحديد الغربية شروط
في جعل تلك المرسى موثقا للسفن ويلزم لذلك حفر البحيرة وغير ذلك من الاعمال
وهاته القاعدة هي اكثر طولا من الشمال الى الجنوب من العرض ويحيط بها سور

الامن

الامن جهة الشرق فان حدها هناك هو البحيرة المذكورة كما أن السور ابتدئ فيه من
جهة الجنوب ولم يتم ما بين باب الفلة وباب القرجاني وفي السور تسعة أبواب أولها في
قرب نهاية السور عند اتصاله بالبحيرة من جهة الشرق الشمالي ويفتح الباب الى
الشمال ويسمى باب الخضراء ثم يليه (باب) ابن عبد السلام ثم باب سعدون ثم باب
حومة العلوج ثم باب سيدي عبد الله ثم باب سيدي قاسم ثم باب القرجاني ثم باب الفلة
ثم باب عليوه وهو في نهاية السور من جهة الجنوب الشرقي عند اتصاله بالبحيرة أيضا
ولهاته القاعدة حصون على كل باب الا باب حومة العلوج وفي خلال السور حصون
أخرى كحصن القصبة وهو أكبرها وموقعه على أعلا ربوة في البلاد لان البلاد جاءت
في سفح ربوتين متصاعدة فيهما أحداهما ربوة القصبة والثانية ربوة القرجاني ومن
الحصون حصن درب بن عسال وحصن سيدي يحيى وخارجها أيضا بقرب منها حصون
فمنها حصن الجلاز على أعلا رأس في جبل الجلاز من جهة الجنوب للحاضرة ومنها حصن
الرابط في الجهة الشمالية الغربية في الجبل الاخضر وبقربه حصن فليفل وحصن
زوارة وامام حصن القصبة داخل المدينة بطحاء عظيمة وفي جهتها الجنوبية سراية
المملكة التي بناها حموده باشا ولا زالت معتنى بها الى الآن وهي مقر الحكومة والوالي
عند وفوده للحاضرة وفي جهتي الشرق والشمال من البطحاء سوق ذو حوانيت وامامها
مظلات مرفوعة على أعمدة من الرخام وفي جهتها الغربية الحصن وبوسطها جنينة وفوارة
للماء من ماء زغوان ويحيط بالمدينة فاصلا بينها وبين الربضين طريق متسع وأشهر
الاماكن الرحيبة بالحاضرة بطحاء رمضان باي وبقربها مركز الضابطية وبطحاء المر
بربض باب الجزيرة وكذلك بطحاء المركاض امام القشلة الحسينية وبطحاء الحلفاوين
بربض باب السويق وبه أيضا بطحاء التبانين وبين الربضين بطحاء باب البحر وهي أنزه
وأرحب الاماكن وحولها بناءات أنيقة وبوسطها جنينة وفوارة ويمر منها طريق عظيم
متسع الى مرسى البحيرة وذلك المكان هو منتزه الاهالي في عشايا الصيف لان حول
الطريق العريض أشجار وقهاوي وملاهي وحول باب البحر وبقربه حارات الافرنج
ويتصل بها حارات اليهود وماء زغوان مخترق لاغلب جهات البلد في قنوات من حديد
وأغلب الاسواق متصل بعضه ببعض وقد كانت كل صناعة لها سوق مخصوص لكن
الآن وقع بعض تداخل ومناخ هاته الاسواق هو الجهة الغربية من المدينة حول جامع
الزيتونة الذي هو بقرب القصبة المار ذكرها وجامع الزيتونة هو أول جامع بني بالحاضرة

وكان تمامه سنة ١١٤١ حسبما كتب ذلك على أقواس بيت الصلاة بالقوس المواجه لمحل المصحف فنقش عليه تاريخه لفظ ﴿اعلم﴾ وهذا الجامع هو أعظم جامع بالحاضرة وهو بركة أهلها ولا يخلو من رجل صالح وهو مناخ العلوم وتخرّجت فيه فحول عظام قديما وحديثا وان كان أقدم منه فى البناء جامع القصر لانه كان كنيسة قبل الفتح فصار جامعا وتشتمل الحاضرة على سبعة جوامع خطب للحنفية وأعظمها جامع محمد باى تجاه زاوية سيدى محرز بن خلف وبقية الجوامع والمساجد البالغة نحو ثلاثمائة كلها مالكية وأعظمها جامع الزيتونة وفى الحاضرة زوايا كثيرة منها ما به ضريح سادات من الصالحين كزاوية سيدى محرز بن خلف عماد البلدة رضى الله عنه وزاوية سيدى على بن زياد من كبار أصحاب مالك بن أنس وزاوية سيدى أحمد بن عروس وزاوية سيدى منصور وغيرهم رضى الله عنهم وتبلغ أزيد من مائتى زاوية وسكان الحاضرة تقريب عددهم نحو مائة وخمسين ألف نسمة منهم نصارى وافدون اتباع الدول الاجنبية نحو عشرين ألفا ويهود نحو أربعين ألفا والمسلمون ما بين أهالى أو جزائريين نحو تسعين ألفا وبقرب الحاضرة على نحو ثلاثة أميال من الغرب الشمالى بلدة باردو التى هى مقر الحكومة وتشتمل على قصور للادارة ومساكن الوالى وقرابته وعلى جامع واحد وحمام ولها قاض خاص وحول الحاضرة الى مسيرة تسعة أميال وأقل بساتين وعمران وأحسنها المكان المسمى منوبة لاشتماله على قصور جميلة فى بساتين أنيقة وبها قرية حول زاوية الولية الصالحة السيدة عائشة المنوبية وهى فى الجهة الغربية من الحاضرة على مسيرة تسعة أميال وفى الجهة الشمالية بساتين أريانة تضاهى السابقة مع حسن هوائها ثم فى الجهة الشرقية بساتين مرسى قرطاجنة التى هى انزه وأبهى مكان حول الحاضرة تبعد عنها نحو سبعة عشر ميلا على شاطئ البحر الذى مجدت محاسنه شعراء القطر وقال أبو عبد الله الباجى المسعودى فيه عدة موشحات منها قوله

ياشاطئ المرسة السلام ❊ عليك يا نزهة العيون

وأشهر أماكنها العبدلية المشتملة على سوق وقصور أنيقة لولى العهد فى الولاية الامير على باى وفى الجنوب الشرقى من الحاضرة على بعد تسعة أميال مستقيما مرسى حلق الوادى التى هى أكبر مراسى القطر ويكثر سكانها صيفا حيث ينتقل الوالى والحكومة اليها وكثير من اليهود للتنزه بها ويبلغ سكانها اذ ذاك الى نحو ثلاثين ألفا وقد أحدث خارج سورها بناآت كثيرة نحو بلدة جديدة فى شرقيها على ترتيب هندسى وبينها وبين مرسى

قرطاجنة

قرطاجنة المتقدمة بلدة جبل المنار هى أقرب الى الثانية وهى مقر انتزاه أهل الحاضرة فى الصيف تشتمل على أزيد من أربعمائة دار أغلبها أنيق متقن مطلة على البحر بحيث يراها القادم فى البحر على أحسن منظر لتصاعدها فى الجبل مع تزويق الابنية وان كانت طرقها وسخة وقد التفتوا فى المدة الاخيرة الى شئ من نظافتها وتشتمل على ضريح الولى الصالح سيدى أبى سعيد الباجى وغيره من الاولياء رضى الله عنهم وتنسب البلدة الى سيدى أبى سعيد كما أنه بين هاته البلدة وبلدة حلق الوادى عدة قرى فى مكان مدينة قرطاجنة العتيقة التى هى الآن خراب ولم يبق منها قائما الا مواجل الماء وقد كانت مسدومة بالتراب ثم فى هاته المدة الاخيرة فرغت منه ووجدت حيطانها وطليها أحسن مما بنى جديدا وهى نحو احدى عشرة ماجلا متصلة ببعضها ابعاضا فهى ولا تحتاج الا لشئ يسير من الاصلاح وهى من المبانى العجيبة التى تقصدها السواح لرؤيتها كما ان خرائب قرطاجنة لازال يستخرج منها الصخور الضخمة والاسطوانات المرمر وكثير من الافرنج يبحث فيها على الاشياء العتيقة ويستخرج منها تصاوير وأصنام وصناديق من رخام عليها كتابات عتيقة وهى قبور لقدمائهم وتارة يستخرج بعض فصوص منقوش عليها تصاوير فى غاية الاتقان فمنها فص قدر الظفر منقوش به عجلة وأربعة من الخيل ومن اتقان النقش أن صفائح الخيل تظهر مساميرها ولا يستبين عددها الا بالمرآة المكبرة كما يستخرج أحيانا قطع من السكة ذهبا أو غيره والحاصل ان هاتيك الجهات وما حولها الى الجبل الخاوى لازالت تشتمل على عجائب من آثار الاقدمين ومن القرى الواقعة هنالك الآن أشبه شئ بالخراب المعلقة ودوار الشط ثم بينها وبين حلق الوادى بساتين قرطاجنة على الشط وهى جميلة ذات قصور أنيقة وفى الجهة الشمالية الشرقية من الحاضرة بساتين سكرة وسميت بذلك لانها كان يزرع بها قصب السكر بكثرة وتسقى من عين عظيمة عذبة مارة تحت الارض لا يعلم منبعها وانما هى آتية من الشمال الغربى ذاهبة الى الشرق الجنوبى فى قنوات من البناء المتقن والآن عليها آبار كثيرة ولكن من التقهقر صارت تلك الجهة كأنها خلاء وليس بها قصبة واحدة سكرية ادثارها واوهارديتها من السبخة التى هى فى شمالها الشرقى بينها وبين بساتين قمرت التى هى قرب شاطئ البحر شمالى الجبل الخاوى فيها جبال عظيمة من الرمل المنتقل أهلكت أغلب بساتين تلك الجهة وهى آتية من الشمال محاذية للشاطئ ذاهبة الى الجنوب وكأنها من الرمال التى يقذفها البحر بعد التصفية مما يأتى به نهر مجردة والمدينة

الثانية فى القطر هى القيروان وهى اختطتها الصحابة رضوان الله عليهم عند الفتح
فى مكان صالح بمعيشة حيواناتهم وقريب من طبيعة أرض الحجاز لتأنسهم بها وبعيدة
عن البحر حذرا من هجمات المحاربين قبل التمكن وهى فى الجنوب الغربى من الحاضرة
فى طول (٤٥) ثانية و (٣) دقائق وعرض (٤١) ثانية و (٣٥) دقيقة وبها الجامع
الكبير الذى بنته الصحابة ثم جدده بنو الاغلب عندما كانت تلك البلدة هى قاعدة
القطر ولازال بعض سقوف الجامع مما صنعه الاغالبة الى الآن كما أن فيها ضريح
السيد الصحابى سيدنا أبى زمعة الانصارى رضى الله عنه وعليه بناءات ضخمة ومدارس
للعلوم وأوقاف كثيرة ولتلك البلدة سور وضريح السيد خارج السور وفى السور منافذ
ضيقة معوجة للخروج منه راجلا عند غلق الابواب وعلى السور عدة حصون وهى
الآن ليست على ما كانت من العمران وسكانها الآن نحو عشرين ألفا كلهم مساون
ولا يدخل البلد غير مسلم وهم قائمون بجميع ما يحتاجون اليه من صنائع وتجارة ولازال
العلم فى أهلها وبالجامع الاعظم وبمدارس السيد عدة دروس فى علوم شتى (ثم ان
القطر) التونسى ينقسم الى عدة أعمال بالنظر الى السياسة (١) فالحاضرة وما حولها الى
نحو عشرين ميلا من كل جهة عمل (٢) ويليه من الجهة الشرقية الجنوبية عمل
الوطن القبلى وهو ينقسم الى الجزيرة مما يلى الحاضرة وقاعدتها بلد سليمان وسكانها
نحو أربعة آلاف نسمة والى الوطن وقاعدته بلد نابل وسكانها نحو خمسة عشر ألف نسمة
وفى الجميع أزيد من ستين قرية فمما يتبع الاولى المنزل وبنى خلاد والصمعة وأقليبية
التى هى حصن على رأس أدار ومما يتبع الثانى بنى خيار وقربة والحمامات وهى حصن
فى الجون المعروف بها وفى ذلك الرأس الطويل مقر السادات المعاويين الثابتى الشرف
رضى الله عنهم ثم يلى ذلك جنوبا (٣) عمل الساحل المنقسم الى وطن سوسه ووطن المنستير
ويتبع كل منهما عدة قرى فمما يتبع سوسه بلد مساكن أهاليها أشراف والقلعة
الكبرى والقلعة الصغرى وغيرها وسوسه التى هى القاعدة ذات سور وحصون وهى
مرسى على البحر وبها جامع عظيم وسكانها نحو تسعة آلاف نسمة ولهم حضارة وبقايا
من العلوم ومما يتبع المنستير بلد المهدية ولها حصن وسور وجامع وهى مرسى تجارية
أيضا ولها قاض خاص وأكثر سكانها حنفية من أبناء الترك الذين استوطنوا تونس
وعدد سكانها نحو ثمانية آلاف نسمة ويتبعها أيضا بلد جمال وبلد المنارة وغيرها
والمنستير هى القاعدة ولها سور وحصون وهى مرسى تجارية أيضا وسكانها نحو

سبعة آلاف نسمة وهى دون سوسة فى الحضارة والمعارف ويلى هذا العمل (٤)
عمل صفاقس وهو جنوبى السابق على شاطئ البحر وقاعدته مدينة صفاقس وسكانها
نحو عشرة آلاف ولاهلها شهرة بالتجارة فى دواخل القطر وفى الممالك الاسلامية ولهم
مزيد محافظة على الصلوات فى المساجد ولهم بقايا من العلوم الدينية والادبية وهاته
البلدة لها سور وحصون وهى مرسى تجارية أيضا وتأوى اليها سفن الحكومة فى
الشتاء لانها مأمن طبيعى للسفن ولشاطئها مد وزجر ويتبعها جزيرة قرقنة التى بها قرى
ولاهلها صناعة الحلفة والحبال ثم يلى هذا العمل على الشاطئ الجنوبى (٥) عمل
الاعراض على جون قابس التى هى قاعدة العمل وسكانها نحو تسعة آلاف وهم على
البداوة ولها مرسى قليلة التجارة وهذا العمل ينتهى الى غايته الحدود من جهة الجنوب
والجنوب الشرقى الى طرابلس ثم يلى هذا العمل فى الشرق (٦) عمل جربة التى هى
جزيرة فى البحر وعدد سكانها أزيد من ثلاثين ألفا متفرقين على عدة قرى ولهم شهرة تامة
بالتجارة فى سائر ممالك الاسلام ويلى عمل الاعراض من غربيه (٧) عمل الجريد الواصل
الى نهاية الحدود الجنوبية فى الصحراء وهو منقسم الى أربعة أقسام الاول فى جنوبيه وهو
وطن الوديان والشبيكة وتامغزا ويليه شمالا وطن نفطة ويليه شمالا وطن توزر ويليه
شمالا وطن قفصة وهاته لها حصن وقاعدة جميع الجريد هى توزر وقد كانت مناخا
للعلوم ولازالت فيها بقايا وعدد سكانها نحو ألفى نسمة ثم شمالى هذا العمل (٨)
عمل القيروان وقدم ذكرها لانها لها التقدم على غيرها ويلى عملها شمالا (٩) عمل
أولاد سعيد من البوادى سكان الخيام ويليه فى الشمال الغربى (١٠) عمل رياح
المشتمل على بلد زغوان فى جبلها الشهير وعلى بلد تستور وعلى بلد مجاز الباب وغيرها
وأكبرها تستور وعدد سكانها نحو أربعة آلاف وهذا العمل يتصل بعمل الحاضرة
(وحينئذ) قد عرفنا جهة الشط الجنوبى الشرقى الى الحدود ثم ما والاه من دواخل القطر
وبقى علينا تقسيم جهاته الغربية والشمالية فاما الغربية فيتصل بعمل الحاضرة
(١١) عمل طبربة وقاعدته طبربة وهى قرية الآن فى غاية التأخر (١٢) ثم عمل
تبرسق وهى قاعدته وسكانها نحو ألفى نسمة (١٣) ثم عمل باجة وهى قاعدته وهو
عمل كبير وقاعدته ذات حصن وقصر لنائب الوالى الذى يسافر بالعسكر كل صيف
الى هناك فى القديم وعدد سكانها نحو خمسة آلاف نسمة (١٤) ثم عمل الكاف وهى
قاعدته ولها حصن وهى فى رأس جبل وعدد سكانها نحو خمسة آلاف نسمة ويتصل

عملها الى نهاية الحدود الغربية غير أنه لا يصل الى الشط من جهة الشمال فتلك الجهات هى الاعمال الشمالية وتبتدئ من جهة الحد بجبال طبرقه وسكانها (١٥) بوادى وبها حصن ويليه (١٦) عمل جبال ماطر وهى قاعدته وسكانها نحو ألفى نسمة من البوادى ثم يليه (١٧) عمل بنزرت وهى قاعدته وهى مرسى أمينة جدا وسهل لها بعض تسهيل فى منفذها الى البحر لامكن أن تأوى جميع سفن الدنيا فى أمان ولموقعها اعتبار عظيم فى التمكن من البحر الابيض وسكانها نحو ستة آلاف نسمة ولها حصن وسور والماء يجرى اليها فى قنوات من البناء من بعد للشرب لاهلها ويخترقها خليج يوصل الى بحيرة المزوقة المتصلة ببحيرة اشكل التى بها جبل كالجزيرة فيه حيوانات كثيرة هو منتزه لمريد الصيد ويتبع هذا العمل بلاد غار الملح التى هى فى نهاية الحد الشمالى من الشرق وسكانها نحو ألف نسمة ويتصل هذا العمل من جنوبيه بعمل الحاضرة وعلى ذلك فقد تصوّر القارئ هيئة تقسيم أرض هذا القطر غير أنه بقى له تقسيم آخر حكمى أيضا بالنظر الى القبائل الساكنين به ومرجع أحكامهم فنقول (ان أصل) أهالى هذا القطر هم من البربر وكانوا قبل الفتح اما نصارى أو وثنيين ثم أسلموا كلهم ولا زال فى بعض القبائل شئ من عادات النصارى يفعلونه عن غير قصد وهو الوشم بين أعينهم على جباههم بصورة صليب صغير وكذلك استوطن به كثير من العرب واختلطت أنسابهم بالاصليين ثم استوطن به أيضا من هاجر من الاندلس بعد المائة الثامنة وقد بنوا بلدانا بالقطر خاصة بهم وكذلك فى ربض باب سويقة من الحاضرة بنوا حارة خاصة تسمى الى الآن حومة الاندلس ومن بلدانهم التى أسسوها سليمان وزغوان وطبربه ومجاز الباب وتستور وكلها مؤسسة بأماكن جيدة على شكل حسن متقابلة الطرق واسعتها مستقيمتها واختلط نسلهم بالقاطنين ثم وفد عليهم الترك واختلط نسلهم أيضا بالقاطنين ولكن الاكثر هم النوعان الاوّلان وديانة الجميع هى الاسلام الا نحو ستين ألفا من اليهود أغلبهم فى الحاضرة وباقيهم متفرقون فى أغلب بلدان القطر كما ان فى القطر من النصارى الاوروباوين نحو الاربعين ألفا من أجناس شتى أغلبهم مالطيون من الانكليز ويليهم الطليانيون ثم الفرنساويون ثم غيرهم قليلا هذا من غير اعتبار المسلمين التابعين للفرنسيس والا فعدد الفرنساويين بذلك الاعتبار أكثر من غيرهم ثم ان الاهالى الاصليين كانوا فى صدر المدة على مذهب أبى حنيفة هم وجميع سكان الجزائر والمغرب الى ولاية المعز بن باديس فحملهم على أتباع مذهب مالك وذلك فى حدود سنة (٤٠٦) وبقوا على ذلك

الى

الى ان جاء الترك فكانوا هم ونسلهم على مذهب أبى حنيفة ولذلك كان أكثر الاهالى مالكية وهذا بيان أسماء الاعمال والقبائل والاشارة الى أماكن اقامتهم (١) الحاضرة (٢) القيروان (٣) أولاد خليفة من جلاص جنوبى القيروان (٤) الكعوب والكوازين منهم غربى القيروان (٥) أولاد بدر منهم مثل السابقين (٦) أولاد سنداس منهم مثلهم (٧) كسرى فى الغرب الجنوبى منهم (٨) الساحل (٩) المثاليث حول صفاقس من غربيها وجنوبيها (١٠) صفاقس (١١) جربة (١٢) الاعراض (١٣) نفات فى الاعراض (١٤) نفزاوة من الجريد فى جنوبيه الغربى (١٥) الوديان فى جنوبيه (١٦) الحامة فى جنوبيه الشرقى (١٧) توزر فى شماليه (١٨) نفطة فى وسطه (١٩) الشبيكة وتامغزا فى نهاية الجنوب منه (٢٠) قفصة فى شماله (٢١) أهل بيت الشريعة من عرب دريد رحالة ما بين الجنوب الغربى والغرب الشمالى (٢٢) أولاد سيدى تليل فى تلك الجهات (٢٣) أولاد سيدى عبيد مثلهم (٢٤) أولاد عزيز من الهمامة ما بين القيروان والجريد والاعراض وهم رحالة فى تلك الاراضى الرحيبة (٢٥) أولاد معمر منهم مثلهم (٢٦) أولاد رضوان منهم مثلهم (٢٧) الغمامدية فى غربيهم (٢٨) أولاد وزاز من الفراشيش فى جهة الغرب الجنوبى (٢٩) أولاد ناجى منهم مثلهم (٣٠) أولاد على منهم مثلهم والجميع رحالة فى تلك النواحى (٣١) شعملة فى الغرب المتوسط من القطر (٣٢) الفواد قرب السابقين (٣٣) أولاد مهنة مثلهم (٣٤) أولاد بوغانم فى الحدود الغربية (٣٥) الزغالمة مثلهم (٣٦) شارن مثلهم (٣٧) العوامر منهم مثلهم (٣٨) أولاد يعقوب قربهم (٣٩) التوابع مثلهم (٤٠) ورغة فى جبال الشمال (٤١) الخمامسة ودوفان فى بحاير الكاف (٤٢) الكاف سبق ذكره (٤٣) ورتنان فى الجنوب من الكاف (٤٤) أولاد عيار قربهم (٤٥) أولاد عون قربهم (٤٦) جندوبة شمالى الكاف (٤٧) أولاد بوسالم قربهم (٤٨) الرقبة شرقى الكاف الجنوبى وغربى جنوبى باجة وفيها جبال وقبائل من سكان الخيام (٤٩) باجة سبق ذكرها ويتبعها جبال تشتمل على قبائل شتى غير خاضعين حقيقة للحكومة ممتنعين بجبالهم الوعرة وكثيرا ما ترسل معسكرات لأخذ الضرائب منهم وكثيرا ما يؤدون اليها مقدارا عن غير تحقيق لعددهم وكسبهم وهم عمدون ونفزة ومقعد وخمير والشيحية (٥٠) تبرسق سبق ذكرها (٥١) رياح

تقدمت أيضا (٥٢) المحمدية ورادس كل منهما قرية لها عامل مخصوص والاولى كانت مدينة قاهرة فى ولاية أحمد باشا فأخنى عليها الذى أخنى على لبد فى بضع سنين وكانت مستقره ومستقر جنده (٥٣) ثم المرسى وحلق الوادى وقد تقدما (٥٤) أريانة وجعفر كذلك (٥٥) بنزرت كذلك (٥٦) ماطر و بجاورة بحيا لها وقد تقدمت (٥٧) الوطن القبلى كذلك (٥٨) قمطنة (٥٩) طياش (٦٠) مجرى ليس لهم مقر بل هم متفرقون فى الاوطان (٦١) أولاد سعيد فى المفيضة فى الشمالى الشرقى للقيروان (٦٢) السواسى جنوبيهم (٦٣) الطرابلسية متفرقون فى الاوطان (٦٤) الغرابة كذلك (٦٥) العروش الرقاق الاولى كذلك (٦٦) العروش الرقاق الثانية كذلك (٦٧) دريد رحالة ما بين الغرب والجنوب (٦٨) عرب مجور تابعون اليهم (٦٩) أولاد حسن حنفيو المذهب من دريد (٧٠) قطناسة اتباع جلاص (٧١) أولاد سيدى عبيد الظاهر فى الجهة الغربية الجنوبية (٧٢) طبرية تقدمت (٧٣) السبالة فى الشمالى الغربى من الحاضرة على نحو اثنى عشر ميلا وعدد جميع السكان نحو مليون ونصف لان تحقيق العدد غير موجود سيما وكثير من أعراب الاعراض مثل ورغمه وكذلك جبالية باجة لا يعرف عدد ذكورهم البالغين القادرين على التكسب فضلا عن غيرهم وانما يعرف عدد الذكور البالغين من بقية السكان الغير العاجزين عن التكسب وهم مائة وسبعة وعشرون ألفا عدى سكان بلدة تونس والقيروان والمنستير وصفاقس لاستثنائهم من الاداء المرتب على الرؤس

فصل

﴿ فى اجمال تاريخ هذا القطر التونسى ﴾

ويشتمل على ثمانية مطالب (الاول) فى نبذة من تاريخه القديم (الثانى) فى علقته بالدولة العثمانية (الثالث) فى سياسة الخارجية (الرابع) فى سياسة الداخلية من العائلة الحسينية (الخامس) فى وزارة مصطفى خزنه دار (السادس) فى وزارة خير الدين باشا (السابع) فى وزارة محمد خزنه دار (الثامن) فى وزارة مصطفى بن اسماعيل

(المطلب الاول) فى نبذة من تاريخه القديم أعلم ان هذا القطر تداولته ولاية الرومانيين والقرطاجنيين منذ قرون عديدة قبل البعثة وصدر من زمن الخلفاء الراشدين الى ان افتتح

افتتح الخليفة الثانى (سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه) مصر ووصل أمير جيشها بالفتح الى برقة بين طرابلس ومصر فأرسل يستأذنه فى فتح أفريقية يعنى بها تونس كما تقدم بيان وجه التسمية فى الفصل السابق فأرسل اليه يقول ما مفاده انها الغدارة المغدور بها ماؤها قاس مفرقة لقلوب أهلها لا تفتح ما دمت حيا الخ وكان وجه ذلك سياسة منه (رضى الله عنه) لخبرته بالامور وهو علمه بالاختلاف الدائم بين أهلها الذى صار طبيعة لهم بحيث لا ينقادون لبعضهم ولذلك وهنت شوكتهم وصاروا طوع الاجانب المستولين عليهم بحيث لا يعهد منهم قيام بشأن أنفسهم بل تسلم أنفسهم الانقياد الى الغريب بالاتسلمه الى واحد منهم والدليل على ذلك أن هذا القطر مهما تغلب عليه أجنبى انقاد له أهله الى أن ينقرض أو يستولى عليه أجنبى آخر وحيث كانوا على تلك الصفة فالاستيلاء عليهم ولان كان سهلا غير أنه لا تؤمن عواقبه أما (أولا) فلان الجيش اذا استقر هنالك ربما سرت اليه طباع أهل الاقليم كما هو شأن الطبيعة البشرية من سريان الطباع بالمخالطة والملازمة فيقع بينهم التنافر الواجب التباعد عنه وأما (ثانيا) فاذا غاب الجيش الاسلامى ولات القطر الذين هم أجانب من الرومان لا يبعد أن يرجعوا الى بنى جنسهم و يعيدون الكرة على المسلمين وهؤلاء لا يمكن لهم الاعتماد على أهل القطر فى امدادهم واعانتهم لما تقدم من طبعهم وأنهم طوع الغالب كيفما كان وذلك لا يجدى معه رؤيتهم لعدل المسلمين واستقامة أمور دينهم ودنياهم لما فى أصل الطباع من النفرة عن التعاون وميل كل لخويصة نفسه والحامل الدينى وحده غير مجد لانه يلزم له رسوخ وتخلق ومع ذلك قليل من يكفى له ذلك فقد قرر (أبو اسحاق الشاطبى) فى موافقاته أن العلماء على ثلاثة أقسام الاول من يبلغ به العلم الى درجة تصير النظرى فى حقه ضروريا لاطلاعه على أسرار العلوم وتخلقه بها حتى يصير العلم له طبيعة راسخة يرجع اليها رجوعه الى سائر الضروريات ولا يمكن له العمل على خلاف ذلك كما لا يمكن للانسان العمل على خلاف الضرورى وهذا القسم قليل ما هم والقسم الثانى اطلع على أسرار العلم لكن اطلاعا محتاجا الى المراجعة والتذكر والتدبر وهؤلاء لا يجرون على مقتضى العلم الا بكلفة من خوف الوازع الظاهرى غير أنهم ينقادون اليه بالتسليم وهو فى حقه خفيف فأدنى درجاته تؤثر المطلوب منهم والقسم (الثالث) هو الذى لا يطلع على شئ من أسرار العلم وانما يسمع تكاليفه و ينقاد اليها بالتقليد البحت وهذا لا يحمل نفسه على مقتضاه الا بالوازع الظاهرى وهو القسم الاكثر والاغلب فى الوجود ولهذا أقيم فى الدين

وازع الحكم ليحرس الدين الشامل لجميع أقسام التصرفات الدنيوية والاخروية ولا يقال ان أهل القسم الاول يلزم أن يكونوا معصومين وذلك لا يصح لانا نقول تصدر منهم الخطيئة على وجه الغفلة كما تغفل الحواس فى بعض الاحيان هذا اجمال كلامه وأنى لاهل أفريقية اذ ذاك وبلوغ درجة القسم الاول هذا على فرض اسلامهم وأما اذا رضوا بالطاعة وضرب عليهم الخراج فالامر بين مع أن المنعة اذ ذاك للمسلمين وخط التجائهم بعيد جدا وهو جزيرة العرب حيث كانت مصر اذ ذاك فى أول فتحها ولم يستقر قرارها وليس من المعقول الرغبة فى الفتوح بالتهور وبما تقدم يندفع أشكال بين وهو كيف يتوقف سيدنا عمر رضى الله عنه عن بث الاسلام فى افريقية استنادا لمجرد ذلك التعليل وهو تفرق أهلها مع أن الامر ببث الاسلام ليس بعسير لاتفاق قلوب أهل الاقاليم ويؤيد ما قلناه أن سيدنا عثمان رضى الله عنه لما ولى الخلافة واستقر اذ ذاك أمر الاسلام فى مصر وكان لجيش المسلمين قرب منعة ومدد أمرهم بفتح افريقية ففتحت سنة ٢٩ على يد سيدنا عبد الله بن سعد بن أبى سرح رضى الله عنه مصحوبا بعشرين ألفا من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم وكانت أسبيطلة هى القاعدة الثانية فى القطر وهى مركز المشاورة واجتماع أهل الحل والعقد لكى يكونوا أحرارا فى مفاوضاتهم لبعدهم عن الملك الذى مقره فى قرطاجنة وما يرمى عليه أمرهم يبعثون به اليه وحيث كانت تفاصيل التواريخ لهذا القطر قديما قد تكفلت بها مؤلفات منفردة ومن أجلها الحلل السندسية فلا يمكن استيعابها فى هاته العجالة لانها خارجة عن المقصود الذى هو معرفة الحالة الراهنة وانما الذى يتوقف عليه المقصود هو بيان ما عليه الحال لكن هذا لما كان له مساس بامور سابقة لزم بيان مقدار الحاجة لتتميم الاسباب ومسبباتها ولذلك نذكر جملة الدول التى تولت هذا القطر من حين الفتح فى جدول مع ذكر صفة الدولة اجمالا وتاريخ مدتها بداية ونهاية وأسماء أصحاب الملك الى أحمد باشا من أمراء الدولة العلية العثمانية ومنه نأخذ فى ذكر بعض التفاصيل التى ينبنى عليها المقصود حتى يكون المقصود مستوفى البيان ان شاء الله تعالى

تاريخ

تاريخ الولاية	الاسماء	الملاحظات
٠٠٢٩	عبد الله بن أبى سرح	عامل للخليفة ثم من بعده عمال لوالى مصر التابع للخليفة
٠١٥١	عمر المهلبى أول دولة المهلبيين	تابع للخليفة المنصور العباسى وهكذا من بعده تابعون للعباسيين مع الاطلاق فى التصرف بجميع وجوهه حتى الحرب والصلح
٠١٨١	ابراهيم بن الاغلب هو أول دولة الاغالبة	مثل السابق وتوارثها بنوه
٠٢٩٧	دولة العبيديين وأولهم عبد الله المهدى	فى نفس الامر مستقلة وفى بعض الاطوار تظهر الخضوع للعباسيين وطورا للفاطميين بمصر
٠٣٦٥	دولة صنهاجة وأولهم المنصور بن يوسف	مثل السابقة
٠٦٠٣	دولة الحفصيين وأولهم الشيخ عبد الواحد	مستقلين واستولوا على المغرب ودانت لهم مصر والحرمين الشريفين برهة من الزمن
٠٩٨١	الدايات والبايات المراديون والباشوات منهم	اتباع للدولة العلية العثمانية فتارة يكون صاحب التصرف يلقب بالداى وتارة يلقب بالباى وتارة بالباشا
١١١٧	الحسينيون أولهم حسين باشا ابن على تركى	اتباع للدولة العلية بامتياز فى التصرف
١١٥٣	ابن أخيه على باشا	مثله
١١٦٩	محمد بن حسين باشا ابن على	مثله
١١٧٢	أخوه على باشا	مثله

تاريخ الولاية	الاسماء	الملاحظات
١١٩٦	ابنه حموده باشا	مثله
١٢٢٩	أخوه عثمان باشا	مثله
١٢٣٠	محمود بن محمد باشا	مثله
١٢٣٩	ابنه حسين باشا	مثله
١٢٥١	أخوه مصطفى باشا	مثله
١٢٥٣	ابنه أحمد باشا	مثله
١٢٧١	محمد بن حسين باشا	مثله
١٢٧٦	أخوه الصادق باشا	مثله

المطلب الثانى فى علاقة القطر بالدولة العثمانية

اعلم أن سبب استيلاء الدولة العثمانية هو أن الدولة الحفصية ضعف أمرها أخيرا الى أن استولى الطليان على طرابلس وجربة ثم افتكتها الدولة العثمانية سنة (٩٥٨) وامتد أمرها الى القيروان بطلب من أهلها اذ كانت الدولة العثمانية هى الرافعة لعلم الدول الاسلامية واستقلت الجزائر وكثرت حروبها الاهلية وكانت قاعدتهم تلمسان وخشى الاهالى من استيلاء الاسبنيول عليها وكان أحد كبراء رجال الدولة العلية المسمى خير الدين باشا وأخوه عروج غازيان فى البحر فاستصرخهم أهل بجاية للنجاة من ربقة الاسبنيول فاستولى خير الدين عليها وانقادت له سائر أهالى الجزائر وخطب للسلطان سليم العثمانى وذلك فى حدود عشرة الثمانين والتسعمائة ثم أنقذ تونس أيضا من جور الحفصى والاسبنيول ثم استعان آخر الحفصيين حسن الحفصى بالاسبنيول وعاد الى تونس فأنقذها منهم سنان باشا سنة (٩٨١) ورتب بها جندا من عسكر الينكشارية قدره أربعة آلاف وعلى كل مائة رئيس ومرجع الجميع الى الوالى الملقب بالباشا وهو اذذاك حيدر باشا ثم وقع تنافر بين الرؤساء آل الى حرب واستقر قرارهم الى تسليم الامر الى واحد منهم يلقب بالداى وجعل على خلاص الجباية مولا يلقب بالباى وفى عهدته تأمين السبل وهناء القبائل ويسافر لاجل ذلك مرتين فى السنة أحداهما شتاء الى الجهة الجنوبية والثانية صيفا الى الجهة الشمالية ويسافر فى عسكر مؤلف من العساكر المشاة وهم اذذاك الينكشارية ومن قسم الفرسان الموظفين فى الحكومة ولهم جراية

ويسمون

ويسمون بالحوانب والصبايحية وعلى كل خمسمائة رئيس يسمى بالآغا وكل قسم يسمى بوجق وجميعهم سبعة أوجاق لكل وجق مركز من القطر كما يستصحب الباى فى سفره قسما من فرسان القبائل يسمون بالمزارقية ويسمى جميع الجيش المسافر فيه الباى محله وجرى العمل على ذلك غير أن رياسة التصرف العام تارة تكون بيد الداى وتارة تكون بيد الباى تغلبا منه واحيانا يحصل الباى على رتبة الباشا من الدولة العثمانية واستقر الامر على ذلك الى أن كثرت الحروب الاهلية ما بين البايات والدايات على حوز الرياسة العامة وملت الاهالى من ذلك فنادوا بطيب نفس واختيار منهم بحسين ابن على تركى جد العائلة الموجودة الآن اذ كان اذذاك آغة وجق باجة وسلموا له امر الولاية العامة بعد قتل كل من الباى والداى السابقين وأقرت ولايته الدولة العلية ولا زالت الولاية متوارثة فى عائلته كبيرا عن كبير الا ماندر من ولاية حموده قبل محمود بعهد من أبيه وكذلك أخوه عثمان وأمضت الدولة العلية ذلك له فى حياته ومنذ ذلك التاريخ استقرت الرياسة العامة للباى وصار هو الذى يولى الداى الى أن انقطع هذا اللقب وعوض برئيس الضابطية فى سنة (١٢٧٧) فى ولاية الصادق باشا غير أن استقرار الولاية هكذا على نحو ما مر لم يكن بتعهد من الدولة العلية رسميا بالكتابة وانما اقتضاه جريان العمل وذلك أن الدولة العلية كانت عادتها فى الولايات اطلاق التصرف للوالى بحيث يكون له التفويض المطلق لاتساع أطراف الممالك مع صعوبة المواصلة الا بعد مدة مديدة لا سيما فى مثل الاماكن التى طريقها البحر من مقر الخلافة كتونس وطرابلس والجزائر ومصر وغيرها وتسمى عندهم بالاوجاق ومن كمال الاطلاق الذى اضطر اليه البعد اختيار الوالى لانه اذا مات الوالى أو وقع ما يوجب عزله بتغلب غيره أو بثورة عامة يسلم أهل الحل والعقد فى تلك الجهة لواحد منهم لاجراء ما لا بد منه وما يصل الخبر للدولة الا بعد مدة وحيث لم يكن من قصدها الاهناء الممالك الاسلامية واجراء الشرع فيها والادلاء بالخضوع للخلافة والانقياد اليها واداء الواجب لها من مال أو غيره لم يكن من فائدتها مخالفة ما يراه أهل الحل والعقد فى الصقع الواقع به الواقعة لان ذلك لا يحصل لها فائدة بل ربما توقع حصول غير فائدتها المار ذكرها (ورب البيت أعلم بما فيه) ولذلك تولى هى من ارتضوه لحفظ أمورهم وحفظ حقوقها والمتقرر فى هذا القطر التونسى من الحقوق التى رسمتها الدولة العثمانية فيه عند فتحه هو أعانته بالسفن الحربية وما يلزمها فى الحروب وهدايا ترسل من الوالى الى دار الخلافة عند ولايته أو عند ولاية سلطان

أو عندما توجد مناسبة للاهداء والاغلب فى الهدايا سابقا أن تكون من نتائج البلاد كالخيل والحيوانات الغريبة من الصحراء والمنسوجات الحريرية والصوفية ومنها راية عظيمة متقنة تصنع عند ولاية السلطان فقط ويكتب فيها آيات قرآنية وأبيات من البردة وتزركش بالفضة ومنها أيضا السروج المحلات وسبح المرجان والعنبر والطيب والاسلحة المرصعة بالمرجان ومنها التمر والزيتون والسمن والشمع ثم توسع فى هاته الهدية حتى صارت من المال والجوهرات النفيسة وقد بلغت فى بعض الاحيان الى مليونين فرنكا وما يساويهما من الجوهرات وكذلك رتب على القطر من الاشياء التى هى علامة على التبعية الخطبة باسم السلطان والراية من نوع راية الدولة ورسم اسم السلطان على السكة وأصحاب الهدايا هم الذات السلطانية والصدر الاعظم مع خواص الوكلاء كقبطان باشا والسرعسكر وأمثالهم وأما غير ذلك فلم تكن حالة القطر تقتضيه ولذلك لما رأى وزير الدولة سنان باشا الفاتح حالة القطر أمر رؤساءه بأن الجباية يقيمون بها ضروريّاتهم وما يلزم لحماية القطر من الاستعدادات الحربية وما يلزم اليه من المصالح العامة ولم يرسم بشئ آخر ثم قدم قبطان باشا فى حدود سنة (١٠١٣) لتفقد حال القطر وما تقتضيه حاله بعد استقرار الامر فارسى باسطوله فى حلق الوادى وخرج له اذ ذاك عثمان داى فى جماعة من كبراء الجند وتفاوضوا معه على مصالح بلادهم وبعد أن تحقق عنده انقيادهم لطاعة الدولة وعدم الاقتدار على الاداء أقلع من هنالك راجعا وبقى الامر على ذلك الى أن بدى للدولة العلية ابدال عادات الدولة فى شأن ولات الاقطار من اطلاق التصرف اليهم لما تفاقم حال ظلمهم وعدم انقيادهم أحيانا لاوامرها ومنهم حسين باشا والى الجزائر الذى تسبب بأعماله فى دخول الجزائر تحت الفرانسيس بحربهم وكان ذلك الانقلاب فى دولة السلطان محمود وصدر من ولاية أحمد باشا فخشى الباشا المذكور من وصول النوبة اليه فى التغيير وزاد خوفه بسبب ما كان حصل من سلفه من تعريضه بالامتناع من نزول قبطان باشا فى حلق الوادى عند قدومه لارادة التوجه برا للجزائر لعزل واليها الذى عقد الحرب مع الفرانسيس وبزواله يزول الارتباك فاعتذر له بأن الكرنتينة اى التحفظ من المرض العام لا تبيح نزوله واكرم مقدمه وهاداه فى ذاته وكان السبب الحامل له على الامتناع هو أن دولة الفرانسيس لما أعلنت بحرب الجزائر بعد التشكى للدولة العلية كاتبت حسين باشا والى تونس بالانذار بأنه اذا أعان بشئ يلحق الحصار والحرب به مع اجماع الخلق على ظلم والى الجزائر فخشي والى تونس أن يعد مرور

قبطان

قبطان باشا أعانة للجزائر لانه لا يمكن مروره بدون حامية فاذا دخل للجزائر بحامية من عسكر تونس يعدها الفرنسيس أعانة وأيضا اذا تسامعت العربان بمرور باشا ترکی فى وسط الولاية هاجوا المسافى طباعهم من التشكى من المتولى كيفما كانت سيرته ظنا أن الجديد يساعدهم على مرادهم كيفما طلبوا وقد كان ذلك من الغفلة التى سبق بها القدر لانفاذ الامر فى الجزائر فخشى أحمد باشا ما سبق وأنضاف الى ذلك فتح الباب من الدولة العلية فى مقدمات ما كان يخشاه وهو طلبها من تونس الاداء السنوى والحاحها فيه المرة بعد المرة الى أن توجه اليها عالم القطر الافريقى سيدى ابراهيم الرياحى وواجه السلطان محمود وقبل اعتذاره وسكت عن طلب الخراج وأيضا طلب من الباشا القدوم بنفسه لدار الخلافة ولم يكن معتادا منذ الفتح الخاقانى الى الآن وطلب منه أيضا أن تكون خلطة تونس مع الدول باذن خاص وولاية المناصب بأمر السلطان والاختيار لاصحابها من الوالى ويرفع فى كل عام حساب دخل الحكومة وخرجها وأيضا قد فعلت الدولة فى طرابلس ما فعلته فى سائر ولاياتها من التغيير وكذلك فى مصر لكنها بامتياز فقوى خوف الرجل وجعل يرود كل الابواب للاطمئنان على ابقاء عادته المألوفة له ولا ل بيته وللقطر من غير أنه يخطر بباله قط الاستقلال لا هو ولا من سلف من آله فضلا عن الدخول فى حماية دولة أجنبية وغاية الامر زيادة المواصلة منه مع دولة فرانسا والمدارات بما لا يخل بشئ من العادات مع طلب محافظة عاداته لو تريد الدولة العلية الحاقه بغيره وغاية ما حصل عليه من دولة فرانسا هو الوعد الشفاهى بحمايته وحماية امتيازاته الجارى بها العمل والعادة (ويشهد) لما مر سيما بعد ولاية العائلة الحسينية المستقرة الآن أن الدولة العلية فى سنة (١١٥٣) اعطت جزيرة طبرقة التى هى من القطر التونسى الى دولة الجنويز وأذنت بذلك والى تونس فسلم الجزيرة بالشروط التى عينتها الدولة وهى أن لا يكون لهم بها حصن ولا يتجاوزون فى بناء بلد هنالك حدا محدودا ثم خالفوا الشروط ولذلك افتك الجزيرة منهم على باشا والى تونس اذ ذاك فى تلك السنة وفى سنة (١١٨٤) حصلت وحشة بين فرانسا وبين على باشا الثانى والى تونس من جهة الخلاف فى الاسرى الذين أخذتهم تونس من قرسكا قبل استيلاء الفرانسيس عليها وكذلك صيد المرجان الذى أبيح للفرانساويين لسنتين بعدد معلوم من القوارب وأداء معلوم وتفاقم الخلاف الى أن جاء الاسطول الفرنساوى الى شطوط تونس ورمى بعض الحصون وكان اذ ذاك رسول الدولة فى تونس قادما لطلب اعانة السفن الحربية على العادة

فى حرب الدولة اذذاك مع الروسيا فتداخل رسول الدولة فى النازلة وأبرم الصلح على أن
تدخل كرسكا فى عهدة فرنسا وأن ترد الاسارى الذين أخذوا بعد استيلاء الفرنسيس
عليها وأن يمكنوا من صيد المرجان خمس سنين مستقبلة باثنى عشر ز ورقا لا غير وأن يمكنوا
من شراء ثلاثة آلاف قفيز قمحا ويخرجونها من غير أداء سراح عليها وأن يدفعوا ما جرت
به العادة عند عقد الصلح من الهدية ورجعت بعد ذلك العلاقة الحسنة المعتادة بين تونس
وفرانسا على يد رسول الدولة العلية وكذلك أرسلت خمس سفن حربية بجميع لوازمها
لاعانة الدولة فى حرب الروسيا المذكورة سنة (١١٨٥) وفى سنة (١٢١٣) أمرت
الدولة العلية حموده باشا بحرب الفرانسيس معها عند استيلائه على مصر فامتثل الامر
وقطع الخلطة مع القنسل وأرسل سفنه الحربية لاعانة الدولة غير أنه تحفظ للغاية على
أموال التجار الفرنساويين فى بلده ولم يتعرض لسفنهم التجارية حتى قال تجار الفرانسيس
اذذاك نحن بلا قنسل أحسن حالا من وجود القنسل وأعلم الباشا الدولة بسبب تلك
المعاملة وهو كثرة الخلطة التجارية المتقادمة الموجبة لاشتراك مال التونسيين مع مال
الفرانسيس فلو تعرض لاموالهم لكان تعرضا للمال التونسيين أيضا وانتقمت عليه من
بعض الجهلاء من الداخل والخارج وعند وقوع الصلح عرفها له نابليون الاول وصارت
بينهما مهادات واعتراف بالكمال وفى سنة (١٢٣٦) أرسلت الدولة العلية رسولا أمرا
بحفظ الوحدة وترك الحرب بين تونس والجزائر وعمل بامره وفى سنة (١٢٣٧) أرسل محمود
باشا سبع سفن حربية ثم أردفها باثنين لاعانة الدولة على حرب اليونان وفى سنة (١٢٤٣)
أرسل حسين باشا اسطولا حربيا لاعانة الدولة فى حرب اليونان واحترق مع جملة سفن
الدولة ومصر والجزائر بعمل اساطيل الدول كما يأتى تفصيله فى بابه وفى سنة (١٢٥١)
أرسل مصطفى باشا والى تونس هدية لقبطان باشا عند قدومه على طرابلس انتزعها من
ايدى آل قرمانى ثم طلب قبطان باشا الاعانة الحربية من تونس فأرسل والى تونس فى
تلك السنة ثلاث سفن حربية وأتبعها بتسع سفن تجارية حملت ثلاثمائة من الخيل وفى
سنة (١٢٥٥) طلب أحمد باشا والى تونس تقليده رتبة مشير مع هدية فاخرة فأنعمت
الدولة عليه بذلك ثم زادته نيشانا آخر يرسم فى غطاء الرأس والآن زال من رسم الدولة
ولم يزل معمولا به فى ولات تونس وفى سنة (١٢٥٦) أمرت الدولة العلية والى تونس بالعمل
بالتنظيمات الخيرية وقرئ أمرها فى موكب مشهور وأجاب عنه أحمد باشا الوالى بالامتثال
غير أنه طلب وقتا للعمل مع مراعات ما يلزم من التغيير بسبب عادات البلاد ثم ألح عليه فى
اتمامها

اتمامها سنة (١٢٥٨) فارسل هدية فاخرة منها سفينة حربية ومائتين وخمسين ألف
فرنك وطلب الامهال فى العمل بالتنظيمات وفى سنة (١٢٥٧) لما رتب الوالى المذكور
أمر تنظيم المولد النبوى قال له معين حكومته أبو العباس أحمد بن أبى الضياف المناسب
أن تخرج من باردو را كبا وعندنا من العساكر ما يكفى الى الوقوف بين باردو وجامع
الزيتونة فقال له يفعل ذلك السلطان العثمانى وليس لنا أن نفعل مثله فالمناسب الادب
معه رأيت ذلك بخط الوزير المذكور وفى سنة (١٢٥٩) حصلت نفرة بين دولة
الصاردو ووالى تونس أحمد باشا كادت أن تفضى الى حرب بسبب منع الوالى اخراج الميرة
الى سردانيا لقحط حصل بالقطر وكانت الشروط مخالفة فأرسلت الدولة العلية رسولا
خاصا لبحث عن السبب وأمر الوالى بفصل النازلة بصلح فأخذ تقريرا فى النازلة وفصلت
بصلح بقاءها كان على ما كان ودفع ما خسره تجار الصاردو فى شراء الميرة وفى سنة (١٢٦٣)
أرسلت الدولة رسولا مخصوصا للوالى المذكور لتأمينه من جميع ما توهم مع اسقاط
مطلب المال السنوى وتأييد الوالى فى الولاية مدة حياته فأجاب بالفرح والقبول
لكنه طلب ابقاء جميع الامتيازات ومنها انتقال الولاية لآله عند موته وفى سنة (١٢٦٥)
أرسل عباس باشا والى مصر مكتوبا ودادياً على وجه الاخوة ينصح فيه الوالى المذكور
بترك الاوهام الحاملة له وانه هو قد ذهب للاستانه ونال رتبة الصدارة مع أن أباه وأخاه
قد فعلا ما لم يحم حوله ولات تونس وانه لو يساعفه على اللقاء فى بلد معين ويصطحبا معا
للاستانة يكون له الحظ الاوفر فاجابه بانه عبد للدولة ولم يختلج بفكره شئ مما يتهم به
وقصارى أمره التمسك بالامتيازات السابق بها العمل والجارية من القديم فى القطر
التونسى ثم أرسل عباس باشا رسولا من العلماء وآخر من التجار للتفاهم مع الوالى فى
مقصود الدولة فقرر لهم غاية آماله من ازدياد اللحمة الاسلامية والخضوع للدولة العلية
على ما جرى من الامتياز للولاية ومنه عدم وجوب قدوم الوالى الى الاستانه وفى سنة
١٢٦٣ وقع خلاف بين والى تونس أحمد باشا ودولة فرانسا فى شأن قبيلة تهدمن جباليه
باجه حيث أن القبيلة منقسمة الى فخذين فخذ تابع لتونس وفخذ تابع للجزائر فاستولى
الفرانسيس على الجميع فسجل الوالى أحمد باشا وكتب الى القنصل فاجابه القنصل
بمضمون مكتوب دولته وهو أن فرانسا تعطى الى تونس أرضا أخرى عوضا عن هذه بعد
تحرير الحدود فاجابه الوالى بما نص محل الحاجة منه وأما تجديد التحديد أو ابدال بعض
العمالة بجزء من غيرها فمعلوم انا نتوقف فيه على المشورة من جهة الدولة العثمانية وان كان

لنا التصرف العام فى الايالة بما يقتضيه اجتهادنا من المصلحة أما التنقيص منها أو ابدال بعضها فلا يحسن منا بغير اعلام لمولانا السلطان وتقرير ما ينشأ لنا من المضرات بسبب ذلك لجنابه العلى اه وفى سنة ١٢٧٠ أرسل أحمد باشا أربعة عشر ألف عسكري بجميع لوازمهم الضرورية والحربية وفرقاطة شراعية وستة سفن منها باخرتان لاعانة الدولة العلية فى حرب القريم وفى سنة ١٢٧١ أردف ابن عمه محمد باشا عند ولايته ذلك العسكر بأربعة آلاف وخيل ومهمات وفى سنة ١٢٨١ أرسلت الدولة العلية رسولا مخصوصا اسمه حيدر أفندى لمراقبة حال الثورة العامة فى القطر التى سيرد بيانها وأرسلت الى الحكومة مليونا فرنكا لاعانتها على ما حصلت فيه من الضيق وفى سنة ١٢٨٨ أبرم الفرمان الآتى ذكره الذى استقر عليه القرار وفى سنة ١٢٩٣ أرسلت الايالة نحو مليون ونصف فرنكا لاعانة الدولة على حرب الصرب وفى سنة ١٢٩٤ أحضرت الايالة نحو ذلك المقدار لكنه لم يصل منه الى خزانة الدولة العلية الأقل من الربع والباقى صرف منه على تهيئة العساكر التى قدرها نحو أربعة آلاف فى كسوتهم وتعينوا للارسال وحصل الصلح قبل سفرهم وهم فى انتظار سفن الدولة العلية لحملهم اذ لم يكن للحكومة قدرة على ما تحملهم عليه وسبحان محول الاحوال كما أرسلت الولاية فى تلك السنة للاعانة المذكورة نحو ستمائة بغل وأربعمائة حصان ومازاد على ذلك مما سلمته الاهالى بقى عند الحكومة التونسية وما تقدم كله زيادة على الرسل التى تتوارد فى أغلب الاحيان بين التابع والمتبوع الذى هو كثير وها نحن نثبت هنا نص بعض المكاتيب التى أرسلت من ولاة هذا القطر فى النصف الاخير من هذا القرن حتى يتيقن معها زوال كل شبهة ولم نذكر ما كان قبل هذه المكاتيب لان المكاتيب كانت ترسل باللسان التركى ولما تقادم عهد الولاة بتونس نشأ جيلهم الاخير على جهل باللغة التركية وكان أحمد باشا صاحب المكتوب الاول ذا احتراز ونقد فكر فلم يردان يمضى كلاما لا يفهم اسرار تراكيبه فكتب باللغة العربية وقبلته الدولة اذ كثير من عمالها عربى ولا يسعها انكار لغة شريعتها التى هى الحامية والذابة عنها وكان ارسال هذا المكتوب مع عالم القطر سيدى (ابراهيم الرياحى) فى الغرض الذى تقدمت الاشارة اليه وهو طلب العفو عن الاداء السنوى ونص المكتوب (اللهم) بالثناء عليك نتقرب اليك يا فاتح أبواب القبول والاقبال ومانح المنح التى لا تمترش وار دها على البال تنزهت فى العظمة والجلال ولا تول عبادك الاهمال بمحض الرحمة والافضال فاقت عليهم خليفة

تعرض عليه الاحوال ويرفع عنهم باعانتك الاختلال ويسوسهم للصلاح فى الحال والمثال صل على سيدنا (محمد) خاتم الارسال والملجأ المنيع عند اشتداد الازمة والاهوال وعلى آله وأصحابه الذين ورثوه فى الاقوال والاعمال وسرت مكارمهم مسرى الامثال ونستوهب منك عز الايمان حده ونصرا يمضى فى الاعداء حده لهذه الدولة العلية والسلطنة العثمانية والمملكة الخاقانية التى رفعت من الملة الحنفية أركانا وشيدت من معالمها بنيانا وأقامت للحق قسطاسا وميزانا وروت أحاديث العناية الربانية صحاحا حسانا وورث ملوكها الارض وهم الصالحون سلطانا فسلطانا حتى استنار الوجود بخليفة الوقت الموجود وهو مولانا السلطان محمود اللهم أعنا على ما أوجبت له من فروض الطاعة وتأييد الحق بجهد الاستطاعة واحفظنا برفقه وعدله من الاضاعة واجعل الملك فيه وفى عقبه الى قيام الساعة وعطف قلبه الى سماع هذه الضراعة من ايالته ومن بها من الجماعة على لسان أحمد المقيم على طاعته فيها والمجتنى من ثمرتها ما يلزمها ويكفيها وطاعة خلافتك فرض على أهل الارض وهى عند الله أغنى قرض فاذا لم يعرض الحال عليك فعلى من العرض تونس موضع شعائر الاسلام غريبة يبعدها عن استمطار أياديك الجسام ومساحة معمورها السير نحو الستة أيام شأن أهلها التمعش من الزيت والبر والصوف والوبر يعانون فى تحصيلها من ألم الحر والقر هذا غالب ما يسد لهم الخلة ويوجد غيرها لكن على قلة ومقدار زكاة ذلك لا محالة بحسب اتساع العمالة فما يفضل من خصبها فهو للقحط عدة وبذلك دام عمرانها لهذه المدة لا فضل من ذلك اترف ولو فى سبيل شرف هذا معظم دخل القطر ان جادت السحب بالقطر ويلزمه ضرورة لحفظ عمرانه وحماية أوطانه وتأمين سكانه واصلاح مراسيه وبلدانه حماة وأجناد فى كل جهة وبلاد لتأمين الجبال والوهاد وردع أهل الفساد ويلزم العساكر الكسوة والطعام والمرتب على الدوام ولا بد لهذا العدد من آلات وعدد وقوام هذا بالمال وهو السبب فى عرض الحال بان الدخل على قدر الانفاق وذلك بشهادة الله غاية ما يطاق واذا كلفنا الرعية المشاق ونزعنا الرفق والاشفاق كان ذلك ذريعة للنفاق وسلما للشقاق وربما هرعوا للدولة شيوخا وولدانا وكهولا وشبانا يسوقهم العجز ويقودهم الامل الى من فى طاعته انتمات منا والعمل فالسلطان ظل الله فى أرضه يأوى اليه كل مظلوم وهذا من الواضح المعلوم وعندكم حسبه تأمين البلاد وحفظها

من طوارق الفساد بمن معه من الحماة والاجناد سهرنا الانامة أجفانها وتعبنا الراحة شيوخها وولدانها واقتحمنا المخاوف لامانها وما تنتجه غلاتها تسديه خلاتها وعلى هذه السيرة ولاتها لا يقتنون لانفسهم مالا ولو بسطوا لذلك آمالا الا ما يقتضيه الحال من العادات المألوفة والمراسم المعروفة يصدهم عن ذلك عدم اليسار لا زهد الابرار والله المطلع على الاسرار وجماع باطننا من الكلام في حال هؤلاء الاسلام يظهر للقائم بمصالح الانام أن لا قوة لهذه الايالة على آداء المال في كل عام هذه ضراعة رعيتك المتمسكين بطاعتك المستجيرين بحمايتك المرتجين لعنايتك واعانتك تحت بتبليغها بين يدى سلطنتك الخاقانية وهمتك العثمانية وتبليغها من الواجب في حقي وهو ثمرة طاعتي وصدقي والمأمول من تلك الهمة النظر لهذا القطر بعين الرحمة وهذا المال في خزائن الدولة لا يزيد وثقله على هذا القطر شديد فارحم أيها المولى ضراعتنا ولا تفرق بالانطيق جماعتنا فالامر جال وما قررناه بعض من الاسباب والعلل وقد فكرنا وأعيتنا الحيل فلم نجد اجابة المطالب الا بتنقيص عمل يفضى الى نقص وخلل أو تثقيل يقطع من الرعية الامل ويضعف بسبب ذلك هذا العمران وتشتد الحاجة للاستمداد من كرم مولانا السلطان والله يجيرنا من حوادث الازمان هذه وسيلة من بعدت داره ولم يكن بيده اختياره على لسان مملكة تونس مع قدوتها المونس صالح مصرها وامام عصرها شيخ الجماعة ومفتيها الذى دانت له البلاد بدينها ونالت به الملة أقصى أمانيها السارى ذكر تاليفه فى النواحى السيد ابراهيم الرياحى وجهته حالتنا وانتظرت ومن سحائب رحمتك استمطرت اللهم أنت أعلم بنا منا فلا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا وارزقنا الرحمة من سلطاننا والهمة لاعانة أوطاننا انك على كل شئ قدير وكتب فى أواخر أشرف الربيعين سنة (١٢٥٤) وفيها ما كتبه أحمد باشا المذكور فى تبرئة نفسه مما رمى به من ارادة المخالفة ونصه الجناب المقصود لبلوغ الآمال ونجاح الاعمال جناب ركن الدولة وشمس ضحاها وقطب رحاها صدر صدور الكبرا ومركز دائرة الوزرا المشير الافخم والصدر المعظم السيد مصطفى رشيد باشا لا زال محط الرحال وقبلة الوجوه بالغا من الله ما يؤمله ويرجوه (اما بعد) تقديم ما يجب للسلطنة من فروض الطاعه بحسب الاستطاعه فان هذا العبد الذى مات فى خدمة الدوله سلفه وعاش فى فضلها خلفه روابطه مع الدولة العليه ثابته الاساس معلومة فى الناس واضحة وضوح الصبح غنية عن الشرح كما أن ما جبل عليه سلطان زماننا

زماننا من كرم الطباع وطول الباع أمر انعقد عليه الاجماع وما على الصبح غطاء وما على الشمس قناع والامان الذى مهده لاهل الايمان واضح للعيان لا يختلف فيه اثنان ولا يخطر بالبال ما ينافيه لانه من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وطالما تمنى هذا العبد الوفود الى الحضرة العليه ومشاهدة الانوار المجيديه لو ساعده الزمن وتجرى الرياح بما لا تشتهى السفن وما صده والله عدم الامان لانه من المستحيلات العقليه مع انه لم يصدر منه خلل فى عمل ولا نية فاعلل النفس بأن التوجه انما هو تعرض لعناية الدولة والمقام انما هو لحفظ ما لها فى هذا القطر من الصولة وتؤثر واجب الخدمة على التعرض لمزيد النعمة والنصح فى خدمة السادات مقدم على نفع خاصة الذات فاقتصرت بالضرورة على السنن المألوف والمسلك المعروف من تقربى الى الباب العالى بتقديم الهدية طبق الاصول الاعتياديه فى هذا الوقت الذى أشرقت عليه الانوار العثمانية وحمته الشوكة الخاقانية وان كانت الدولة على أضعافها غنية فراعنى الامافى مكتوب الوزارة من انه صدرت المساعدة من حضرة صاحب الخلافة بالتفضل بتوقيفها وان هدايا الوكلاء العظام صار فى حيز القبول بمقتضى الرخصة السلطانية ففهم العبد من التوقيف عدم القبول ومن عدم القبول نقصان الرضاء وفى المكتوب المذكور رما يشير الى ذلك مع ما بلغه الرسول من تفسير الاشارة بصريح العبارة كما ذلك محرر فى صحيفة فحزن لذلك الفؤاد وماج فى تيار الانكار اذ لم يصدر منا ما يقتضى ذلك وما سلكنا فى غير مسالك أما كون سلامة تونس وسعادتها متوقفة على تأييد الروابط القديمة مع الدولة العلية فهو من المعلوم ضرورة وجاحده منكر للبديهيات وأما التبعد والتوحش الموجب لانواع المحاذير فمحله اذا صدر منا خلاف ما انطوى عليه الضمير أو فعل لا يقتضى نوعا من التغير (أما) والحالة هذه فان العبد لم يجد حقا معتادا ولا أضمر بشهادة الله عنادا ولا وطا لاسباب الشبهات مهادا ولم يصدر منه الا المعلوم بسالف الازمان وأقره السادة القادة من آل عثمان والاصل بقاء ما كان على ما كان فلا مخاطرة والحالة هذه بالنفس ولا بالوطن أما النفس بوجود الامان من ظل الله فى أرضه والقائم بواجب الاسلام وفرضه وعدالته العمريه ونيته الخيرة وشفقته على البريه بأكثر من هذه الآمال حرية وأما الوطن فانه فى حماية دولته محوط بصولته يدافع عنه بقوته ويكافح من ناواه بشوكته ولا منافات بين الذب على القطر الاسلامى وحمايته وبين التفضل

باستمرار عادته واستغفر الله ان يخطر بالباب والحال الحال مالا أقدر أن أفوه به من توهم الاستقلال أعوذ بك (اللهم) من هذا المقال كيف ومنابر القطر فى كل جمعة تنادى بطاعته مع الشكر على تقرير عادته ولا رواج للدرهم والدينار الا باسمه العالى فى سائر الاقطار وأشرف ألقاب هذا العبد هو ما جعلته له السلطنة العليه وأهلته لنيله من المراتب السنيه بمحض فضلها وكمال عدلها وعدم امكان الحضور لهذا العبد الشكور اذا كان سببه صلاح الامور والمثابرة على دوام حفظ الجمهور لا يتوقع منه المحذور واختلاف البشر فى مدارك العقول معقول ومنقول وصدق الخدمة يقتضى التصديق فى المقول هذا وطلب الوزارة شد الله ازرها وقرن باليمن نهيها وأمرها من العبد الفقير ان يودع لامانتها ما فى الضمير يوجب ان نشرح نيتى وما انطوت عليه طويتى فأقول والله شهيد على سرى وعلانيتى هذا العبد الذى نشأ فى طاعة الدولة العليه ورفل فى حال مرضاتها الجلية وتغذى بلبانها وعاش باحسانها واستظل بأمانها وتشرف بخدمة سلطانها من بيت هو وعاشر آله فى الخدمة ومظهر ما للدولة من النعمة أعظم أمانيه دوام رضى مولانا السلطان وظل أهل الايمان وان تبقى خدمته على سنن أبيه وجده ونيل هذا هو سعادة جده وان هذه الايالة الطائعة على هذه الحالة لا يراع لها سرب ولا يتكدر لها شرب بحماية القوة السلطانيه والشوكة الخاقانية وبهذا الحال حفظ طاعتها وصلاح جماعتها وهو السبب فى اجتماع الكلمه لهذه الامة المسلمه والله يقول (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) واختلاف عوائد الآفاق لا ينافى الطاعة والاتفاق ولا يكون ذريعة للافتراق وتمسك البلدان بعاداتها مخلوق مع ذواتها والمأمول من الحضرة العليه أدام الله نصرها اذا رأت هذا العبد فى مقعد صدق وحققت ان نطق بحق ان يرق لهذه الفئة القليلة ويرحم ضراعتهم ويجمع بابقاء عاداته الجميلة جماعتهم حاشا فضله وانصافه ان ينزع حلة تفضل بها أسلافه بل المأمول من كرمه الزيادة وهو المحيى لمآثر أسلافه السادة هذا ما فى الجنان نطق به اللسان بلا شبه ولا تمويه ولا خواطر تنافيه فاذا ساعد القدر بالقبول فهو المظنون المأمول وان كانت الاخرى فالله مع الصابرين وهو سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم والله يعلم اننا ما غيرنا ولا أضمرنا غير الذى أظهرنا ويوم تبلى السرائر نسأل عما صيرنا وهذا المكتوب يشرف بلوغه الى الباب العالى المستوجب لكل المعالى

الثقة

الثقة الفاضل المؤتمن نخبة أقرانه لنباهة شأنه ابننا محمد أمير لواء عسكر البحر ومعه الكاتب الثقة الخير العفيف الفقيه ابننا على الدرناوى وجناب الوزارة يثق بأن ما يلقى الى الحاملين من المقال يصل للعبد الفقير على أحسن حال والمرجو أن يعودوا الينا بخبر يبسط النفس ويعيد لها الانس والله يديم للدولة العلية المجيدية عزا لا يطاول حده ونصرا يقضى فيمن عاندها احده والسلام وكتب فى ٢٠ ذى القعدة سنة (١٢٦٥) (ومنها) مكتوب من أحمد باشا المذكور واصحبه مع العساكر المرسلة فى حرب القريم مخاطبا به الصدر الاعظم (ونصه) أما بعد تقديم التحية المناسبة لتلك الوزارة العلية والفخامة الراسخة الجلية فهذا أمير الامراء وأحد أعيان الكبراء الثقة العمدة فارس هذا الميدان ابننا رشيد وجهه معظم قدركم بهذه الفئة القليلة السابق تقريرها الجليل وزارتكم ووجهنا معه ابننا محمد أمير اللوا والله يرى ما للعبد الفقير من الاستحياء عند عرضها على الباب العالى ويسهل الامر ان ذلك على قدر العبد الفقير لا على قدر الدولة ذات العظمة والصولة والاعتماد على الوزارة العظمى فى الانهاء والتقرير وبهمم الرجال تنال الآمال وتحسن الاعمال والمأمول من وزارتكم المحمودة الصفات ان تهب لبائع نفسه لله حسن الالتفات فاليد فى طاعة الله وخدمة الخلافة واحدة والقلوب على ذلك متعاضدة والانفاس متواردة والمأمول ان يرى أمير هذا الجيش من عنايتكم فوق الامل والله يسدده الى مرضى العمل وينصر مولانا السلطان ويعلى بسطوته أركان الايمان ويديم وزارتكم ركنا منيعا وكهفا رفيعا والسلام وكتب فى شوال سنة (١٢٧٠) (ومنها) مكتوب من محمد باشا عند ولايته على القطر يطلب التولية والتقرير ويعلم بارسال نجدة عسكرية لحرب القريم وهدية مالية مصاحبة للمكتوب (ونصه) اللهم بالثناء عليك نتقرب اليك وبالصلاة على رسولك وخلفائه المتناسقين نسألك سبل المتقين وبشكر نعمك نقرع باب كرمك وهو باب الدولة العليه العثمانيه والسلطنة المجيدية الخاقانية المخدومة بالاعمال والنية المقصودة لبلوغ الامنية الوارد فضلها على الاقطار من كل ثنية والشمس عن مدح المادح غنية وكفاها أن رفعت من الملة الحنفية اركانا وأقامت للحق قسطاسا وميزانا وروت أحاديث العناية صحاحا حسانا وورثه ملوكها الارض وهم الصالحون سلطانا يتبع سلطانا من سمى ذى النورين الى من اختاره المجيد سبحانه لعباده وأقام به شرائع دينه وفروض

جهاده وتولاه باعانته واسعاده ويسر على يده مصالح أرضه وبلاده لازالت القلوب بطاعته مؤتلفة والسيوف والاقلام بخدمته متصفة والالسن فى الاقرار بعجزها عما يجب له منصفة وبعد فاذا أحى تلك الحضرة العلية الشامخة والقدم التى فى كل فضل راسخة ضاق نطاق العباره ولم يبق الا مسلك الاشارة فالرجوع الى السنة وتحية أهل الجنة السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله من عبد نعمته العاكف منذ نشا على خدمته محمد بن خديم الدولة حسين باشا باى (أما بعد) فالمعروض على تلك الحضرة وهالها طول العمر ونفوذ الامر ان رهين نعمتكم وعبد طاعتكم وعاشر هذا البيت فى خدمتكم ابن عم عبدكم ومقام أخيه المشير احمد باشا باى سار الى عفو الله فداء الحضرة السلطانية متزودا بعبامات عليه من طاعة الخلافة وخدمتها بالعمل والنية وفى الحين بادر أهل الايالة التونسية عموما وخصوصا وكانوا بنيانا مرصوصا الى هذا العبد الفقير وألقوا اليه مقاليد أمورهم والنظر فى حفظ فردهم وجمهورهم فقام العبد بما وجب عليه من جمع الكلمة الاسلامية والدعاء على المنابر للسلطنة المجيدية راجيا من رضى الخلافة فى تأمين البلاد وزوال روعة العباد وسد طرق الفساد واعتصمنا بحبل الله جميعا ولبى العبد الفقير سلطنتكم سامعا مطيعا على عادة اسلافه الخدام مع السلف الصالح السلاطين الكرام ووسيلة هذا العبد انه نشأ فى ظل سلطنتكم وتغذى بلبان نعمتكم وتعرف من نعمكم الانواع والاجناس واستضاء من عنايتكم بنور يمشى به فى الناس والكرم يرى لسالف الخدمة تأكد حرمة وقد ترجى العناية من ذلك الباب اعتمادا على فضل ذلك الجناب ولا يمت بغيره من الاسباب وعادات السادات سادات العادات والامل ان تزيد خدمة عبدكم على خدمة من مضى حتى يرى من ظل الله الرضى والله يعاملنى فى نيتى فيما عرضت من أمنيتى قبل حلول منيتى وقد ابتدأ العبد خدمته بما كانت اليه فيه مع من تقدم واحده والقلوب والجوارح عليه متعاضدة وهو ارسال طائفة من العسكر اعانة لتلك الفئة القليلة التى تقدمت وبحسن القبول قوبلت والامل الذى عليه المعول ان يشملها الفضل الاول ومعها جهد المقل ومنتهى طاقة الضعيف وعلى قدر المهدى الهدية فى هذه الاعانة الجهادية وعلم السلطنة بالحال والكنه يقتضى الاغضاء عنه يقدم ذلك عبد السلطنة المكتفى بوثوقه وأمانته وسياسته ونجابته أحد خواص عبدكم ومحل ابنه محمد أمير الاوا وهو النائب عن العبد العاجز فى الباب الفضل الذى وسيلته الرجاء والامل وفضل الكرام لا يتوقف على ملاحظة عمل اللهم أعنا على

ما

ماأوجبت لهذه السلطنة من فروض الطاعة وتأدية الحق جهد الاستطاعة واقصر بنا يدها الطولى من الاضاعة واجلنا من مرضاتها على سنن السنة والجماعة (اللهم) انا اليه ناظرون وعن أمره صادرون ولانجاز وعدك فى نصر من ينصر دينك منتظرون فما فقد شيأ من وجدك ولا خاب من قصدك آمين يارب العالمين وسلام على المرسلين والخلفاء الراشدين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين وكتب فى شوال سنة ١٢٧١ (ومنها) مكتوب من محمد الصادق باشا عند ولايته فى طلب الولاية والتقرير مثل السابق (ونصه) الحضرة العلية الخاقانية السلطانية المخدومة بالعمل والنية والواثقة من عدلها وفضلها ببلوغ الامنية والشمس عن مدح المادح غنية خليفة (رسول الله) وظل الله فى الارض الحامى لشعائر الاسلام من سنة وفرض من اختاره المجيد سبحانه للخلافه وزين بمايرضيه أوصافه ومحى بعدله كل اخافه (اللهم) يا كريم يامجيد أدم له النصر والتأييد والخير المزيد والعمر الطويل المديد فى الزمن السعيد والعيش الحميد وأعن العباد على ماأوجبت له من فروض الطاعة واجعل السلطنة فيه وفى عقبه الى يوم الشفاعة (أما بعد) السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله فان العبد الشاكر على وراثة خدمته الناشئ فى نعمته السابح فى بحار منته يعرض للاعتاب العالية ومنبع الفواضل المتوالية انه تقدم منه اخبار للباب العالى بوفاة أخى وللحضرة العلية طول العمر ودوام الامر فصبر العبد على القضا ورجونا له حيث توفى فى خدمة الخلافة الرحمة والرضى وحفظ العبد العاجز رتبته على العادة المقررة من السلاطين السادة ووجه لباب الفضل عبد السلطنة العلية نخبة الاعيان وصفوة الاقران وزير البحر ابننا أمير الامراء خير الدين يطلب على لسان العبد الفقير الفضل المعتاد من لباب السلاطين الامجاد وعلى عادة هذه البلاد وقدم العبد على قدره ما يستحى لعظمة السلطنة من ذكره وان كان مقام السلطنة الكبير يتم [illegible] التقدير ويرى الفضل بالقبول أول مأمول فالعبد وجه رسله لباب الفضل وانتظر وفاز من وضع الامل موضعه بنيل الوطر والله أسأل أن يطيل بقاء أمير المؤمنين ويعز به الدين ويقوى بشوكته حبل الله المتين ويحى بعدله سنن الخلفاء الراشدين ويديم الخلافة فيه وفى عقبه الى يوم الدين آمين يارب العالمين والسلام على أمير المؤمنين من عبد نعمته المخلص فى خدمته المؤمل لنعمته الفقير الى ربه تعالى المشير محمد الصادق باشا باى وفقه الله كتب فى ١٨ ربيع الثانى سنة ١٢٧٦ وكاتب فيما ذكر الصدر الاعظم بما (نصه) الصدارة العظمى والركن الاعظم الاحمى

والرتبة الشامخة الشما صدارة ركن الدولة وعز الوزارة ومنتهى الامال ومصدر الاشارة ومن لا تفى بمحاسنه العبارة الوزير الشهير الصدر الاعظم السيد محمد باشا لا زال كما يختار سعيد الاراء محمود الاثار ومناقبه تخلدها أقلام الاقدار (أما بعد) تقديم التحية المناسبة للوزارة العلية المستمدة من أنوار الخلافة المجيدية فان العبد الفقير قدم للباب العالى خبر وفاة أخيه انا لله وانا اليه راجعون وان أهل الايالة قدموا العبد الفقير العاجز لجمع الكلمة من هذه الامة المسلمة فاجبتهم لحفظ مصلحة الوطن وقات ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن والآن وجهنا الباب السلطنة العلية ومنبع الفضائل الجلية عبد السلطنة نخبة الاعيان وصفوة الاقران وزير البحر أمير الامراء ابننا خير الدين وفى رفقته أمير اللواء ابننا حسين لطلب الفضل المعتاد من السادة القادة السلاطين الامجاد ووجهنا معه الهدية على قدر العبد الفقير لا على قدر السلطنة الكبير كما يرى جنابكم السامى تقييد ذلك وجنابكم يسير رسولنا فيما يراه من المسالك والمحقق المأمول ان وزارتكم العظمى تعامل رسل العبد العاجز بحسن القبول كما هو المعروف من آثاركم والشائع من أخباركم ويرجع الرسول بفضل السلطنة قرير العين مسرور الفؤاد ودمتم ودام لكم الاسعاد وبلوغ المراد على ممر الآماد والسلام من معظم قدركم العالى وشاكر فضلكم المقدم والتالى الفقير الى ربه تعالى المشير محمد الصادق باشاباى وفقه الله وكتب فى ١٨ ربيع الثانى سنة ١٢٧٦ والمكاتيب على هذا النمط كثيرة وكفى باعلان الولاة فى جميع مكاتيبهم الرسمية بلقب التشريف الذى منحتهم به الدولة العلية يقول كل منهم من المشير فلان باشاباى وهاته السياسة هى التى يدين بها أهل القطر التونسى كالاعتقادات الدينية مع التمسك بالامتيازات الحاصلة الآن وأهمها ابقاء آل حسين بن على على الولاية لالتحامهم بهم ومعرفتهم طبائع أهل القطر ومنازلهم وطبقاتهم وانما جلبنا ما تقدم بيانه وان كان الامر غنى عن البرهان لما شاع فى أذهان بعض من لا خبرة له بان أحمد باشا شق عصا الاسلام وتبعه من بعده وكادوا ان يلمزوا أهل تونس بالكفر لرضاهم باعماله مع انه لم يأت شيأ فريا وغاية أمره التحفظ على الامتيازات التى أوجدتها العادة ورام أن يحصلها رسميا جاء على غير الطريق المناسب ولم يحصل الاسقاط طلب الاداء السنوى وابقاء الولاية فى مدة عمره وان تاب الى الله مما سلكه من عدم الانقياد لما طلب منه الذى ترائى للجمهور انه شبه خلاف ورقع خرقه بزيادة ارسال العساكر على ما كان يعهد الذى هو

فى

فى أواخر عهده بهذه الدار وعزمه هو وابن عمه من بعده على التوجه الى دار الخلافة كما هو مشهور عند خاصتهم وقال ان تخوفنا من الدولة العثمانية أراه ان يجر بنا الى العدم ومعاذ الله ان أكون سببا فى خروج هذا الصقع الاسلامى من يد المسلمين وخروج روحى أهون على من ذلك هب ان الدولة انتزعت من يدى هذا الملك ألست بمسلم ورأيته بخط أمين أسرارهم كاتبهم الخاص الوزير أحمد بن أبى الضياف

❁ المطلب الثالث ❁

فى سياسة القطر الخارجية (اعلم) انه لم يكن من الدول جميعا معارض للسياسة المتقدمة حتى ان الدولة الانكليزية كانت مراقبة لحركات ولاة القطر معارضة لكل ما يخالف التبعية للدولة العلية مما يظهره بعض الدول والولاة وقد كانت تشدد فى ذلك بعد استيلاء الفرنسيس على الجزائر حتى انها لم ترد أن تقبل أحمد باشا فى سفره الى أروبا الا بواسطة سفير الدولة العلية وعدل هو عن زيارتها لمخالفة ذلك للعوائد معه حيث كانت تقبل رسله بلا واسطة غير انها بعد حرب القريم اغضت وقصرت من مسلكها ارخاء للعنان مع من يريد زيادة النفوذ من الدول كى يعوضها عنه له فى الجهات التى لها فيها منافع مع وجود الاستناد الرسمى للدولة العلية الذى كانت تحوم حوله فتستند لذلك عند الحاجة وأما دولة ايطاليا فانها كانت فى المدة السابقة متفرقة ولما اتحدت وصار لها اعتبار التعديل فى السنين الاخيرة فكانت موافقة لسائر الدول رسما وعلنا وفى السر ينزع بعض متوظفيها لما صارت تنزع اليه دولة فرنسا على غير الطريقة الرسمية وذلك لان باتحاد ايطاليا صارت مشاركة للدول العظام فى النفوذ فى البحر الابيض وتطلب المنافع التى تناسبها فى جوارها ثم ان وحدة ايطاليا وجعل تختها مدينة رومة أحيت رسم خريطة الاستيلاء على قرطاجنة تذكار الملك الرومانيين غير أنها لم تحم حول ذلك الحمى جهارا لما تقدم من حق الدولة العلية ولان دولة فرنسا ناشرة لواء السطوة وسياستها لا توافق على ذلك فصارت ايطاليا محافظة على ابقاء ما كان على ما كان وأما دولة فرنسا فانها لم تخالف تلك السياسة ولم يكن يعنيها أمر تونس وعلقتها بالدولة العلية الى ان استولت على الجزائر للاسباب التى سترد فى الباب الخامس عند الكلام على الجزائر فمن ذلك التاريخ صارت متحذرة من زيادة تداخل الدولة العلية فى القطر التونسى لاسباب (منها) ان الجزائر أصلها تابعة للدولة العلية ولم يكن استيلاؤها عليها بحرب مع الدولة العلية وانما اضطر اليه الحال فى الانتقام من والى الجزائر لاهانته نائب فرانسا (ومنها) ان نفس

الاستيلاء على الجزائر انما تم بعد سنين وحروب طويلة مع أهلها ومازال أهلها يدينون في عقيدتهم بالخلافة للسلطان العثماني (ومنها) ان مجاورة دولة قوية مثل الدولة العلية توجب مشاحنات يقتضيها الجوار ولا تذعن احداهما للاخرى بسهولة بخلاف ما اذا كان الجار ضعيفا فما هو الا أن يؤمر فيتبع ومشاهده ان بمجرد ما تم أخذ الجزائر سنة ١٢٤٥ قدمت فرقة من الاسطول الذى كان على شطوط الجزائر وطلب رئيسها من والى تونس زيادة في الشروط منها ان لا تختص الحكومة التونسية بمتجر بل ولا تتجر ومنها ابطال التلصص بالسفن على السفن التجارية وابطال ملك الاسرى وابطال ما اعتيد من الهدايا وان يكون للفرانساويين التعامل في القطر مثلما يتعامل أهله فعقد الوالى معه ذلك على كره وسجل وأرسل الى دولة فرانسا معلما بان الشروط أخذت شبه غصب وكانت اذذاك دولة فرانسا في شغل من الثورة على ملكها فعدلت تلك الشروط بعض التعديل فلمثل تلك الاسباب لزم فرانسا مراعات مصالحها ومداخلتها في حراسة سياسة تونس والذى استقر عليه القرار من الدولة الفرانساوية من ذلك التاريخ الى الآن هو ما يشير اليه ما رأيته بخط أمين أسرار الحكومة أبي العباس الوزير أحمد بن أبي الضياف ونصه لما اجتمع أى أحمد باشا بملك فرانسا وهو لويز فليب في خلوة قال له ان كنت تروم الاستقلال فلا سبيل اليه والذى تعتمده منى ان فرانسا تحمى بسياستها حالتك التى انت فيها الآن بحيث لا يتعدى عليك أحد من جهة البحر وأما البر فدبر أمرك فيه من جهة طرابلس وأساس حمايتك هو التحبب الى الرعية والرفق بهم سمعنا ذلك منه مشافهة رحمه الله اه وهاته السياسة التى صرح بها ملك فرانسا اذذاك هى السياسة المعول عليها عند عقلاء الفرانسيس قديما وحديثا حتى قال أحد كبار جنرالات الفرانسيس وأحد حكام قطر الجزائر بقصد التبليغ الى حكومة تونس والحال انه عسكرى والغالب على الحزب العسكرى هو الميل الى استيلاء وذلك سنة ١٢٩٥ عند ختام مؤتمر برلين في شأن الحرب الاخيرة بين الدولة العلية والروسيا وقد اشتهر اذذاك ان بعض نواب الدول في المؤتمر لما رأوا مشاحنة نائب فرانسا في تسليم قبرس الى الانكليز أوعزوا اليه على غير الطريقة الرسمية بان تستولى فرانسا على تونس ارضاء لها ولم تعمل بذلك فرنسا فقال الجنرال المذكور ان يبلغ قل لوزيركم ولباشاكم ها انتم ترون من هى الدولة التى تصدقكم من التى تكذبكم فانهم يقولون لكم انا نريد الاستيلاء عليكم ليبعدوكم وينفروكم منا والآن قد أعطوكم لنا وأبينا من الاستيلاء عليكم فلتعلموا من هو الصادق ولتعلموا انا لم نمتنع من

الاستيلاء عليكم لمجرد حب الباى لان مصالح الدول لا تتداخل فيها الشخصيات وانما امتنعنا لعدم فائدتنا لان فائدتنا في تونس ان كانت هى المال فهى فقيرة وخالية وفرانسا ليست بمحتاجة وان كانت هى تكثير الارض ففى الجزائر اراضى وسيعة ولا زالت الى الآن خاوية محتاجة الى العمران فالاولى بنا تعمير أرضنا قبل ان نأخذ أرضا أخرى خالية فأى مصلحة لنا في ان نرسل عساكرنا لاطلاق الرصاص عليهم في قابس والحالة ما ذكرتم غاية ما نطلبه منكم هو الهناء والراحة في داخليتكم حتى نرتاح نحن براحة جوارنا وأما اذا أحدثتم الاختلال في داخليتكم وأحوجتمونا الى اطلاق الرصاص لاجلكم فالاولى ان نطلقه اذا لاجل انفسنا لان ما كنا نتباعد عنه توقعونا انتم فيه الخ فكلامه صريح في ان سياستهم هى ابقاء تونس على ماهى عليه وكذلك سمعت من أعيانهم في السياسة انهم كما لا يريدون هم الاستيلاء على تونس لا يريدون غيرهم ان يتولاها مصرحين بحقيقة سياستهم التى وفى بها كلام الجنرال المذكور مع الانفة من منة الدول في المؤتمر باعطائهم شيئا لا فائدة فيه زيادة على ماهم حاصلون عليه وهو غاية أربهم في تونس بان يكون لدولة فرانسا المنزلة الأولى فيها وتتقدم على غيرها في النفوذ السياسى والمتجرى بحيث تكون كل مصلحة عامة لا يقتدر على عملها الاهالى أو الحكومة تسلم الى الفرانساويين ويرغبون في أن تكون الادارة في الداخلية حسنة تتم كثرة العمران والثروة ليزداد بذلك متجرهم وحركتهم ونفوذهم لكن على وجه في الادارة لا يمكن أن يتعطل به قصدهم ويرى بعضهم ان من أسباب التعطيل ان تكون الحكومة قانونية شورية اذ ربما رأوا ان ذلك يعارض مصلحتهم في بعض الاحيان باستناد الحكومة في الامتناع من الاجابة الى بعض مقترحاتهم لرأى الامة التى هى مقيدة به وذلك عندهم مما لا يمكن ان يعارض لانه هو القاعدة الاساسية في مملكتهم وما عدى ما تقدم فلا أرب لهم في الاستيلاء على الاحكام أو معارضة الوصلة مع الدولة العلية التى لا تنقض هاتيك الاساسات فهاته هى مقاصدهم فلو تجدد الادارة في الحكومة قادرة على الانتفاع بها ودفع غائلتها ومنها عدم الاستواء في الحكم لكان مما يعين على الراحة ورجال الدولة الفرنساوية قابلون لاصلاح الاحكام وانفرادها كما سيأتى بيانه ومثل ذلك تقييد الحكومة بالقانون الذى لا مندوحة عنه ويتبين لرجال الدولة الفرانساوية أن التقييد بالقانون لا يفوت مصلحتهم المذكورة لان عقلاء الامة باجتماعهم تكون حالتهم أدعى الى مايزيد في خير الوطن وما يدركه أفراد المستبدين

فى تونس بالتصرف من وجود مراعات الدولة القوية المجاورة يدركه مجموع العقلاء للامة على وجه أتم مما هو للافراد ويراعون مقتضى الاحوال نعم انهم يفرقون بين مايعود لما ذكر ومايعود لافراد فى خويصة ذاتهم مما لايرضاه عموم الامة لو تطلع على تفاصيله ولمثل ذلك ألحت دولة فرانسا على تونس فى تأسيس التنظيمات سنة ١٢٧٤ كما سيتضح وعاضدتها دولة الانكليز حتى ورد اسطول الدولة الاولى وكان فى آثاره اسطول الدولة الثانية وألح كل من قنسليهما فى اجراء الامر محتجين بالشريعة وعمل الدولة العثمانية والسياسة الحاضرة وعاضدهما رئيس الاسطول الفرنساوى وتحققوا ان ذلك غير معارض لمصالح دولهم الخاصة وان استند بعض متوظفيهم فى بعض الاحيان ميلا الى موافقة الولاة الممتنعين الى ان الحكومة الشورية يخشى منها تعطيل مقاصدهم وينهون الى دولهم الاحوال على مايوافق سلوكهم وربما أشاروا الى فوات مقصود دولتهم اذا خالفت رأيهم فتضطر دولتهم الى السلوك على مايشيرون اليه حيث ان الدول العظيمة تراعى الوصول الى مقاصدها فى الخارج بأى طريق أمكن وتكسو تلك الوسائل بحال تحسنها أيدى السطوة والقوة ولامقايسة بين سيرتهم فى داخليتهم وسيرتهم فى الخارج سيما فى الجهات التى لهم فيها مأرب فربما ارتكبوا فى ذلك مالايمكن تصور مثله فى داخليتهم ووجه ذلك هو التوصل الى نفع دولتهم لان مثل تلك المنافع اذا ساغ ان تعقد لاجله الحروب التى تراق فيها الانفس وتضيع فيها الاموال من الطرفين فاثن يتوصل اليها بوسائل أخرى أيا كانت فهو أخف وأولى ولهذا لاترى أثرا لمثل تلك السيرة فى الجهات التى لامقاصد لهم بها بل تراهم هنالك يسيرون على نحو سيرتهم فى داخليتهم وسيأتى لهذا مزيد بيان فى الخاتمة ان شاء الله تعالى اذ القصد هنا خصوص مايتعلق بالقطر التونسى من جهة سياسته الخارجية وحاصله من جهة فرانسا ابقاء تونس على حالتها وامتيازاتها والامتناع من زيادة الالتحام بالدولة العلية ولذلك لما قدم قبطان باشا الى طرابلس لافتكاكها من يد آل قرامانلى سنة (١٢٥١) أرسلت فرانسا اسطولا الى حلق الوادى حذرا من قدوم الاسطول العثمانى الى تونس فتخوف اذ ذاك والى تونس مصطفى باشا من أن يتهم بسعيه فى ذلك وكاتب قنسل فرانسا بما نصه وبعد فان جناب الدولة الفرانساوية وجهت أجفانها لمرسى عمالتنا على مقتضى المحبة والمودة وقابلناهم باكرام لان شقوفنا فى مراسى الفرانسيس كأنها فى مراسى عمالتنا فكذلك شقوف الفرانسيس عندنا وأما اقامة الاجفان فى هذا الوقت بحلق الوادى ودونانمة مولانا

السلطان

السلطان بقربنا وفيها السيد قبطان باشا ربما تنتج لنا مضرة فى الحال أو فى المستقبل من جهة الدولة العثمانية أدام الله لنا وجودها لانها ربما تظن فى جنابنا ظنا يضر بنا ومعلوم اننا تحت طاعة مولانا السلطان فى أمره ونهيه وباسمه نخطب فى جوامعنا وعلى سكتنا فلا يخطر ببالنا اننا نعصيه أو نخالف أمره أو نعارضه بشئ فالمراد ان تعرف الامرال بهذه المضرة التى نتوقعها والاعتماد على كمال عقلكم فى حسن التبليغ وشقوف الفرانسيس مهما تمر بنا أو تأتى لمرسانا فرحنا بها ونقابلها بالاكرام على مقتضى قوانين المحبة ولازائد الا الخير والعافية وكتب فى (١١) جمادى الثانية سنة (١٢٥٢)

وأجابه القنسل بما نص تعريبه انه بلغنا ووصل لنا المكتوب الذى تشرفنا به من عند السيادة وأعلمنا به الامرال للندن وعلمنا جميع ما تضمنه وجوابنا عليه هو مانذكره وهو ان جنابكم العلى برئ وأجنبى وخارج من الاتفاق الذى اقتضاه نظر الدولة الفرانساوية فى ارسال هذا الاسطول لسواحل تونس وأنتم لايمكن لكم ان تمنعوا دولة الفرنسيس من ذلك وهو ارسال شقوفها لسواحل تونس ولاجل ذلك لايوجد عليكم لوم ولا عتاب من جناب الدولة العثمانية لانه لاوجه لذلك والدولة الفرانساوية تعلم تحقيق حالتكم مع الدولة العثمانية وحاشا جناب دولتنا أن ترضى بما يوجب لكم غبارا مع دولتكم وانما مراد الملك أن تبقى جناب دولتكم مع الدولة العثمانية على العهد القديم السابق من غير تبديل ولا تغيير لكن الدولة العثمانية لايمكن لها ان تخترع أمرا جديدا تضر به مصلحة الفرانسيس فى الناحية التى تحت يده فى أفريقية ولاجل ان يمنع ماعسى ان يقع من المضرة أرسل الملك اسطوله لتونس ليمنع به قدوم قبطان باشا لاجل التصرف بما هو مأمور به والامرال لما بلغه ان قبطان باشا أتى لطرابلس وأعلم ان مراده الاتيان لتونس فى ذلك الحين أرسل الامرال جفنا من الاجفان التى تحت حكمه هنا ليعلم قبطان باشا ان حبيب السلطان الصافى وهو ملك الفرانسيس لايمكن له ان يحمل هذا التعدى بوجه من الوجوه فى المملكة التى تحت يده فى أفريقية لان قدوم دونانمة المسلمين الى تونس يتقوى بها قلب باى قسنطينة الذى عندنا معه فى التاريخ مكالمة وربما كان بيننا وبينه حرب فلاجل ذلك نعلم قبطان باشا أن لايقدم ويرجع للمحل الذى جاء منه فان صمم وعزم على القدوم فان الامرال واجب عليه أن يصده ويمنعه بالمدافعة القهرية بالقوة اهـ فانت ترى كيف صرح بالحالة المطلوبة مع تصريحه بان الدولة العلية هى دولة تونس لكنها بامتيازها كما هو صريح عبارته لمن تدبرها فهذه هى السياسة

الخارجية لهذا القطر واستمر عليها الى سنة ١٢٨٠ التى حصلت فيها الثورة العامة الآتى بيانها ونادى الاهالى بالتشكى للدولة العلية وقدمت شكايات شفاهية وكتابة لرسولها حيدر أفندى عند قدومه بالاسطول العثمانى مع أساطيل الدول وطلبوا بواسطته تداخل الدولة العلية فى تحسين ادارة القطر بل ان بعض البلدان طلبوا الانضمام الحسى للدولة ورفعوا العلم العثمانى وتداخل فى هاته الثورة نواب الدول كل على حسب ماتقتضيه سياسته فاثرت الحالة فى الوالى ووزيره مع ماهو معلوم من الحالة السياسية السابقة وأنتج الرأى أن يرسل بالشكر للدولة العلية عما فعلته ويطلب منها تحرير الروابط والامتيازات كتابة بما لم يبق معه مقال لقائل فسافر بذلك الوزير خير الدين مع التفويض التام وقص على الصدر الاعظم وهو اذذاك فؤاد باشا مطالبه وحصلت مذاكرات مع رجال الدولة عديدة أنتجت الاتفاق على أصول الروابط المبنية على العوائد المعروفة الآتى بيانها فى نص الفرمان الآتى وتلقى الوزير خير الدين مع مزيد الترحاب به من الدولة ما بلغه للوالى شفاها من مزج حلاوة الثناء عليه بمرارة الاعتراض على تصرفاته التى هوت بالقطر الى الخراب وتلقى ذلك حتى من فم السلطان عبد العزيز نفسه ثم رجع بمكتوب من الصدر فؤاد باشا محتويا على الاصول التى وعد بأنها سيصدر بها الفرمان الذى صدر الاذن السلطانى به ولم يساعف الوقت للعجلة بصدوره ثم كتب الوالى بشكر ذلك واستنهض صدور الفرمان مرارا فيرد الجواب بالوعد وكان جميع ذلك غير معلن به الى سنة (١٢٨٨) وكانت فرانسا اذذاك فى شغلها الشاغل من حرب المانيا لها فاطمأنت ايطاليا من جهتها وظنت تأثير التباعد من الدولة العلية وسنحت لها فرصة وهى ان وزير الحكومة التونسية مصطفى خزنه دار اكترى ارضا وسيعة تسمى بالجديدة الى لجنة ايطاليانية وأرسل الوزير أحد أعوانه الى تلك الارض راثما التسبب لفسخ الكراء مع ما فى نفس ايطاليا من جهة تونس فادعت اللجنة خسائر حصلت لها من تعدى تابع الوزير لو بسطت من الذهب على سطح تلك الارض لما وسعتها وامتنع الوزير من تحمل ذلك فأعلن قنسل ايطاليا بقطع الخلطة وتهدد الوالى وجهزت ايطاليا أسطولها للاستيلاء لولا تعرض الدولة العليه الذى حجزها عن ذلك وانفصلت النازلة بالشروط التى أرادتها دولة ايطاليا فى الخسائر التى ادعت بها اللجنة ولم تختص بالواقعة فقط بل هى عمومية فتيقن الوالى ان لانجاة الا باحكام الوصلة مع الدولة العلية بأمر على تحصل منه الراحة

فكتب

فكتب الوالى يستحث اصدار الفرمان وكتب الوزير خير الدين للباب العالى مكتوبا فى بيان الاخطار المحيطة بالايالة اذا لم تتدارك الدولة العلية بحفظها فورد الجواب من الصدارة بأن نازلة الفرمان مهما تقتضى ارسال من يعتمد من الوالى للتفاهم فى النازلة مع تلميح أو تصريح باستقباح السيرة التى عليها الوالى والصدر اذذاك على باشا ففهم رجال الحكومة ان الدولة غير راضية بأن يبنى الفرمان على ما فى مكتوب الصدر السابق فوجه الوالى الوزير خير الدين بالتفويض الذى (نصه) من عبد الله سبحانه الموكل عليه المفوض جميع الامور اليه المشير محمد الصادق باشا باى سدد الله تعالى أعماله وبلغه آماله الى الهمام المفخم أمير الامراء ابننا خير الدين الوزير المباشر أدام الله حفظه وأجزل من السعادة حظه (أما بعد) فاننا بمقتضى ما نحققه من صدقك وأمانتك وكفايتك وجهك للابواب العلية السلطانية العثمانية أعز الله نصرها وأدام الله فخرها للكلام فيما يؤكد أصول عاداتنا المألوفة المعروفة الآن وما تتصل به مع الدولة العلية فى ذلك بالكتابة فهو ماض فى حقنا فوضنا لك فى ذلك التفويض التام بحيث لم تستثن عليك فى ذلك فصلا من فصول التفويض ولا معنى من معانيه وأحللناك فيما ذكر مقام أنفسنا تفويضا تاما عرفنا قدره والتزمنا به والله أسأل لكم التوفيق والامداد وبلوغ الامال والاسعاد ومع التفويض المتقدم ومعرفة العادات المألوفة فان الوزير المذكور لم يتمم شيأ مع الدولة الا بعد ان عرض على الوالى الشروط التى استقر عليها الرأى للفرمان وقبول الوالى لها مع الاستحسان فتمم الفرمان مع الصدر اذذاك محمود نديم باشا وقاسى الوزير خير الدين متاعبا من مناضلة رجال الدولة العليه فى زيادة شروط الامتياز وناضل الوزير خير الدين عن حقوق البيت الحسينى بما يشهد له بصدق الوفاء والبراعة فى السياسة ولم يزد فى الفرمان على ما تضمنه مكتوب الصدارة الا قليلا ورجع الوزير خير الدين بالفرمان على انه مع اعلاء رتبة نيشانه واتيانه بالنيشان المجيدى المرصع للوالى ولعدة من كبار رجال الحكومة بنياشين ولما وصل الى مالطة لزمته اقامة مدة الاحتماء بها حيث كان فى الاستانة مرض الكوليرا ومن استبشار الوالى به وشكره على عمله أرسل له أمير لواء العسة مصطفى بن اسماعيل وهو اذذاك أعز المقربين اليه فواجهه من خارج محل الاحتما وأبلغ اليه التشكر وبات ليلة ورجع فى الباخرة الخاصة التى قدم فيها ولما قدم الوزير المذكور بالفرمان المشار اليه عقد له موكبا على ما يمكن من المواكب وألبس

الوالى النيشان ثم تشرف بالفرمان وعظمه ثم قرأه علنا (وهذا نص) تعريبه بتعريب الباب العالى الدستور المكرم المشير المفخم نظام العالم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهمات الانام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى الوالى بتونس الآن الحائز الحامل للنيشان المجيدى الشريف من رتبة الاولى مع النيشان الهمايونى العثمانى المرصع وزيرى محمد الصادق باشا أدام الله تعالى اجلاله آمين ليكن معلوما عندما يصلكم توقيعى الرفيع الهمايونى انه منذ وجهت وأودعت من جانب سلطنتنا السنيه ادارة الايالة التونسية التى هى من ممالك دولتنا العليه المحروسة المتوارثة التى عهدتك ذات اللياقة والاهلية كما وجهت سابقا الى عهدة أسلافك لم تزل تظهر حسن السيرة والخدمة وتنهى الى طرفنا الملوكى الاشرف خلوص النية والاستقامة حتى صار ذلك قرينة لعلمنا المضئ بالعالم فأمولنا السلطانى على مقتضى الشيم المرضيه التى جبلت عليها هو الدوام فى ذلك المسلك المرضى والجد والاجتهاد فى كل ماينمى عمران مملكتنا الشاهانية وسعادة أهاليها تبعة دولتنا العليه ورفاهيتهم وراحتهم حتى تستديم بذلك استحقاق عنايتى الشاهانية واعتمادى السلطانى المبذولين فى حقك وان فهمنا وتعرف قدر تلك العناية والاعتماد وتشكرهما ولما كان المقصود الاصلى والمراد القطعى لسلطنتنا السنية هو ارتقاء طمأنينة الايالة المهمة الراجعة لدولتنا العلية وعمرانها وتأسيس أبنية الامن والراحة لسكانها يوما فيوما وكان من البديهيات أن السلطنة العزيزة لا يعزها ولا يؤودها صرف الهمة والعناية العائدة الى حقوقها الاصلية لتمام استحصال هاته المطالب وورد الطلب المندرج بكتابك المخصوص الموجه من طرفك أخيرا الى جانب الخلافة العلية قررت وأبقيت ايالة تونس المحدودة بحدودها القديمة المعلومة بعهدتك بضم امتياز الوراثة وبالشروط الآتية وحيث ان مرغوبنا السلطانى على ماتقدم بيانه انما هو تزايد عمران تلك المملكة الشاهانية وثروة أهاليها وهى الآن فى حالة مضايقة وتأخر فى الواردات لكل من الحكومة والاهالى قد سمحت السلطنة السنية بعدم ارسال ما كان يرسل باسم معلوم من الايالة لطرف دولتنا العلية بموجب التبعية المقررة المشروعة رحمة لأهالى تلك الايالة (ولما) كانت الايالة المشار اليها من الاجزاء المتممة لمملكتنا الملوكية صدرت ارادتنا السنية بان يكون الوالى بتونس مرخصا له فى تولية المناصب الشرعية والعسكرية والملكية والمالية وهما السياسة لمن يكون من أهلها

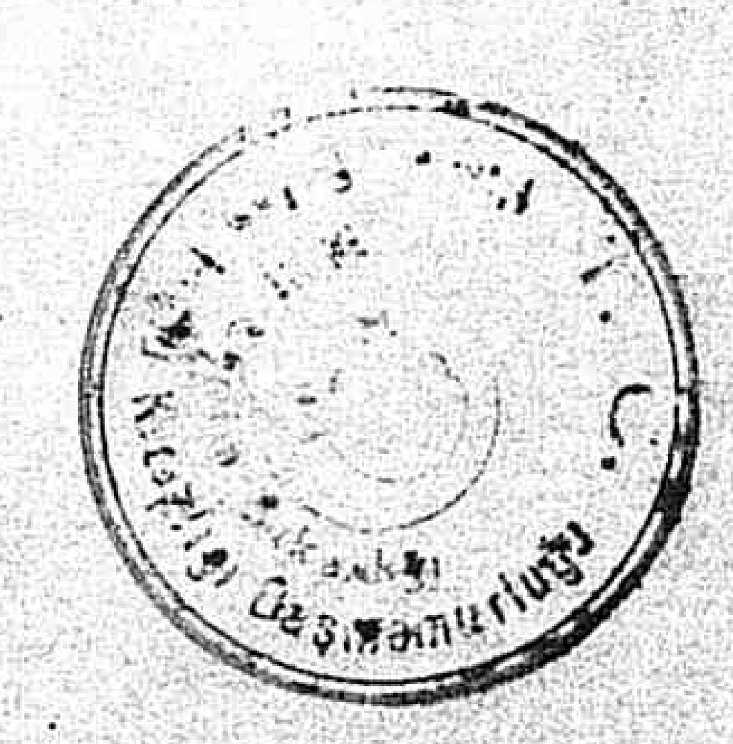
وفى

وفى العزل عنها بمقتضى قوانين العدل وفى اجراء المعاملات المعلومة مع الدول الاجنبية كما كانت سابقا فيما عدا المواد البوليتكية العائدة الى حقوقنا المقدسة الملوكية ونعنى بها ما كان كعقد الشروط المتعلقة باصول السياسة والحرب وتغيير الحدود ونحوها مما يكون اجراؤه راجعا الى حقوق سلطنتنا السنية وعند حلول القدر المحتوم فى الولاية وتقديم المعروض بطلب الفرمان الشريف من الوارث الاكبر من عائلتك لطرف سلطنتنا السنية يرسل له الفرمان الشريف مع منشور الوزارة والمشيرية الهمايونى كما استمر العمل بذلك الى الآن بشرط أن تستمر الخطبة باسمنا السلطانى وتزين به السكة التى تضرب هنالك علامة علنية للارتباط القديم الشرعى لايالة تونس بمقام الخلافة الجليل وأن يبقى السنجق على لونه وشكله ومهما وقع حرب لسلطنتنا السنية مع أجنبى يرسل العسكر من تلك الايالة الشاهانية بقدر الاستطاعة طبق ماجرت به العادة القديمة فى الجميع ومع تلك المواد يكون أمر الولاية بطريق الوارثة مخصوصا بعائلتك على أن تبقى سائر المعاملات الارتباطية مع دولتنا العلية جارية مرعية كما كانت سابقا وان تجرى الادارة الداخلية لتلك الايالة مطابقة للشرع الشريف وموافقة لقوانين العدل التى يقتضيها الوقت والحال الكافلة بتأمين السكان فى النفس والعرض والمال فلاجل ذلك المذكور صدر هذا الفرمان الشريف الجليل القدر من ديواننا الهمايونى وأرسل موشحا أعلاه بخطنا الهمايونى السلطانى فخلاصة نياتنا الشاهانية انما هى اصلاح حال تلك الايالة المهمة ومالآل بيتكم وتقوية ذلك حالا ومآلا واستكمال أسباب السعادة والرفاهية والامنية لصنوف تبعتنا المستظلين بظل عدلنا السلطانى ومأمولنا القطعى الملوكى ان يبذل من جهتنا الجهد فى حصول ماذكرتم حيث كان تمام المحافظة على حقوق سلطنتنا السنية المحققة بتونس من قديم الازمان وعلى أمنة الاهالى القاطنين بتلك الايالة المودعة بعهدة صداقتك من حيث النفس والعرض والمال وسائر الحقوق العمومية شرائط امتياز الوارثة الاساسية المقررة فيقتضى ان تتأكد محافظتها عن تطرق الخلل دائما سرمدا ومتباعدا عن وقوع الحال والحركة على خلافها اذا عرفت ذلك فلابد ان تعرف أنت ومن يقوم مقامك فى أمر الولاية بالتوارث من اعضاء عائلتك قدر هاته النعمة العلية الشاهانية وتشكرها فعلى ذلك تسعى لتحصيل رضاى السلطانى بالغيرة ومزيد الاهتمام باجراء هذه الشروط المؤسسة حرر فى اليوم التاسع من شهر شعبان المعظم سنة ثمانية وثمانين ومائتين وألف ونشر الفرمان فى صحف الاخبار وحصل اذ ذاك من عموم

الاهالى أفراح خارقة للعادة فى ذات الحاضرة وفى سائر بلدان القطر وفى سائر قبائل العربان كل بما يناسب عوائده ودامت الزينات أزيد من ثلاثة أشهر متوالية والسبب فى ذلك أما ما يتعلق بالوالى فلاستقرار أمره على أساس متين له ولعائلته طالما سعى فيه من كان قبله ولم يحصل عليه كما تقدم مع الارتياح من مقاصد الاجانب المتنوعة وأما الاهالى فلحصول مرغوبهم من تمام الاتصال بالدولة الاسلامية مع شروط الامن لهم وحسن الادارة فيهم من ولاتهم المتحمين بهم والمحبوبين عندهم وان لم يجر المطلوب فيهم على وجهه مما أبقى الباب مفتوحا فى حقهم ولم يحصل من الدول الاجنبية أدنى انكار ولا معارضة لما تضمنه الفرمان المذكور الا دولة فرنسا فلم توافق على الاعتراف به وبقى الامر على ذلك رسميا الى الآن لكن المقاصد والسيرة الصادرة من الوزير الحالى مصطفى بن اسمعيل وما نشأ عنها من الارتباكات يجهل ما هو منتهاها فالله فهم علم غيب هم صائرون اليه فهذا هو خلاصة السياسة الخارجية لهذا القطر الى هذا العهد وهو جمادى الثانية سنة ١٢٩٧

تنبيه قد حدثت حوادث مهمة مما أشرنا اليه بعد الفراغ من هذا الجزء نفردها بذيل وحدها ان شاء الله تعالى عند الكلام على سياسة فرانسا الخارجية

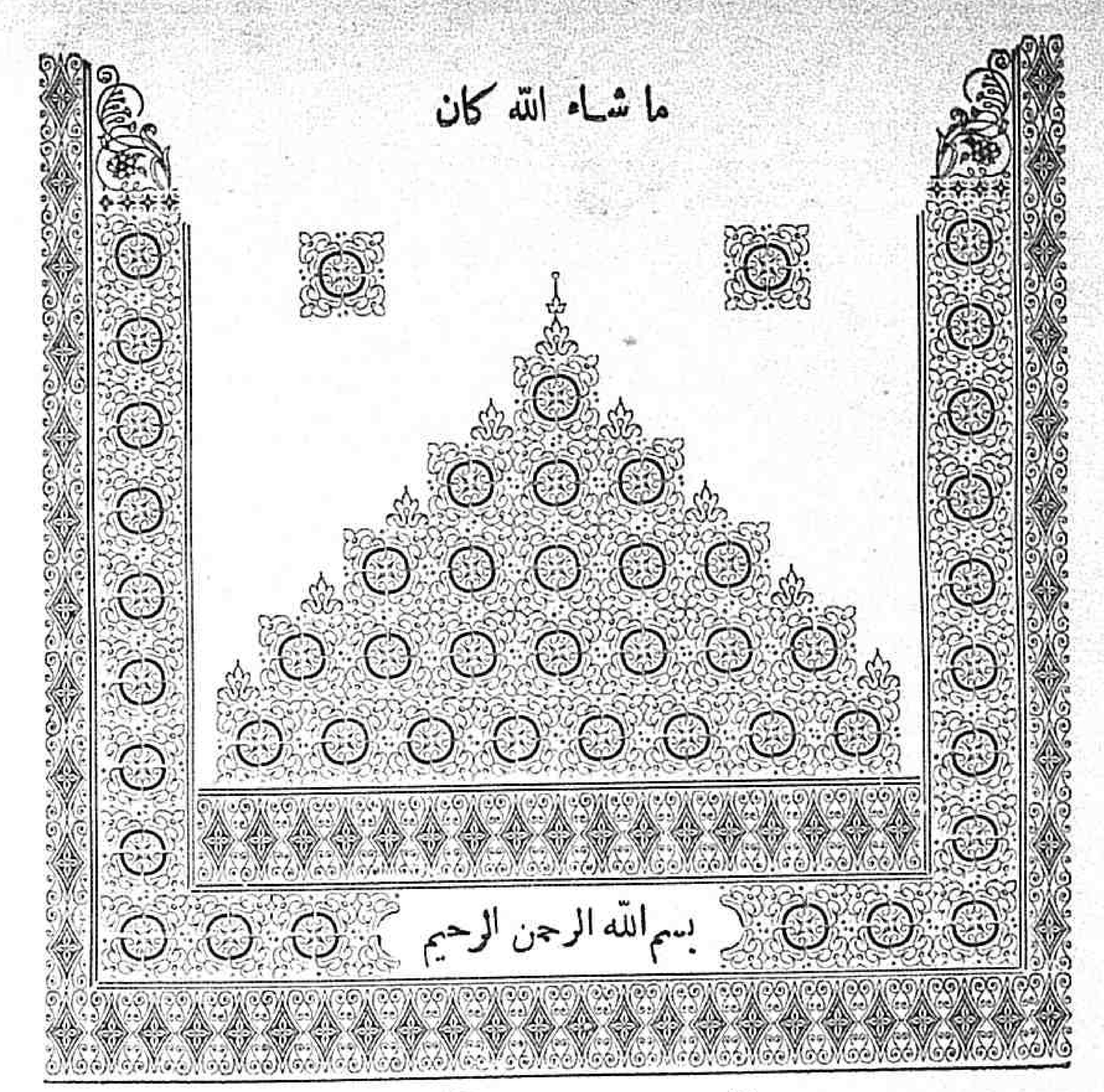
﴿قد تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى﴾
أوّله مطلب فى السياسة الداخلية
من العائلة الحسينية



﴿الجزء الثانى﴾

من كتاب
صفوة الاعتبار بمستودع الامصار
والاقطار تأليف الفاضل المحقق والاستاذ
المدقق قدوة العلماء وصفوة الاذكياء
وحيد عصره وفريد دهره
الشيخ محمد بيرم الخامس
التونسى نفعنا الله
به وبعلومه
آمين

﴿طبعة أولى﴾
﴿بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٢ هجرية﴾



وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

❁ (المطلب الرابع) فى السياسة الداخلية من العائلة الحسينية اعلم انه منذ وليت العائلة الحسينية هذا القطر التونسى كان مدار أمرهم الرفق بالاهالى والخمول والتباعد عن سمات الملك والرفاهية وغاية الالقاب التى تحلى بها اتباعهم وأعوانهم هى (ما يأتى)

❁ فأولها صاحب الطابع يعنى حافظ ختم الوالى ومأموريته ختم المكاتيب ومباشرة المتوظفين فيما لم يباشره الوالى ويكون هو الواسطة بينهما وثانيها باش كاتب وله رياسة الكتابة ومحاسبة العمال والرأى فى كل الأحوال وثالثها خزنه دار وهو حافظ مال الحكومة فى قصر الوالى ورابعها باش أغه وله رئاسة أغوات أوجاق الخيل وخامسها كاهية وله نيابة الوالى فى الأحكام وسادسها أمين الترسخانة ولنظره ما يرجع الى البحرية وسابعها باش حانبه وهو الواسطة بين الوالى والمشتكين اليه مع رياسة الحوانب وهم الأعوان الخيالة للحكومة وهاته الوظيفة منقسمة الى شخصين أحدهما باش حانبه ترك والآخر باش حانبه عرب وهذا له نفوذ على الآخر وثامنها باش مملوك وله رياسة

رياسة ادارة القصر الأميرى وتاسعها الداى وله الحكم فى الجنايات مطلق الا القتل فهو خاص بالوالى وله حفظ الراحة فى خصوص الحاضرة وعاشرها شيخ المدينة وله الحكم فى الليل وحفظ المدينة ليلا من السراق وترجع اليه سائر المعاملات العرفية وخصومات الاجانب فى الديون كما ان فى كل ربض شيخا لخصوص حفظه ليلا وحادى عشرها آغة القصبة وله الحكم فى العسكر الينكشارى والجنايات الخفيفة ومثله آغة الكرسى بانحطاط درجته عن السابق وثانى عشرها رئيس مجلس التجارة ومعه عشرة أعضا يسمون العشرة الكبار ولا يجتمعون الا فى مهم كما ان لكل صناعة أمينا يفصل الخصومات المتعلقة بالصناعة وثالث عشرها كاهية دار الباشا وله فصل الجنايات الخفيفة حول الحاضرة فهاته هى أهم الرتب السياسية والعسكرية وأما العلمية فأولها الباش مفتى ❁ الحنفى أى رئيس المفتيين ثم المالكى ثم المفتى الحنفى ثم المالكى وقد يزاد على واحد فى كل من المذهبين ثم قاضيان لكل مذهب قاض ثم قاضى باردو ثم قاضى المحلة أى المعسكر المسافر مع وارث الولاية ثم قضاة المدن الكبيرة ومفاتيها ثم قضاة المدن الاخرى والجميع مالكية الا ما يحدث أحيانا من ولاية مفتى حنفى فى المهدية والمستير فهؤلاء أصحاب الاحكام وهناك وظائف دينية كالمدرس والامام والخطيب وصاحب الولاية أى الامير يجلس يوما بمحل يسمى المحكمة صباحا لتلقى المشتكين من العمال والمتوظفين ومن الحرابة وقطع الطريق وامثال ذلك أما نوازل المعاملة بين الناس فهى للحكام الشرعيين ونوازل التجارة لمجالسها والجنايات الخفيفة يباشرها الداى وله الحبس مع الاعمال لشاقة المسمى بالكراكة وله الضرب ثلاثمائة سوط فقط واعظم به من مبلغ حرمه الشرع وهكذا كل نازلة فانها ترجع الى حكامها ممن مر بيانهم مع التوقير التام للحكام أهل الشرع ونفوذ احكامهم ولو على ذوى المناصب العالية ويجتمع رؤساء المفتين والمفتيون والقاضيان وقاضى باردو يوم الاحد بمحضر الوالى وتورد عليهم سائر النوازل المهمة فى الحقوق الشخصية وليس للوالى الا تنفيذ ما يحكمون به مع غاية التعظيم والتوقير ولا زال طرف من هذا العمل الى الآن بحيث ان هيبة العلماء وتوقير الشريعة لا زالت فى القطر التونسى على بعض ما يجب لها من الاجراء وكذلك سائر الشعائر الدينية ولقد ادركت ان سب الدين لا يمكن ان يكنى عنه بهاته العبارة تعظيما وتوقيرا بل يكنى عنه بسب المنكر وترى الكبير والصغير يقول من سب المنكر اذيب الرصاص فى حلقه كانه هو حكمه المعروف وكذلك سائر العبارات الفاحشة مما يكنى به

عن العورات لاتذكر أبدا ومن يذكرها فى خلواته يعد من السفهاء ولقد تغيرت فى هذا المعنى الحال ولله الامر (وأما) ما يتعلق بالجباية وصرفها فقد كان لا يؤخذ من الاهالى الا اعشار الحبوب من القمح والشعير ثم عشر الزيت واداء مالى حسب مقدار مرتب العساكر الينكشارية مقسم على بلدان القطر يؤدّى على ستة أقساط فى السنة وهو نزر يسير ثم العاشر وهو المسمى فى العرف بالقمرق ثم مداخيل الاراضى والاملاك الراجعة لبيت المال مع ضرائب ضعيفة على القبائل مثل البلدان المارّ ذكرها عوضا عن زكاة المكاسب يوزعها على أفرادهم مشايخهم وعرفاؤهم كل قبيلة بحسب حالها ولما امتدت ايدى العمال بما يسمونه الهواء وهو أخذ ما يقدمه أهل العمل للعامل برسم الضيافة ثم ما يلتقطه منهم باسم وهبة أى هبة ثم العقاب على الجناية بالمال جعل لذلك حموده باشا على العمال أنفسهم اداء يسمى بالاتفاق هو فى الواقع قسط مما ينهبونه من الاهالى ثم زيد على ذلك ما يسمى بالفضية وهو ما يجعل رشوة للواسطة بين الوالى والعامل وآخذها اما أن يعطى منها قسطا للحكومة أو يأخذ الكل على حسب قربه من الوالى ثم ان جميع ذلك مشروط فيه أن لا تتشكى منه الاهالى فاذا ضجت قبيلة واشتكت للوالى من عاملها عزله حالا ويقال له لم يؤخذ منك مقدار يجحف بالاهالى فأنت تجاوزت الحد ثم يصرف جميع ما تقدم فى مصالح الحكومة والقطر من مرتبات العساكر وأقواتهم وجرايات المتوظفين بغاية الاقتصاد وهى جرايات ضعيفة والناس اذ ذاك مقتنعون بعيدون عن الترف يكتفون بمصنوعات القطر فى اللبس والمسكن والمركب يكفيهم القليل لاسيما العلماء فقد رأيت بخط بيرم الثانى رحمه الله فى حساب خاص بشؤونه بيان مرتباته وجراياته من الاوقاف والحكومة بلغ مجموعها شهريا الى ثلاثين ريالا وسبعة أرباع الريال التونسى وثمنه مع ما هو عليه من جميع وظائفه العلمية وهى رياسة الفتوى ونقابة الاشراف ومشيخة المدرسة الباشية ودرس وذلك فى أوائل هذا القرن نعم كان له كما لبقية المجلس الشرعى جراية من الطعام وهى اثناعشر قفيزا قمحا ومثلها شعيرا واثناعشر مطرا زيتا وكان ذلك كافيا له ولعائلته وأبنائه وكانت ولاة القطر من بنى حسين بن على يعتنون بالاقتصاد وحمل الاهالى عليه بأوجه سياسية لطيفة منها ان حموده باشا رأى كثرة لبس الشال الكشميرى أى الطيلسان فى الاهالى فحضر من الشال المصنوع فى جربة عددا ولبس هو منه وألبس رئيس الكتبة أيضا وخرجا بذلك اللبس يوم العيد لتلقى وفود الهناء وللصلاة وكان فى أثناء اقبال الاعيان على هنائه يلتفت الى رئيس الكتبة

ويقول

ويقول جهرة نعم الشال هذا صنع بلادنا فالنا ولاضاعة أموالنا خارجها والاعيان يسمعون وهم لابسون للشال الكشميرى فودوا ان لم يكونوا لبسوه من الخجل حتى ان من سمع منهم قبل الدخول عليه ازاله واستعار من غيره الشال الجربى وانكفوا من ذلك التاريخ عن الكشميرى وله وقائع عديدة مثل هاته وهو فى الحقيقة أعقل فروع ذلك البيت الذين استولوا على القطر فقد أنشأ فيه ما لم يكن فيه من الحصون والقشل والسفن والذخائر حتى ان مبانيه الخاصة به لم تزل منتفعا بها الى الآن كبستان منوبة الذى صار قشله للخيالة وداره بتونس المسماة الآن بسراية المملكة وأعانه مقام وزيره يوسف صاحب الطابع الملقب بأبى الخيرات من كثرة أياديه فى طرق البر مع الانصاف والاقتصاد الذى لم يكن القطر يتحمل سواه حتى ان حسين باشا لما توسع فى الرفاهية زيادة عما تقدم توقفت حكومته فى دين قدره خمسة ملايين ريالات أى ثلاثة ملايين فرنك باع بها زيتا سلما للتجار الافرنج ولم يمكنه احضاره لهم فنشأ عن ذلك ولاية شاكير صاحب الطابع الادارة بشروطه الشديدة على الوالى فى تقصير يده عن التصرف فى المال وفى العمال وأخذ من دار الوالى أغلب ما فيها من فضة وذهب واحتسب على خاصة مصاريفه الذاتية وتحملت الاهالى أول ولايته مظالم مالية الى ان خلص الدين وعمر خزائن الحكومة وموجبات الاقتصاد الكلى هى ضعف واردات الحكومة للاقتصار على الحد فى المداخيل الشرعية أو ما له شبهة بها كما تقدم فى توزيع جرايات العساكر تحفظا على الديانة وللسير على ما تساعفه الديانة أيضا فى غالب الاحوال الامايندر كالعقاب بالمال على الراجح من منعه شرعا وأمثاله كما تقدم طرف منه مادامت الرعايا راضية به ثم ان الاقتصار على ذلك لا يجتمع منه مبالغ تقتضى الترف لان طبيعة أرض القطر ولان كانت غنية غير ان كثرة توالى الحروب عليه والامراض والمظالم فى الدول السابقة أفنت من السكان القدر الاوفر فقد نقل بعض المؤرخين ان عدد سكان افريقية فى صدر الاسلام ويعنى بها ما يشمل برقة المعروفة الآن ببنى غازى وطرابلس وتونس والجزائر هو تسعة عشر مليونا مع ان عدد الجميع الآن لا يبلغ ستة ملايين ثم مع قلة السكان ضعفت أعمالهم واقتنعوا بما يسد الخلة وبقيت الارض معطلة لوجوه منها عموم الجهل بصناعة الفلاحة وتعمير الارض وتكثير الاشجار ومنها خوف صاحب الثروة على نفسه وماله فيرى انه يعمل لغيره فينزع منه الباعث ومنها الاكتفاء بما خف لسهولة الرحيل فى الفتن ومنها عدم الثمرة اذا كثرت الغلال والحبوب لصعوبة نقلها للمدن وعلى تقدير

وصولها الا بعد لها مشتريا لمنع اخراجها من القطر لاجل الحروب المستمرة مع أوربا الا لبعض الاجناس أحيانا لوقوع الصلح معه فاذا بقيت النتائج فى البلاد رخص سعرها لزيادتها على قدر الكفاية واستمرت السيرة على نحو ما مر الى (ولاية أحمد) باشا فأخذت الحكومة فى طور جديد وتبعها الاهالى على مقتضى قاعدة الناس على مذهب أمرائهم وذلك ان هذا الوالى كانت له همة عظيمة اكبر من حالة القطر وقد وجد فى ولاية أبيه ابتداء تنظيم العسكر النظامى فاعتنى هو بهم وبمهماتهم وتعظيم رؤسائهم ثم جد فى تفخيم هيئة الحكومة تفخيما لا يخرجها عن المقام الحقيقى فلم يقل فى مكاتيبه ألقابا تشعر بالاستقلال كاطلاق لفظ الدولة والمملكة ولم يطلق على نفسه لفظ ملك متحاشيا عن ذلك كل التحاشى هو وابن عمه محمد من بعده واغا غير ملابس الحقوق حتى غير الالقاب المار ذكرها آنفا ففى الوظائف الشرعية لقب رئيس المفتين الحنفية محمد بيرم الرابع بشيخ الاسلام وفى العساكر النظامية صير لها رؤساء على مقتضى أصل اصطلاحهم وأهمها على الترقى بين باشى ثم آلاى أمينى ثم قائم مقام ثم أمير آلاى ثم أمير لوا ثم أمير الامرا أو فريق وأنشأ النياشين المسماة بالافتخار وجعل له خمسة رتب ثم العليا وتسمى افتخارا اكبر ومعه شريط من الحرير أخضر يسمى بالفاشه ويلبس على الكتف والصدر والظهر على هيئة حمائليه ثم نيشان آل بيته خاص بهم ويعطى للملوك وأعيان بعض الكبراء وشكل للوظائف السياسيه وزراء ولقب كلا منهم بالوزير فى خطاباته الرسمية الا اذا عرض ذلك فى مكاتيب الدولة العليه فانه يتحاشا عنه وأول من تلقب بتلك الالقاب فى هذا القطر هم الوزير مصطفى صاحب الطابع وهو رئيس الوزراء عند اجتماعهم وصاحب التقدم عليهم لسنه وسابق تربيته للوالى لكنه لا تصرف له فى شئ معين ثم الوزير مصطفى خزنه دار وزير العمالة أى الداخلية والمالية ثم مصطفى أغا وزير الحرب ثم محمود كاهيه وزير البحر ثم جوزاف رافو وزير الخارجيه وفى آخر مدته لقب الداى بوزير التنفيذ وهو اذ ذاك كشك محمد وكان كل من هؤلاء الوزراء يباشره بنفسه فيما يتعلق بوظيفته ولا يتداخل واحد فى وظيفة الآخر بشئ ولا نفوذ لاحدهم على الآخرين وسيما الا الوزير الاول لكنه لرزانته وخموله وفهمه مغزى الوالى كان يقتصر على نصح الوالى فيما يراه أو يبدى له رأيه عندما يستشيره وصاحب النفوذ الحقيقى هو مصطفى خزندار لتقريب الوالى اليه ولان مقتضى وظيفته التعلق بالاهالى والعمال وجميع أصحاب الادارة وحيث كان هذا التفخيم يستدعى زيادة المصاريف والميل

الى

الى الترف مع ما فى نفس الوالى من الكرم على أهل اصطفائه وكبراء العساكر دعاه ذلك الى زيادة الضرائب على الاهالى باسماء سموها أثقال الظهر وأوجبت الفقر وزعيم ذلك المضمار هو محمود بن عياد باتحاد مع الوزير مصطفى خزندار مع انحصار جميع أنواع مصاريف الحكومة فى يده من قوت العساكر وملابسهم وجميع المهمات للحكومة ولذات الوالى ولذلك وظائف باسماء وهى الرابطة وهى قبض الاعشار ودفعها والكوشة وهى عمل الخبز والغابه وهى قبض اعشار الزيت وخرجها والغرفة وهى اشتراء جميع مهمات الحكومة والوالى وانحصر جميع ذلك وغيره فى ابن عياد وتغاضى الوالى عن المذكور وكادت ان تنحصر فيه ولايات جميع العمال ووظائف سائر جبايات الاموال لشركة سرية بينه وبين ذى اليد وقدم ابن عياد لاقتداره على ارضاء الوالى باحضاره فعلا ووعدا ما يطلبه من المهمات والاموال وامتدت يده بزيادة المظالم على ما ترسمه الحكومة باضعاف مضاعفة ومن اشتكى لا يجاب الا بقول الوالى اخلاص مع عاملك وتوصل الى كتب الاوامر بخطه سرا هو والوزير ويمضيها له الوالى من غير علم أحد مع تحسين الوزير لذلك عند الوالى بان ما يربحه ابن عياد يكون خزينة حاضرة متى ما طلبها الوالى وجدها بالاستيلاء على كسبه وجمع ابن عياد بذلك أموالا عريضة قدرها رشاردو ودقنسل الانكليز بتونس الذى أقام بها ما ينوف عن العشرين سنة فى رسالته التى ألفها قدحا فى طريقة تلزيم مداخيل الحكومة بثمانين مليونا وهو المشتهر على السنة العارفين فى تونس وأرسل ابن عياد تلك الاموال الى فرانسا واحتال على السراح للسفر الى هنالك للتداوى عندما علم هو وشريكه ان عاقبته وخيمة وأحس بمباديها وسرحه الوالى ولم يحاسبه الوزير حتى سافر من غير حساب فلما سافر الى هنالك احتمى بدولة فرانسا وأعلن بعدم الرجوع كما طلب الحماية لشريكه وحصل على الاذن فيها غير ان دولة فرانسا تفطنت لامره ورجعت عن حماية الوزير وعلمت ان سببها هو خيانته لبلاده وهو عندهم من أعظم الذنوب كما هو فى نفس الامر لكن ابن عياد لما تم الشروط الواجبة فى نيل الجنسية الفرانساوية وحصل عليها بالفعل قبل الاطلاع على أعماله لم يكن فى وسع دولة فرانسا نزع ما ناله اذ قوانينهم لا تسمح بذلك وعندما علم أحمد باشا بامتناع ابن عياد مع الاموال الذريعة التى نهبها ولم يحاسب على تصرفه قيض لخصامه الوزير النصوح خير الدين واتفق الفريقان على تحكيم امبراطور الفرانسيس نابليون الثالث فامر بعقد مجلس من ثقات المعتبرين فى الوزارة الخارجية

للنظر فى النازلة وعرض الوزير خير الدين مطالب الحكومة وعرض ابن عياد مطالبه وألف كل منهما نحو ثمانية عشر رسالة فى النازلة وأرسى الامر فيها بعد عدة سنين على صدور الحكم من الامبراطور بعام لخصه

❊ريالات❊	
٠١٤١٧١٤٩٥	ثبوت مال عين قبل ابن عياد للحكومة
٠٢٠٩٠٢٧٥٠	وثبت عليه أيضا قيمة رسوم بانكه وتذاكر سراح
٠٣٥٠٧٤٢٤٥	
ـ ٧٨٤٥٩٠٧	وثبت لابن عياد على الحكومة
٠٢٧٢٢٨٣٣٧	فاذا طرح ذلك من مجموع ما ثبت للحكومة بقى

قبل ابن عياد سبعة وعشرون مليونا ومائتان وثمانية وعشرون ألفا وثلاثمائة وسبعة وثلاثون ونصف كما صدر الحكم عليه بان يحاسب فى تونس على الرابطة وغيرها مما لم يمكن الحساب عليه فى باريس وقد أفردت هاته النازلة بتأليف مخصوص للوزير حسين حيث كان له خبرة بالنازلة لانه كان بمعية الوزير خير الدين عند خصامه فيها وسماه حسم الالداد فى نازلة محمود ابن عياد وما انفصلت هاته النازلة الا بعد ما ثمت فى الحكومة نازلة مثلها اذ الوالى مرض فى تلك الاثناء بمرض الفالج وطالت مدته واستبد الوزير مصطفى خزنة دار وعوض ابن عياد بالقائد نسيم الذى وظيفته انه قابض للاموال وكذلك عوض ابن عياد فيما يرجع للعمال بسعد بن عبيد وغيره ولم يمكن لبقية الوزراء انهاء الامر الى الوالى لمرضه وبقى الحال على ذلك الى ان توفى ذلك الوالى سنة ١٢٧١ فى نصف رمضان ولم يترك على الحكومة ولا دانقا من الدين بالربا ولا بغيره الا ما لا يمكن خلو الوجود منه كدفع أثمان بعض مهمات مما لم يحل أجله ولقد أعان على عدم حصول الدين الوزير خير الدين لان الوالى كان أرسله لعقد قرض فى فرانسا عند ارسال العسكر لحرب الروسيا سنة ١٢٦٩ ولم يمكن له معارضته لانه مستبد لكنه تشدد فى شروط القرض وسوف حتى توفى الوالى المذكور وساعد وريثه محمد باشا على عدم الاستقراض ومع ما تقدم فاحمد باشا مدة صحته لم يستبد عليه وزيره وله ما ثر حسنة فى القطر أهمها أحياء العلم بعد ان كاد يندثر فرتب فى جامع الزيتونة ثلاثين مدرسا بجارية قدرها ستون ريالا فى الشهر وهذا المقدار اذ ذاك له موقع عظيم لما تقدم لك فى مقادير مرتبات العلماء ثم رتب اثنى عشر مدرسا اخر بمرتب خمسة عشر ريالا فى الشهر وخصص للاولين مواريث

من لا وارث له الراجع ذلك لبيت المال وللثانيين احباسا تلاشت بها أيدى العدوان كما أقام بالجامع خزائن كتب بها نحو سبعة آلاف مجلد ونتج من ذلك احياء العلم وكثرة العلماء بالقطر ومنهم فحول يعز نظيرهم ولا زال ذلك مستمرا ولله الحمد ولما ولى محمد باشا فى ❊ سنة ١٢٧١ لم يغير شيأ من فخامة الحكومة لكنه جعل أكبر همه رفع المظالم على الرعايا وجاب ثروتهم لما كان يتيقنه من المضرات التى كانت حاصلة لهم وأبقى وزراء ابن عمه على ما كانوا مع ما فى نفسه من حالة مصطفى خزنة دار لكنه غلبه على أمره فيه وزيره المستنصح لديه اسماعيل السنى صاحب الطابع فكان كالباحث على حتفه بظلفه عفى الله عن الجميع كما يرد خبره (والسبب) فى ذلك هو تخوف اسماعيل من تقدم أحد ❊ اقرانه للوزارة المعتبرة وهى وزارة العمالة فانفت نفسه من ذلك وواعده وعاهده مصطفى خزنة دار على الالتحام به وتقديمه على غيره اذا أبقى فى الوزارة فسارع للوالى وقال له لا غنى لنا عن مصطفى خزنة دار لعلمه بما لم يعلمه غيره من أسرار الحكومة وأموالها الى غير ذلك ولم يزل به الى ان أقره وعاهده على الصفاء والنصح وأما الوزير مصطفى صاحب الطابع فقد أبقاه شيخ الوزراء من غير مباشرة وأما محمود كاهيه وزير البحر فانه توفى وولى عوضه الوزير خير الدين وافتتح الوالى أمره بتنقيص كمية العساكر بعد انفصال الحرب مع الروسية مع مراعات ضباطهم فابقى فى الخدمة القادر العارف على قدر الحاجة وجعل لغيرهم نصف مرتب مع ابقاء المقام وكذلك أسقط جميع المظالم على الاهالى وعوضها باداء واحد على كل فرد ذكر بالغ قادر على السعى وهو ستة وثلاثون ريالا فى السنة أى ثلاثة ريالات فى الشهر وهى قدر فرنكين الذى لا يجحف باحد مع امكان ضبطه وضبط أيدى العمال عن التجاوز فيه مع تحجير العقوبة بالمال وعمم ذلك الاداء على جميع القبائل والبلدان بالسواء ولم يبق عليهم غيره الا عشر الحبوب من القمح والشعير وعشر الزيت أو عوضه من القانون وقانون النخيل أى الخراج على اعداد النخيل ولم يستثن من ذلك أحدا الا أهالى المدن الكبيرة وهى تونس والقيروان وسوسه والمستير وصفاقس فابقى بها أنواع الاداء السابق المختلف الاسماء على أنواع المكاسب وتلقت الامة ذلك العمل بالسرور والانقياد الا السادات المعاويين الاشراف من أهالى الوطن القبلى لعدم سابقية أداء عليهم وكذلك ضبط اعشار القمح والشعير وجعل على كل ماشية قدرا معينا هو أقل ما يمكن حصوله فى الغالب الا أن يكون قحط بالمرة واذا ثبت القحط يسقط على صاحبه وذلك المقدار هو ربع القفيز من كل نوع وان زاد العشر الحقيقى على

ذلك القدر فهو موكول الى ديانة صاحبه يدفعه لمن شاء كل ذلك تحاميا عن أبواب المظالم وهكذا رتب اعشار الزيت وجعل لها مكاييل منضبطة ولا يأخذ الا العشر وشيأ يسيرا مقدارا معينا لكراء المعصرة وشدد النكير على العمال فيما اذا امتدت أيديهم الى شئ زائد من الرعايا لانه جعل لهم مرتبات على حسب أعمالهم يأخذونها من الحكومة ولم تنفع جناية العامل قرابته لانه كان صلبا فى الحق حتى عاقب اصهاره بأخذ ما أخذوه من الرعايا وسجن بعضهم بما كنهم وسجن أتباعهم الذين شاركوهم فى الاخذ وتوسطوا فيه ولذلك انكف الوزير مصطفى خزنه دار وصار على حذر الاماندر أواخر مدة الوالى المذكور وكان هذا الوالى جريا على الحكم ولو بالقتل فيما يراه من الحقوق واشتد خوف الوزير منه باطنا الى ان حصل من أحد أتباع القائد نسيم اليهودى سبا للدين الاسلامى علنا فى مجمع عظيم من المسلمين وكان أمر الدين اذ ذاك وشعائره بالمكان الاعلى على ما تقدم بيانه فاهتزت البلاد تعظيما للخطر سيما وقد رأوا أن الرجل لا تناله الاحكام لانه انما قدم على مثل ذلك اعتمادا على الاحتماء بسيده الذى هو من خواص الوزير وبلغ ذلك للوالى وقد كان منذ قريب قتل عسكريا بالقتله يهوديا على مقتضى المذهب الحنفى من قتل المسلم بالذمى مع ان احكام قتل النفس فى القطر جارية على مقتضى المذهب المالكى لانه يرى القود بغير الحد وهو الموافق لحالة أهل القطر ولمذهب أغلبهم وهذا المذهب لا يرى قتل المسلم بالكافر فخالف الوالى عادة البلاد وأجرى حكم المذهب الحنفى فلزمه نظرا للهيجان العام توجيه النازلة الى المجلس الشرعى فحكم المالكية بقتل اليهودى ووافقهم أغلب الحنفية وكتب فيها الشيخ بيرم الرابع بالموافقة مع نقل نصوص مدارها على التعزير المغلظ وقد يبلغ به للقتل وهو المبين فى معروضات أبى السعود وقد تحقق ما ظنته العامة فان الوزير عارض انتصار التابعة فى انفاذ الحكم وطلب من الوالى ان يحكم هو فى الجانى بغير القتل وألح عليه فامتنع لما تقدم واحتال الوزير حتى باغراء قنسل الفرانسيس بالتداخل فى النازلة وأنفذ الوالى الحكم فانتهزها الوزير فرصة ولاذ بفرانسا بواسطة قنسلها الى ان أتى الاسطول الفرانساوى فى المحرم سنة ١٢٧٤ وألح رئيسه وقنسلهم وعضدهم قنسل الانكليز على انشاء عهد الامان ومما استدل به كل منهم عمل الدولة العثمانية بالتنظيمات الخيرية حتى صرح بذلك وزير الخارجية لفرانسا فى مكتوبه المرسل فى ذلك الشأن الى قنسله المأمور بقراءته على الوالى وتفاوض الوالى مع خاصته ووزرائه فى ذلك واستقر الامر على انشاء عهد

الامان

الامان وقرئ فى موكب شامل لجميع المتوظفين وأعيان البلاد ونواب الدول ورئيس الاسطول الفرانساوى (ونصه) بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى أوضح للحق ❁ سبيلا وجعل العدل لحفظ نظام العالم كفيلا ونزل الاحكام على قدر المصالح تنزيلا ووعد العادل وتوعد الجائر ومن أصدق من الله قيلا والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى مدحه فى كتابه بالرؤف الرحيم وفضله تفضيلا وبعثه بالحنفية السمحا فبينها تبيينا وفصلها تفصيلا ورتبها كما أمره ربه اباحة وندبا وتحريما وتحليلا فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا وعلى آله وأصحابه الذين أقاموا على معالم الهدى علما لمن اقتدى ودليلا وفهموا الشريعة نصا وتأويلا وأبقوا سيرتهم الفاضلة وأحكامهم العادلة أمانا جليلا ونستوهبك اللهم توفيقا يوصل الى الاسعاد برضاك توصيلا وعونا على أمور الامارة التى من حملها فقد حمل عبأ ثقيلا فقد توكلنا عليك وأتجهنا اليك وكفى بالله وكيلا (أما بعد) فان هذا الامر الذى قلدنا الله منه ما قلده وأسنده الينا من أمور خلقه بهذا القطر فيما أسنده ألزمنا فيه حقوقا واجبه وفروضا لازبة راتبه لا تستطاع الا باعانته التى عليها الاعتماد ولولاها فمن يقوم بحق الله وحق العباد فمحضنا النصيحة لله فى عباده وأرضه وبلاده والامل أن لا نبتغى فيهم بحول الله ظلما ولا هضما ولا نخرم لهم فى اقامة حقوقهم نظما وانى ينصرف عن هذا القصد بعمله ونيته من يعلم أن الله لا يظلم مثقال ذرة ولا يحب الظالمين فى بريته فقد قال لنبيه المعصوم الاواب ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب والله يرى انى آثرت فى قبول هذا الامر على خطره مصلحة الوطن على ذاتى وعمرت بخدمته الفكرية والمدنية غالب أوقاتى وقدمت من التخفيفات فى الجبايات ما علم خبره وظهر بعون الله أثره فانتشرت الامال وتشوقت النفوس الى ثمرات الاعمال وانقبضت عن التعدى أيدى العمال واستقصاء المصالح يقتضى تقديم اجمال ومن رام مهاجلة فقد عرضها بسبب التعذر الى الاهمال ورأينا غالب أهل القطر لم يحصل لهم الامنية باجراء ما عقدنا عليه النية وجرت عادة الله أن العمران لا يقع من نوع الانسان الا اذا علم ان برأته هى الامن له والامان وتحقق أن سياج العدل يدفع عنه خوف العدوان وان لا وصول لهتك ستر من حرماته الا بقوة الدليل ووضوح البرهان ولا يكفى لتحققه

الواحد والاثنان فاذا رأى الجانى تعدد الانظار غلط ان كان منصفا حدسه وقال ومن
يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه وقد رأينا سلطنة الاسلام والدول العظام الذين على
سياستهم الدنيوية اعمال الاعلام فى النقض والابرام يؤكدون الامان من أنفسهم
للرعية ويرونه من الحقوق الواجبة المرعية وهو أمر يستحسنه العقل والطبع
واذا اعتبرت مصلحته فهو مما يشهد باعتباره الشرع لان الشريعة جاءت لاخراج
المكلف عن داعية الهوى ومن التزم العدل وأقسم عليه فهو أقرب للتقوى
وبالامن تطمئن القلوب وتقوى وقبل هذا كاتبنا علماء الملة الاركان وبعض الاعيان
بعزمنا على ترتيب مجالس ذات أركان للنظر فى أحوال الجنايات من نوع الانسان
والمتاجر التى بها ثروة البلدان وشرعنا فى فصوله السياسية بما لا يصادم القواعد
الشرعيه هذا وأحكام الشريعة جارية مطاعه والله يديم العمل بها الى قيام الساعه
وهذا القانون السياسى يستدعى زمنا لتحرير ترتيبه وتدوينه وتهذيبه وأرجو الله
الذى ينظر الى قلوبنا أن تستقيم بهذا الترتيب أحوال الرياسة ولا يخالفه ما ورد عن
السلف الصالح من اعتبار السياسة وأنا العبد الفقير نعجل لمرضاة ربى بما تطمئن اليه
النفوس وتكون منزلته فى النفس منزلة المشاهد المحسوس وتأسيسه على (١١)
قواعد الاولى تأكيد الامان لسائر رعيتنا وسكان ايالتنا على اختلاف الاديان
والالسنة والالوان فى أبدانهم المكرمة وأموالهم المحرمة وأعراضهم المحترمة الا بحق
يوجبه نظر المجلس بالشورى ويرفعه الينا ولنا النظر فى الامضاء أو التخفيف ما أمكن
أو الاذن باعادة النظر (الثانية) تساوى الناس فى أصل قانون الاداء المرتب
أو ما يترتب وان اختلف باختلاف الكمية بحيث لا يسقط القانون عن العظيم لعظمته
ولا يحط عن الحقير لحقارته ويأتى بيانه موضحا (الثالثة) التسوية بين المسلم وغيره
من سكان الايالة فى استحقاق الانصاف لان استحقاقه لذلك بوصف الانسانية
لا بغيره من الاوصاف والعدل فى الارض هو الميزان المستوى يؤخذ به للمحق من المبطل
وللضعيف من القوى (الرابعة) أن الذمى من رعيتنا لا يجبر على تبديل دينه ولا يمنع
من اجراء ما يلزم ديانته ولا تمتهن مجامعهم ويكون لهم الامان من الاذاية والامتهان لان
ذمتهم تقتضى أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا (الخامسة) لما كان العسكر من أسباب حفظ
النوع ومصلحته تعم المجموع ولا بد للانسان من زمن لتدبير عيشه والقيام على أهله فلا
نأخذ العسكر الا بترتيب وقرعة ولا يبقى العسكرى فى الخدمة اكثر من مدة معلومة كما

نحرره

نحرره فى قانون العسكر (السادسة) ان مجالس النظر فى الجنايات اذا كان الحكم فيه
بعقوبة على أحد من أهل الذمة يلزم ان يحضره من نعينه من كبرائهم تأنيسا لنفوسهم
ودفعا لما يتوهمونه من الحيف والشريعة توصى بهم خيرا (السابعة) اننا نجعل مجالسا
للتجارات برئيس وكاتب وأعضاء من المسلمين وغيرهم من رعايا أحبابنا الدول للنظر
فى نوازل التجارات بعد الاتفاق مع أحبابنا الدول العظام فى كيفية دخول رعاياهم
تحت حكم المجالس كما يأتى ايضاح تفصيله قطعا للتشعب الخصام (الثامنة) ان سائر رعايانا
من المسلمين وغيرهم لهم المساوات فى الامور العرفية والقوانين الحكمية لا فضل لاحدهم
على الآخر فى ذلك (التاسعة) تسريح المتجر من اختصاص أحد به بل يكون مباحا لكل
أحد ولا تتاجر الدولة بتجارة ولا تمنع غيرها منها وتكون العناية باعانة عموم المتجر ومنع
أسباب تعطيله (العاشر) ان الوافدين على ايالتنا لهم ان يحترفوا بسائر الصنائع والخدم
بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتى يمكن ان تترتب مثل سائر أهل البلاد لا فضل لاحد
على الآخر بعد الانفصال مع دولهم فى كيفية دخولهم تحت ذلك كما يأتى بيانه (الحادية
عشر) ان الواردين على ايالتنا من سائر أتباع الدول لهم ان يشتروا سائر ما يملك من الدور
والاجنة والارضين مثل سائر أهل البلاد بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتى تترتب
من غير امتناع ولا فرق فى أدنى شئ من قوانين البلاد ونبين بعد هذا كيفية السكنى بحيث
ان المالك يكون عالما بذلك وداخلا على اعتباره بعد الاتفاق مع أحبابنا الدول فعلى
عهد الله وميثاقه ان نجرى هذه الاصول التى سطرناها على نحو ما بيناها اووراءها اليه ان
لعناها وأشهد الله وهذا الجمع العظيم المرموق بعين التعظيم فى حق نفسى وعلى من
يكون من بعدى ان لا يتم له أمر الا باليمين على هذا الامان الذى بذلت فيه جهدى
وجعلت سائر الحاضرين من نواب الدول العظام وأعيان رعيتنا شهداء على عهدى
والله يعلم ان هذا القصد الذى أظهرته وجمعت له هؤلاء الاعيان واشهرته هو ما أودعه
الله فى نيتى واجراء أصوله وفروعه فورا أعظم أمنيتى والمرء مطلوب بجهده ومن عاهد
الله لزمه الوفاء بعهده والحق هو العروة الوثقى والآخرة خير وأبقى واستحلف من
لدى من هؤلاء الثقات والحماة الكفاة ان يكونوا معى فى اجراء هذه المصلحة
يدا واحدة بقلوب سليمة متعاضدة واقول لهم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد
جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون اللهم من أعاننا على مصالح عبادك فكن
له معينا وأورده من توفيقك عذبا معينا اللهم اجعل لنا من عنايتك واعانتك مددا

وهب لنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا منك الاعانة على ما وليت ولك
الشكر على ما أوليت المهدى من هديت والخير كله فيما قضيت هذه مقدمة أنتجتها
الاستشارة ورآها العبد الفقير ناجحة صالحة فاعنا اللهم ببركة القرآن وأسرار الفاتحة
والسلام من الفقير الى ربه تعالى عبده المشير محمد باشا باى صاحب المملكة التونسية
فى ٢٠ محرم الحرام سنة أربع وسبعين ومائتين وألف صح من كاتبه المشير محمد باشا
باى والله على ما نقول وكيل ❀ (ثم عقد الوالى) مجلسا رئيسه الوزير مصطفى خزنة دار
وزير العمالة وأعضاؤه مصطفى آغه وزير الحرب وخير الدين وزير البحر والوزير
اسماعيل السنى والوزير محمد وكاتب أسرار الوالى أحمد ابن أبى الضياف وأذنهم
باستخراج أحكام سياسية تدور عليها أعمال الحكومة واستخراج أحكام فرعية فى
الحقوق الشخصية يجرى بها الحكم فى القطر وأذن أن يكون شيخ الاسلام محمد بيرم
الرابع أحد أعضائه فامتنع من الحضور دون مشارك من العلماء الحنفية والمالكية
واستقر الرأى على اضافة الشيخ محمد ابن الخواجه المفتى الحنفى والشيخ احمد بن حسين
رئيس الفتوى فى المذهب المالكى والشيخ محمد البنا المفتى المالكى وهؤلاء الاعلام
الاربعة هم أكبر علماء القطر اذ ذاك فحضروا أولا ثم امتنعوا واكتفوا بان كتب كل
منهم شرحا منفردا على الاحدى عشرة قاعدة المار ذكرها أبدوا فيها الاحكام الشرعية
المطابقة لتلك القواعد واقتصروا على ذلك متعللين بان الذى بدا لهم من مغزى الجماعة
هو الميل البحت للسياسة الساذجة من غير التفات الى محاذاة الشرع بل وربما عرض
ما يصادم القواطع وحيث كان عمل المجلس على ما يستقر عليه رأى الغالب لم يأمنوا ان
يسند الى المجلس ما يخالف الشرع ويحمل ذلك على عاتقهم والذى تبين لكل من
الفريقين فيما بعد مما ولدته الليالى ان الصواب فى غير مسلكه على ما يحرر ان شاء الله
تعالى فى الخاتمة ولم يتم هذا المشروع فى مدة الوالى المذكور مع حرص القناسل عليه
وتأكيدهم بانه لا محيص عما أشهدهم عليه بالنيابة عن دولهم ولم يبخل الوالى بذلك
لانه محب طبعا للعدل وانما عاقه عن اتمامه الاجل وفى آخر مدته أغراه وزيره بمعاضدة
مع روش قنسل فرنسا حيث كان العامل فرانساويا على ما يأتى وحسن للوالى جلب ماء
زغوان الذى كان جاريا بالقرطاجنة فى قنوات من البناء وعلى حنايا بان يجلب على يد جمعية
فرنساوية فى قنوات من حديد ويوصل الى المرسى والحاضرة وانما يحصل من ثمنه للديار
وللمزارع يوفى بالمصروف عليه فى مدة يسيرة وينشأ منه فوائد للزراعة حول الحاضرة

والمرسى وكان الوالى مغرما بحب العمران والفلاحة وبالمرسى أيضا وهى معطشة من قلة
الماء الحلو فوافق على ذلك واتفقوا على جلبه وعلى بناء دار القنسلات فرانساوية خارج
باب البحر من الحاضرة بمقدار للجميع قدره اثنا عشر مليونا تدفع على اقساط أربعة كل
قسط فى سنة بثلاثة ملايين وقد عد بعضهم ذلك مبدأ محن القطر حيث آل الى دين بالربا
والحق انه لا لوم على الوالى فى ذلك لان الحكم على ما هو موجود وعلى اعتبار جريان الامر
على الاستقامة ولا يحمل عليه فساد غيره وان بناه على شئ من أعماله هو فى نفسه
سليما اذ المفسد يبنى فساده على ما يريد والنظر فى الحقيقة للعمل من حيث هو فينظر فيه
هل فيه مصلحة أم لا وجلب ذلك الماء على الكيفية المذكورة فيه مصلحة وهو تعطش
البلاد فى أغلب السنين لان شربها من المواجل المحبوس فيها ماء المطر ومن بير خارجها
ماؤها غير خالص العذوبة تسمى بير كلاب ويستعمل لغسل الصابون مياه فساقى حول
الحاضرة لان ابارها ماؤها ملح لا يصلح الا لاستعمال تنظيف البيوت وكثيرا من السنين
تحصل الشدة للاهالى من قلة الماء صيفا حتى يبلغ ثمن القلة لمقادير وافرة مع التعب فى
جلبه ثم اعتزام الوالى بالفلاحة ترغيبا للسكان فى العمران الذى أغرا اقبالهم عليها على
ما سيرد يستدعى جلب الماء الحلو على أن مالية الحكومة اذ ذاك وافية بذلك المقدار لان
الفلاحة التى هى ركن ثروة هذا القطر قد تكاثرت فى تلك المدة وأقبلت عليها الناس
اقبالا عجيبا حتى غلت أسعار الاراضى ملكا وكراء وغلت أسعار الحيوانات وغلى قرض
الاجير المسمى بالخماس غلوا فاحشا حتى بلغ قرض الخماس الى ألف وخمسمائة ريال
وذلك لكثرة استغناء الاهالى سيما الاعراب وانفتهم من صناعة الخماسة لاقتدار كل على
أن يصير فلاحا مستقلا بنفسه ونتج من ذلك ثروة الحكومة ثروة زائدة على المعتاد مع
نقصان المصاريف على العساكر فكان دخل الحكومة فى الاول نحو نيف وعشرين
مليونا فى السنة وبيان تقريبه ما يأتى

﴿ريالات﴾

ريالات	
٩٧٠٠٠٠٠	عدد النفوس التى تؤدى الجباية ٢٧٠٠٠٠ على كل نفس ريالات ٣٦
٦٠٠٠٠٠	مدخول مكس الغلال فى الحاضرة المسمى فندق الغلة
٥٠٠٠٠٠	دار الجلد أى محل دبغ الجلود
٥٠٠٠٠٠	كمرك الدخان

ريالات	
٠٦٠٠٠٠٠	كمرك السلع الداخلة والخارجة
١٠٠٠٠٠٠	سراح خروج الزيت والقمح والحبوب
١١٠٠٠٠٠	قانون زيتون الساحل وصفاقس
٠٩٠٠٠٠٠	قانون نخيل الجريد
٠٥٠٠٠٠٠	محصولات المدن وغيرها أى الاداء على ما يباع فى الاسواق
٠٥٠٠٠٠٠	لزامات صغيرة فى الحاضرة وغيرها كالحوت والخيل وغيرها
٦٧٥٠٠٠٠	اعشار القمح والشعير على كل ماشية ربع قفيز قمحا ومثله شعيرا وعدد ١٢٠٠٠٠ المواشى فيجتمع من ذلك اقفزة ٣٠٠٠٠ قمحا ومثلها شعير سعر ١٥٠ الاول وسعر ٧٥ الثانى
٠٣٠٠٠٠٠	اعشار الزيت متوسطا كل سنة امطار زيتا ١٢٠٠٠ سعر ٢٥ المطر
٢٢٩٥٠٠٠٠	الجمع

فالحكومة التى دخلها ماتقدم ومصاريفها الاعتيادية لاتتجاوز الاثنى عشر مليونا الان أحمد باشا مع كثرة عساكره ومصاريفها كان دخل الحكومة زمنه نحو خمسة عشر مليونا الى الثمانية عشر ومصاريفها مثل ذلك لانه لم يتداين شيأ ومحمد باشا انقص كثيرا من العساكر فلم يكن مصروفه الاعتيادى مجاوزا الاثنى عشر مليونا نعم له مصاريف غير اعتيادية فيما يخص ذاته وماذا عساها ان تبلغ فاذا دفع من دخل الحكومة ثلاثة ملايين فى السنة مدة أربع سنين لمنفعة عامة لايكون فيه ضرر ولا اعتماده على مثل ذلك اشترى له الوزير المذكور مصطفى خزنة دار مصوغا بقيمة خمسة عشر مليونا مقسط ثمنه أيضا ليكون ذلك ذخرا للحكومة عوضا عما باعه أحمد باشا من ذخائرها الثمينة فى مصاريف حرب الروسيا لان المال الناض يسهل اليه امتداد الايدى بخلاف المجوهرات مع ما فى طبع الوالى من الميل الى طبائع الاقدمين ومنها ادخار المصوغ وهو ولان كان مسرفا فيما يتعلق بذاته وحرمه بالنسبة لاسلافه لكنه يؤثر الاقتصاد للعامة واتباع الحكومة بان يستلطف لهم لكى يقتصدوا فى مصاريفهم فقد قدم عليه المولى الامام الشريف سيدى محمد الشريف فى رمضان وكان محبا للاشراف معظما لهم شنشنة أهل تونس الاسلامية

فأدخله

قدوم الرجل الا اذا حاربكم فدافعوا عن أنفسكم وكاتب المذكور رئيس الفتيا العلامة الشيخ أحمد بن حسين وطلب منه التوسط فى الصلح مع الحكومة وحاصل مطالب الجميع ابطال الاداء الجديد وعزل الوزير مصطفى خزنه دار ومحاسبته فامتنع الوالى أولا من جميع مطالبهم واشتد الكرب على الحكومة حتى لم يبق أمر الوالى نافذا الا فى الحاضرة ونحو اثنى عشر ميلا حولها واشتد الخوف فى الحاضرة وقدمت اساطيل الدول وأسطول الدولة العثمانية وفيه رسول سياسى انزل فى قصر المملكة بالحاضرة وتداخلت نواب الدول فى النازلة وفى قبائل القطر وبلدانه كل بما يوافق سياسته وكان من جملة الحاح قنسل الفرانسيس على الوالى لارجاع الراحة عزل الوزير خزنه دار لكنه خاطبه بذلك شفاها كما هو مشهور فى البلاد ورأيته بخط الوزير ابن أبى الضياف وأصر الوالى على الامتناع الى ان أحضر الوالى معسكرا قليلا وجهه تحت رياسة اسماعيل السنى لميل الاعراب له لصدقه ثم خلفه الوزير رستم عند مرض الاول ووقع الاتفاق مع جمهورهم على اعطاء الوالى الامان الى الجميع واسقاط الاداء المطلوب وعفا الله عما سلف وكتب الوالى بذلك أوامره وباشر باعطاء الامن كل من وفد عليه من الرؤساء وانتهز الوزير الفرصة لابطال القوانين بدعوى ان الثورة قامت لطلب ابطالها وما سمع ذلك من أحد لان أصولها لاتنافى الشريعة وغاية ما تكلمت فيه الناس هو فروع منها وذلك انهم أنكروا كون قوانين الاحكام الشخصية لم تكن شرعية فى كثير من المسائل ونسبها الجهلاء الى انها كلها مخالفة للشرع لجهلهم ولرؤيتهم هيئة الحكم على خلاف ما تعودوه فى هيئة الاحكام الشرعية وللتصريح بقصر الاحكام الشرعية على أبواب خاصة دينية ولعدم ادخال الحكام الشرعيين فى الحكم بالقوانين ولان بعض من ادخل فى الحكام لا جدارة له بها حتى خرج عن طوره بما لم تحتمله انفس المعاصرين ولانه أجريت القوانين دفعة واحدة فى جميع الانحاء حتى فى القبائل التى لم يوجد ان يوظف فيها من يعرف القراءة والكتابة التى هى ضرورية فى المتوظف وصاروا يخبطون خبط عشواء وكذلك مل الاهالى من التطويل الزائد فى الاحكام على ما هو عادة الاشياء فى مبدئها فهو فى الحقيقة ارادة لاصلاح نفس القوانين لا كره ذاتها بدليل ان المجلس الاكبر لم يتعرض له أحد من العامة والخاصة بالقدح فيه الا بعدم اشتماله على افراد من جهة المملكة حذاق لكى يعرفوا بما يليق بأحوال أطراف القطر والحال ان المجلس الاكبر هو روح القوانين لمحافظته على أساسها الكن الذى لم يكن له قصد سوى الامن على نفسه

وقد وجد الوالى لايخشى منه أشاع هو ومن كان على شاكلته ان الناس يطلبون ابطال القانون وقد اعتمدت تلك الاشاعة وابطل القانون والدليل على ان الناس لم يطلبوا ذلك المكاتيب التى أرسلها قنسل الانكليز تسجيلا على ابطال المجالس ومفهومها قاض بموافقته قنسل فرانسا على ذلك وان كان سر الامر هو الاغراء من قنسل فرانسا بابطالها لما ذكر فى سياسة فرانسا بتونس ونص تعريب مكتوب قنسل الانكليز الاول فى فبراير سنة (١٨٦٤ م ١٢٨٠ ﻫ) المعروض على جنابكم الرفيع انى نرى من الواجب على ان نذكر جنابكم فى هذا الوقت الذى أحواله الزمت جنابكم الرفيع توقيف تراتيب الحنان الموسسة على الحرية فى بلادكم فان هاته التراتيب وقعت الوصاية فى شأنها وكان ترتيبها بملاحظة الدولتين الحبيبتين الانكليزية والفرنساوية وجنابكم وعدهما اذ ذاك رسميا باتمامها وابقائها على جميع قوتها وعدم تغييرها ووكيل الدولة الامبراطورية الفرانساوية ورد له الاذن من دولته كما ورد لى الاذن من دولتى لانهما على اتفاق واحد فى النازلة وفى الحث على طلب ترتيب المجالس المختلطة بسرعة لفصل نوازل الجنايات والنوازل المتجرية لما يلزم من الوقت لعمل القانون المتجرى ولما كان الاذن المذكور الصادر لنا من دولتنا الذى تشرفت بعرضه على جنابكم بمكتوبى المؤرخ فى (١٧) اشتنبر سنة (١٨٥٧) وهو نظير المكتوب الذى خاطبكم به موسيو روش نصا سواء ولم تزل المكاتيب موجودة يجب ان تكون سير نواب الدولتين فى هذه المملكة على مقتضاها ولهذا يجب ان نطلب من جنابكم بشدة حرص أمراز الثداء على ابقاء المجالس وهو المبادرة الى المجالس المختلطة الموعود بها منذ زمان طويل وبمقتضى ماتقدم من الاذن طلبت مشاركة قنسل جنرال دولة فرانسا فى هذا المطلب كما يطلع جنابكم على نسخة مكتوبى اليه وهو موسيو دين بوفال هذا وزيادة على الوعد الرسمى الذى اعطاه جنابكم الى ملكى انكلاتيره وفرانسا بحفظكم التراتيب المبنية على الحنان والتمدن التى أعطاها جنابكم لبلاده لايخفى عليكم ان دولة انكلاتيره عقدت مع دولتكم شروطا تقتضى دوام التراتيب المذكورة لانها هى الحافظة لحقوق رعايا انكلاتيره فى هذه المملكة ومع وجود ذلك فتبديل تراتيب الحكومة الآن والرجوع الى الكيفية القديمة بدون سبقية اعلام للدولتين الانكليزية والفرنساوية بمقصود جنابكم يظهر منه فى السياسة انه فعل يدل على نقصان الاعتبار ولاشك فى عدم وقوع ذلك من جنابكم مع دولتين حبيبتين وأيضا يظهر منه انه غير صواب مع الدولة الانكليزية

الانكليزية التى فى شروطها الاخيرة صدقت امان الحكومة التونسية ومحبة الدولتين الى جنابكم توجب على عدم الزيادة فى المشاق الموجودة فى حكومتكم بمطالب تشق فى هذا الوقت ولكن واجبات خدمتى تلزمنى ان أطلب منكم رسميا دوام الاصول المؤسسة عليها ادارة الحكومة وخصوصا انى اترك لجنابكم انتخاب الكيفية التى تظهر لجنابكم انها الاليقة ومناسبة لاجراء تلك الاصول والجنوس المتقدمة فى التمدن ربما لزمهم فى أزمان متعددة بدون أن يتعرضوا الاصول المؤسسة عليها قوانينها تبديل كيفية العمل بها وهذا الباب مفتوح لتونس اقتداء بالدول الاوروباوية الذين لاشك فى فطنتهم وحكمتهم وهذا الامر يظهر لى انه سهل حيث ان التشكى الواقع من زيادة الاداء ومن تطويل المجالس فى الحكم يمكن دواؤه بما تتهنى به البلاد وترجع الى حالها الاصلى وهذا أعظم دليل على حسن خلق الرعية المستنتجة من هذه التراتيب لانه لم يوجد فى تواريخ تونس مثل سيرة القبائل فى هذا الزمن لما لهم من الشكايات وهم متسلحون على عاداتهم السابقة فى سالف الزمن لكن لم يتعرضوا بسلاحهم الا للامتناع من أداء ثقيل فوق طاقتهم اﻫ ثم كاتب الوالى أيضا بما نص تعريبه فى مايه سنة ١٨٦٤ الواضع اسمه أسفله يتشرف بتقريرما يأتى وهو انى لما اعتبرت شأن الحال الغير المترقب الذى عرض لحكومة تونس رأيت من مقتضى الوداد أن لا أعطل سير عملها بما لا يقتضيه الحال ومع ذلك حيث لم يبلغنى اعلام رسمى منكم بشرح كيفية مقدار التوقف الوقتى الذى وقع فى قيود العمالة علاجا لامرها فقد وجب على الواضع اسمه أن يطلب التعريف فى ذلك كما أنه يجب عليه المحافظة بمقتضى هذا المكتوب على ابقاء ماحصل لدولة بريطانيا العظمى من الحقوق التى لانزاع فيها بمقتضى شروطها مع على جناب الباى محافظة متعلقة بما يمسها بمقتضى التوقيف الوقتى المذكور فالواضع اسمه يقرر للجناب أن تلك الحقوق معتمدها الاعتماد العمومى وقد لزم شرح الاسباب المبنى عليها تقريره وهو أن المرحوم سيدى محمد باى والجناب العلى أدام الله عزه لما أصدرا عهد الامان فهما ووزراؤهما والمفتون والقضاة وجميع علماء الشريعة الشريفة حلفوا يمينا وأكدوا يمينهم باستدعاء حضرة وكلاء الدول الاجانب بانهم يحافظون على الوفاء بعهد الامان بجميع شروطه وأبانوا أن عهد الامان جزء من شروط الشريعة الشريفة والعلماء الكرام المذكورون ورجال الدولة أشهدوا الله على صدق نيتهم فى ابقائها على الدوام والاستمرار من يوم صدورها فصاعدا وأن دولة بريطانيا العظمى اعتمدت

على الوفاء والاعتقاد الذى لايمكن منه فسخ لعهد الامان بمقتضى هذه الايمان وعقدت
مع على جناب الباى اتفاقا متعلقا بامور منصوصة فيه فينتج من ذلك أن الحقوق المسلمة
لرعية الانكليز ولوازمها التابعة لتلك الحقوق بمقتضى الاتفاق المذكور معتمدها هو عهد
الامان والقوانين الناشئة منه وبذلك صار حقا من حقوق الدولة الانكليزية يقتضى ان
تطلع بسبب ذلك على حقيقة الحال فى شأن عهد الامان هل هو عامل بجميع شروطه
أم لا وكذلك توقيف القوانين الناشئة منه هل هى معالجة وقتية ثم هل الحكومة
التونسية مرادها ان تجرى فى المستقبل الاصول المقررة به على صورة مناسبة لحفظ
مكاسب الانكليز فى العمالة التونسية وتأمينها والواضع اسمه يطلب بحرص واجتهاد
لاينافى الادب والتواضع جوابا شافيا شارحا للاستفهامات المذكورة ليخبر بها دولة
مملكته المعظمة وكذلك ان الواضع اسمه يبقى ويحفظ على لسان دولته فى حقها على جميع
الحقوق ولوازمها والكفالات التى أعطيت لرعايا الانكليز بمقتضى ماهى مبينة
بالاتفاق المذكور ويقرر أيضا ان ذلك الاتفاق اتفاق عمومى لايخالف فيه من الجانبين
اه واعاد الكتابة فى يوليه الموافق لاواخر صفر سنة (١٢٨١) ونص تعريب المكتوب
الواضع اسمه أسفله نائب وقنصل جنرال حضرة المعظمة ملكة بريطانيا العظمى قد
تشرف بمخاطبة الجناب العلى بمكتوب مؤرخ فى مايه سنة (١٨٦٤) طالبا منه
الشرح فى شأن التوقيف الوقتى الذى وقع فى رسوم العمالة بسبب أمر غير متوقع وقد أبقى
وحافظ على لسان دولته فى حقها على الحقوق التى يستحيل النزاع فيها الحاصلة لدولة
المعظمة المالكة بموجب اتفاقها المعقود مع على جناب الباى بمقتضى عهد الامان
والقوانين الناشئة منه وتوقيفها يمس الحقوق المذكورة وان الواضع اسمه لايمكن ان لا
يحصل له فى النازلة شئ من الفكر لانه يرى انه مضى شهران ونصف ولم يتشرف من
الحضرة برد الجواب عن مكتوبه ولمراعاة الحكومة التونسية لم تقع معارضة غير
ضرورية فى سبيل اطلاق عملها والغا الواضع اسمه أثناه الاذن بعد ذلك فى تقوية عهد
الامان بسند مع ان دولة المعظمة المالكة لها اعتماد بان عهد الامان لما كان مبنيا على
شروط الشريعة الشريفة لايمكن نقضه الا بنقض نفس الشريعة ولم تتخيل ولايخطر
ببالها بوجه من الوجوه ان السادة الاجلاء المفتيين والمدرسين للشريعة الذين حلفوا
يمينا على ابقاء عهد الامان ان يرضوا بان يشيع فى العالم مالاينا سبهم من وقوع الشك
فى وفائهم بما عاهدوا عليه ومع ذلك دولة المعظمة المالكة ترى فى الامور المتعلقة باتفاق

عمومى

عمومى بينها وبين الحكومة التونسية أعظم اعتمادها دون الاعتقاد العمومى وهو صدق
الباى ومحبته فى اجراء العمل كما يجب بمقتضى الاتفاق المذكور فلذلك الواضع اسمه
يرجو ان على جناب الباى يتفضل بالجواب عن الاسئلة المبينة فى مكتوبه المؤرخ فى مايه
وذلك لاعلام دولته بجواب مقنع فأجابه الوالى فى ذلك التاريخ بان عهد الامان باق
على قوته ومفهومه فلو كانت الاهالى طلبوا ابطال القانون لما استطاع القنسل
ان يسجل ضد للرأى العام فيما يرجع اليهم على انه قد صرح رسميا بما هو
مطلوبهم كما هو بين لمن تدبر عبارة مكتوبه وكذلك ما نسب الى قنسل الفرانسيس ولو
كان امتناع الاهالى من القوانين موجودا لكان للوالى أعظم حجة فى التعلل بدليل انه
يحتج به فى خلواته على من لايقدر على معارضته ومن وقتئذ تسلطت أيدى العدوان
على الاهالى بسلب الاموال والقتل والضرب بالسياط المؤدى الى القتل لان الوزير
اشتد حنقه عليهم حتى دخل عليه أحد الاعيان يوما وهو يقول طلبوا دمى فلا أرضى
الا بدمائهم طلبوا مالى فلا أرضى الا بأموالهم ولعل مراده بطلب دمه هو طلب عزله وقد
اعتادوا فى بعض الوزراء السابقين قتلهم فظن ان العزل يؤدى للقتل والا فنفس قتله
لم يطلبه أحد أما المال فهم قد طلبوا حسابه وأول باكورة بعد ابطال القوانين افتتح بها
لاهل الحاضرة مع انهم هم وحدهم الذين بقوا خاضعين للحكومة الا انه كثر بينهم
الكلام فى انصاف مطالب الاهالى فجلد أحد أعيانهم المسمى محمد بن مصطفى عجم الشهير
فيهم بالوجاهة بمجرد تهمته انه أغرى بعض غلمان القصر الاميرى بالهروب فجلد خمسمائة
سوط مؤلمة بحضور أحد خواص الوالى لاتقانها واكمال عددها وسجن مع الاعمال
الشاقة فى الكراكة ومنهم محمود بن سالم أحد الاعيان من التجار وأحد أعضاء مجالسهم
ادعى الوزير انه اشتكى به اليه من جماعة المجالس وسجنه ومن أغرب الامور انه لما لاذ
أهل المسجون بالوزير طالبين تسريحه أو بيان ما هو مطلوب فيه ارسل الى جماعته يسألهم
ماهى شكواكم التى سجن بها الرجل فأجابوه ان جنابه أعلم بها منهم لانه اعتمدها حتى
عاقب الرجل بالسجن كما حصل لرجال الحكومة اشياء فمنها أنه حجر على الوزير اسماعيل
السنى الذى اعتمد فى حل عقدة الثورة وعلى أمير الامراء رشيد الذى سافر بالعساكر الى
الاستانة فى حرب القريم وأمير اللوا الشريف السيد حسن المقرون الذى له اليد
البيضاء فى حفظ الراحة فى الثورة فى الحاضرة وحسين ورديان باشا وخسرف وعلى جهان
ويونس الجزيرى أمير لوا وحسن المدلجى أمير ألاى والسيد محمد المقرون ومحمد بن الحاج

رئيس عساكر زواوة الذي جمعهم له عند عدم وجود غيرهم في الثورة واعانه بما استطاع فجبر على جميع هؤلاء في الخروج من بيوتهم ومخالطة الناس لانه كان يوجس منهم الاعتراض على التصرفات ثم قتل الاولين في بضع دقائق من غير سماعهم لدعوى ولا حجة ولا استشارة وارتجت البلاد لذلك وشنعت القناسل سيما الفرانساوي والانكليزي وسجلوا تسجيلا شديدا فكاتب الاول اي الفرنساوي الى الوالي بما نص تعريبه اني اتمم خدمتي التي ساءني اتمامها وهي اعلام دولة الامبراطور بالحادث الموجع الذي لوث قصر باردو بالدم فان الفريق رشيد وزير الحرب كان رئيس العساكر التونسية في حرب القريم والفريق اسماعيل السني صهر جنابكم وقع قتلهما في القصر بمجرد تهمة لم يقع اعلامهما ممن صدرت ومن غير أدنى وجه من أوجه الحكم فلم يتيسر لي السكوت في مثل هذا الامر وكان همي ان أقرر لجنابكم التأثير الذي لا بد ان يقع من ذلك وفي سيرتي هذه سبقت اذن جناب دولتي التي استحسنت فعلي المذكور استحسانا تاما وان كنت مأذونا باعلام دولة جنابكم واعلام حضرتكم العلية نفسها بالتأثير الذي وقع لجناب دولة الامبراطور من قتل الشخصين المذكورين ولم تتوقف دولة جنابكم في تحملها تلك المسؤلية العظيمة كما اني مأذون أيضا بان أقرر لجنابكم التشويش الواقع من مشاق هذه الاحوال التي لم تزل تعظم من سائر جهاتها (انتهى) وكتب الثاني أي الانكليزي للوالي أيضا بما نص تعريبه ان الملحوظات الشفاهية التي تسامح الواضع اسمه أسفل هذا المكتوب في عرضها على جنابكم فيما يتعلق بالامور الموجعة التي وقعت بقصر باردو في شهر التاريخ لا بد انها افادت جنابكم بانها صادرة من التأثر القوي الذي عندي في شأن همة جنابكم ومصالحكم وفي شأن التأثير الموجع الذي سيقع بانكلترة من ذلك ودولتي لا توافقني اذا ادعيت التداخل في تصرفات الدولة الداخلية التي يظهر لجنابكم استعمالها لحفظ الراحة العامة من مقاصد بعض الاشرار وبعد الشرح والتفصيل الذي تفضل به جنابكم على لا يبقى لي شك في وجود حجج كافية أظهرت لجنابكم توقع مقاصد موجهة نحو ذاتكم العلية لا تلافها في قصركم نفسه ولا شك بناء على كونكم كبير الدولة ان يكون لكم الحق في استعمال سائر الطرق اللازمة لحل تلك العقدة التي مؤداها اتلاف ذاتكم العلية وخراب المملكة ولكن بسبب كون جنابكم هو شخص الدولة المرتسمة شرعا فصلحتكم تقتضي ضرورة انكم لا تسعوا الا باسم الشرائع وعلى مقتضاها فانها أحسن ضمانة لكم ولا يبعد عنها الا المتعدي عليها بفساده وبعد ان راضت نفس جنابكم وتأملتم في الاحوال

لاشك

لاشك انكم تحققتم ان الخطر الحال الذي كان فيه جنابكم لم يكن حجة كافية في قتل فريقين من دولتكم لان في تباعدكم عن طريقة سيرتكم المعتادة بعدا عن القواعد السالمة المرتسمة في القوانين التي منحتم بها بلادكم وهي وان توقفت بالضروب الموجعة الخارقة للعادة فانها لم تزل موجودة مع ان دولتكم مطلوبة بالشروط المنعقدة بينها وبين بريطانيا العظمى وجنابكم معترف بهذه الحقائق غاية الاعتراف لانكم لم تتوقفوا في اقراركم الرسمي بانكم تحترمون القواعد المذكورة وذلك بمكتوبكم لمسيو أوود المؤرخ في (١٨) اغسطس واستناظر عن مدة توقيف القوانين وقد حصل لي سرور لما حقق لي جنابكم بانه لا يقع في المستقبل مثل هذه الامور الموجعة التي وقعت واعيد القول لجنابكم اني لا اتداخل في البحث عن جرم الجناية التي يمكن ان الشخصين المذكورين ارتكباها الان انسانية جنابكم التي كثير من أدلتها كافل لي بان جنابكم كان متحققا بانهما قتلا على حق ومع هذا التحقق كانوددان كيفية الحكم تكون على الصورة التي تقتضيها القوانين دفعا لما عسى ان يتهمكم به اعداؤكم فان جنايتهما لم تثبت ولا يوجد شك في مساعدة ان القوانين هي أقوى الضمانات التي تستند اليها الملوك كافراد الناس وقد رأينا في كل وقت ان كل من بعد عنها ليستعمل القوة المادية في تصرفه يكون سببا لاعدائه في أن يفعلوا معه كذلك مقتفين آثاره وأرغب من فضلكم المسامحة في هذه الملحوظات فانها لم تقصد الامور والاحوال التي فاتت لسوء البخت ولا يتيسر لاحد اصلاحها وانما المقصود بها الطلب من فضل جنابكم أن تتذكروا ان بلادكم لم تبعد كثيرا عن أوروباوانها اذا لم تتقدم مع تقدم العصر فان قواعد التمدن المتداخلة في كل مكان تعمها ولا يتيسر التصرف الآن كما كان في زمن الجدود لان كل عصر له احكامه وأحكام هذا العصر لا تقتضي ان الحكم الذي سيقع على الاسرى الذين لم يزالوا في العسكر ان الامير يتصرف فيهم بما عنده من القدرة ويرى ان الحق له في التأمل بذاته في نازلة شخصية بل يلزم توفية حق المتهمين لدى مجالس وانه يسمع مقالهم ويخاصمون على انفسهم ويبرؤون انفسهم من التهمة الموجهة عليهم فاذا أثبتت جنايتهم فالقانون يحكم وبهذه الكيفية تستحفظون على همتكم ولا تأخذون من القانون الا الرفيع العالي في حق الملك وهو العفو عن المحكوم عليه (انتهى) ثم جمع الوالي جميع رجال الحكومة وأخبرهم وابلى في ذلك اليوم الوزير خير الدين البلاء الحسن بقوله القرائن التي ذكرت لا تثير لوثا فضلا عن القتل ثم على فرض صحة التهمة فبعد ايقافهما كان الواجب اقامة الدعوى عليهما وسماع

جوابهما عليها الى غير ذلك من الاعمال الواجبة وغاية الحجة فى قتل الشهيدين هى
التهمة باعانة أخ الوالى محمد العادل باى على الهروب مع انه لم يذكر فى معرض الاحسان
معه الارشيد اولم يعرج على اسماعيل بشئ ورشيد نفسه لم يسمع الدعوى ولا قامت
عليه حجة وادمج فى اثر ذلك نفى جميع من تقدم ذكره وكان فى اثناء ذلك الوزير حسين
خارج المملكة لما توقع من عظم كربها بعد تسليمه فى جميع وظائفه فنجا منها ولحق غيره
ولحق به الوزير رستم فلم يبق من يعترض على التصرفات من رجال الحكومة وأما أهالى
بقية القطر فقد أحيى فيهم ما دثر خبره ونسى ذكره من تسليط الحزب الحسينى على الحزب
الباشى الى ان خضدت شوكته والصق بالارض ثم كر على هذا الحزب أيضا ولحق بصاحبه
فعاثت أيدى الاول بأهل الساحل وقتلوا النساء والصبيان مع معسكر الوزير أحمد
زروق الموصى بالنكال وأحدث فيهم ما تقشعر من سماعه الجلود من قتل أربعة من
رؤس الساحل حكما هنالك ولما أتى أهل المجلس الشرعى بالمستير لرئيس المعسكر أحمد
زروق قابلهم بعسف وأحكم الاغلال والقيود فى أعناقهم وارجلهم وأمر بازالة عمامة
رئيس المفتين بلفظ مستهجن وعامل وفد صفاقس بما يقرب من ذلك وسجن القاضى
وحكم ايدى النهب فى الجميع وقد رايت بخط الوزير الكاتب لاسرار الولاية فى معرض
ما حصل من أحمد زروق ما نصه وبالجملة فجميع ما ينسب فى هذه الوجهة لاحمد زروق
انما هى نسبة تنفيذ لانه مقيد التصرف بما يرد اليه فى الامر فى كل نازلة الخ مما يصدق
نسبة ما ذكرناه الى صاحب التصرف وان كان أحمد زروق تفاخر بما صنع حتى رآه بعض
رجال الحكومة الكبار داخلا الى جامع الزيتونة وهو لابس لنعله وقد جرى العمل باحترام
الجوامع بعدم دخولها بالنعال فقال له فى ذلك فأجابه بمرأى من الناس ومسمع بقوله لولاى
لربطت فى هذا الجامع خيل أهل الساحل مع ان أهل الساحل معلوم اسلامهم وعلى
فرض منعه المسجد من ذلك لا يسوغ له ذلك جواز اهانته وهذا الرجل أعنى أحمد
زروق لم يزل مقربا عند الوزير خزنه دار الى ان انفصل عن التصرف ومن تصرفاته فى تلك
الوجهة انه فاس الشيخ محمد الصويلح رئيس الفتوى بالاعراض وغرم أهالى تلك الجهات
أموالا كثيرة افنت الطارف والتالد وبقوا فى قيد ديونها المثقلة للاجانب الى هذا الوقت
بحيث يصح أن يقال ان جميع ما يمكن ان يباع قد بيع وما لا يباع كالاوقاف وجميع ما
تحصل من كسب أبدان أهل الساحل كله دفع للاجانب بسبب ديونهم ولو افردت نازلة
الساحل وحدها بتأليف لجاء مستكملا زيادة على القتل والسجن مع الاعمال الشاقة

وضرب

وضرب السياط الموجع أو القاتل حتى ان الوزير خزنه دار المذكور لما رأى خروج
الضرب عن حده فى السيد الشريف على بن عمر من أهل مساكن مع من أتى معه الى محل
حكم الوالى أظهر الشفقة وارسل الى الاعوان وقال لهم ان سيدنا أمر بضرب هؤلاء
لا بقتلهم فان القتل آلات تخصه وانما أسند الامر للوالى لان ذلك هو دأبه كما تقدم من
عدم مكافحته لاحد بما يوجع ويسند جميع الاعمال للولاة وأما جهات القطر الآخر
التى سافر اليها المعسكر تحت أمر الوزير رستم فلم يقع بها من المضرات ما وقع بالاولى لانه
اقتصر على مجرد قود الطاعة واستخلاص المال الممكن للاهالى وعمل بالمثل القائل ولى
أذن عن الفحشاء صماء عن الاوامر التى ترد عليه فى سلب اللحم والعظم ومن ذلك
التاريخ حصل تغير الوزير خزنه دار عليه لما ذكر مع تعرضاته لتصرفات العمال على
غير الوجه المعقول وكذلك المعسكر الذى سافر تحت امرة ولى عهد الولاية أمير الامحال
أبى الحسن على باى فقد اقتصر فيه على مثل ما ذكر واستعطف أخاه فى العفو عن كثير من
رؤساء تلك الجهات وانكرت عليه تلك السيرة ممن يريد الخراب حتى أرسل معه ابراهيم
ابن عياس الرياحى قائد ريد وأمر أمير الامحال باتباع اشارته وتنفيذ أمره لكى لا يجد
الامير سبيلا للاعتذار عن الناس مع ما هم فيه من الفقر وضاق الخناق بسبب ذلك بين
جذب ودفع لما فى طبع هذا الامير من النفرة عن تلك السيرة وكان ذلك سببا للوشاية به
لاخيه واتهم مستشاره المقرب محمد الطاهر الزاوش باذية الاهالى ونسب اليه بعض
ما صدر من ابراهيم بن عياس المذكور والحال انى رأيت بخط كاتب اسرارهم الوزير
أحمد بن أبى الضياف المذكور فى وصف المستشار المشار اليه ما نصه واعتمد باى المحلة
فى الوساطة بينه وبين الناس وحمدت بذلك سيرته الخ وذلك هو المعروف عند السكان
فى الثناء على أعمال المستشار وتوصل الوزير خزنه دار بما تقدم الى ابطال سفر الامير
المذكور بالمعسكر على عادة اسلافهم واستعوض عن ذلك بسفر أحمد زروق المذكور
ثم ان ما رقعه كل من الامير على باى والوزير رستم قد خرقته أيدى العمال والبعوث التى
وجهها الوزير خزنه دار وأتى باعيان من قبائل الجهات الغربية والشمالية يبلغون نحو
المائتين وأغلبهم كان فى خدمة الطاعة وابلوا فى قود الاهالى وارجاعهم للسكون البلاء
الحسن ولا ذنب لهم الا كسبهم وأوقفوا فى صحن البرج من قصر الحكومة بباردو وخرج
لهم الوالى وخاطبهم بانه لولا شفاعة الوزير لامر بقتلهم وليته لم يشفع لانه أى القتل أهون
الموتتين ثم حكم عليهم بالجلد بالعصا ورأيت بخط الوزير الكاتب المذكور فى قصة هؤلاء

ف ص ه

الرهط الذين منهم الشيخ الهرم المنسوب الى الصلاح الحاج مبارك صاحب زاوية تاله
مانصه فتقدمت مردة العذاب الى ما كرم الله من أبدان بنى آدم يكبون الواحد على وجهه
ويسحبونه على الارض موثوق اليدين والرجلين ودام الضرب فى أولئك المساكين
يومين أو ثلاثة بمرأى ومسمع وفى خلال أيام الضرب قدم ابن ملكة الانكليز سائحا فلم
يقع الضرب يوم قدومه خشية وقوع الشفاعة منه عند مشاهدته تلك الحالة الفظيعة
الشنعاء ولما تم الضرب باعداده واتقانه سجنوا بسلاسلهم وأغلالهم ومات منهم بسبب
الضرب الذى لا تحمله القوى الحيوانية على بن عباس شيخ تاله وخرجت روحه قبل كمال
عدد الضرب فكملوا العدد بضرب شلوه وهو ميت ومات بعد الضرب الحاج مبارك شيخ
الطريقة بتاله المار ذكره ولم يسمع منه حالة الضرب الا قوله يا ربى يا ربى الى ان أغمى عليه
والحاج صالح بن التايلى من بيوت الفراشيش وغيرهم وعدد من مات بالضرب فى أقل من
عشرة أيام ستة عشر رجلا اه كلامه باختصار وسجنت خلائق مع الاعمال الشاقة
ومنهم على بن غذاهم بعد تأكيد الامان اليه وقدومه مع ابن القطب الصالح سيدى أحمد
التجانى رضى الله عنه وبقى فى حبس مظلم ندى الى ان مات وكذلك كثير ممن سجن ولا
يمكن أحصاؤهم وفشا الخبر فى الآفاق واستفظعه من سمعه حتى ان نابليون الثالث
امبراطور الفرانسيس اثر رجوعه من الجزائر لثورة وقعت فيها ومهدها باللطف وتحبب
للاهالى بسعيه بنفسه وكان ذلك فى أثناء الهرج بتونس خطب عند رجوعه وذكر
أسباب ثورتهم من جهلهم بما يراد منهم وعدم سلوك الطريقة المناسبة لوصولهم وأثنى
على عساكره ثم قال وبعد الحرب واطفاء الثورة لم يقع منا انتقام ولا شدة ولا ما ينقص فخر
النصرانى وكان الدولة الاسلامية لم يبلغها الحال الذى لم يزل شبهه الى الآن مع نص
الفرمان المخالف لذلك ومع هذا التعذيب فى الابدان فقد اتى على أموال الاهالى عن
آخرها ولم يبق للبلدان والقرى وقبائل العرب شئ مما يسد العوز ومن كان له أدنى شئ
من القوت كان يخفيه ويرسل نسوانه لالتقاط العشب وعروق الاشجار لقوتهم ولقد ذكر لى
أحد ثقات دريد انه كان يرسل نسوته اللائى لم يعهدن التطوف فى البرارى لجلب عروق
الترفاس وينشره على ظهر بيته ليراه أعوان العامل ويطبخ ليلا القمح فى الماء من غير طحن
لكى لا يسمع الناس حس الرحا فيتهم بالمال وذكر لى أحد الثقات من التجار انه كان يوما
جالسا عند ابراهيم العامل المذكور وهو يوصى نائبه العازم على السفر الى القبيلة ويحرضه
على خلاص المال فاجابه النائب بانه يعمل غاية جهده بحيث يبيع كل ما يجد فمن وجد

عنده نعجة باعها ومن وجد عنده عنزا باعها ومن ومن الى ان قال وفى أقرب وقت نخلص
مال الدولة ونرجع فحنق عليه ابراهيم ووبخه وقال ان مال الدولة لا يضيع وانما القصد
مال الوزير فقال له الحق معك هو مقدم وذهب على ذلك العزم هذا كله بعد تأكيد
الامن الذى خدع الرعية بالكتابة والكلام فزيادة عن الظلم هو شين على الخائن وقد
ذكر الوزير حسين قبل خروجه من القطر الوالى بامانه عند قدوم أهل الساحل طائعين
فحنق عليه وأجابه بما يكره مع وجوب الوفاء بالعهد عقلا وشرعا وما كفى الناس ما هم
عليه من الفقر المدقع او المظالم التى لم تعهد اذ دهمهم الجوع والقحط المتسببان عن
حبس المطر لكثرة الظلم وعن فناء الاموال التى تعمر بها الارض فى الفلاحة واشترك
فى العسر حتى أهل الحاضرة لانبتاع مكاسبهم لمكاسب بقية أهل القطر فاقبلت أفواج
الاقوام تراهم من كل حدب ينسلون متوجهين الى الحاضرة والمدن وما وصل اليها الا
القليل لفشو مرض الحمى الخبيثة فيهم وكان مرضا مستوبيا أفنى خلائق لا تحصى
وبقيت أكثر جثثهم فى الفلاة للوحوش بعد ان أفنت منهم الكوليرا عددا وافرا فمن
ساعده الأجل ووصل الى الحاضرة مات منهم أكثرهم فى الطرقات ثم ابتدر أفراد من
أهل الحاضرة لاغاثة أولئك المساكين وعقدت لهم جمعية برأسها المقدس سيدى حسين
الشريف نعمه الله وأذن الوالى فى عقدها وجعلوا يجمعون المال من الاهالى كل على
حسب استطاعته على حالة ضعفهم الحالى الشديد التى كادت ان تلحق كثيرا منهم
بأولئك الوافدين المساكين وشمرت الجمعية عن ساعد الجد وخففت بعض الضر بالقوت
والمسكن وان كان المرض تمكن منهم وصاروا الى حالة ضعف لا توصف وفشا فيهم الموت
الى ان صاروا يرفعون خمسة فما دون فى نعش واحد رحمهم الله وقد كنت كتبت لصديق
وهو غائب بوصف الحالة فى القطر عندما طلب منى ان أرسل اليه نسخة من ضرب مثل للحالة
المذكورة فى القطر التونسى واصور ذلك بصورة واقعة تاريخية مما ينسب لرؤيا رآها
بعض ملوك المانيا فى القرون المتوسطة ونصها رأى بعض ملوك المانيا فى القرون المتوسطة
من تاريخ المسيح عليه السلام رؤيا فهاله أمرها فبحث عن معبر يعبرها له ﴿وهو وعندهم
المنجم لان أصحاب التنجيم هم الذى كانوا يدعون معرفة علوم الحدثان﴾ فحضر المعبر بين
يديه وقال له الملك انى رأيت البارحة فى المنام ما هالنى أمره ولا يبعد شأنه عندى من منام
فرعون فى مصر فى أيام يوسف الصديق عليه السلام وذلك أنى رأيت ثلاثة جرذان مجتمعة
فانتبهت أولا قبل استكشاف حالها ثم نمت ثانية فرأيت جرذة من تلك الجرذان على غاية

من العجف والهزال بحيث ان سائر ضلوعها بادية ولا تستطيع الثبات على رجليها ورأيت
الجرذ الثاني على غاية من السمن يترعرع في مشيه ترعرع القنفذ ثم تأملت الجرذ الثالث
فرأيته أعمى من كلتي عينيه لا يبصر بها شيئا فانتبهت ثم نمت الثالثة فرأيت الجرذان
الثلاثة معا على تلك الحالة فالسمين يقود الاعمى والاعمى يقود الهزيلة فانتبهت وهم يتقاودون
فافتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون فاجابه المعبر بقوله سيدي ان رؤياك أشهر من
ان تعبر ولكنها تكتب وتسطر أما الجرذة الهزيلة فهي مملكتك والسمين
هو وزيرك والاعمى هو أنت أيها الملك يقودك وزيرك الى ما فيه صلاح نفسه
وتقود أنت رعيتك الى ما فيه هلاكك وهلاكهم انتهى وكتبت الى صديقي في ذيلها
ما نصه هذه حال رؤيا القرون المتوسطة أما رؤية حال القرون الاخيرة * في هاته
الحضيرة * مما دهاها من النفوس الشريرة * فهي سنو يوسف عليه السلام التي
كانت تعبير الثلاث الرؤيا * على ما فيها من البلاء * فلو رأيت ما عليه القرار * لملئت
رعبا ولوليت منه الفرار * من ذئاب تغتال * وثعالب تحتال * مجتهدة في قلب
الرحال * وتشتيت الرجال * وثعبان شاغر فاه لابتلاع الاموال * فيا لها من حال
يرثى لها من رام النزال * وتخر لشدتها شامخات الجبال * افتضحت فيها ربات الحجال
وهوت الابالة الى الزوال * وتمكن من القلوب الزلزال * وتقاربت الآجال وانقطعت
الآمال * وعدا الصلاح من الحال * فقد فاز من نهض بنفسه * واستراح من فتنة
باطنه وحسه * اذ الآيات وردت على ذلك ناصة * فقال تعالى واتقوا فتنة
لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة * ففاز المخفون * وابتلى المتأهلون والله
العظيم * ونبيه الكريم * طالما نهضت عزائمي الى الترحال * فاثقلتني قيود
العيال * مع ما أنا عليه من الوحدة عن أخ شقيق * أو قريب يخلفني فيهم عند الضيق
ولم استطع التخلص بكلي * لما يخفى مما يثقل كلي * وأقسم بالقرآن * وصفات
الرحمن * انى عرضت للبيع أملاكي * لاتخلص بها من اشراكي * واستعين منها بالاثمان
فلم أجد من يصرف لهذا الوجه عنان * ولو من أعيان الاعيان * فالناس حيارى في
الاقوات * تائهين في جلب الضروريات * يكادون من القحط ان يأكلوا الحديد *
ويقولون هل من مزيد * وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله
شديد * الى غير ذلك من زفرات تتصعد * وجمرات تتوقد * وأنين بقوارع الطريق
* وصياح على الابواب ونعيق * وضجيج بالاسواق * حتى تخالها قد التفت الساق
بالساق

بالساق * فلا تسأل عن القلوب * وما دهاها من الخطوب * وقد فوضنا الامر الى علام الغيوب
اهـ ومع تلك الحالة في الاهالي فغاية ما رحمهم به الوالي من الخزنة خمس عشرة ألف ريال
وله العذر لانه كثيرا ما باتت أتباعه بل قيل عائلته طاوية الى بعد نصف الليل حتى يرسل
وزيره أحد أعوانه الى حميدة بن عياد المكلف بعمل الخبز ليستقرض ما يمكن ان تتعشى
به عائلة الوالي والوزير غاية ما تكرم به على أولئك المساكين سبعة آلاف ريال وان كان
سيدي حسن الشريف الح عليه في اعانة المصابين مرارا فيعطيه من خزنة الحكومة كما
انه في هاته الشدة ابلى البلاء الحسن كثير من الاهالي والاجانب سرا وعلنا وقاموا بكثيرين
قوتا وكسوة وسكنا ودواء وأطباء جزى الله الجميع بفضله وفي أثناء المدة هرب العادل باي
أخو الوالي الى جبل باجه حيث كان أهله اذ ذاك ثائرين بعد ان نسي مثل ذلك في البيت
الحسيني منذ نحو مائة سنة وسبب ثورته الضيق الحالي الذي حصل له من تعطيل مرتبه ومثله
سائر آل بيته واذ ذاك اضطروا لاعادة سفر ولي العهد بالمعسكر فارجع أخاه وقاد الطاعة ثم
أعيد ترك سفره هذا وبينما كان القطر على هذا الحال فالاموال المستخلصة لم تكف
وجعلت الحكومة تستقرض من أوروبا قرضا بعد قرض فاول استقراض كان خمسة
وثلاثين مليونا لاستهلاك الدين السابق الذي قدره تسعة عشر مليونا ولم يزل باقيه لم
يستخلص الى أن تشكل الكومسيون الآتي بيانه وهكذا كل قرض يدعى فيه مثل
ذلك ويبقى الاصل على ما كان واشتري من تلك الديون بوابور حربية باضعاف قيمتها بلغت
أكثر من سبعة سفن منها فرقاطة سميت بالصادقية أصلها كرويت فزيدت فيه طبقة
وصار شكلا مضحكا لارباب ذلك الفن وقد شاع عند الخاصة والعامة ان القصد من شراء
تلك السفن وغيرها مقاسمة الارباح من الوزير مع أصحابها ثم عما يستفاد من القرض وقد
بيع بعض ذلك الاسطول بثمن مؤجل واكترى بعضه باصلاحه وذلك عند عجز الحكومة
عن القيام به بعد شرائه بنحو أربع سنين فأفلس المشتري والمكتري وذهبت السفن
وثمنها المتجاوز خمسة عشر مليونا فرنكا سدى مع ان أصل شرائها لا حاجة اليه سوى تحصيل
الربح من ثمنها والربح من الاستقراض لدفع الثمن وشاهده ما وقع في شراء مائة مدفع
مسدسة بمليون فرنك فلما أرى السمسار صك الاتفاق الرسمي للبائع الذي باع تلك
المدافع بثلاثمائة ألف فرنك تعجب البائع من فحش التباين بين الثمنين فاجابه
السمسار بان وزير تونس أراد ان يربح خمسمائة ألف في هذا البيع وانا لا نقدر على منعه
واست مكلفا بصالح حكومة تونس فربحت أنا أيضا ما زاد على ذلك هكذا افشى الخبر ولما

قدم ضابط فرانساوى باستدعائه للتأمل فى سلامة تلك المدافع فقومها بدون المائتين ألف فرنك لانها غير سليمة وبقيت ملقاة على الارض بلا فائدة وبأمثال ذلك ربح السماسرة فى الاستقراضات وفى الشراء ما صاروا به أغنياء حتى ان أحد أهالى الشام المسمى برشيد الدحداح الذى انتقل الى فرانسا وصار فرانساويا توسط بوسائل لان يخدم فى حكومة تونس راضيا بمرتب قدره ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك أى ستة آلاف ريال فى السنة قد رجع الى باريس بعد ثلاث سنين أو أقل وبنى بها قصرا بهيا شاهقا مجاوراً بيته فى أعز حارات البلدة وهى قرب شانزى لزى وأخبرنى أحد الثقات هنالك ان تجارة الرجل التى يخوض فيها بكسبه الخاص نحو خمسة ملايين فرنك حتى تصدق على احدى معابد النصارى بستين ألف فرنك كل ذلك من تعاطيه السمسرة للوزير المذكور ومثل ذلك القائد نسيم المار ذكره مع زيادة ربح ما يسقطه الطالبون من الحكومة لانه يسوف أصحاب المرتبات وغيرهم ممن يطلب المال حتى يسقط له مقدارا مما يطلبه ويصحح فى الحجة انه قبضها كاملة وتفاقم الامر أواخر المدة الى ان بلغ الاسقاط أحيانا الى ثلاثة ارباع المطلوب والوزير لا يقبل فيه الشكاية ولما خشى القائد نسيم فى أثناء الثورة العامة على نفسه سرحه الوزير الى أوروبا من غير أن تعمل معه الحكومة حسابا ومات فى بلد قرنه من ايطاليا وأرادت الحكومة التونسية بواسطة الكومسيون الآتى ذكره فصل مطالبها من ورثة المذكور بالتراضى من غير خصام وجنحوا هم أيضا الى ذلك وبينما العمل جار فى ذلك فاذا بالوزير خزنه دار جلب أعيان الورثة الى بستانه وهم موموشمامه وناتان شمامه ويوسف شمامه وعرض على كل منهم كتابين أحدهما يتضمن اعطاء خمسة فى المائة للوزير خزنه دار مما يصح لهم من الارث والثانى يتضمن ابراء عاما للوزير المذكور مما عساه أن يطلب من جهة نسيم فامتنعوا من الامضاء على ذلك وتخلصوا بطلب مهلة للتروى وهرب موموالى قنسلات فرانسا ويوسف وناتان الى قنسلات ايطاليا وأرسلت الحكومة محمد البكوش مستشار الخارجية والمترجم الاول بها كونتى والقابض لياه شمامه الى سؤال المذكورين عن سبب هروبهم فاجابوا بما ذكر من مطلب الوزير خزنه دار وكان ذلك بمحضر من القناصل وكتب التقارير فى ذلك موجودة بالوزارة والقنسلاتو ولذلك سافر الورثة قبل فصل النازلة ووجهت الحكومة لتحرير الحساب والخصام معهم الوزير حسين ودامت الخصومة نحو تسع سنين ولا زالت الى الآن منشورة ولما تفاقمت الديون فى أوروبا وعلموا ان الفائض يستقرض اضعافه كل مرة لاجل خلاصه امتنعوا من الاقراض حتى جعلت

رسل

رسل الوزير يرددون كل باب لذلك ولم يحصلوا على شئ حتى ان الياس مصلى المستشار الثانى بوزارة الخارجية ذهب لمثل ذلك وأخذ لمصاريفه تذاكر وسندات على المالية باسم الحامل وطفق يبيع منها المائة بخمسة فرنكات وترتب على الحكومة بذلك أزيد من المليونين فرنكا لاجتناب أصحاب الاموال من ضياع أموالهم فاذ ذاك عدل الوزير الى الاقتراض من الاجانب المقيمين بالحاضرة على أخذ كل منهم رهنا فى يده يتصرف فيه من مداخيل الحكومة وهى المسماة باستقراض الكونفرسيونات واستعان فى تصرفاته فيما يرجع الى ذاته ولو من وظائف الحكومة بولده الاكبر واستغنى به عن السماسرة وخالطه بل واشتهر انه شاركه فى استلزام بعض مداخيل الحكومة وفى التجارة فى رقاع أموالها ورقاع الدول الاجنبية حاى الصباغ أحد تجار اليهود كما داخله وقيل انه شاركه فى عمل الخبز وقبض اعشار الحبوب وصرفها وغير ذلك من موارد مصاريف الحكومة أمير اللواء حميدة بن عياد وولاه على عمل ابن زرت وأطلق له التصرف بعد ان كان الوالى وأخوه من قبله يجتنبونه فى الولاية لما استقر فى النفوس من مظالم محمود ابن عياد وأغلب عائلته ولان حميدة المذكور محتم بالانكليز فلا تناله الاحكام ومع ذلك فان حميدة المذكور لم يضر بالرعية وفيه جهة للرفق وأعان أهالى ابن زرت على مساعيهم باقراضهم المال والحبوب ولم يجحف بدافعى الاعشار ولا بقابض الحبوب وعامل أهل العلم معاملة حسنة واقتصر فى الارباح الوافرة على ما يربحه من الحكومة مثل الربح من عمل الخبز فانه تبين بمقتضى الحساب الذى جعله الكومسيون أى اللجنة المالية فى السنين التالية بعد خروج العمل من يد المذكور ان أرباحه كانت تقرب من الخمسين فى المائة ثم لما رأى الوزير عسر خلاص أموال الحكومة لفقر الاهالى وتكاثر الطالب من الاجانب لاموالهم نقل وزارة المال بالاسم الى الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتور باش كاتب لكى يتحمل المصاعب ويبقى متحملا للقضاء بلا كره ولا رضا والاموال يرسل اليها ابن الوزير أعوانه ليخلصها من العمال باسماء مختلفة منها شراء مطالب من له مطلب على الحكومة مالى سواء كان من الطوارى أو المرتبات ومنها اخراج تذاكر بأعداد من المال يؤمر فيها وزير المال بدفع ذلك القدر الى محمد بن الوزير فى مصالح على يده من غير بيان وكانت ترد تلك التذاكر مكتتبة الى وزير المال ليصحح على جريدتها لترسل لامضاء الوالى فلم يكن فى وسعه الا الامضاء من غير أن يعلم شيأ من تلك المصاريف وذلك معلوم عند الجميع ولذلك لم يعرج على طلب وزير المال بشئ الكومسيون المالى على ان ما يمكن ان يرسله

العمال الى الحكومة ليسكت به الاجانب أصحاب الديون كانت تختطفه أعوان الوزير خزنه دار من الطرقات حتى وقعت خصومات شديدة من الاجانب فى مثل ذلك ولما كثر القيل والقال من الاجانب فى خراب القطر ووقوف حاله وانه تلزم مساعدة الحكومة للاهالى لرجوع شئ من رمقه كان الوزير خزنه دار يقول لخواصه عجبا لهؤلاء القوم أو أنا المطلوب بابطال العرب للفلاحة أليسوا بعارفين بكيفية الحرث والارض موجودة فما منعهم عن ذلك كأنه لا يعلم السبب لكنه أراد اسكات الاجانب فاعطى الى الكنت صانس الفرانساوى أربعمائة ماشية أرضا أى نحو أربعين ألف وستمائة هكتار بحساب كل ماشية مائة واثنان وتسعون حبلا والحبل خمسون ذراعا ويكون اعطاء المواشى مدرجة على أربعة اقساط ومن شرطها أن تكون قابلة للزرع والسقى وان تعفى من جميع الاداآت التى بواسطة والتى بدون واسطة فى جميع ماينبت فيها وما يربى من الحيوانات ونتائجها ولزم بسبب ذلك الحكومة مشاق سيرد تفصيل بعضها كما منح لجنة انكليزية احداث طريق حديدية من تونس الى حلق الوادى ومنح لجنة طليانية صيد نوع من السمك كبير يسمى التن فى مصيده بالمنستير ومنحها أيضا معدن جبل الرصاص واكترى لها أرضه المسماة بالجديدة التى حصلت فيها الخصومة المشار اليها عند الكلام على سياسة القطر الخارجية ونشأ من كل منحة ما ينشأ منها من الصعوبات القاضى بها عدم الفائدة وعدم اتحاد الحكم وزادت المشاكل بكثرة الديون وعدم المال وروج فى القطر سكة من النحاس كل قطعة منها بنصف ريال وكان مقدار ماروّجها فيه يبلغ اثنى عشر مليونا ريالا وعظم الخطب لامتناع الاجانب من قبولها فى أثمان سلعهم وديونهم العامة لاهل القطر وبلغ سعر الصرف الى أن المائة ريال فضة تصرف بنحو ثلثمائة ريال وبلغ سعر الويبة من القمح الى السبعين ريالا بتلك السكة وبعد انفاق ما ضربته الحكومة منها واشتداد الحال أنزل قيمة السكة النحاسية الى أصلها حقيقة وهو الربع مما نفقت به فصار نصف الريال ثمن الريال وضاعت على الاهالى تسعة ملايين سدى مع ما زاد على ذلك مما جلب من نوع تلك السكة خفية وأكثر ما أصيب بالخسارة أهل الحاضرة فكانت قسطهم من غرم المال ولما بلغ الحزام الطبيين شدد الاجانب فى طلب ديونهم وفائضها وقطع القنسل الفرانساوى الخلطة مع الحكومة ثم استرضته واستقر القرار على تشكيل لجنة مختلطة من الاهالى والاجانب وسميت بالكومسيون المالى ونص الامر الصادر فى ترتيبه ﴿أما بعد﴾ فقد اقتضى نظرنا لمصلحة مال مملكتنا والرعية والمتجر ان ترتب

كومسيونا

فأدخله لقصر حرمه محتفيا معه منبسطا ومؤانساله فعرض فى اثناء الخطاب لومه للشريف على التقصير فى القدوم اليه فاجابه معتذرا ببعد مسكنه حيث كان مسكن الوالى بالمرسى وبتعب الركوب على ظهر مركوب للوصول اليه لانه ليست له كروسة أى عجلة فاجابه الوالى بان ملك مثله للكروسة مضر لما يلزمها من المصاريف السنوية وهو لا يبخل عليه باعطاء كروسة له بلوازمها ولكنه يخشى عليه كثرة مصاريفها فلذلك رأى أن يعطيه ثمنها وثمن ما يجرها على شرط ان يشتغل به فيما له دخل فى مصالحه وامّا ركوبه فانه مهما أراد الركوب يرسل اليه ليبعث له كروسة ليركبها واعطاه خمسة آلاف ريال ولعمرى انها من نصح الاصدقاء وله فى مثل ذلك كثير من المساعى سيما فيما يعود الى تكثير الفلاحة وغراسة الزيتون والاشجار من الاهالى حتى رغب أهالى الحاضرة أيضا وأنشأوا فى مدته القصيرة ما ينيف على الستين ألف شجرة من الزيتون فى أرض تعرف بعد خروجه من مرناق وتوفى رحمه الله ولم يترك على البلاد ولا دانقا دينا بالربا الا الاموال المقسطة فى مقابلة الاشياء المار ذكرها وبقايا أثمان أشياء مما لا يخلو الامر عن مثله مع انه ترك خزائن من الحديد مملوأة بمسكوكات الذهب التى أنشأ ضربها كما ترك خزانة مهمة جدا ملآنة بالمصوغ والياقوت الابيض المسمى بالالماس أو الديامنت المتجمع من النياشين التى أبطلها وأخذها من أصحابها وعوضها بنياشين من الفضة على حسب مجرى الدول وعوض أصحاب الرتب العسكرية علامات فى أعناق لباسهم وقد كان كل من أرباب نياشين الافتخار ومن أهل الرتب العسكرية له نياشين من الديامنت مختلفة النوع والنفاسة على حسب الرتب فمنها نيشان يبلغ خمسة عشر ألف ريال ومنها دون ذلك وهى كثيرة جدا فاجتمع منها مع ما اشتراه مقدار وافر يعرف ذلك كل رجال الحكومة وأتباعهم بل وجميع آل بيته واستولى أخوه محمد الصادق باشا فى (٢٤) صفر سنة (١٢٧٦) ولما كان هذا الوالى يتقى الصعوبات ويأتمن من يرى أمانته ويطلق له التصرف من غير معارضة كانت الوقائع تختلف فى مدته اختلافا بينا بحسب الوزير الذى بيده التصرف مع ان الوالى متحد فلذا لزم ان نذكر كل وزير بانفراده والوقائع التى جرت مدة ولايته ومساعيه لان الوالى يأتمنه ويعمل على رايه وهى القاعدة الجارى بها عمل الممالك المتمدنة لو تمت شروطها وهى جعل محتسب من الامة لمراقبة أعمال الوزير حتى لا تضر به ولا بالامة غير انه ينسب الى الوالى تفخيم أمر الحكومة فاطلق عليها لقب الدولة وعلى نفسه لقب الملك وأدمج ذلك فى ألفاظ القانون المسمى بقانون الدولة ووزع منه

نسخا على سائر الدول ليكونوا شهداء عليه وسلم بيده الى يد الامبراطور نابليون الثالث
نسخة منه عند الاجتماع به فى الجزائر وكتب تلقيب وزرائه باسم الوزير فى مكاتبه
للدولة العلية وقيل له فى ذلك من بعض رجال حكومته فقال الدولة لها السيادة علينا
وطاعتها واجبة ولكن لا تهين أنفسنا وكذلك اخترع زيادة النياشين وقلدها نفسه
ورجال حكومته وغيرهم فمنها نيشان العهد وهو مرصع بالياقوت الاحمر والاخضر جعل
لبسه قانونا وعددا ويتبعه شريط أبيض مثل الذى سبق ذكره فى اختراع أحمد باشا
ومنها نيشان عهد الامان على شكل آخر وخصصه بأصحاب المباشرة فى الوزارة الى غير
ذلك من الاشياء التى مدارها على الابهة مع رأفة نفسه ورقة قلبه وأول ما افتتح به
حلفه باليمين اللازمة فى قبول بيعته على مقتضى عهد الامان وسرد عند البيعة العامة
التزاما نصه

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

تبارك من جعل الامان أقوى أسباب العمران والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله
وصحبه ومن تبعهم باحسان (أما بعد) فيقول العبد الفقير الى ربه المشير محمد الصادق
باشا باى وفقه الله لما يرضاه وأعانه على ما أولاه انى قبلت البيعة من الاعيان الحاضرين
على ما وقع الالتزام به فى العشرين من محرم الحرام سنة (١٢٧٤) من المرحوم المقدس
أخينا المشير سيدى محمد باشا باى وهو عهد الامان لسائر السكان على الاعراض
والاموال والاديان وما حواه من القواعد واللوازم والاركان وحلفت وأحلف بالله وعهده
وميثاقه على مقتضاه وان لا أخالفه ولا أتعداه وهذا الكلام صدر منى ونقله الناطق
به عنى وخطى وختمى فيه أقوى شاهد وأوضح اعلان لكل من حواه هذا الديوان وسائر
الرعية والسكان وعلى مقتضاه عليكم السمع والطاعة ويد الله مع الجماعة حرر يوم
السبت الخامس من صفر الخير سنة (١٢٧٦) ثم التفت الى الوزراء فوجد الوزير
مصطفى خزنه دار هو صاحب الشفوف على الكل لالتفاف أغلب أتباع الحكومة عليه
وانقيادهم اليه رغبة ورهبة لما له من اليد وكذلك قناسل الدول فسلم اليه أمر الحكومة
ولقبه بالوزير الاكبر وبقى منفذ الرأيه ملازما للسير على نهجه فى كل أمر حتى فيما يعود الى
خاصة ذاته فكثيرا ما كان يلبس الوالى ثيابه ويتقلد بمنطقته تهيئا لركوبه الى الحاضرة
فى كل يوم من رمضان لكون عادته ذلك ويبقى منتظرا للوزير ليركب معه لانه لا يركب دونه
فيرد عليه رسول الوزير معتذرا له بأنه غير قادر فى ذلك اليوم على الخروج لمرض أو شغل

فيلوى

فيلوى الوالى عزمه ولا يتوجه للحاضرة وحده وكان لا يباشر فيها شيأ من الادارة وانما
يذهب لمجرد التنزه والتفرج على الاسواق من شبابيك قصره وحيث علمت ما تقدم نذكر
لك بعض حالات هذا الوزير وما طرأ من تصرفاته كما نذكر لك غيره من الوزراء

﴿المطلب الخامس﴾ فى وزارة مصطفى خزنه دار (اعلم) انه رجل أصله من قرية قرب
ساقس جلب الى تونس وسنه دون العشر سنين وأخذه أحمد باشا ورباه وتعلم القراءة
والكتابة وبعض الفروض العينية كالتجويد والوضوء والصلاة ونشأ على مسايرة أخلاق
سيده بشوشا غير متفحش غيورا على من انتمى اليه جالبا لهم الارباح بكل وجه كما أنه
كان غيورا على تقرب أحد من الوالى ومع ذلك كان كثير الاعتقاد فى الصالحين ومن انتمى
الى معرفة المحدثان مواظبا على قيام الثلث الاخير من الليل وله فيه أوراد مخصوصة الى ان
يصلى الصبح ثم ينام وكان أولا قبل كبر بنيه ذا كرم كثير العطاء لحاشيته ثم صار شحيح
النفس حريصا على الامساك والتقتير ولم يعهد انه باشر أحدا بشتم أو كلام منكر مدة
وزارته على طولها وهى خمسة وثلاثون سنة الا رجلين يقال لاحدهما على زيد
وللآخر عثمان هاشم وكان لا يقدم اليه أحد يطلب شيأ منه الا يعده بقضاء حاجته كيفما
كان حالها مع أنه ربما كان الوفاء ببعضها غير ممكن وقيل له فى ذلك فأجاب بأن سليقته تأبى أن
يقنط الطالب و يؤيسه بل يصرفه بالوعد وان كان عازما على عدم اعطائه ويرى أن تعليق
الآمال أولى من الاياس منها ولذلك كثيرا ما حصل منه الخلف بما يعد وصاهره أحمد
باشا على أصغر أخواته ثم ولاه خزنه دار ثم لما أحدث أحمد باشا القاب الوزراء ولاه وزارة
العمالة وهى عبارة عن التصرف فى الداخلية فراكن اليه محمود بن عياد وتشاركا سرا حتى صار
المحتسب والمحتسب عليه شريكين وحصر دخل الدولة وخرجها فى محمود كما تقدم وللنجاة
بما حصلا معا سهل خروج محمود الى فرانسا من غير حساب وخانه محمود فأظهر عقد
الشركة مع مصطفى خزنه دار وطلب على يد مجلس الحكم الزام الشريك بدفع نصف
قيمة السلع المجلوبة لمصالح الحكومة واستولت هى عليها بعد خروجه من تونس وعرض
هذا الحكم على الوزير مصطفى خزنه دار بواسطة قنسل فرانسا فى تونس كما أظهر ان
شريكه خزنه دار كلفه بطلب حماية فرانسا له كما قرره فى الصفحة الرابعة من الرسالة
الاولى التى عرضها على مجلس التحكيم وبعد ان كاد يحصل على الحماية عدلت فرانسا
عن ذلك والحال انه لم يبدله من سيده موجب لذلك بدليل بقائه على منصبه وتصرفه الى
ان مات سيده ثم بعد سفر محمود بن عياد استعوضه بسعد بن عبيد وجعله سمسارا على بيع

الوظائف فكان المتولى يدفع ما اتفق معه عليه والمعزول يغرم مايدعى به عليه أهل عمله مع كونه مضطرا اليه لانه مادفع المال لشراء الوظيفة الا ليربح مايتعيش به وما يدخره للمستقبل وعظم بذلك الخطر والفقر على الرعايا حتى شاهدت قبيلة أولاد عيار ان كثيرا منهم يستاقطون حب الزيتون بالاجرة لاربابه وعندما يتم عملهم يأتون الى الفلاح ليحاسبوه عما اجتمع لهم من المال ومعهم أحد أتباع هذا العامل فيحصى لهم جميع أجرهم بعد اخراج مقدار ما أخذوه لقوتهم ويرسله الفلاح معهم الى دار العامل ليقبضه لانه حاجر عليهم فى قبضه وأشباه ذلك كثيرة كما انه استعوض عن ابن عياد فيما يتعلق بشراء مهمات الحكومة ودفع أموالها أناسا منهم عطية الذى وقع منه أمور عجيبة منها انه ولى على اعشار الزيت ودفعها فى مصار يفها المعينة ومنها الاجحاف فى مؤنة العساكر فكان يدفع اليهم الردىء من الزيت زيادة على مضاعفة الكيل من الدافع بل من سوء عمله انه كان يدفع للعساكر أوساخ الزيت الذى يحمل فى قفاف الحلفة ولا يسيل منها كما كان يحك ما لصق بحيطان مراجل الزيت ودنانه المسماة بالجرار وما تجمع من ذلك الدسم الوسخ يغلى فى الماء السخن ويدفع للعساكر على انه زيت والارباح التى تحصل لعطية كان يصرفها لمصالح الوزير خزنه دار ومنها انه ابتدأ فى بناء جامع قرب باب القرجانى ونسبه الى نفسه مع أن المصروف عليه من مال الحكومة بعض منه على يد ابن عياد والبعض الآخر كان صرفه على يد عطية المذكور والدليل على ان ماصرفه لم يكن له أنه مات مفلسا ومع ذلك لم يتم الجامع الى الآن وقد بنى الوزير خزنه دار سبيلا ببطحاء القصبة ووقف عليه حوانيت بجواره ولا زال مستمرا الى الآن وقد استعوض عن ابن عياد أيضا القائد نسيم شمامة وجعل وظيفته كونه قابض الاموال وكان يشترى المهمات بسعر ويحتسبها على الحكومة باضعاف كما انه حصل بواسطة الوزير المذكور بناء لعدة زوايا فمنها تجديد زاوية الولى الصالح القطب سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه الكائنة بجبل الجلاز بنيت على شكل حسن متقن حيث كان الوالى اذ ذاك أحمد باشا تلميذا للشاذلى رضى الله عنه وكذلك جدد بناء زاوية الولى الصالح سيدى على الحطاب رضى الله عنه الذى هو أحد تلامذة الشاذلى الكبار وهى فى الجهة الغربية من تونس تبعد عنها ثمانية عشر او عشرين ميلا فى الوطن المسمى بالمرناقية وبنيت أيضا بناء حسنا ومنها زاوية الحاج على شيحه الكائنة قرب الحلفاوين من ربض باب سويقة من حاضرة تونس وهو منتسب للولى الصالح سيدى عبد السلام الاسمر رضى الله عنه وبنيت

بناء

بناء حسنا ومنها تجديد بناء زاوية الولى الصالح ملاذ أهل تونس وعمدتهم سيدى محرز بن خلف رضى الله تعالى عنه وهو رجل كبير فى العلم والصلاح من كبار رجال مذهب الامام مالك رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وبنيت بناء حسنا وما صرف على جميع ذلك من مال الحكومة كما انه استوهب من الوالى محمد الصادق باشا سبخة السيجومى التى بقرب الحاضرة من الجهة الغربية الجنوبية وأنفق على تنشيفها عدة مئين من الالوف من مال الحكومة وحفر لذلك خندقا يمر فى واد بن جمال المحل المعروف ببئر القصعة ثم يمر على الوهاد المعروف ببحيرة باش حانبه ثم يصل الى الارض المعروفة بجدار ابن عروس وهنالك ينهمل الماء المنحدر من السبخة فحصل بذلك تلف الاراضى التى على مصب ذلك الخندق لانه لم يجعل لها سبيلا الى الوصول الى البحيرة مع كون مائه ملحا أجاجا وتعطلت عند مصبه الطريق الموصلة الى مرناق والى حمام الانف ثم ما والاه من الجهة الجنوبية فى وقت الشتاء لتعطل طريقه الاصلى من الوحل فصار الطريق الشتوى أيضا اما معطلا أو صعبا جدا مع ان نفس السبخة لم تنشف لان ارتفاع قعرها على سطح البحيرة انما هو نحو ميترين ونصف فقط ويلزم لانحدار الماء فى الاقل صانتى ميترا لكل ميترو طريق الخندق لما كانت طويلة لم يكن فيها الانحدار المطلوب فلم تنشف السبخة وقد أنذر بذلك أحد حذاق المهندسين وقال لا يمكن تنشيفها الا بنفق تحت جبل المنوبية لقرب المسافة الكافية للانحدار فلم يعمل بقوله ولم يحصل المقصود وبقى الامر على ذلك الى ان سد الخندق فى بعض جهاته باذن الحكومة فى وزارة خير الدين لرفع الضرر عن الطريق وعن الاراضى المشار الى جميعها كما شرع فى عمل طريق صناعى بين تونس وحلق الوادى فعمل فيه من جهة حلق الوادى نحو أربعة أميال ومن جهة تونس نحو خمسة أميال ثم ترك فأما الذى من جهة حلق الوادى فأبطلته جمعية طريق الحديد وأما الذى من جهة تونس فلم يزل منتفعا به لكنه محتاج الآن الى التدارك بالاصلاح لانه ضرورى فى وقت الشتاء حيث ان الارض التى يمر عليها المسماة بالخضراء صعبة المرور لكثرة الوحل ولما ولى محمد باشا وأقر الوزير المذكور بمعاضدة الوزير اسماعيل السنى حصل الاغراء للوالى على محمد المرابط أمير امراء عساكر القيروان وصهر أحمد باشا وعلى صالح شيبوب أمير لواء عساكر غار الملح وغيرهما من خاصة أحمد باشا من أبناء البلاد فنزعت رتبهم واستؤصلت جميع أموالهم وسمع الثقات من وزراء أحمد باشا الحاضرين مواطن الاغراء شدة انفعالهم من ذلك ولما وقع استقراره بالوزارة عند محمد باشا بواسطة

ماتقدم أراد أن يبرهن على صدق ماوسمه به الوزير اسماعيل السنى من الصدق والنجابة وعلم مالا يعلمه غيره فطلب من الوالى عمل حسابه عما مضى وبعد اتمامه جاء بالدفاتر وبتلخيصها وعرضه على الوالى محمد باشا ورأيت فى صفة الموطن بخط الوزير ابن أبى الضياف مانصه وقال له بمحضر الوزراء ورجال الدولة هذا حسابى قبضت فى مدة خدمتى ماهو مرقوم فى هذا التلخيص وصرفت فى المدة ماهو مرقوم أيضا وكان المصروف أكثر وأنا غير طالب له ولم أدفعه من مالى وليس على دولتك المباركة دين فقال له بعض الحاضرين من الوزراء بديهة أنا أول قادح فى هذا الحساب ومن أين جاءت هاته الزيادة فأجابه الوزير بلين وسياسة لك أن تنظر فى فصول القبض هل نقص منها شئ وفى فصول الدفع هل زاد فيها شئ وماوراء ذلك نتيجة أصابعى ولى أن أطلبه لو استحللت الخيانة ولهذا أتيت بالدفاتر ليطلع عليها كل من يريد الانتقاد فخجل القادح الخ والكاتب المذكور عالم بالبلاغة حيث ورى بقوله فخجل أى خجل من الجواب لانه قيل ان المال من الاشياء التى لاتمو بذاتها فالقسمة العقلية اما أن يكون من فصول المقبوض شئ لم يرسم كأن يكون المقبوض من الطوارى التى لاتنضبط كالاخذ من العمال زيادة على الموظف أو تكون بعض وجوه المصروف لم تصرف حقيقة أو يكون المقدار الحقيقى منها دون مارسم فى الدفاتر أو يكون الدافع دفع من عنده أو اقترض وهذان الاخيران قد اقر الوزير بعدمهما واقرار الانسان ماض عليه فلزم بالضرورة أحد الوجوه السابقة ولعلها هى المرادة بقوله بأصابعى ثم انه فى مدة محمد باشا لم تقع مظالم الرعية من العمال لما تقدم من سيرة ذلك الوالى وانما يقال انه جعلت له حصص من المال والمصوغ جعلا من الجالبين لماء زغوان وبائعى المصوغ ليكون العقد بتلك المقادير وفى آخر مدة الوالى المذكور لما رسخت قدمه حصل الاخذ للوزير من بعض العمال بدعوى انه مع تشديد الوالى فى قبض أيديهم لابد أن يسرقوا وجعل السمسار رجلا يقال له خليفة السائس مشاركا لسعد بن عبيد مع التحذير من ان يظهر أدنى تشك من الرعايا وقد أدركت المضرات حذاق القطر حتى قال أحد العلماء قصيدة يستغيث بها القطب الصالح سيدى أحمد التجانى رضى الله عنه لما دهى القطر من تلك الاعمال

﴿ مطلعها ﴾

كادت تنيط رجاءها باليأس * مهج فغوثا ياأبا العباس

(الى ان قال)

انا

انا اليك نبث ماقد نابنا * من مكر ذى شر شديد الباس
درب على فعل القبائح قائم * بالجور ناء عن مدى القسطاس

﴿ ثم قال ﴾

نشبت مخالب كيده فى قطرنا * وبدت مضرته على أجناس
ومراده والله يمحو رسمه * الحاقه بالأربع الادراس
خفيت مدارك كيده فتحيرت * فى غورها النبها من الاكياس
حار اللبيب ولم يفد تخمينه * مع ضربه الاخماس فى الاسداس

﴿ ثم قال ﴾

واستأصل الاموال من أربابها * ورماهم بالذل والافلاس
كل تراه وقد أمض فؤاده * يشكو القديم وللجديد يقاسى

الى آخرها وهى طويلة مع أن التباعد بين وظيفة المشتكى والمشتكى منه مما يؤيدان الشكوى عن غير اغراض شخصية ودليل صدقها الخارج ثم لما استولى محمد الصادق باشا وكان الوزير يخشاه لما هو مشتهر عنه من الصلابة جد الوزير فى اتمام قوانين عهد الامان سيما واليد كانت فيها جائلة من قبل للاطمئنان على نفسه بدليل ماجرى بعد وأظهر ميله اليها لعموم العدل لكى يستعين بمحبى الانصاف على انفاذها فتممها وشرع فى العمل بها فى ١٥ شوال سنة ١٢٧٧ وحلف الوالى على انفاذها وعدم مخالفتها وكذلك سائر المتوظفين واستغرقت جميع مداخل الحكومة فى المصاريف التى عظمت وكثر المتوظفون والكتبة على ماتستدعيه القوانين وزيادة ووفرت المرتبات على نحو غير معهود فى القطر حتى صار لذات الوزير خزنه دار من المرتبات مابيانه فى السنة

ريالات	
١٤٠٠٠٠	مرتبه على الوزارة الكبرى
٠٦٠٠٠٠	مرتبه على وزارة العمالة
٠٦٠٠٠٠	مرتبه على وزارة الخارجية
٠٦٠٠٠٠	مرتبه على وزارة المال
٠٦٠٠٠٠	مرتبه على نيشان آل بيت الوالى الذى هو حامل له
٣٨٠٠٠٠	الجميع

مع انه يصرف مصاريف غير ذلك من أموال الحكومة كما تبين من الحسابات فى الحكومة

وجعل القائد نسيم لا يدفع لمن يطلب مالا من الحكومة الا باسقاط مقادير رابحة زيادة على الارباح من شراء المهمات واستغرق بمثل ذلك جميع مداخل الحكومة ثم جعل جميع المال المطلوب للعاقدات المارذ كرها من ماءزغوان وغيره دينا بالربا واستقرض له مبلغا بالربا من أوروبا قدره نحو تسعة عشر مليونا فرنكا حسبما هو محرر بالتقرير المصحح بخطه وخط المجلس الاكبر وقد برح اذذاك الخفاو بان لعقلاء رجال الحكومة سوء تصرفاته فكان أعظم المضادين له من كان أكثرهم قربا اليه وألحوا عليه فى الكف عن تلك السيرة فصار لهم بالمرصاد وصار يشينهم عند الوالى ويقدح فيهم ضدما كان يقول فيهم لانه علم حالة الوالى وانقياده اليه ورام نقض القانون أوابقائه صورة لان مقصد الامن على خصوص ذاته قد حصل بجريان الوالى على رأيه وابعاده كل أحد عنه الا الخدمة لخدمة ذاته واشتدت المشاحنة بينه وبين الوزير خير الدين الى ان استعفى من وظائفه ثم تبعه الوزير حسين والوزير مصطفى أغه والوزير رستم وخلا الجو لخزنه دار وأخذت السيرة فى طور آخر جديد ورام ان يضاعف أداء الجباية على الاهالى ويصيرها اثنين وسبعين ريالا على الرأس عوضا عن الستة والثلاثين ريالا التى أسسها محمد باشا وطلب موافقة المجلس الاكبر فامتنعوا واستبد هو بامضائها مع تحذير العقلاء له فلم يلتفت اليهم مع ان الاهالى فى ثروة من أثر سيرة محمد باشا تقويهم على الدفاع عن انفسهم مع ما استأنسوا به من تلك السيرة وسماعهم بأن العدل والانصاف قد شملهم بالقانون وان لهم الكلام على حقوقهم فامتنعوا قاطبة وأراد غصبهم على ذلك فثار القطر كله ثورة واحدة لم تعهد من قبل على غاية من الرياضة والامن بحيث لم يتعرضوا بالاذية لاحد مع أمن السبل وكثرة الغادى والرائح وضبط كل جهة بعض أهلها لردع السفهاء وحفظ الراحة والامن وكان متولى أكبر الجهة الغربية والمتفق عليه أكثر قبائل الاعراب رجلا يسمى على بن غذاهم وذلك سنة (١٢٨٠) ولا زالت هذه الثورة تسمى ثورة ابن غذاهم وكاتب الجهات بانا اخوان وطلبنا واحد وليس المراد منه الافساد فالواجب حفظ الامن والراحة وتأمين السبل ولا نتعرض لاحد بشئ سوى اتباع الحكومة فاذا أرادوا غصبنا على الظلم ندافع عن أنفسنا وأنذرت القبائل عمالهم الذين كانوا بين أظهرهم فمن أراد منهم التوجه الى الحاضرة أوصلوه بأمان ومن أراد الاقامة منكفا عن التداخل فى أمرهم أبقوه بأمان ولما توجه أمير الامراء فرحات الى الكاف لاجبار قبائل ماجر على ذلك الاداء تعرضوا له وقتلوه فشدد النكير عليهم على بن غذاهم وقال لهم أصل اتفاقنا انما هو على الدفاع عن أنفسنا وماضركم

قدوم

كومسيونا ماليا على صورة الامر الصادر فى الرابع من ابريل من العام الفارط المؤكد بامرنا المؤرخ فى التاسع والعشرين من مايه الموالى للشهر المذكور على الكيفية الآتية ﴿الفصل الاول﴾ الكمسيون الذى صدر به أمرنا المؤرخ فى الرابع من ابريل سنة ١٨٦٨ يجتمع بحاضرتنا فى مدة شهر التاريخ ﴿الفصل الثانى﴾ يقسم الكومسيون المذكور الى قسمين متميزين قسم للعمل وقسم للنظر والتصحيح ﴿الفصل الثالث﴾ قسم العمل يركب على الصورة الآتى بيانها وهى عضوان من متوظفى دولتنا نسميهما نحن أنفسنا وناظر مالى فرانسيس تسميه نحن أنفسنا أيضا بعد تعيينه من طرف دولة جناب الامبراطور ﴿الفصل الرابع﴾ قسم العمل هو المكلف بحصر المداخيل التى يتيسر للدولة أن تخلص بها ذلك ﴿الفصل الخامس﴾ قسم العمل يجعل دفترا فيه يقيد جميع الديون المنعقدة خارج المملكة وداخلها وهى التذاكر المالية ورقاع سلفى عام ١٨٦٣ وعام ١٨٦٥ وأما الديون الغير المحصورة بكنتراتوات فعلى حاملى تذاكرها ان يأتوا بها فى خلال مدة شهرين وكذلك يسعى قسم العمل فى الاعلان عن ذلك فى جرنالات تونس واوروبا ﴿الفصل السادس﴾ مهما أراد قسم العمل الاطلاع على جميع الحجج الصحيحة المتعلقة بالمداخل والمصاريف فان وزارة المال تجيبه الى ذلك حق الايجاب ﴿الفصل السابع﴾ بعد ان يقع حصر مداخيل الدولة ومقابلتها بجامعة المصاريف مزادا عليها مبلغ الدين يبحث قسم العمل عن توزيع المداخيل العمومية على وجه الانصاف باعتبار جميع الحقوق على طريق العدل وكذلك يجعل تجريدة المداخل التى يمكن زيادتها على جميع الضمانات السابق تعينها لارباب الديون ﴿الفصل الثامن﴾ لقسم العمل ان يجعل جميع التأويلات والتراتيب المتعلقة بالدين العمومى ويمده بكل ما يلزم من الاعانة لانفاذ ذلك الانفاذ التام ﴿الفصل التاسع﴾ قسم العمل يتولى قبض جميع مداخيل المملكة من غير استثناء ولا يسوغ اخراج تذاكر مالية من أى نوع كان الا بموافقة القسم المذكور على ذلك بعد التفويض اليه فى ذلك من قسم النظر والتصحيح واذا اضطرت الدولة لعمل سلف فلا يسوغ لها ذلك الا بموافقة القسمين وجميع التذاكر التى تخرج فى مقابلة المبلغ الذى يعينه الكومسيون لمصاريف الدولة تكتب باسم الكومسيون ويعلم عليها قسم العمل وقدر هذه التذاكر يلزم ان لا يتجاوز المبلغ المحدد فى قائمة المصاريف ﴿الفصل العاشر﴾ قسم النظر والتصحيح يتركب على الكيفية الآتى بيانها يعنى من عضوين فرانساويين ينوبان عن حاملى رقاع سلفى عام ٦٣

وعام ٦٥ ومن عضوين انكليزيين وعضوين طليانيين ينوبان عن حاملى رقاع الدين الداخلى وهؤلاء الاعضاء يكونون بوكالات مخصوصة من قبل حاملى رقاع السالفين وحاملى كونفرسيونات ثم الكتتاو يصدر لهم اعلان فى ذلك منا تحت نظر قسم العمل

﴿الفصل الحادى عشر﴾ قسم النظر والتصحيح له الحكم فى جميع تصرفات قسم العمل وهو المكلف بتحقيقها او بالموافقة عليها عند الاقتضاء وموافقته ضرورية حتى ان الذى يستقر عليه رأى قسم العمل مما يتعلق بالمصلحة العمومية يصير بذلك واجب العمل به

﴿الفصل الثانى عشر﴾ اذنا وزيرنا الاكبر بالعمل بما تضمنته الفصول الاحد عشر المذكورة أعلاه وتعين العضوين وتطلب الناظر المالى الفرانساوى المذكورين بالفصل الثالث فى أقرب وقت ممكن كتبت الاثنا عشر فصلا أعلاه بسراية حلق الوادى فى السادس والعشرين من ربيع الاول سنة ١٢٨٦ ستة وثمانين ومائتين وألف فانتظم هذا الكومسيون واستولى رياسته الوزير خير الدين والعضو الاول فى قسم العمل هو صاحب رتبة الوزارة فى فرانسا فيليت والعضو الثانى الوزير محمد خزنه دار وسيأتى تفصيل ما نشأ عن هذا الكومسيون وجمع ديون الحكومة فكانت ما يأتى

	فرنكات	جملة الجوامع
الاستقراض من دار ارلانجى بباريس لايفاء الدين السابق الذى لم يخلص بتمامه وقدره نحو تسعة عشر مليونا كما تقدم	٣٥٠٠٠٠٠٠	
الاستقراض من بينار بباريس سنة ١٨٦٣	٠٩٠٠٠٠٠٠	
الاستقراض من دار ارلانجى وغيره سنة ١٨٦٥	٢٥٠٠٠٠٠٠	
الجملة تسعة وستون مليونا	٦٩٠٠٠٠٠٠	٦٩٠٠٠٠٠٠
		٦٩٠٠٠٠٠٠

الاستقراضات الداخلية المعروفة بالكونفرسيونات

	فرنكات	جملة الجوامع
الاول	١٣٥٠٠٠٠٠	٦٩٠٠٠٠٠٠
الثانى	٠٩٦٧٠٠٠٠	
الثالث	١٧٨٥٠٠٠٠	

	فرنكات	جملة الجوامع
الرابع	٧٨٠٠٠٠٠	
	٤٨٨٢٠٠٠٠	٤٨٨٢٠٠٠٠
جملة الدين الغير المنضبط بالتذاكر الرائجة		٣٦٨٠٠٠٠٠
		١٥٤٦٢٠٠٠٠
جملة الفوائد المتأخرة تقريبا		٠٢٠٣٨٠٠٠٠
		١٧٥٠٠٠٠٠٠

	ريالات	
جملة صرف تلك الديون بالريالات التونسية	٢٨٠٤٣٧٥٠٠	
فاذا أضفنا الى ذلك مداخيل الحكومة من وقت تعطيل القانون الى انتصاب الكومسيون الذى هو سنة ١٢٨٦ بحساب كل سنة خمسة عشر مليونا ريالا الذى هو اقل ما يمكن نظرا الى ما تركها عليه الوالى السابق محمد باشا ونظر الدخلها فيما بعد فيكون المجموع للستة سنين	٠٩٥٠٠٠٠٠	٠٥٨٤٥٠٠٠
	٣٧٥٤٣٧٥٠٠	٢٣٣٤٥٠٠٠٠
تقريب الغرم الذى دفعه السكان على مصاريف الثورة لانه ثبت بالحساب ان أهل الساحل وحدهم دفعوا من ذلك عشرين مليونا	٠٦٥٠٠٠٠٠٠	٠٤٠٠٠٠٠٠٠
ما أعانت به الدولة العلية الحكومة وقت الهرج	٠٠١٦٢٥٠٠٠	٠٠١٠٠٠٠٠
ما اهداه صاحب القرض الاول باسم المارستان وأخذته الحكومة	٠٠١٦٢٥٠٠٠	٠٠١٠٠٠٠٠٠
	٤٤٣٦٨٧٥٠٠	٢٧٥٤٥٠٠٠٠

فكانت جملة الاموال التي خاضت فيها الحكومة في مدة نحو سبع سنين مائتين وخمسة وسبعين مليونا فرنكا وصرف فيها بالات ماهو مرقوم بآزائها مع مزيد التضايق المالي بتعطيل الجرايات حتى امتدت الايدي الى الاوقاف وعطل ارسال مال الحرمين الشريفين من أوقافهما عدة سنين وكذلك عطل مرتب المدرسين والعلماء من بيت المال الذي اسسه أحمد باشا لاستيلاء الحكومة على مافيها من المال ولم يحصل من تلك الاموال في القطر ما يمكن ان يذكر او يعد سوى ما تقدم ذكره من السفن والمدافع البالغ مجموع ثمنها الى ثمانية عشر مليونا وان اضفت الى ذلك ماخسره القطر والحكومة مما ضاع عند ابن عياد ونسيم وكله بواسطة الوزير المذكور كان مجموعه مع ما بين يزيد على خمسمائة مليون ريالا وحيث كان الحال مما لا يمكن اخفاؤه على الوالي بالمرة ذكر له وزيره خزنه دار انه خزن له في بعض بانكات اوربا عشرين مليونا فرنكا احتياطا لما عساه ان يقع لان الثورة العامة انذرت مما يخشى من مثله فلابد أن يكون له ذخر خارج المملكة وذكر ذلك له مرة بمحضر أحد قناسل الدول ثم طلب هذا القنسل اسقاط الطلب عنه بتلك الملايين عند عزله ومن وقت انتصاب الكومسيون المالي قصرت يد الوزير خزنه دار عن التصرف وكاد أن يكون اسناد الوزارة اليه اسما بلا مسمى وحنق من ذلك أشد الحنق ورام ان يغير الحال فلم يوافقه الوالي لاطلاعه على حقائق الامور وعلمه ان رجال الحكومة لم يبقوا على ما كانوا عليه من الاتفاق على الوزير وبقي على ذلك الى ان ظهرت نازلة ارلانجي البنكير بطالب مالي وادعى انه ابروسياني وكان ذلك في خلال محاربة فرانسا مع المانيا وشدد القنسل البروسياني في مطلبه ولم يكن للحكومة مال وظهر للوالي ان يستقرض من وزيره المال المطلوب به فيه الحكومة فاقرضها بالربا ورهن آجام وغابات طبرقه بفائدة عشرين في المائة في السنة ثم ظهرت نازلة الالفي رقعة وحاصلها ان الكومسيون المالي لما حصر جميع الديون ووحدها في دين واحد جعل له رقاعا جديدة وشرع في ابدال القديمة بالجديدة فعند ذلك تبين ان الرقاع الجديدة المقدرة على ما ضبط من مقدار الدين لا تفي بالرقاع القديمة التي جاء بها أصحابها للتبديل فاستقرى الكومسيون اسباب ذلك وتبين انه لما انتصب الكومسيون المالي وجهت له الحكومة حسابا رسميا فيه بيان حساب الرقاع الرائجة من سلفي سنة ١٨٦٣ و سنة ١٨٦٥ بعد طرح الرقاع التي رجعت بالخلاص للحكومة في الاقتراعات وبعد طرح الفي رقعة اشتريت على يد البنكير ارلانجي للحكومة من ديونها فلم يعتبر الكومسيون في ديون الحكومة الا ما بقي

من

من رقاع السلفين بعد طرح القسمين المذكورين لان كلا منهما هو خلاص لمقداره من الدين وأذن الكومسيون بطبع عدد من الرقاع جديد بمقدار ما بقي من الدين ولما شرع في تبديل الرقاع وجد في رقاع سلف سنة ١٨٦٣ أكثر مما كان قدره على مقتضى الحساب الرسمي المشار اليه فظن أول الامر ان الزائد مزورة فتأمل في جميعها ولم يجد فيها مجالا للزور فحاول حينئذ الكشف عن منشأ هاته الزيادة واستفسر من الوزير خزنه دار عن الالفي رقعة المشتراة على يد ارلانجي وما كان فيها فلم يجب واصر على السكوت مدة أكثر من سنة مع تكرر السؤال له كما يتبين ذلك من تقرير الجلستين المنعقدتين من الكومسيون في ١٥ أغشت سنة ١٨٧٢ وفي غاية سنة ١٨٧٣ ولما ألح الكومسيون على الوزير في طلب الجواب زعم أن الحكومة لم تتصل بالرقاع المذكورة وان دار ارلانجي هي المطالبة بذلك لكن الكومسيون قبل أن يطلب من ارلانجي البيان تحرى فيما يلزم من الاطلاع على الحساب مع الدار المذكورة وعلى الرسائل الواردة منها لكي يعتمد في المخاطبة ما هو الواجب فاذن الوالي في ذلك وأطلع عليه الكومسيون وثبت عنده أن الدار المذكورة سلمت تلك الرقاع للحكومة وكان من المعلوم لدى الكومسيون انه كان بين الوزير خزنه دار و بين رشيد الدحداح المتقدم ذكره معاملة خصوصية وان الوزير رهن سبعة آلاف رقعة من سلف سنة ١٨٦٣ فظهر للكومسيون أن يطلب بواسطة ثاني الرئيس وهو فيلات الحائز رتبة الوزارة من رشيد الدحداح المذكور جريدة أرقام الرقاع المذكورة كما يطلب من دار ارلانجي جريدة أرقام الالفين رقعة التي استرجعتها الحكومة فاتصل بالجريدتين وكشف الحال أن الالفي رقعة روجها الوزير خزنه دار على يد الدحداح بعد خلاصها فعرض ثاني رائس الكومسيون على الكومسيون تقريرا مفصلا فيما ثبت لديه في النازلة وتضمنه تقرير جلسة الكومسيون المؤرخ في ٤ يونيه سنة ١٨٧٢ وملخص تقرير الجلسة أن الرقاع المذكورة سلمت في ١ فبراير سنة ١٨٦٤ للحكومة التونسية على يد شميت النائب عن دار ارلانجي وقيد ثمنها في الحساب الواقع بين الحكومة والدار المذكورة المؤرخ في ١٧ مايه سنة ١٨٦٧ ثم روجها الوزير مصطفى على يد الدحداح القاطن في باريس وان استعمال الرقاع المذكورة على الوجه المذكور أضر بالحكومة وأرباب الديون وان رأى كل الكومسيون أجمع على طلب التعويض والخسائر من الوزير مصطفى المذكور اه وعلم الوزير بما وقع ونصحه الوزير خير الدين بفصل النازلة عن عجل

فابى ظنا انه لاتناله الاحكام وبلغ ذلك للوالى سرا بواسطة مصطفى بن اسمعيل اقرب المقربين لديه لتعصب الوزير خير الدين به فى انهاء قطائع خزنه دار اليه وافهامه ان الوزير خير الدين مضاد حقيقة لذلك الوزير وان كانت له عليه يد المنة والمصاهرة لما ذكر من سيرته فامتلأ وطاب الوالى من انكاره أعمال وزيره ولم يزل الوزير مصرا على الامتناع من بيان الوجه فى رواج تلك الرقاع ثانيا الى ان واجه الوالى ثانى رائس الكومسيون بمحضر المذكور وعرض على الوالى ملخص النازلة وطلب منه امضاء الحكم فباشر الوزير ثانى رائس الكومسيون بكلام شديد الى ان انتهره الوالى وقال له ان جوابك له اما ان يكون بالحجة فى تبرئة نفسك أو تدفع الحق الذى عليك وانفصل الموطن وتيقن الوزير تغير الوالى عليه لكنه لم يكن يظن انه يعزل فكاتب الوالى بالاقرار باخذه للالف رقعة وطلب عفوه وادى للكومسيون ماطلبه ولما تيقن الوالى فظاعة النازلة وتيقن عدم الخوف من عزل الوزير بعد ان جس جميع الجهات أبرم عزله فى غرة رمضان سنة ١٢٩٠ وكان مبدء تقلده منصب الوزارة فى سنة ١٢٥٥ وارتجت البلاد عند سماع عزله فرحا وكاد ان لا يصدق بعضهم بذلك لشدة تمكنه من الولاة حتى ينقلون عن بعض الصالحين انه يقول له انه يخدم ثلاثة امراء يكون مع أولهم بمنزلة الابن ومع الثانى بمنزلة الاخ ومع الثالث بمنزلة الوالد وعند ذلك من آخر مدة أحمد باشا وزينت البلاد عند عزله ولم يسمع بمثل ذلك فى هذا القطر واتبع عموم الافراح جميع البلدان والقبائل وحزن على عزله افراد من خواص حاشيته ومن توفرت ارباحهم على يديه وافراد قليلون من الاجانب ورام من له وجاهة منهم ان يتداخل فى ارجاعه لمنصبه أو فى الاول ان يواجه الوالى كآحاد المتوظفين فامتنع الوالى وجعل اتباعه يرودون كل وجه لارجاعه حتى سافر احدهم الى اروبا الى الاستانة واجتمع برجال الدول وبذل فى التوصل أموالا لم يجد من يتداخل فى توليته وزيرا فى حكومة مختارة فى ادارتها وحيث تيقن الوالى كثرة الاموال التى توصل اليها الوزير المذكور من اموال الاهالى والحكومة سيما الاموال التى أخذها ابنه الاكبر بتذاكر على المالية مكتوب بها يدفع فلان وزير المال مقدار كذا من المال لامير الامراء ابننا محمد فى مصالح على يده الخ ويقبض الابن المال ويمضى بخطه على القبض مع انه لا وظيفة له رسمية تقتضى صرف تلك الاموال ومع عدم بيان الجهة المصروف فيها المال فاراد محاسبته ومحاسبة ابنه على أموال الحكومة فتبرأ الوزير خير الدين من مباشرة ذلك على ماجرت به العادة من ان صاحب الوزارة يباشر مثل ذلك مع كل المتوظفين وعقد

لذلك

لذلك مجلسا مخصوصا برأسه ولى عهد الولاية الامير أبو الحسن على باى واعضاؤه المفتى الحنفى الشيخ أحمد بن الخواجه والقاضى المالكى الشيخ محمد الطاهر النيفر والوزير محمد ورشيد كاهية ووكالة الحكومة على طلب حقوقها الشيخ عمر بن الشيخ أحد كبار المدرسين بالجامع الاعظم وأرسل المجلس يدعو المطلوب بين له سماع الدعوى كما أرسل الوزير خير الدين مكتوبا الى الوزير السابق يعلمه فيه بعقد المجلس للتأمل فى نازلة المطالب المتوجهة عليه وعلى ابنه وجوبه عنها فامتنع من الحضور ولما الح عليه بالحضور أرسل الى قنسل فرانسا يطلب حمايته وتوجيه أحد اعوانه ليحميه عند ذهابه للمجلس فتعجب القنسل من الطلب وأجابه بانه لا يتداخل فى أحكام البلاد سيما ولم يجر عليه ظلم يقتضى مثل ذلك ثم أرسل وكيلا عنه من أحد رعايا الاجانب فلما دخل الى المجلس ساله الرائس هل هو داخل تحت أحكام البلاد أم لا فاجابه بلا وتفاوض المجلس فى قبوله وعدمه على تلك الصفة فظهر لهم انه يجب ان يكون الوكيل داخلا تحت أحكام البلاد ليؤاخذ بأعماله وأقواله فيما يتعلق بوكالته وفيما يعود اليه ولما علم الوزير خزنه دار بذلك أرسل ابنه الثانى محمد المنجى الذى هو برئ من جميع الاعمال السابقة وجعله وكيلا عن والده وأخيه وعلم ماهى مطالب الحكومة منهما وحيث علم ان الحجة قائمة عليهما ركن الى طلب الصلح فصالحته الحكومة وقال بعض الاعيان ان الصلح كان لا ينبغى وقوعه لان المال مال بيت المال فاما ان يتحقق مقداره ويؤخذ بتمامه وعلى فرض لدده يجبر بالحبس ولا مقالة لقائل اذا كان يصدر الحكم عليه من ذلك المجلس واما ان تثبت براءته ولا يؤخذ منه شئ وأجاب الوزير خير الدين بان اجباره يحصل منه القيل والقال سيما وشيعته يشيعون ان أصل المطالب غير صحيحة لقصد تداخل الاجانب فى أمره وحيث طلب الصلح فالصلح خير ووقع هذا الصلح بخمسة وعشرين مليونا فرنكا وملخص صورة الصلح هو ما يأتى بيانه

البيان		فرنك
أصل المبلغ الذى صولح عليه يطرح منه ما اسقطته عنه الحكومة		٢٥٠٠٠٠٠٠
		٠٥٠٠٠٠٠٠
		٢٠٠٠٠٠٠٠
بيان مادفع	فرنك	
ماسبقه للحكومة فى منابها من ربح دار السكة	٠٠٦٠٠٠٠٠	
ماهو بقية قرضه لها برهن طبرقه	٠١٢٣٥٩٢٢	
مادفعه عينا	٠٠٢٠٠٠٠٠	
قيمة ماملك من الربع والعقار والمنقول واستثناه قصر الحلفاوين والخشب المقطوع من طبرقه	١٠٩٦٤٠٧٨	
	١٣٠٠٠٠٠٠	١٣٠٠٠٠٠٠
فبقى قبله سبعة ملايين مقسطة لاقساط كل قسط بنصف مليون فى سنة وضمن الولد الاكبر اباه مع خيار الحكومة فى الطلب وكتب بشرح ماتقدم رسك امضى فيه الجميع وختمه شاهدان من عدول الحاضرة		٧٠٠٠٠٠٠
يطرح ماسقط عنه فى مقابلة اسقاطه الاتفاق فى عمل دار السكة الذى احاله اليه حميدة بن عياد		٠١٥٠٠٠٠٠
		٥٥٠٠٠٠٠

فكان الباقى على النحو المار ذكره خمسة ملايين ونصفا فرنكا ولم يدفع الاقساط التى حلت عليه منها لدعوى الافلاس وذكر الاعيان ان المقادير التى دفعها لم يكن فيها شئ من العين الا مائتى ألف فرنك ومابقى من الاملاك كلها الا ماندر أخذها بهبات من الولاة كما تشهد به رسومها أواشتراها من الحكومة باثمان ضعيفة دفع فيها املاكا كانت الحكومة وهبتها له مثل قرنباليا التى اشتراها من الحكومة بنحو ثلاثمائة ألف ريال تونسية ودفع فى ثمنها أرض سبخة امام حمام الانف مع الحمام المذكور الذى كان أخذ

جميعه هبة من الوالى الحالى ثم بعد أربع سنين عند الصلح المشار اليه عرض ان تكون قيمة قرنباليا المذكورة أربعة ملايين ونصف فرنكا ومما ينافى دعوى الافلاس أيضا ان كثيرين ممن لهم علاقة بالكومسيون المالى وبمجلس ادارة المداخيل علموا ان الوزير المذكور كان قبل عزله يرسل من يستخلص له فوائض أربعة وعشرين مليونا فرنكا من خصوص الدين التونسى ثم بعد انبرام الصلح صدر له اذن الوالى بان يخالط من شاء ويذهب أين شاء داخل القطر وخارجه والعود اليه متى شاء هو وابناؤه الا زوجه وزوج ابنه الاكبر لكونهما من عائلة الوالى ولم تكن عادتهم تسمح بخروج أحد عائلتهم خارج القطر ولم يستثن عليه الا الاجتماع بالوالى وكان يظن ذلك بسعى الوزير خير الدين المتولى بعده لكنه كشف الحال انه من ذات الوالى لانه دام على الامتناع من مواجهته حتى بعد انفصال الوزير خير الدين عن الوزارة وبقى الوزير المذكور على حالة انفراده فى قصره بالحاضرة يتردد عليه قليل من اتباعه والاجانب الى ان توفى سنة ١٢٩٥ رحمه الله (المطلب السادس) فى وزارة الوزير خير الدين هذا الوزير أصله من ابناء الجراكسة القاطنين فى جبال القوقاز ونشأ بالقسطنطينية ثم شب فى تونس بقصر الوالى أحمد باشا واستكمل القراءة والكتابة والتجويد والفروض العينية ولحدة ذهنه أقبل بها على تحصيل الفنون العسكرية والسياسة والتاريخ ومشاركة فى الفنون الشرعية حصلها باعتنائه أهلها ومطالعة الكتب وتعلم اللسان الفرنساوى فكان فصيحا فى العربية عارفا بالتركية والفرنساوية شديد التوقير للشريعة والعلماء محافظا على شعائر الدين عالى الهمة وقورا حتى يخاله من لم يخالطه متكبرا فاذا ثافنه رآه حسن القبول عفيفا عن الرشا راسخ الطبع ثابت الفكر لا يتزلزل عن رأيه حازما فى العمل ترقى فى الخطط العسكرية فى مدة أحمد باشا مع استنجابه اليه وقربه الوزير مصطفى خزنه دار حتى صاهره على ابنته ثم ولاه أحمد باشا أمير اللوا الخيالة سنة ١٢٦٦ ولما وقعت حرب القريم أرسله أحمد باشا المذكور الى باريس ليبيع مجوهرات للحكومة يستعين بثمنها فى مصاريف العسكر المرسل لاعانة الدولة العثمانية وناضل هنالك على التعرض فى ارسال العسكر بما تقدم شرحه ولم يبع المجوهرات الا بعد عرضه لاثمانها على الوالى أحمد باشا مع انه فوض اليه وانكر عليه التأخير بسبب الاستشارة وكتب له تفويضا تاما كما كلفه فى تلك الوجهة بعقد قرض مع احدى ديار المال فباع المجوهرات وأرسل ثمنها وحاسب عليه وقدره نحو مليونين فرنكا وأخذ حجة تامة من محمد باشا فى الحساب وبراءة ذمته وماطل فى العقد للقرض وكيفية

شروطه لما يراه من المضرة على القطر وراجع الوالي مرارا الى ان توفي الوالي المذكور ووافقه خلفه محمد باشا على عدم القرض وقد رأيت بخط كاتب اسرار الولاة الوزير أحمد ابن أبي الضياف في هذا الغرض ما نصه وشكر رأي محمد باشا خير الدين في عدم الاستعجال وانقذ بها البلاد من هاوية الخ ثم عرض للوزير المذكور في اثناء سفرته المذكورة هروب ابن عياد وتكليف الوالي أحمد باشا الوزير المذكور بخصامه فدام في خصامه سنين مبدأها من سنة ١٢٦٩ ومنتهاها سنة ١٢٧٣ ونجح في عمله بما تقدم شرحه عند الكلام على ولاية أحمد باشا ورأيت بخط الوزير أحمد بن ابي الضياف في ذلك ما نصه ولو تم مراد ابن عياد ووجد من خير الدين اذنا صاغية لمواعيده لكانت المملكة في أسره لو قتناه هذا لكثرة ما بيده من الاوامر والرسوم الى ان قال لولا تدارك لطف الله على يد خير الدين الخ ثم في سنة ١٢٧٢ قدم الوزير خير الدين من فرانسا لتهنئة الوالي محمد باشا فاكرم مقدمه وعرف له نصحه في النوازل المذكورة ورقاه الى رتبة الفريق وعاد لاتمام الخصومة المذكورة فولاه محمد باشا وهو غائب وزارة البحر لموت صاحبها محمود كاهية سنة ١٢٧٣ وعند انبرام الحكم على ابن عياد رجع الوزير خير الدين الى تونس واعتنى بمباشرة وزارته مع اعتماد الوالي عليه في الاستشارة فحسن حالة حلق الوادي التي هي أعظم مرسى في القطر بما استطاع ورتب هيئة خدمة الوزارة بتقييد المكاتيب الصادرة وضبط جميع الحركات اليومية في دفتر وكان أول من عرف ذلك في القطر وكانت الامور تجري بلا ضبط وجعل اتفاقا مع الاجانب الذين استولوا على أكثر أراضي تلك البلاد بلا وجه فجعل معهم الاتفاق على ثلاثة أوجه فمن كانت بيده حجة من الوالي في الاذن بالبناء جعل له قيمة كراء الارض خاوية سنويا على حسب الكراء المؤبد ولورثته ميراثها من بعده ومن كانت بيده حجة في البناء من خصوص وزير البحر فقط فله ابقاء البناء مدة حياته لخصوص ذاته ومن بعده ترجع للحكومة وان امتنع قلع بناؤه أو تراضى مع الحكومة في شراء الارض أو كرائها ومن لم تكن بيده حجة لزمه التوافق مع الحكومة أو قلع بنائه ووافقه على ذلك قناسل الدول وحصل من ذلك نفع كثير وتحصل من الكراء المؤبد ما هو وقف الآن على جامع حلق الوادي وقام به أحسن قيام ثم أحدث معملا لابخار بالما تحتاج اليه السفن من الادوات الحديدية والخشبية وأبدل الجسر الذي كان على الخليج بجسر حسن متين وأوسع الطرق ونظمها وبنى محلا لادارة الوزارة حسنا وجعل امامه بطحاء وحسن لباس العساكر البحرية ثم لما

أنشأ

أنشأ عهد الامان كان الوزير المذكور فارس ميادين انشاء القوانين ابدله للحرية والعدل وكان المجلي في مضمارها بتدابيره وفصاحته وعدم استحيائه من الحق حتى ان الوالي المذكور لما أراد جلب ماء زغوان وجمع رجال حكومته واستشارهم وكان أغلبهم ذاهبا الى عدم الموافقة فاجابهم الوالي باني أعطيت كلمتي للقنسل بالموافقة على جلبه فتنفس الوزير خير الدين وقال أي فائدة لجمعنا حيث أعطيت كلمتك وحسبنا سماع هذا الخبر من سيادتكم كذا رأيته بخط كاتب أسرارهم الوزير أحمد بن أبي الضياف ولما ولي على القطر محمد الصادق باشا أرسل الوزير خير الدين المذكور الى الدولة العلية لطلب فرمان الولاية على العادة واستقبله استقبالا حسنا وقضى مأموريته ولما أنجز الوالي المذكور القوانين كما مر ولي الوزير خير الدين عضوا في مجلسه الخاص الذي يرأسه بنفسه كما ولاه رياسة المجلس الاكبر اي مجلس النواب وكان في مبدء الامر رئيسا ثانيا للوزير مصطفى صاحب الطابع وهذا هو الرائس الاول غير انه أخذ لقب الوظيفة فقط مراعاة لمقامه وسنه وعجزه سناو مارفاعن الوفاء بتلك الخطة ومن انصافه رحمه الله كان يصرح للوزير خير الدين بذلك ويقدمه حتى ان القانون بعد اتمام تأليفه عين الوالي أعضاء المجالس حسب الانتخاب وأمرهم بقراءة القانون وفهم معناه قبل العمل به فلم يحضر الرائس الاول وقام مقامه الوزير خير الدين وقال في شأن ذلك الوزير أحمد ابن أبي الضياف ما نصه وأبدى في تقريره أي القانون وبسطه وتفسيره من حسن البيان وفصاحة اللسان ما أعجب السامع وشنف المسامع وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء اه واعترف له بالفضل كل من حضر من العلماء وغيرهم ثم توفي الرئيس الاول وصار الوزير خير الدين هو الرئيس بالاسم والرسم والعمل وقد كان على غره ظانا أن القانون مراد لذاته حقيقة فشمر عن ساعد الجد وطفق يبرهن على المصالح ويفتح البصائر الى مغزاها وتنقاد الاعضاء لسد أبواب المفاسد الى أن نشبت مخالب التضاد بينه وبين الوزير السابق كما تقدم شرحه واضطربت أعضاء المجلس ورأى ان المآل الى جعل المجلس صوريا لانفاذ الاغراض على عاتقه فاستعفى من الرياسة وبقي عضوا في كل من المجلسين وقال في ذلك الوزير أحمد بن أبي الضياف وانتفع المجلس باعانته أي انتفاع متردیا بحلية نبله وعفافه وانصافه الخ ثم أرسله الوالي سفيرا عنه الى دولة السويد والبروسيا والبلجيك والدانمرك وهلاندا مكافأة بارسال نياشين الى ملوكهم عما أرسلوا به اليه من النياشين اكراما له على انشائه القوانين وكذلك فعلت غالب دول أروبا وفي اثناء عضويته عرض على المجلس الخاص

ان فواضل الاوقاف تصرف للقيام بالعسكر بموافقة أحد العلماء المالكية معتمدا الفتوى بما جرى عليه العمل من غير المشهور من مذهب امام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه من ان فواضل الاوقاف تصرف فى طرق البر ورأوا أن القيام بالعساكر من طرقها فخالفهم الوزير خير الدين محتجا بان القيام بالعساكر له نصيب معلوم شرعا من بيت المال فان كان النصيب المعين شرعا صرف جميعه على العسكر ولم يف بذلك فحينئذ ينطبق النص ونوافق على ماذكرتم وأما اذا كان دخل بيت المال يصرف فى غير وجهه الشرعى كما يعلمه الجميع فلا أرى انطباق النص على ماذكرتم ولعمرى انه لهو صميم الحق فثمرة العلم تحقيق المناط وان ذهبوا الى العمل بما رأوا وكان ذلك من أسباب ايغار صدور الخاصه والعامة كما تقدم ولما راموا أن يضاعفوا الاداء المسمى بالاثنين وسبعين الذى كان سببا فى الطامة الكبرى كما مر قال الوزير المذكور للوالى حسبما رأيته بخط الوزير ابن أبى الضياف الحاضر فى المجلس ياسيدى ان أخفيت ماظهر لى من نصح سيدى وبلادى أكون خائنا الامانة الاستشارة نرى ان هذه الزيادة فى مال الاعانة تؤدى الى زوالها بالمرة أو تلجئ الى مال أكثر منها التجهيز الجيوش لغصب الناس ولا نجد فى السنة التى بعدها مايقارب الاعانة الاولى هذا باعتبار القدرة على الغصب ولعمرى أنها مقالة دين ونصح نجد ثوابها يوم تجد كل نفس ماعملت الخ كلامه وصرح بمثل ذلك فى المجلس الاكبر أيضا ولما سأله بعض أعضائه سر اعما أوجب تسليمه قال انى رأيت السقف يريد أن ينقض ولم استطع استدراكه ولا وجدت اذنا صاغية فخرجت من تحته وعلى بخويصة نفسى ثم لما أبطل القانون بقى الوزير خير الدين فى بستانه مقبلا على شؤون نفسه لا يختلط بالحكومة الا نحو يومين فى الشهر يتوجه الى الوالى للسلام عليه أو عندما يدعوه لامر ما كما وقع عند قتل الشهيدين اسماعيل السنى ورشيد لان الوالى جمع بعد ذلك جميع رجال حكومته وأعلمهم بالقتل ورأيت فى صفة المواطن بخط الوزير ابن أبى الضياف الذى كان حاضرا فيه مانصه وقال له الوزير المنصف أبو محمد خير الدين نرجوا الله أن يكون هذا حد البأس وان لاتقع ندامة على هذا الاستعجال بعد وصولهما الى محبسهما الان لان مع الزمان ينافى هذا الاستعجال فاغتاظ الوالى وكاد أن يستهويه الغضب لولا لطف الله بخير الدين الخ وله فى أمثال ذلك من النصح والاقدام كثير وفى اثناء استعفائه كان التزاور بينه وبين الوزير مصطفى خزنه دار مستمرا لقرابة المصاهرة ولا يتداخل معه فى رأى من تصرفاته كما ان الاعيان من المتوظفين

المتوظفين والاهالى يزورونه ولايخوض معهم فى شئ من أحوال سياسة البلاد متجنبا القيل والقال مستكفيا فى التأنس واراحة البال بخواص من أصحابه مقبلا على مطالعة الكتب والتأليف فالف كتابه أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك وهو أول كتاب مبتدع فى السياسة التى يقتضيها الحال والشرع وكفى بتقاريظ العلماء فيه مع أن الرجل اذذاك بعيد عن شائبة التملق اليه ثم لما شددت الاجانب فى طلب أموالهم وأنشئ الكومسيون المالى باتفاق الدول دعاه الوالى الى رياسة ذلك الكومسيون فامتنع ولما ألح عليه الوزير السابق قال له مامعناه ان الحال قد بين التباين بين مهيعى ومهيعك فى طريق السياسة وانت رجل مثل والدى لك التقدم على فان وافقتك خنت دينى وأمانتى وان خالفتك صرت الى العداوة معك فالاولى بقائى على ما أنا عليه فاجابه بترك جميع مامضى وان الحال قد بلغ النهاية وانه لايريد فى المستقبل الا الاصلاح وموافقة الرأى فاعاد الوزير خير الدين مقاله وان طبع الوزير مصطفى خزنه دار لا يوافق السيرة التى يراها فوفا كد له مزيد الموافقة فى عدة مواطن وقبل اذذاك الوزير خير الدين رياسة الكومسيون ومن هذا الوقت وهو سنة ١٢٨٦ تنسب التصرفات اليه وان رجع الوزير السابق عن وعده وتحمل الوزير خير الدين بسبب ذلك مشاقا صعابا لكنه لم ينتج للوزير مصطفى خزنه دار مراده الى ان انفصل عن الوزارة بالمرة كما تقدم شرحه فاول ما ابتدأ به الوزير خير الدين من الاعمال انه رأى تداخل الكومسيون المالى فى مالية الحكومة يتسع نطاقه الى التداخل فى السياسة كما يقتضيه صريح فصول تركب ذلك الكومسيون ودليله انه بعيد انتصابه وجه تقريرا للوالى فى أمور تقتضيها وظيفته من مباشرة العمال فى استخلاص الاموال وغير ذلك وتوقف عن امضائها الوزير السابق لانها تؤول الى خروج التصرف عنه بل وعن الحكومة أيضا فاشتكى أعضاء الكومسيون الاجانب الى قناسلهم بان اعمال الكومسيون توقفت لان أساسها توقفت الحكومة فى امضائه فكتبت القناسل للوالى بالتعجيل والحث على اجراء ماالتزم به للدول الثلاثة وهى فرانسا وايطاليا وانكترا فجمع الوالى جميع رجال الحكومة وعرض عليهم الامر وكان من الحاضرين الوزير احمد ابن أبى الضياف وكتب حسبما رأيته بخطه فيما وقع فى المجلس مانصه وتكلم الوزير خير الدين بالمجلس بما يكتب على صفحات الايام الى أن قال انكم دفعتمونى الى هذه الخدمة وأنا عبد لخدمة سيدنا وبلادنا على كل حال ونطلب الاعانة من جميعكم فان أعنتمونى فلكم الفضل وان أسلمتمونى لا أجمع

للهروب وانما أقول اخدم برهة من الزمان وأنا أخو ليقدم غيرى من أمثالى يخدم مثل مدنى وهلم جرا فضمن الجميع له الاعانة كل على حسبه وانفصل الموطن الخ وأمضى الوالى مطلب الكومسيون وخاطب القناسل بذلك وكان ذلك مما يجر الى ابقاء الحكومة صورية لان استخلاص الاموال يستدعى تحسين الادارة وهو يستدعى العدل فيتداخل الكومسيون فى جميع ذلك وتهرع اليه الاهالى ولا يبقى للحكومة الا النزر فلذلك أشار الوزير خير الدين على الوالى بوجه تمضى معه حقوق الكومسيون وتحفظ به حقوق الحكومة وناموسها وهو توظيف رئيس الكومسيون بوظيفة وزير للوالى فى رتبة الوزير الاكبر بحيث يشاركه عند حضوره وينفرد عند غيابه وتنقل خدمة الكومسيون الى محل الوزارة ويكون مصدر جميع الاعمال واحدا فاستحسن الجميع ذلك الرأى ووظف الوالى الوزير خير الدين وظيفة سماها بالوزير المباشر فرتب أشغال الوزارة على الصورة الآتية وهى الوزارة الكبرى وتنحصر فيها جميع شعب الادارة الا الوزارتين الآتيتين بمعنى أن الوزير الاكبر ثم الوزير المباشر هما اللذان يباشران جميع المصالح اما بواسطة أو بدونها ثم قسم ادارة هاته الوزارة الى أربعة أقسام (فالقسم الاول) تحت رياسة مستشار ويرجع اليه جميع الامور السياسية العامة وأحوال المالية الخاصة بدخل الحكومة وخرجها دون ما يتعلق بالكومسيون المالى (والقسم الثانى) تحت رياسة مستشار ويرجع اليه ما يتعلق بشكايات الرعية من المتوظفين والعكس (والقسم الثالث) تحت رياسة مستشار ويرجع اليه ما يتعلق بالحقوق الشخصية ثم اتحد هذا القسم بالقسم الثانى (والقسم الرابع) تحت رياسة مستشار ويرجع اليه ما يتعلق بالخارجية كما جعل كلا من وزارتى الحرب والبحر مستقلا بنفسه كل منهما له وزير خاص غير انه تحت نظارة الوزارة الكبرى فهذا ما يتعلق بكيفية الارادة وأما ما يتعلق بما حصل من الادارة فان ديون الحكومة حصرت فكانت مائة مليون وخمسة وسبعين مليونا فرنكا كما تقدم تقريبه آنفا وكان الفائض الذى يدفع سنويا نحو العشرين مليونا فرنكا فاسقط من الاصل نحو مليون فرنكا ثم طرحت العشرون مليونا التى هى الفائدة التى لم تدفع وجعلت دينا بلا فائض يستهلك من الدخل المضروب جديدا على البضائع الداخلة للقطر وبقى المقدار الذى يؤدى الفائض نحو مائة مليونا وخمسة وعشرين مليونا فقط فجعل له فائضا خمسة فى المائة وصار مقدار الفائض السنوى نحو ستة ملايين فرنكا وخمسمائة الف فرنك الذى هو نحو الثلث مما كان جاريا

وخصص

وخصص له أنواع مخصوصة من مداخيل الحكومة لان نواب أصحاب الديون وهم قسم النظر من الكومسيون المالى لم يرضوا بان الحكومة تتعهد لهم بدفع الفائض بل أرادوا ان تكون ادارة المال الراجع اليهم تحت أيديهم فجعل لذلك مجلسا يسمى مجلس الادارة أعضاؤه أجانب منتخبون من قسم النظر من الكومسيون وعددهم خمسة وعضو تونسى ينتخبه قسم العمل وفوض اليهم قبض المداخيل الراجعة الى الفائض تحت احتساب قسم العمل ثم قسمت مداخيل الحكومة الى قسمين (القسم الاول) يتولى قبضه ذلك المجلس والانواع التى سلمت الى ذلك هى ما يأتى بيانه مع بيان تقريب دخله حسب الميزانية المسلمة من الوزارة السابقة

فرنكات	
٠٣٥٠٠٠٠	لزمة فندق الغلة أى الاداء على الخضراوات والفواكه المباعة فى الحاضرة
٠٤١٢٠٠٠	محصولات سوسه والمستير أى الاداء المرتب على نحو ماذكر وعلى بيع الحيوانات وغيره
٠٠٩٧٠٠٠	الرحب أى الاداء على بيع حبوب القمح والشعير وشبهه
٠٥٠٠٠٠٠	القمرق أى الاداء على السلع الداخلة والخارجة للحاضرة من الممالك
٠١٠٠٠٠٠	خروبة الاكرية بالحاضرة أى أنه يؤدى على كل ريال المنقسم الى ستة عشر خروبة خروبة واحدة أى جزء من ستة عشر على كل مكان يكرى
٠٠٤٥٠٠٠	قمرق صفاقس
٠٠٠٨٠٠٠	قمرق وادى قابس
٠٠٢٥٠٠٠	قمرق سوسه والمستير والمهدية
٠٢٢٠٠٠٠	قمرق الدخان أى انحصار بيع الورق المدخن به والمستنشق فى الحكومة
٠٠٥٥٠٠٠	قمرق الخل أى ما يؤدى على المسكرات
١٨١٢٠٠٠	

فرنكات	
١٨١٢٠٠٠	نقلت
٠٠٤٥٠٠٠	فندق البياض أى ما يؤدى على بيع الفحم
٠٠٦٠٠٠٠	الجبس أى انحصار بيع الجص فى الحكومة
٠٠١٠٠٠٠	صيد الحوت أى الاداء على صيد السمك وانحصار أماكن البحر فى صيد الحكومة
٠١١٠٠٠٠	الملح أى انحصار بيعه أيضا فيها
٠٠٥٥٠٠٠	الاداء على النشاف والقرنيط أى الاسفنج ونوع السمك المسمى بالقرنيط
٠٨٥٠٦٠٠	قانون الزيتون فى سوسة والمستير والمهدية وصفاقس أى الخراج على شجرة الزيتون عوضا عن العشر
٣٠٣٢٠٠٠	
٠١٥٠٠٠٠	قانون زيتون الوطن القبلى
٠١٠٠٠٠٠	محصولات صفاقس مثل ما بيناسابقا
٠٠٩٠٠٠٠	محصولات جربه وقرقنها
٠٠٨٠٠٠٠	محصولات بنزرت
٠٠٢٠٠٠٠	محصولات حلق الوادى
٠٠٠٨٠٠٠	لزمة صيد المرجان أى المقدار الذى يؤدى على ذلك من الفرانسيس
٠٠٨٥٠٠٠	محصولات الوطن القبلى
٠٣٠٠٠٠٠	التنبر اى الاوراق المختوم عليها من الحكومة ليكتب فيها الاحتجاجات بحيث لا تقبل حجة فى غير ورقة مختومة
٢٦٤٠٠٠٠	السراحات أى الاداء على ما يخرج من القطر من الحبوب والزيت والتمر والصوف والصابون
٢٥٠٥٠٠٠٠	

وقد أقيم الحساب على مقتضى هاته الميزانية فلم توف فى أغلب السنين للغلط الذى وقع

فى تقدير فصل السراحات وهو الاخير لان ذلك غير صحيح كما أبانه الواقع وسبب ذلك عدم امكان ضبطه فى الوزارة السابقة فقرب تقريبا بالقياس على سنة كانت خصبة مع الطلب فى الثمن الى أوروبا ولذلك لزم الحكومة ان تكمل من دخلها الخاص ما ينقص من ذلك الدخل عن الوفاء بالفائض حسبما هو مشروط فى اللائحة التى جعلها الكومسيون المالى أساسا لاعماله فان منها ان فائض الدين الذى هو ستة ملايين ونصف فرنكا كما تقدم ان وفت بها المداخيل المعطاة لمجلس الادارة فيها ونعمت والا فالحكومة ملزومة بان تكمل من باقى مداخيلها ما يوفى بذلك المقدار غير انها فى السنة الاولى لا تكون ملزومة الا بما يكمل خمسة ملايين وما نقص يذهب مجانا على أرباب الديون وفى السنة الثانية تكون ملزومة باكمال خمسة ملايين ونصف وفى السنة الثالثة تكون ملزومة باكمال ستة ملايين وفى السنة الرابعة تكون ملزومة باكمال الستة ملايين ونصف وهكذا فيما بعد للاسباب التى تقدم شرحها فى ضعف القطر ومن الشروط أيضا ان الحكومة لها ان تستقرض من خزانة مجلس الادارة مليونا متى أرادت لسبب قوى على ان ترجعه قبل مضى ستة أشهر ولا تؤدى عليه فائدة ومنها أيضا اذا ازداد دخل القسم المذكور من المداخيل على القدر اللازم فانه يبقى منه نصف مليون للاحتياط وما زاد على ذلك يشترى به رقاع من الدين وتستهلك وهكذا فى كل عام الا اذا زاد الدخل على ثمانية ملايين فرنكا فان ما زاد يقسم أيضا فالنصف يلحق بما تقدم فى استهلاك رأس مال الدين والنصف الآخر تصرفه الحكومة على نظر قسم العمل من الكومسيون فى المصالح العامة كالطرقات وغيرها (وأما القسم الثانى) من مداخيل الحكومة وهو ما بقى من أنواع المداخيل كاعشار الحبوب والزيت وخراج النخيل ومدبغة الجلد والاداء على الرقاب المسمى بالمجبا أو الاعانة الذى هو نحو خمسة ملايين ونصف فرنكا فانه يتولى قبضه قسم العمل من الكومسيون وهو الذى يتولى دفعه الى الحكومة على مطابقته للميزان الذى يجعل فى رأس السنة لمصاريف الحكومة فى مصالحها ومرتبات العائلة الاميرية ولسائر المتوظفين وتكون بطاقات الاذن لحافظ الخزنة بالدفع صادرة من الوالى غير انه لا يختمها بامضائه ما لم يجد عليها امضاء أعضاء قسم العمل من الكومسيون اعلاما بان البطاقة موافقة لاصول الميزان المالى ولا يكتب من تلك البطاقات فى وقت من الاوقات الا بمقدار ما فى الخزنة من المال بحيث لا تقع المماطلة لصاحب البطاقة من القابض الذى هو حافظ الخزنة حتى ربما يضطر صاحبها الى اسقاط شئ مما بها لتدفع اليه أو انه يبيعها لغيره

مما يوجب احداث دين جديد على الحكومة هذا هو الرسم الذى جرى عليه العمل فى الظاهر وربما وقع ما يخالفه على وجه تصعب مراقبته فهذا ما يتعلق باحوال الديون وما جرى عليه العمل فيها وقد رفعت فوائضها فى السنين الاولى على نحو ما تقدم من مداخيلها المعينة لها ثم فى بعض السنين أمكنها الحكومة من مداخيلها وفى بعضها زاد الدخل المعين لها حتى اشترى منه شئ من أصل الدين وفى بعضها رهنت الحكومة دار الجلد اى مدبغته لاكمال الفائض بحيث ان جميع مدة تصرف الوزير خير الدين لم يبق على الحكومة شئ من فائض الدين وانتسق دفعه فى أوقاته ثم جعل هذا الوزير معاهدة متجددة مع سائر الدول الاجنبية على ان يزاد فى اداء القمرق على السلع الداخلة من ممالكهم الى القطر والمقدار المزاد خمسة فى المائة وعين هذا المقدار الى استهلاك الدين الذى يبقى بلا فائض وأصله فائض الديون السابقة الذى لم يدفع وقدره نحو عشرين مليونا على نحو ما تقدم ثم بعد خلاص ذلك الدين يرجع ذلك المقدار مع بقية دخل القمرق الى فائض الدين المتحد واستهلاكه وصار اداء القمرق على السلع بين المزيد والمزيد عليه ثمانية فى المائة واما ما يتعلق بتحسين الادارة المالية والحكمية فى القطر فاحدث أمورا عديدة نافعة منها انه أبطل أنواع المجابى التى اختلفت كيفيتها وكميتها فى السنين المتقدم ذكرها وجعل على كل ذكر بالغ قادر على التكسب أربعين ريالا تونسيا فى السنة مدرجة على أربع سنين (ففى الاولى) يدفع المطلوب خمسة وعشرين ريالا (وفى الثانية) يدفع ثلاثين ريالا (وفى الثالثة) خمسة وثلاثين ريالا (وفى الرابعة) أربعين ريالا وجرى بها العمل من غير زيادة وشدد فى الاخذ على أيدى العمال بحيث لا تمتد يد أحد منهم الى شئ زائد عما ذكر وجعل لهم أجرهم ستة فى المائة يأخذونها من ذات الاموال المستخلصة على أيديهم الراجعة للحكومة منها أربعة للعامل وريالان للشيخ ثم أبطل هذا الاجر وعوض بواحد على كل عشرة تستخلص من الدافع زيادة على العشرة بحيث صار على كل نفر أربعة وأربعون ريالا فى السنة وذلك الواحد الزائد يجمع عند العامل فيأخذ هو النصف والنصف الآخر يقسم بين مشايخ العمل ونواب العامل المسمين بالخلفاوات (ومنها) جعل قانون معلوم لرسل الحكام فى استخلاص الاموال سواء كانت راجعة للحكومة أو للاهالى أو للاجانب بحيث يأخذ المرسل نصف ريال على كل عشرة يستخلصها من المال هذا اذا كان رسولا من الحكومة أى من أعوان الوالى اما اذا كان من أعوان العامل وغيره من الحكام غير أهل الشرع فانه يأخذ ربع ريال على كل عشرة وقد كانت قبل ذلك على

حسب

حسب المشيئة (ومنها) ترتيب استخلاص أعشار الحبوب التى اضطرب حالها أيضا ففرض عشر كل ماشية أى ما يحرثه الرجل الواحد فى السنة الواحدة على الحيوانات المناسبة بحسب كل جهة وبذرها مما يطلق عليه اسم الماشية هنالك فى خمسة ويبات قمحا ومثلها شعيرا الذى هو أقل ما يمكن ان يكون عشر الخارج من النبات فى أغلب السنين وما زاد على ذلك من العشر الحقيقى فهو فى عهدة ديانة صاحب الزرع يدفعه لمن أراد واذا أثبت صاحب الزرع ما اجتاح زرعه فانه يسقط عنه بمقدار ما ضاع له ويؤدى أجرة الكيل والتقييد والتقدير أربعة ريالات على كل ماشية هذا كله فى الجهات التى تدفع العشر من ذات الحبوب النابتة وأما الجهات التى تدفع عوض ذلك دراهم لبعدها عن محل الدفع فان الدافع يدفع خمسين ريالا على كل ماشية فى كل سنة وريالين أجرة المستخلص وهذا المقدار مراعى فيه حالة صاحب الفلاحة لان ثمن الخمسة ويبات من القمح وحده تبلغ الخمسين ريالا بحسب ثمن كل ويبة عشرة ريالات الذى هو السوم فى أغلب السنين وروعى فيه أيضا جهة الحكومة لما يلزمها من كثرة مصاريف الحمل لعدم الطرق الصناعية ثم ان ذلك المقدار قسط أيضا تدريجا على أربع سنين يبتدئ بثلاثة ويبات ونصف من كل نوع على حدته ويزيد فى كل سنة نصف ويبة الى ان يوصل فى العام الرابع الى خمسة ويبات من كل نوع ومثله ما يقابله من المال وقد نتج من ذلك عمران الايالة بدليل انه عند ولاية المذكور وزيرا مباشرا لم يكن فى الايالة عشرة آلاف ماشية ارضا مزروعة وعند خروجه من خطة الوزارة ترك فى المملكة أكثر من مائة ألف ماشية مزروعة (ومنها) التخفيف على خراج الزيتون المسمى بالقانون فى الوطن القبلى الذى كان أجحف باهله فى المدة الماضية حتى سئمت أصحاب الاملاك فيما يملكون ولم يقبل منهم وأغروا البوادى باحراقه للاستراحة من مطالبه فنزل من رتبة الريال والنصف ريال على كل شجرة الى الثمانية نواصر على كل شجرة والناصرى هو جزء من تجزية الريال الى اثنين وخمسين ناصري ثم اسقط عن أصحاب الزيتون احدى وثلاثين ألف شجرة زيتونا احترقت واسقط عنها اداؤها وبه يعلم مقدار ما كانوا يتحملون ومقدار نقصان العمران فيما سبق ونشر ذلك فى العدد الثانى من رائد سنة ١٢٨٦ الذى هو الصحيفة الرسمية للحكومة ثم اسقط هذا الاداء بالمرة ورجع الامر الى الوجه الشرعى وهو العشر على ما يحصل من الزيت وفرح بذلك أصحاب الاملاك وأقلقهم فرحا شديدا لارتياحهم من اعياء ذلك الثقل العظيم (ومنها) تخفيف قانون النخيل ببلد نفزاوة من عمل

الجريد حيث كان ملحقا بسائر عمل الجريد مع انه غير مساو لما فيه من شجرة النخيل خصبا وحسنا فاذلك جعل على كل شجرة من نوع الدقلة ريالا ونصفا وعلى بقية أنواع النخيل ستة خوارب على كل شجرة والخروبة جزء من ستة عشر جزءا من الريال كما تقدم (ومنها) ترتيب مجلس محاسبة العمال والمتوظفين عما تعاطوه بحسب وظيفتهم ولم يوصلوه الى الحكومة وبقيت قبائلهم وبلدانهم مطلوبين للحكومة ببقايا ماعليهم فتحرر من ذلك مبالغ جسيمة قبضت الحكومة بعضها وبعضها لم يقبض اما لاعدام من قبضه أو للعفو عنه واسقط ذلك من المطالب الباقية على أصحابها من أهل الجريد ودريد وجندوبه والساحل وأولاد عيار وأولاد مجور ومن ذلك محاسبة أحمد زروق واتباعه وابراهيم بن عياس واخوانه وعلى الساسي وعبد الرحمن بن عمر والحاج الحسنى وملخص الحسابات ما يأتى بيانه

ريالات

٨٠٠٠٠٠٠٠	من الساحل حسبما أفاد أحد اعضاء مجلس المحاسبة
١١٥٨٠٨٥٢	من بقية الاعمال المذكورة حسبما أشرت المحاسبات
٩١٥٨٠٨٥٢	

٥٨٨	منها أيضا غنم	ر ١٢	منها أحمرة
٠٦٤	منها بقر	١٣ ر ٠٧	منها القفزة قمحا
٠٢٠	منها خيل	١٢ ر ١١	منها القفزة شعيرا
٠٠٢	منها ارطال فضة	ر ٠٤	منها بغال
٣٤٠	منها ابل	ر ٢٦	منها اطرحات تبن

(ومنها) تنقيح المتوظفين عالا يوغر الصدور الامن تفاقمت سقطاته فدحض واما غيرهم فلم يؤثر من كان من حزبه على غيره ولو على اضداده فلم يفد فيهم الاحسان ونقص بذلك اعتبار حزبه حتى رآه الوالى مفقود الاعوان واتخذها ذريعة لعزله من الوزارة وصدقت وصايات الحكماء الاقدمين الحاثين على جلب الاصدقاء والاعوان وعدم الركون الى الاعداء لان تقريبهم لا ينفع والاصدقاء يضمحلون بذلك واما دعوى التحزب بالجمهور فذلك أمر لا يتم الا للملوك الذين رسخت قدمهم فى الملك بالتوارث وصار انقياد الانفس اليهم طبيعيا اما الوزراء فهم أشد الاصناف احتياجا الى معونة الاصدقاء (ومنها) الترغيب فى غرس الزيتون والنخيل بان جعل لكل من غرس منها شيأ ان لا يؤدى عليه شيأ من

الاداآت

الاداآت المرتبة على ذلك النوع مدة خمسة عشر سنة (ومنها) رفع الضرر عن أهل الساحل من وطأة أصحاب ديونهم فانهم كانوا يسجنون المديون مع قيام الرهن بيد الدائن ويبيعون غلة الاحباس المشتركة مع المديونين وغيرهم ويستولون على الجميع ويطلبون الضامن قبل فلاس المديون مع عدم اشتراط ذلك ويستولون على مخلفات من مات من المديونين ويبيعونها على غير يد الحكام واذا أفلس المديون لا يتركون له ما يستر بدنه ولا ما يقتات به ويتركون المديون فى السجن بلا تحديد مدة فأبطل جميع ذلك وأجرى فيه أحكام البلاد الشرعية والعرفية (ومنها) ارجاع من هاجر من القطر من الاهالى بالامن لهم والعفو عمن سبقت منه جناية واسقاط ما عليهم من المطالب الى الحكومة وكذلك العساكر الذين فروا من القطر شملهم مثل ذلك (ومنها) ارجاع من نكب من أتباع الحكومة وتأمينهم وتقليدهم بمثل ما كانوا عليه من الوظائف اذ لم يكن من سبب معقول لابعادهم أو نفيهم أو نكبتهم فرجع للقطر وللوظيفة السيد الشريف أمير اللواء حسن مقرون وأخوه والوزير رستم والوزير حسين وأمير الامراء محمد المرابط وأمير اللوا يونس الجزيرى وأمير اللوا مراد وأمير الالاى حسين ورديان باشا وأمير الالاى حسن مدلجى والقائم مقام على جهان وغيرهم (ومنها) حصر الديون التى على أهل الساحل من الاجانب وبناؤها على أساس لائق بالجانبين بحيث انقطع تفاقم الربا وتضاعفت زيوت السلم وجعل لخلاصهم مدة معينة على اقساط (ومنها) ان أمير لواء العسة اذ ذاك على ابن فريجه نقم عليه الوالى وأرادوا ان يأخذوا منه أهم مصوغه وكسبه باوجه من الدعاوى بلا بينة ولا ترافع كما وقع مع الشهيد ابن اسماعيل السنى ورشيد فامتنع الوزير خير الدين واقام له مجلس المحاسبة ومكنه من مصوغه وما ثبت عليه بعد الحساب دفعه باختياره (ومنها) بذل وسعه فى استحصال فرمان سنة ١٢٨٨ السابق ذكره على ما مر شرحه ومن فرح الوالى به واكرامه على ما نتج على يده ان وجه له وهو مقيم بعاطه المدة المحمية مصطفى ابن اسماعيل أقرب المقربين اليه ومستشار الخارجية محمد البكوش لاكرام خاطره وابلاغ الشكر اليه وأرادا ان يلبسه نيشان البيت الحسينى فتعرض له الوزير مصطفى خزنه دار وأبدل له نيشان الصنف الاكبر بنيشان منه مرصع ثم كافأه على ذلك بمرتب عمرى قدره خمسة وسبعون ألف ريال تونسيه فى السنة ثم عاوض له هذا المرتب بهنشير أى أرض وسيعة تعرف بالنفيضة (ومنها) اسقاط جميع البقايا الباقية على الاهالى من مداخيل الحكومة على اختلاف أنواعها مما سبق تاريخه سنة ١٢٨٦ الذى هو

بعد مباشرتي الوظيفة وانبعثت بذلك آمال الاهالي الى بعيد الارض حيث كانوا يرون ان
ثمرة أعمالهم يستأثر بها غيرهم للوفاء بتلك البقايا الباهظة التي دفعوا أضعافها
(ومنها) تركيب المجلس للحكم في نازلة الوزير مصطفى خزنه دار عند عزله كما تقدم
شرحه وتجنبه للعادة في مثل ذلك من كون الوزارة هي التي تباشر مثل تلك النوازل
لينفي الشكوك والتهم ومنذ ذلك التاريخ انفرد الوزير خير الدين بالوزارة حسا ومعنى ولقبه
الوالي بالوزير الاكبر وابطل لقب الوزير المباشر وقلده بنيشان بيته الحسيني
مع بقائه على رياسة الكومسيون المالي وذلك في غرة رمضان سنة ١٢٩٠
فزينت البلاد وعقد الاهالي محافل ليلية مع التنوير وهكذا سائر بلدان المملكة وقبائل
عربانها بما أذكرهم احتفالهم بفرمانه سنة ١٢٨٨ حسبما سبقت الاشارة اليه
لتيقنهم بالاستراحة من تصرفات السابق وأملهم بازدياد اصلاحات المتولي لما عرفوا من
اياديه مما مر ذكره وفي هاته الاثناء تم اسقاط خراج الزيتون المسمى بالقانون في الوطن
القبلي الذي مر ذكره وجعل عوضه لخزنة الدين تعميم الخروبة على جميع الاملاك سواء
اكتريت أو سكن فيها المالك بان يقوم كراءها ويدفع بحسبه خروبة على الريال أي جزء
من ستة عشر جزءا وعم ذلك البلدان والقرى والبساتين لان نواب أصحاب الدين لم يرتضوا
باسقاط القانون الا بعوض عنه في الدخل ومن تصرفاته بعد ذلك انشاء جمعية الاوقاف
بان جعل نظر الاوقاف مطلقا في جميع انحاء القطر لجماعة من أعيان الاهالي مركبة من
رئيس ونائبه وعضوين وكان الحقير متوليا ادارة هاته الوظيفة التي صحابها ينظرون في
مصالح الاوقاف سواء كانت أهلية أو على أعمال البر لكن الاهلية نظارهم فيها بارشاد
أهلها لاقامتها وحراستها من الاتلاف والتي على أعمال البر يتولون ادارتها وحفظها اذ
كانت تلاعبت بها أيدي الاهمال وكانت كانها مناط التفضلات فما من وقف له شيء من
الدخل قليل أو كثيرا الا ويعطى لاحد ذوي التقرب أو الاستناد لمن بيده التصرف فتعطلت
منافع الاوقاف وأهمل الموقوف عليه الى ان خرب أكثره وقد عينت ثقاة لتحرير ما يكفي
لاصلاح الموقوف عليه وحده فكان تقدير ما يكفي ٣١٦٦٧٧٥ ريالات مع
تعطيل مرتبات الشعائر وتراكم ديون القوانين الراجعة للحكومة من الموظفات على
الاوقاف حتى صار عليها من الدين ما يقرب من نصف مليون فتدارك أمرها بذلك الترتيب
وأقيمت الجوامع والمساجد والمدارس في كل جهات القطر وهكذا الاوقاف على قراءة
القرآن وغيره من أنواع البر وكان دخل الاوقاف عدا أوقاف الحرمين الشريفين

وعدا

وعدا أوقاف جامع الزيتونة لان ذلك مستثنى من العموم لكل ادارة مخصوصة وهكذا
أوقاف المدرسة الصادقية الاتي بيانها فاعدا ما ذكر وعدا الاوقاف الاهلية
والزوايا التي لها ذريه كان دخله في السنة الاولى من مباشرتي وهي سنة ١٢٩١
١٢٠٤٠٠٠ وصار دخلها في السنة الخامسة وهي آخر السنين التي باشرت الادارة فيها
بتمامها وهي سنة ١٢٩٥ ما قدره ٢١٥٤٠٧٣ وأصلحت في مدة الخمسة سنين
٣٣٣٠ مكانا وكان المصروف في سنة ١٢٩٥ على خصوص اقامة الشعائر
٥٦٧٠٨٣ وما دفع للحكومة في قوانينها على ما يخص الاوقاف ١٩١٩٣٤ وكان
المصروف في الاصلاحات ١٦٨٠٧٣ فمجموع ذلك ٩٣٠١٢٣ ثم كان
المصروف من الداخل المذكور على عموم المصالح غير الموقوف عليه ٥٥٦٤٠٩
الجميع ريالات تونسية كما نشر جميع ذلك بالرائد التونسي الذي هو الصحيفة الرسمية
للحكومة ومن تصرفاته التي وقعت باجرائها اجراء مرتب لاهل المجلس الشرعي بالحاضرة
وقد كان هذا المرتب عين لهم في مبادي ولاية محمد الصادق باشا على ان يكون من فواضل
الاوقاف وجعلت اذ ذاك الاوقاف لنظر محتسب فلم تقم بنفسها ولا وفت بتلك المرتبات الا
في بعض أشهر واستخلصت اذ ذاك معاوضات كثيرة وصرفت في ذلك المصرف
وضاعت الموقوفات ومع ذلك لم يحصل المقصود حتى انيطت وكالة بعض الاوقاف باهل
المجلس الشرعي مفرقة عليهم لكي يستنفعوا منها بما يقابل المرتب فجرى فيها مثل
ما كان ولم يحصل لهم المقصود حتى ذكر بعضهم انه كان يناله في جميع السنة خمسمائة
ريال فأجرى لهم الوزير خير الدين من فواضل الاوقاف خمسمائة ريال في كل شهر على
مجرد الخطة الشرعية ولكل من شيخ الاسلام ورئيس الفتوى من المالكية
ثمانية آلاف في السنة عدا ما لكل منهم من مرتبات وظائف أخرى وجرايات من
القمح عشرة أقفزة ومثلها شعيرا واثنى عشر مطرا زيتا ويزيد لكل من الرئيسين
المذكورين على ما ذكر قفيزين من كل نوع وثلاثة امطار زيتا وأطرد جريان ذلك ولم
يتأخر عن أصحابه ولا شهرا واحدا مدة مباشرتي (ومنها) أيضا الزيادة في مرتب
المدرسين بجامع الزيتونة الذين مر ذكر ترتيبهم من أحمد باشا فزاد لكل مدرس من
الطبقة الاولى ثلاثة ريالات يومية ولاهل الطبقة الثانية ريالا واحدا وكان اجراء ذلك
أولا من مال الحكومة ثم اجريته لهم من فواضل الاوقاف (ومنها) جعل مرتب
للحكام الشرعيين في جميع بلدان القطر على خصوص وظيفة الحكم الشرعي ولم يكن لهم

ذلك من قبل بل كانوا مقتصرين على مرتبات من دروس وامامة وخطابة فاجريت لكل
قاض ببلد فيها مفاتى مائة وخمسين ريالا فى الشهر ولكل مفتى مائة وعشرين ولكل
رئيس فتوى مائة وخمسين ولكل قاض فى بلد لا مفتى بها وهى البلدان الصغيرة تسعين
ريالا فى الشهر (ومنها) جعل وكيل للخصام من الناس العاجزين عن الخصام
بأنفسهم والعاجزين عن أجرة الوكيل (ومنها) احداث طريق صناعى بين تونس
وحمام الانف طوله نحو اثنى عشر ميلا وقد كان ذلك الطريق الذى هو أهم طرق جهات
القطر يتعطل المرور فيه زمن الشتاء لكثرة الوحل وتموت فيه حيوانات كثيرة للمارة ولا
يكاد يصل صاحب العجلة فيه مع قوة مراكبه التى تجر العجلة الا فى نحو نصف يوم هذا
ان سلمت عجلته حتى ان الامراء والوزراء يربطون فى عجلاتهم أربعة من الخيل أو البغال أو
أكثر ان يسوغ له ذلك ولا يصل الى حمام الانف الا فى أربع ساعات أو أزيد أما الضعفاء
فلا يستطيعون المرور فيه وترى المارة يردون الطرق البعيدة باضعاف طول ذلك
الطريق الذى هو ضرورى لجميع من كان فى الجهة الجنوبية الشرقية من القطر كاهل
الساحل وصفاقس والاعراض والجريد وغيرهم فزال جميع التعطيل باحداث ذلك
الطريق وان عده بعضهم انه من التحسينات التى تأخر عن غيرها فهذا لجهله باسباب
العمران وعدم تفرقته بين الضرورى والتحسينى (ومنها) التحجير على معاوضة
الاوقاف بمال من النقود بل لا بد بعد المسوغ الشرعى من أن يعوض مكان الوقف
بمكان آخر يدا بيد حيث كان ضاع على الاوقاف بسبب مخالفة تلك الطريقة أموال
لها بال اذ حررت الاموال التى وجدتها مقيدة بدفاتر القضاة والمفتين بانها ثمن أوقاف
عوضت ولم يشتر بثمنها شئ فكان مجموع المال ٢٤٠٠٦٧٣ هذا عدا ما عوض
ولم يرسم فى الدفاتر وانما كتب فى رسوم أصحابه ولم يبق للوقف حجة فيه وهو أيضا كثير
ثم ذلك المبلغ أكثره ضاع بالمرة اما لجهل من أمن تحت يده حيث يقال فى الرسم وأمن
تحت يد من يوثق به أو لانه أمن تحت يد اناس قد ظهر افلاسهم حتى انه مع غاية الاجتهاد
انما أمكن ان يستخلص من المليونين ونيف المذكورة نحو مائتى الف ريال فقط
واشترى بها أملاكا وقفت على مرجعها وزالت اسباب الضياع بسبب ذلك التحجير
(ومنها) التحجير على العدول الذين يكتبون رسوم بيوع الاملاك بانهم مهما وجدوا
فى رسم معاوضة أو انزالا أى كراء مؤبدا الا وأخبروا به جمعية الاوقاف لكى يحرر بذلك
الوقف فنتج من ذلك ظهور أموال للاوقاف تبلغ قيمتها مايات الالوف كما ظهر بالبحث
أيضا

أيضا أملاك أخرى أصلها وقف واستولت عليها أيدى العدوان ورجعت الى أوقافها
بالمرافعة والاحكام الشرعية وكان من جملتها نيف وسبعون هنشيرا أى قطعا من الارض
المثمرة ما بين كبير وصغير زيادة على الزياتين وغيرها من الاملاك التى تتجاوز قيمة المليون
(ومنها) ابراء من كانت عليه رسوم فى أموال من المعاوضات المذكورة مثبتة فى دفاتر
القضاة مع ان أصحابها دفعوها أو اشتروا بها أملاكا رجعت الى أوقافها ولم يكتب على
الرسوم فى الدفاتر ذلك حتى لو ضاعت حجة الخلاص على المدين لبقيت رسوم الدين عليه
قائمة والحال انه خالص وكان الذى تحرر من ذلك القبيل ما يبلغ المائتين ألف ريال
أو تزيد فابرئت أصحابها وعلم على رسوم الدين بالخلاص (ومنها) ان عائلة حاى
الصباغ الذى مر ذكره انه كانت له علاقة بالوزير السابق قد نال الحماية من دولة المانيا مع
انه تونسى ولم يجر عليه ظلم فتكلم الوزير المذكور مع دولة المانيا بوسائط سياسية الى ان
صدر مكتوب منها رسمى بان الصباغ المذكور لا تنساله حماية المانيا فى خصوص القطر
التونسى بل تجرى عليه أحكام بلاده وانما يكون المانيا اذا كان فى غير ذلك القطر
(ومنها) انشاء مجلس مختلط من متوظفى أغلب قنسليات الدول الاجنبية الذين لهم
كثرة رعايا فى القطر ورئيسه أحد المتوظفين التونسية للحكم فى نوازل الديون والمعاملات
المالية الواقعة بين أهل القطر والاجانب فيما اذا كان لا يتجاوز المال الالف ريال ولم
يتخلف عن الدخول فيه الا دولة ايطاليه لخلاف وقع فى المقدار الذى يجوز التحاكم فيه
لدى ذلك المجلس لان قوانينها انما تسوغ الحكم فى رعاياها على خلاف قانونهم فى مقدار
لا يبلغ الالف ريال فقط ودامت المذاكرات فى ذلك المعنى الى ان انفصل الوزير
المذكور عن الوزارة وحصل من هذا المجلس قطع تشعبات عظيمة وهرج كثير فى الخصام
لان الديون القليلة والمعاملات الضعيفة كثيرة الوجود واختلاف الحكم فى بلد واحد من
المصائب العظمى فزال ذلك بوجود ذلك المجلس (ومنها) شروعه فى المذاكرة مع
الدول العظام على اتحاد الاحكام فى القطر ولما كان يعلم ان دول أوروبا لا ينقادون الى
ادخال رعاياهم تحت أحكام الشريعة الاسلامية فى تونس اذا بقيت حالة القضاة على
ما هى عليه الآن حيث انه يوجد لكل من المذهب الحنفى والمذهب المالكى قاض
مطلق الحكم فى النوازل مع ما يوجد بين المذهبين من الخلاف فى كثير من الفروع بل وفى
المذهب الواحد تختلف الاقوال ويكون للقاضى الاجتهاد فى الترجيح والتطبيق
باعتبار الاصلح والعرف فيحكم هذا القاضى فى حادثة بما يخالف حكم قاض آخر فى

مثلها والاوروباويون يريدون ان تكون الاحكام المدخول عليها معروفة لهم من قبل مضبوطة بما لا يتوهمون معه ميل الحاكم الى غير ما توجبه الحجة فلذلك أحضر الوزير خير الدين القوانين المعمول بها في الدولة العلية المتعلقة بالاحكام وكذلك القوانين المعمول بها في مصر وكاف أحد المهرة العارفين بالاحكام الاروباوية بان يستخرج من أحكامهم ما يوافق حالة القطر وعرفه وبعد ذلك عقد الوزير المذكور مجلسا مؤلفا من شيخ الاسلام من العلماء الحنفية وهو الشيخ أحمد بن الخوجه ومن عالمين من المجلس الشرعي المالكية وهما الشيخ محمد النيفر المفتي والشيخ عمر ابن الشيخ قاضي باردو ومن احد الوجهاء العقلاء العارفين باصلاحات البلاد وتجارتها وهو الوجيه حسونه الحداد ليستخرج هذا المجلس من مجموع ما تقدم قانونا شرعيا مطابقا للاحكام الشرعية والعرفية التي عليها عمل القطر من غير تخصيص باحد المذهبين ولكن عاق عن الاستفادة من ثمرة هذا العمل خروج الوزير المذكور من الوزارة فترك المجلس مع ان اتحاد الحكم على سكان قطر واحد ضروري (ومنها) انشاء المدرسة الصادقية لتعليم مبادي الفنون الشرعية كالقراءة والكتابة والقرآن والعقائد والفقه الحنفي والمالكي والنحو والصرف والادب والتاريخ والخط والمعاني وتهذيب الاخلاق والحديث وتعليم اللغات التركية والفرانساوية والطليانية وتعليم الفنون الرياضية كالحساب والهندسة والهيئة والجبر والجغرافيا والفلك ورتب لها معلمين لكل فن وجعلها تقبل مائة وخمسين تلميذا من جميع ابناء القطر المسلمين منهم خمسون تلميذا من ابناء العاجزين عن القيام بهم وهؤلاء يسكنون بالمدرسة وتقوم بهم زيادة على التعليم بالاكل واللبس والمسكن مجانا وأما المائة الباقية فالمدرسة تقوم باكلهم نهارا مرة فقط وبالتعليم مجانا ويلزم ان تكون جميع التلامذة في لبسهم على شكل واحد وأوقف عليها من أملاك الحكومة أوقافا لها بال يزيد دخلها السنوي على المائتين والخمسين ألف ريال ونبع من أبناء البلاد ما شهد لهم به الوافدون من أهل أوروبا والحاضرون لامتحانهم ومثل هاته المدرسة ضروري للممالك الاسلامية سيما في العلوم الرياضية التي اضمحلت من الامة وانما خص التلامذة من أبناء المسلمين من خصوص الاهالي لان ابناء الاجانب لا يمكن اجراء التراتيب في حقهم مطلقا الا اذا وافق أولياؤهم والموافقة منهم كانها غير مأمونة في كل وقت سيما مع اختلاف الاحكام التي مر ذكرها وأيضا من خصوصيات المنح للتلامذة عند استكمالهم للمعارف ان يتقدموا في جميع الوظائف المحتاج اليها في القطر على غيرهم

وهذا

وهذا انما يليق بابناء القطر اما الاجنبي فانما يتقدم بل يستخدم بخصوصيات أخرى واما تخصيص المسلمين فلان غيرهم بالنسبة اليهم قليل جدا كما مر ذلك في فصل صفة القطر ثم أولئك القليلون لا يرغبون في اتباع جميع تراتيب المدرسة التي منها تعلم العلوم الشرعية التي هي المقصد الاهم لكي يحصل التبصر من علماء الديانة بالعلوم الرياضية ويوفقون ما بين ما يظهر بحسب بادي الامر انه مخالف للشرع من بعض العلوم الرياضية ثم ان الوزير المذكور عزم على ايجاد مدرسة على ترتيب آخر صالح لدخول غير المسلمين فيه (ومنها) تحبيس كتب رجعت للحكومة من صلح الوزير السابق تبلغ نحو ألفي مجلد فالحقها بنحو تحبيس الكتب من أحمد باشا بالخزائن التي عمر بها صدر جامع الزيتونة (ومنها) ما أنشأته بامره من احداث المكتبة الصادقية حول جامع الزيتونة وجعل لها ترتيبا لم يسبق في البلاد على نحو التراتيب الجارية في الاستانة والممالك المتمدنة بحيث لا يخرج الكتاب من المحل ويتنفع المريد بما شاء من الكتب وأنواع الاستنفاع مع تحسين هيئة المكان واحضار فرشه والمحابر والاقلام وساعة للاعلام بالوقت والرسم بان كل الاوامر الرسمية العامة العمل يحفظ منها بتلك المكتبة نسختان لكل من أراد مراجعة ذلك وانتظام وضع الكتب وترتيبها على نسق يسهل الاستنفاع بها ومناولتها وأوقف عليها جميع كتبه العربية وكانت تبلغ نحو ألفي مجلد كما جمع بها سائر الكتب التي كانت مفرقة في الجوامع والمدارس وتلاشتها أيدي التلف حتى ضاع أكثرها فان خزانة الكتب الحنفية بالمدرسة الحسينية وجد بها مكنسة ولم يوجد بها ولا ورقة مع انها كانت تشتمل على مئات من المجلدات وهكذا أغلب الخزائن مع عدم النفع بها الا لمن كانت بيده وهم افراد قليلون يعسر عليهم وجدان الكتاب الذي يريدونه لعدم ترتيب وضعها وضبطها بدفتر واعداد فضبطت وعم النفع بها لكل مريد من المسلمين حتى قال بعض من كانت بيدهم تلك الخزائن أقسم اني الآن استنفع بما كان تحت يدي من الكتب أحسن مما كان عندي (ومنها) انشاء مجلس مكلف بنظافة البلاد كانه شعبة من المجلس البلدي لكنه يزيد عليه بدخول أعضاء من الاجانب لتيسر اداء الاجانب ما يلزم للنظافة وحصل به شيء من النظافة الضرورية (ومنها) انشاء ترتيب للعلوم وتدريسها بالجامع الاعظم جامع الزيتونة حتى لا تهجر علوم ولا يزاد على قدر الحاجة من غيرها وتضبط الدروس وتجري على الوجه المطلوب للوصول وجعل امتحانا للتلامذة في كل سنة حتى لا يتقدم للوظائف العلمية

الامن قدمته نجابته وتحصيله (ومنها) انشاء ترتيب فى ادارة المجالس الشرعية
لقطع وجوه تطويل الخصومات ودفع تعارض الاحكام وتسهيل المراجعة بينهم
وتحديد اجرا اتباعهم وتعيين محل للحكام الشرعية خارج الحاضرة حيث كان كل
حكم فى مكانه بحيث صارت المحاكم الشرعية معلومة مضبوطة أوقات الانتصاب فيها
الى الحكم وان كانت لذلك سابقية فى خصوص الحاضرة من مدة محمد باشا
لكن اعتراها الخلل فجدد انتظامها على حسب الوقت (ومنها) انشاء ترتيب
لاعمال العدول المنتصبين للشهادة وضبط عددهم بالموجودين وحصر المحتاج اليه
فى كل جهة بعدد مخصوص وعدم تولية غير الموجودين الى ان يصل العدد الى القدر
المحصور فيه فاذا نقص منه أحد لا يزاد الا بانتخاب أهل الشرع مع ضبط كيفية
أدائهم للشهادة وتحملها او كتبها مما يندفع به حصول الزور وتبعد به التهم (ومنها)
احياء ارسال محصل أوقاف الحرمين الشريفين للمستحقين من أهلهما بعد ان مضت
على ابطال ذلك سنوات وأكلت أموال تلك الاوقاف على غير وجهها فمنذ ولاية
الوزير خير الدين اطرد ارسالها (ومنها) انشاء سجن عمومى للنساء وآخر
للرجال على صفة السجون فى البلاد المتمدنة من النظافة وتخلل الهواء والطبيب
والفرش الضرورية للنوم ومحل للطهارة ومسجد للصلاة وجعله مقسما على عدة اقسام
بحسب الجنايات التى يسجن فيها وبحسب حال المسجون من السن والعرض بحيث
صار سجنا لا كما كان مقتلا وان حصر دخوله بمن يحكم عليه بالسجن أما الموقوفون
فقد بقوا يوقفون فى السجن القديم فكانوا أشد عقوبة ممن ثبتت عليهم الجنايات
ولذلك كان الوزير خير الدين المذكور عازما على احداث محل للايقاف (ومنها)
حصر أجر أعوان الحكومة وأتباعها المرسلين فى الاتيان بالجناة فى مقادير معلومة
معلنا بها للعموم على حسب الجنايات وبعد مكان المجلوب بحيث صار ذلك القدر
معينا بالحكم بمقدار غير مجحف لا كما كان من تفويضه لارادة المرسل الذى كثيرا ما أضر
بالجناة بل بالذى تثبت براءته أكثر مما يناله من الحكم (ومنها) جعل خزانة يجمع
بها أجر أولئك الاعوان المتوجهين من الحكومة ويخرج منها فى رأس كل شهر أجر
معين للاعوان المسمين بالبوابة الذين كانوا يأخذون مقادير ممن يريد الشكاية
ويقع بسبب ذلك محاباة فى تقديم بعض المشتكين على بعض ثم يقسم الباقى على
الاعوان الاخر الذين فى نوبة الخدمة على حسب رتبهم وحصل بذلك تعادل فيما

يحصل

يحصل للاعوان وتحسين فى هيئتهم وشارتهم لانه قبل ذلك كان المقرب عند رئيسهم
يحصل على مال كثير وغيره يبقى على الاعدام مع اتحاد الوظيفة (ومنها) ان من
يجلب من المشتكى بهم وتثبت براءته لا يؤدى أجر جالبه سواء كان فى مال أو جناية
فان كان للمشتكى شبهة راجحة فى شكايته لا يؤدى هو أيضا الاجر وبحسب المتوجه
فى النازلة كان لم يتوجه فيها ويعاد توجيهه فى نازلة أخرى لان أجره فى الواقع يخرج من
عموم ما فى خزنة الاعوان والا بان ظهر تعمد المشتكى للباطل فهو أحق بالحمل عليه
(ومنها) حصر أجر ما يكتب من التسجيلات فى خصومات الاهالى على أيدى العمال
فى مقدار معين وهو ريالات ١٢٢ بحيث لم يبق الامر على مشيئتهم الذى كثيرا ما كان
سببا لامتداد أيديهم لاموال الاهالى (ومنها) الامر بعدم التشديد فى توثيق الكتاف على
من يجلبه أعوان الحكومة من الجناة اذ كان وسيلة لهم فى التوصل الى المال (ومنها)
ابدال السكة الفضة التى كانت ناقصة فى الوزن ومن كانت فى يده تبدل له فى الحال
بسكة الذهب الكاملة يدا بيد على خلاف ما سبق كما مر ذلك فى واقعة الفلوس النحاس
(ومنها) ضبط العرف الجارى به العمل فى الفلاحة التى هى اهم اشغال أهل القطر
ومورد ثروته وضبط ما يتعلق بشركة الخماس فى قانون معروف يرجع اليه عند الحاجة
وقد كان من قبل لا يعرف له مرجع الا الاستخبار من افراد أصحاب الفلاحة وكثيرا ما يقع
بينهم الاختلاف فى الاخبار عن العادة والعرف حتى يحتار الحاكم فيما يحكم به (ومنها)
ترتيب مجلس التحفظ العمومى على النحو الجارى به العمل فى الممالك المتمدنة وجعل له
قانونا خاصا يرجع اليه وأدخل فى اعضاء المجلس اعيانا من موظفى الحكومة مع قناسل
الدول الذين هم اعضاء لذلك المجلس (ومنها) انشاء ترتيب لكيفية أعمال العمال فى
مواصلاتهم مع الحكومة وضبط مكاتيبهم وأحكامهم فى دفاتر لتكون حجة فيما يراد
الرجوع اليه وليعلم الداخل للوظيفة ماهى أعمال السابق عليه هذا وأما ما يرجع الى
تحسين مالية الحكومة والاهالى فقد شدد النكير على العمال وسائر الموظفين وحصر
أوجه الدخل والخرج وبناها على ميزان سنوى على نظر قسم النظر من الكومسيون
المالى وضبط كيفية القبض من الرعايا بان كل من يدفع ما عليه من المال المعين الذى
استوت فى معرفة مقداره الاهالى جميعا يأخذ بيده حجة من نوع خاص من البطاقات على
شكل خاص مختومة من شيخ القبيلة أو عاملها مقطوعة من دفتر خاص بذلك بحيث يبقى
نصف الرقعة فى الدفتر مرسوما بها نظيرما بيد صاحب المال لينضبط الاستخلاص ولا تمتد

الايدى الى الاموال ومن خالف ذلك عوقب على حسب جنايته ثم خفف كثيرا من الاداء على السلع الخارجة من القطر الذى هو الامر المعقول لتكثير الثروة فى القطر بنفاق نتائجه واستعواضها باموال غيره وذلك يحصل بترخيصها وتسهيل نقلها واخراجها فصدر لذلك مكتوب الوالى للقناسل معلما بما ياتى بيانه (الاداء على البضائع)

ما كان سابقا	ما استقر عليه الحال	
ريالات	ريالات	
٢٠	١٠	قنطار الشمع
٤٠	٢٠	الصوف المغسوله عدا ما يؤدى للقمرق ودار الجلد وهو ٤
١٢	٦٠	قنطار الجلد الفريقى
٣٠	١٠	قنطار الصوف بونتوف أى المركبة من المغسولة وغيرها
٢٠	١٠	قنطار الصوف غير المغسوله عدا ما للقمرق ودار الجلد وهو ٢
٢٥	١٠	قنطار التمر الدقلة
٦٠	٣٠	قنطار التمر الحرة
٦٠	١٢	تمر قابس
٠٢	٠٢	العصر
٢٠	١٠	جلد المعز
١٥	٠٨	بطانة الغنم أى جلدها
٣٠	١٠	القطن الغير المصنوع
٣٠	١٠	النيله
٠٥	٠٥	القماعة كاصله نوع من الابزار
٠٤	٠٤	القنطس مثله
٢٥	١٠	العسل
٦٠	٣٠	النشاف أى الاسفنج المغسول
٤٠	١٠	الغوه نوع من الصبغ
٧٢	٠٣	الحنة
٢٥	١٠	القرنيط نوع من السمك

ما كان سابقا	ما استقر عليه الحال	
ريالات	ريالات	
١٠	٠٥	رطل العلق أى دود الماء يستعمل لامتصاص الدم من الانسان فى الامراض
١٥	٠٥	قنطار بيض السمك وكحم التن
١٥	١٥	قنطار النشاف أى الاسفنج غير المغسول كاصله
١٥	٠٧	قنطار النحاس أسقط عنه الاداء بالمرة قنطار الصابون
١١	٠٨	صابون سوسه مع ان اداء الطبخ داخل فى ذلك
٠٠	١٦	الزيت وقد كان من قبل يؤدى بالمطر فصيره وزنا

وعلى النسبة المذكورة وقع التخفيف على مصنوعات الصوف والقطن فى جربه التى هى أعز صنائعها على مامر فصار على ماياتى

على مايباع من الغزل	٦	فى المائة
على مايخرج من جربه الى مراسى المملكة	٣	فى المائة
اداء للعامل على كل شدادة من المصنوعات	٣	ريالات
على مايباع من المصنوعات	٦	فى المائة
على كل شداده للزام	١٢	ريال ونصف

(ومنها) انشاء مراكز للقمرق فى جهات الحدود لضبط القمرق (ومنها) انتساق دفع المرتبات لاصحاب الوظائف سيما الوالى وآل بيته بحيث يقبضون مرتباتهم من أول الشهر الا ماندر اما الوالى فلم يتخلف مرتبه ولا شهرا واحدا عن ميعاده وقد حصل فى بعض السنين زيادة فى الدخل عن المقدار المعين للمصروف فاشترى به مقدارا من دين الحكومة لذاتها لأنه مما يرجع الى مجلس الادارة النائب عن أصحاب الديون واستفادت منه الحكومة فى وقت قلة الدخل لكن لم تتم الفائدة حيث ان بعض المغرضين سعى فى اسقاط اعتبار مالية الحكومة على ماسيأتى بيانه فلزم لرفع ثمن سهام الدين اقراض الحكومة بعض التجار لتظهر الرغبة فى شراء الرقاع بما يطمئن به التجار فرهنت الرقاع المشتراة للحكومة لذلك القرض ولم ينفع ذلك فى ارتفاع الثمن بل زاد فى الانحطاط الى ان خسرت الرقاع بالمرة وبيعت فيما رهنت فيه وأفلس التاجر الذى أقرض المال ومما

حصل من أعمال هذا الوزير مدة ولايته جعل مراكز من العربان فى الطرق المخيفة واعفاء أصحاب المراكز من الاداء الموظف على بقية السكان واجراء شئ من الحبوب اليهم على ان يعمروا تلك الجهات ويكونوا مطالبين بما يحصل فى أماكنهم من الجنايات على المارة حيث انهم هم الحارسون وبذلك وبانفاذ الاحكام من غير محاباة امنت السبل واستقر الامن حتى صارت القوافل والفرادى فى الامن وعدم الخوف سواء (ومنها) الاحسان الى المحسن من الاهالى بامنه فى ماله وعرضه ونفسه وان كان من قاعدة انتماءه الوزير واجراء العقاب بلا ضعف على من يحب الراحة ولا يطيع أوامر الحكومة حتى انه لما ظهر من فرقة من قبيلة الهمامة عصيان وتحير للامن بانتهابهم لغيرهم من القبائل واخافة السبل وجه لهم معسكرا تحت رياسة وزير الحرب رستم وزجرهم وعاقبهم عند ما ظهر واحربه وارجعهم الى الطاعة وأمن تلك الجهات وعندما رجع للحاضرة وعلموا باستقراره عادوا الى ما كانوا عليه ظنا بعجز الحكومة عن ارسال معسكر اثر السابق فلم يكن من الوزير خير الدين الا ان وجه عليهم فرقة من العساكر الفرسان المسمين بالحوانب والصبايحية مع أوامر ان يمرون عليهم من قبائل العربان بان يتوجه معهم فرسانهم فى أقرب وقت لردع البغاة فلم تكن الا بضعة أيام حتى عاقبوا البغاة وخضدوا شوكتهم بما استقر معه الامن منهم الى الآن وبمثل هاته الشدة فى ابانها والرفق واللين فى ابانه خضعت القبائل وبادروا الى دفع أموال الحكومة فى ابانها ونفذت أوامر الحكومة فيهم وانقادوا لها بطيب نفس لاجرائها العدل فيهم بما لم يبق لهم معه خوف من امتداد الايدى الى مكاسبهم فاقبلوا على العمران وكثرت ثروتهم حتى ان فى العام الثانى والثالث من ولاية هذا الوزير كثر شراء الاعراب للحلى من الفضة لما سبق من عدمهم منها وتكاثر ذلك تكاثرا فاحشا الى ان صار الصياغ لا يوفون بحاجتهم وصارت دار السكة كل يوم تصنع علامة السلامة والصحة مع المصوغ المذكور بما يبلغ وزنه الى عشرات أو مئات القناطير الى ان كتبت اخباره فى الصحف العربية والاروباوية (ومنها) جعل صندوق مقفول له منفذ لوضع المكاتيب فيه لمن أراد رفع نازلته للوزير أو انهاء مصلحته بان يشرح مقصوده ويبين دليله ولا يلزمه التصريح باسمه ليسهل رفع المظالم وعدم الخوف وجعل مفتاح المحل الذى يمكن وصول كل الناس اليه عنده والتزم ان يفتح هو بنفسه جميع المكاتيب ويوقع عليها بما يراه من الملاحظات فيها ويوجهها الاحد أقسام الوزارة الراجعة اليها النازلة بحيث تكون النوازل على ذكر منه لكي لا يقع التحريف فى تلخيصها

أو اهمالها مما ربما يمكن ان يحدث فى بعض النوازل وان نسب اليه بعض المتوظفين فى ذلك عدم الثقة ببعضهم وحب الاستبداد بكل الاشغال وهو يقول انه انما جعل التعب على نفسه ولم ينقص من مراتب المتوظفين شيأ الا عدم القدرة على فتح المكاتيب الا باذنه (ومنها) تحسين حالة مطبعة الدولة التى هى ضرورية فى هذا الزمان لطبع الكتابات الرسمية وغيرها مما يعجز عن الوفاء به الكتاب وتيسير نشر الكتب فى الفنون ليسهل تناولها بالثمن اليسير ويتوصل للانتفاع بها ذو الجدة وغيره الذى هو من أعظم الاسباب لترقى الامة فى المعارف والعلوم وهكذا تحسين ادارة الرائد التونسى الذى هو الصحيفة الرسمية للحكومة وصار صدوره موقتا مثل سائر الصحف بعد ان كان لا يخرج منه الا عدد يسير ربما بلغ النصف أو أقل مما يلزم خروجه سنويا والحال انه أسبوعى ثم الافادة فيه بافكار الوزير فى المسائل السياسية بما كان ينشر فيه من المقالات المرشدة الذى هو ضرورى للحكومة فى ايقاظ أهلها والسكان وارشادهم لما تراه بالطف الى غير ذلك من فوائد الصحف على ما سيأتى فى الخاتمة ان شاء الله تعالى زيادة على نشر الاوامر الرسمية ليستوى فى معرفتها القريب والبعيد ودليل ما ذكرناه اختلاف نهج الرائد بعد خروج الوزير من الوزارة عما كان من شحنه بالمقالات السياسية كمقالة المدار على الرجال غيرها مما هو كثير والزم المتوظفين بقراءته وأخذه اذ يقبح بالمتوظف ان لا يعلم أحوال حكومته فضلا عن غيرها بل ذلك شرط فى المتوظف فى الممالك المستقيمة (ومنها) جعل خزائن لمكاتيب الحكومة وجمع العتيق منها على ترتيب يسهل به معرفتها والتوصل اليها فى أقرب وقت وذلك من أهم الامور (ومنها) تعميم أمر تعظيم المولد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فجعل له مواكب فى جميع البلدان بالقطر مع اطلاق المدافع عند الوقوف لسماع الابيات (وهى قوله)

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب * على ورق من خط أحسن من كتب
وأن تنهض الاشراف عند سماعه * قياما صفوفا أو جثيا على الركب
اما الله تعظيما له كتب اسمه * على عرشه يا رتبة سمت الرتب
فقم أيها الراجى لنيل سعادة * قيام محب صادق الحب والادب
ففى الذكر لاسم الحب احضار ذاته * بقلب له فى الحب وجد له لهب
ورب جليل عظم الناس ذكره * فكيف وهذا سيد العجم والعرب
عليه صلاة الله ثم سلامه * يكونان للرضوان من أعظم السبب

وعمل جميع مايعمل مثله فى الحاضرة على نفقة الحكومة (ومنها) تحرير المكاييل والاوزان وتحرير مكيال الجبس أى الجص (ومنها) انشاء معمل الغاز بيد جمعية انكليزية فى الحاضرة (ومنها) انشاء بطحاء القصبة وتحسينها وانشاء قصر للوالى على الوجه المطل على البطحاء المذكورة من قصر المملكة الذى بناه حموده باشا واكمال بناء السوق المحيط بالبطحاء المذكورة وتعميره بتجار من الاهالى وترغيبهم بالشراء منهم والجلوس بحوانيتهم وقدوم الوالى اليهم فى بعض ليالى المواسم وتحسين الحصن المطل على البطحاء المذكورة (ومنها) فتح باب للجامع العتيق الكائن بالقصبة على الطريق العام حتى عمر بالمصلين وانتفع به المسلمون وقد كان من قبل لاتكاد تصح فيه جماعة لان له بابا واحدا داخل القصبة وقد خليت من السكان منذ زمان (ومنها) تدارك السور الخارج المحيط بالحاضرة بالاصلاح فأصلحته من الاوقاف وأصلحت الحصون المحيطة بالحاضرة وكذلك أغلب حصون البلدان التى بها حصون كصفاقس والقيروان وسوسه وغيرها و(منها) انشاء بطحاء عظيمة خارج باب البحر واستقامة الطريق الموصل منها للبحيرة وهكذا انشاء عدة طرق فى البلاد واصلاح غيرها (ومنها) العناية باحياء صناعة النقش حديده أى النقش على الجص المطلى على الحيوط والقباب التى هى أغرب صناعات تونس والمغرب فى البناء وقد انعدم صناعها من البلدان فجاء عارف بها من المغرب فجعل له الوزير خير الدين اجراء وصاحبه بعدة اناس من الاهالى وأحسن اليهم الى أن تعلموا الصناعة الغريبة بعد اندثارها والحاصل انه أجرى مصالح عديدة ومن أعظمها قطع مادة الرشا وبيع الوظائف الذى هو أساس العدل حتى نمت المكاسب وانكفت أيدى المتوظفين الا ماكان على وجه الاختلاس مما لايمكن التحرز منه ولم يرفع أمره اليه أولم ينتبه بواسطة من الوسائط اليه بحيث يقال فى مدة ولايته فى القطر ان حكومته استبدادية عادلة ناحية منحى الشورى لان أغلب مامر ذكره من الخصال كان يعقد له لجنات من اعيان الاهالى أواعيان المتوظفين أو العلماء والاغلب ان تكون تحت رياسته ولا يتم امر الا بعد التوافق والتدبير فيه وأحبته الاهالى واعترفوا بفضله سيما وقد أتاهم بعد شدائد مر ذكرها حتى انه لما تم امتحان تلامذة المدرسة الصادقية فى السنة الاولى وراى اباؤهم مالم يعهدوه فى التعليم اظهروا ممنونيتهم وشكرهم بان اتخذوا مصحفين كريمين وجعلوا لهما سفرين فاخرين وكتبوا على الاول منهما بالياقوت الابيض على احدى الدفتين المحفوظ بالسور والآى وعلى الثانية محمد الصادق باى وعلى الثانى منهما بالياقوت الابيض

الابيض أيضا على احدى الدفتين الناصح الامين وعلى الثانية الوزير خير الدين وذلك اللقب هو الذى جرى التعارف فى اطلاقه عليه عند أغلب الاهالى ودفع ثمن ذلك اباء التلامذة من انفسهم كل على قدر ثروته فمنهم من دفع ريالا واحدا وهو مافى وسعه وقد ان لم يؤخذ منه ومنهم من دفع عدة آلاف واهدوا المصحفين للوالى وللوزير مع خطبة مفصحة عن الباعث على ذلك وهو نتايج المعارف لابنائهم ثم بعد سنتين اجتمع اعيان من التجار البلدية وغيرهم من اعيان العربان وبعض أصحاب الاملاك المثرين وصنعوا فى لندره مكتبة أى مائدة للكتابة من خشب رفيع مذهبة وملونة وادواتها من ذهب وعليها ميزان اشارة الى العدل وكتب عليها اسم الوزير خير الدين واهدوها فى رأس العام الى الوزير المذكور مع خطبة مفصحة عن الباعث وهو ماحصل من ثمرة أعماله فى عموم القطر حتى ازدادت الثروة وغلت اسعار الملك وراجت التجارة وهكذا كانت علاقة سياسته فى الخارج على سلم وهناء ولم يحدث مع احدى الدول أدنى صعوبة ولاظهر من أحد القناسل تشدد فى نازلة مامن متعلقات دولهم ورعاياهم مع أن بعضهم كان ينفر من ذاته لصحبة أو منفعة له من الوزير السابق ومع ذلك لم يجد شيئا يستند اليه فى انشاء صعوبة أو تعكير هناء ولم يعترض على ماحدث مدة ولايته فى الداخل أوالخارج الاما يأتى بيانه وهو اعطاء منحة لشركة فرانساوية فى احداث طريق حديدية من حاضرة تونس الى الجهة الغربية فانتقم هذا العمل بان سياسة فرانسا فى تونس معروفة وذلك الطريق يؤل الى تسهيل استيلائها على البلاد وهنا العقول على فرقتين فبعضهم يرى السهولة من تسهيل نقل العساكر من الجزائر الى تونس فى أقرب وقت ومنهم من يراها بالتسهيل المعنوى وهو زيادة النفوذ والاختصاص بالمتجر بل يقول بعض الانكليزيين ان مراسى تونس تصير خالية وتصير عنابه أى بونة هى مرسى تونس وهى فرانساوية وذلك لان السلع التى توسق من تونس لاتدخل الى فرنسا الاباداء بليغ عليها فى مراسى فرانسا بخلاف ما يوسق من مرسى عنابة فانه اذا دخل الى مراسى فرانسا لا يؤدى شيأ فيكون سببا فى التزام التجار توجيه البضائع الى عنابة وتبقى مراسى تونس خالية وزاد للمعترضين قوة فى أن المقصد بذلك الطريق أمر سياسى ان الاتفاق فيه تم فى أقرب وقت حتى أشاعوا أنه وقع من غير استشارة بقية الوزراء هذا مدار الاعتراضات ونحن نقص قصص ماوقع فى النازلة وأحوال متعلقاتها ونكل الحكم فيها الى المطالع وهو أنه فى سنة ١٢٩١ قدمت شركة انكليزية وطلبت منحة لاعمال طريق حديدية بين تونس ودخلة جندوبة فى الجهة

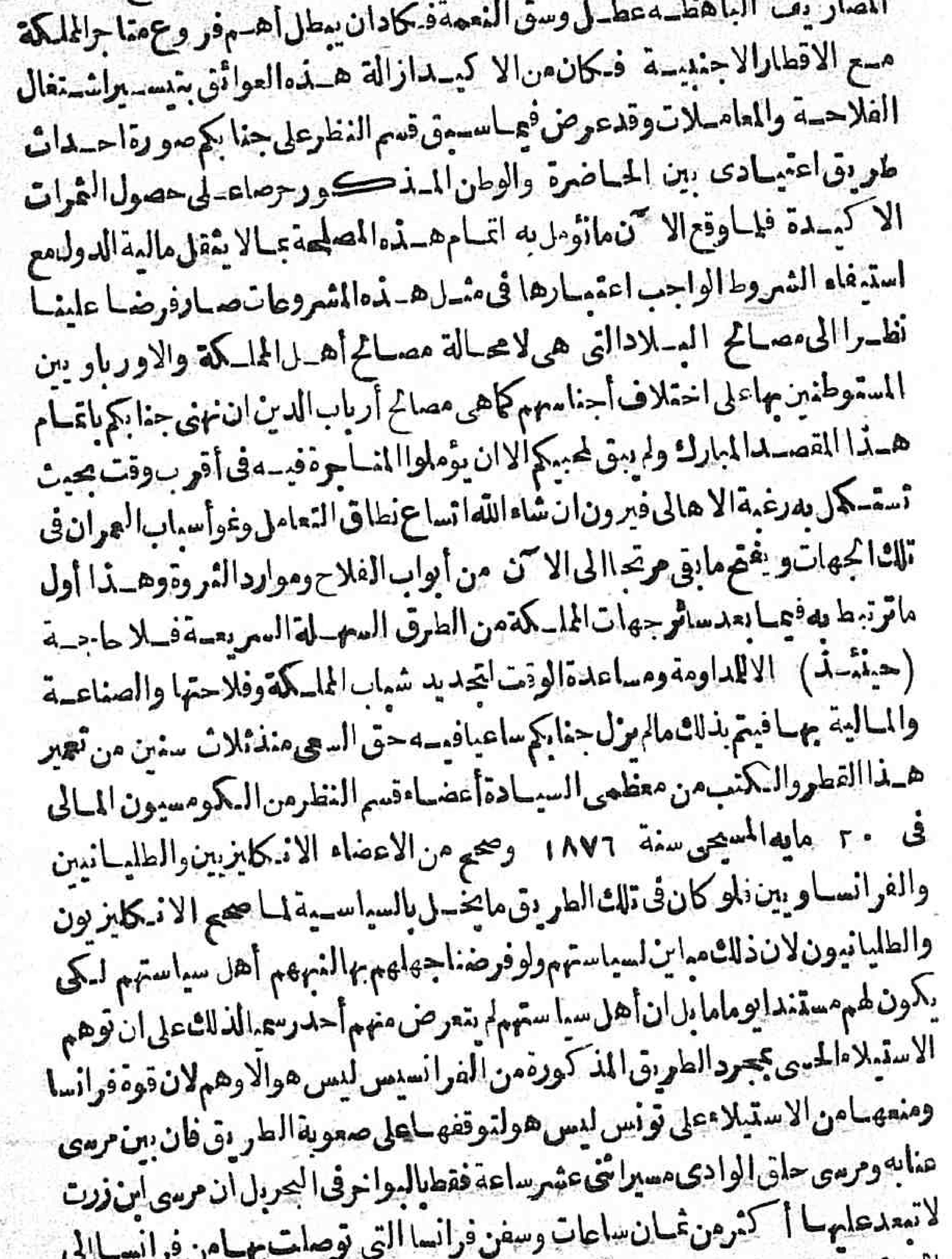
الغربية من القطر المعنية بافريقية التى هى أهم الجهات فى الفلاحة على ما تقدم بيانه فى الفصل الاول من الباب الثانى من المقصد على ان تمر الطريق حذو بلد باجه وتصل الى معدن دجبه المركب من الرصاص والفضه وتختص بتشغيله على أن يكون للحكومة قسط من دخله بعد طرح المصاريف فقسطها يكون من الربح وحيث كانت منافع طرق الحديد فى الممالك من أعظم أسباب عمرانها على ما سيرد ان شاء الله فى الخاتمة وكانت تونس من أحوج الاقطار اليها لعدم وجود الانهر والترع التى تمكن بها المواصلة بل ولا مجرد الطرق الصناعية وكانت نتايج الزرع فى الاماكن الخصبة يتعذر نقلها بل يستحيل زمن الشتاء والوحل وكان نقلها فى زمن سهولة الطرق يكلف مصاريف باهظة ربما لا يوفى بخلاصها ثمن الحبوب عند بيعها حتى كان الشعير لا يجلب من تلك الاماكن لمراسى المملكة ولا لبلدان أسواقه لعدم وفاء ثمنه بأجرة حمله فضلا عن التبن فان كلا منهما يترك فى مكانه الى ان يضيع على أصحابه ولا زال مثل ذلك الى الآن فى جبال ماطر وغيرها بل وكان جلب الحبوب من الاماكن الاجنبية فى البحر أيسر وأرخص من جلبها من داخل القطر ورايت فى رسالة كابيزول القنسل الفرانساوى بثغر حلق الوادى من تونس التى ألفها فى التعريف باحوال القطر ما معناه ان هاته البلاد التى كانت تسمى بمخزن حبوب أروبا فى الزمن السالف ها هى الآن يجلب اليها القمح من خارج ويباع بارخص مما يجلب من داخلها حتى كان ذلك سببا فى تعطيل أكثر أراضيها وفقر أهلها (الخ) ولقد صدق فى ذلك وكان تأليفه لتلك الرسالة فى حدود سنة ١٢٨٠ التى مر تفصيل أهوالها فلما ذكر كان احداث الطريق الحديدية ضروريا للقطر فبقى الكلام فيمن يصنعه والامر منحصر فى ثلاثة أوجه الاول ان تصنعه الحكومة وقد علمنا مما مر ان أغلب ماليتها راجع للاجانب بسبب ديونهم وما بقى من دخلها انما يوفى بضرورياتها التى لا مندوحة عنها فلا سبيل لها لاعمال الطريق المذكورة لما يلزمها من كثرة النفقات (والوجه الثانى) ان يتولى عملها الاهالى وهذا أيضا امامتعذر أو صعب جدا الان سابقية الفقر فيهم قد أخذت مأخذها وما تراجع لهم من بعد لم يكن موفيا بالمقصود وعلى تسليم اقتدارهم فانهم لا يلتفتون الى ذلك (اما أولا) فلعدم معرفتهم بفوائد الشركات لان مثل ذلك لا توفى به قدرة الواحد وقد علمنا ان فتح أبصارهم لمثل العلوم الرياضية والاقتصادية والمدنية انما كان بعد ذلك التاريخ وعلى فرض حصول مبدأ التعليم من قبل فلا بد له من زمان ليرسخ ويعمل به (واما ثانيا) فانهم لا يأمنون على اظهار أموالهم وما بالعهد من قدم قد

رأوا

رأوا نقض عهد الامانة الملتزم به بعهد الله وشهادة الدولة العلية وسائر الدول الاجنبية وحرص دولة فرانسا فى اتمامه ورأوا باعينهم كيف جرى قتل النفوس وتعذيب الابدان واستئصال الاموال فما هى قدرة الوزير وحده فى حفظ حقوقهم وأمنهم وهل ذلك الا موقت بوقت تصرفه على انه من الضامن لهم فى بقاء الوزير على ما هو عليه وهل هو الا بشر قابل لتغير الافكار وبهذا يعلم أيضا عدم امكان حمل الاهالى غصبا على منفعتهم فى ذلك الطريق من الوزير خير الدين ولانه كان لهم فيه نفع لكنه يظلمهم باتلاف أموالهم لما أشرنا اليه بل ولو بما مع ما يتوقع من استيلاء الحكومة على مداخيل الطريق والتداخل فى ادارته لا يدوم شغله كما حصل بالفعل فى معمل الملف الذى كان انشاه أحمد باشا ويؤيد ذلك ما حصل من الخلل فى أشياء أسسها وهو مما مر ذكره وسيأتى كيفية خلله فتعين حينئذ (الوجه الثالث) فى أعمال الطريق الحديدية وهو أعمالها بيد لها اقتدار على المال وتأمن عليه وليس ذلك الا الاجانب ولما قدمت الشركة الانكليزية المار ذكرها وطلبت تلك المنحة عقد الوزير عدة مجالس من بقية الوزراء والمستشارين وكان بعضها تحت رياسة الوالى نفسه وتفاوضوا فى مصالحها مما مر ذكر بعضه واستقر الرأى على عقد الاتفاق مع تلك الشركة فى احداث الطريق المذكورة سيما وقد سبقت شركة انكليزية لاحداث طريق بين الحاضرة وحلق الوادى وتم الاتفاق على شروطه التى منها ان للشركة ان تمد فروعا من الخط الاصلى يمينا وشمالا كل فرع طوله خمسون ألف متر وأى نحو خمسة وأربعين ميلا أينما أرادت ومنها انه اذا مضت سنة ولم تشرع الشركة فى العمل يفسخ العقد فشرعت الشركة فى جمع المال لذلك غير انها لم تنجح لان الانكليزيين ليس لهم هم فى تجارة تونس ولا فى سياستها ولا يصرفون المال الا بغلبة الظن فى الربح وقد علموا ان الطرق الحديدية غالبا فى أول أمرها تخسر وشاهدوا فى طريق حلق الوادى عدم الربح الذى أطمعوهم فيه فبعد انقضاء الاجل طلبت الشركة أجلا ثانيا لعلها تحول الرغبة فلم تحصل على شئ وآل أمرها ان طلبت من حكومة تونس ان تتعهد لها بربح خمسة فى المائة على ما تصرفه فان وفى دخل الطريق بذلك أو زاد فهو لها وان نقص أو لم يحصل شئ فالحكومة تلتزم بايفاء الخمسة فى المائة أو ان الحكومة تدخل شريكة مع الشركة المذكورة بالربع من رأس المال ولا يخفى ان ذلك لا يتيسر لان الوزير خير الدين على علم من ضعف مالية الحكومة ومن خسارة الطرق فى أول أمرها ومن الشك فى حصول الربح من المعدن ومن صعوبة المحاسبة والاحتساب مع الاجانب

مع اختلاف الحكم زيادة على كون مثل ذلك لايتم الا بموافقة الكومسيون المالى الذى هو المحتسب على مالية الحكومة من الاجانب فرفض مطالب الشركة الانكليزية المذكورة وفسخ الاتفاق معها واشتهر ذلك فجاءت فى أثره شركة فرانساوية وهى المسماة الآن بشركة بون كالمة وطلب زعيمها من الوزير خير الدين احالة الاتفاق الذى فسخ مع الشركة الانكليزية لعجزها الى الشركة الفرانساوية المذكورة بلا اشتراط الضمان المذكور لكن على شرط ايصال الطريق بطريق الجزائر فاجابه حالا بعدم تيسر ذلك لجلبه مسائل سياسية لاداعى لفتحها فرجع الزعيم وقال نكتفى بالحلول محل الشركة الانكليزية التى سمحتم لها وارتضيتم بشروط الاتفاق معها فذلك الاتفاق يحال الينا فاجابه بانه يعرض المطالب على الوالى وأخبر الوالى وعقد مجلسا مركبا من سائر الوزراء والمستشارين الالوز حين حيث كان فى باردو قرنه لحصام ورثة القايد النسيم واستقر رأيهم على نقل المنحة لما تقدم من البواعث والاسباب ولان الامتناع من خصوص الفرانساويين بعد حصول المنحة لغيرهم وعدم الفرق فى الشروط ربما تسوغها المعاهدات والحجاج نعم وان كان هنالك فرق فى سياسة أصل كل من الجنسين لكنه لايمكن الاستناد اليه فى الحجاج سيما وصريح المعاهدات مع الدول قائل ان كل منحة أو امتياز أو اعتبار يحصل لاحد الاجناس يكون للجنس المعقود معه المعاهدات مثله بل فى بعضها يقول انه يكون له مثل الجنس الاكثر اعتبارا (الخ) فكيف مع ذلك كله يمكن الامتناع ولذلك أحيل الاتفاق المشار اليه الى هاته الشركة مع زيادة التحرى فى شروطه للحكومة فكان مما زيد على الشروط السابقة ان قسط الحكومة الذى تأخذه من المعدن يكون من ذات الخارج قبل طرح المصاريف ومنها ان الجهات التى تمد اليها الفروع يلزم الاتفاق فيها من قبل العمل مع الحكومة على المركز المنتهية اليه وعلى محل المرور ومنها ان لا توصل الطريق بطريق الجزائر وعند هذا الشرط طلبت الشركة المذكورة ان يزاد أيضا ان ليس للحكومة ان تمنح الوصل بالجزائر لغير الشركة المذكورة فزيد ذلك بحيث ان المنحة كانت خاصة بمثل منحة الشركة الانكليزية مع زيادة شروط لفائدة الحكومة ولم يقع الايصال ولا طالبه مدة الوزير المذكور وانما وقع فيما بعد على ما يأتى شرحه فى المطلب الثامن ان شاء الله تعالى ويشهد لما فى ذلك من المنافع وعدم المضرة المكتوب الذى أرسله قسم النظر من الكومسيون المالى الى الوزير خير الدين اثر انعقاد الاتفاق ونصه سيدى فان اعضاء قسم النظر من الكومسيون المالى رأوا ان

من



من واجبات أمور يتهم ابداء سرورهم لجنابكم بالاتفاق المنعقد فى هذه الايام على احداث طريق حديدية بين الحاضرة ووطن باجة لان ما يلزم لنقل نتايج الوطن من المصاريف الباهظة عطل وسق النعمة فكاد ان يبطل أهم فروع متاجر المملكة مع الاقطار الاجنبية فكان من الاكيد ازالة هذه العوائق بتيسير اشتغال الفلاحة والمعاملات وقد عرض فيما سبق قسم النظر على جنابكم صورة احداث طريق اعتيادى بين الحاضرة والوطن المذكور حرصا على حصول الثمرات الاكيدة فلما وقع الآن ما نؤمل به اتمام هذه المصلحة بما لا يثقل مالية الدولة مع استيفاء الشروط الواجب اعتبارها فى مثل هذه المشروعات صار فرضا علينا نظرا الى مصالح البلاد التى هى لا محالة مصالح أهل المملكة والاوروباويين المستوطنين بها على اختلاف أجناسهم كما هى مصالح أرباب الدين ان نهنى جنابكم باتمام هذا المقصد المبارك ولم يبق لمحبيكم الان يؤملوا المناجزة فيه فى أقرب وقت بحيث تستكمل به رغبة الاهالى فيرون ان شاء الله اتساع نطاق التعامل ونمو أسباب العمران فى تلك الجهات ويفتح ما بقى مرتجا الى الآن من أبواب الفلاح وموارد الثروة وهذا أول ما ترتبط به فيما بعد سائر جهات المملكة من الطرق السهلة السريعة فلا حاجة (حينئذ) الا للمداومة ومساعدة الوقت لتجديد شباب المملكة وفلاحتها والصناعة والمالية بها فيتم بذلك ما لم يزل جنابكم ساعيا فيه حق السعى منذ ثلاث سنين من تعمير هذا القطر والكتب من معظمى السيادة أعضاء قسم النظر من الكومسيون المالى فى ٢٠ مايه المسيحى سنة ١٨٧٦ وصح من الاعضاء الانكليزيين والطليانيين والفرانساويين فلو كان فى تلك الطريق ما يخل بالسياسة لما صحح الانكليزيون والطليانيون لان ذلك مباين لسياستهم ولو فرضنا جهلهم به الفهم أهل سياستهم لكى يكون لهم مستندا يوما ما بل ان أهل سياستهم لم يتعرض منهم أحد رسميا لذلك على ان توهم الاستيلاء الحسى بمجرد الطريق المذكورة من الفرانسيس ليس هو الا وهم لان قوة فرانسا ومنعها من الاستيلاء على تونس ليس هو لتوقفها على صعوبة الطريق فان بين مرسى عنابه ومرسى حلق الوادى مسير اثنى عشر ساعة فقط بالبواخر فى البحر بل ان مرسى ابن زرت لا تبعد عليها أكثر من ثمان ساعات وسفن فرانسا التى توصلت بها من فرانسا الى الجزائر بل ومن فرانسا الى سانيغال بافريقية الغربية والى كنبوديا بالهند الشرقية لا يصعب عليها قطع تلك الساعات ﴿تنبيه﴾ قد أيد هذا الرأى ما حصل بالفعل فى خارج

القطر من هجوم عساكر فرانسا برا و بحرا على القطر سنة ٩٨ ولم تركب ولا فرقة منهم طريق الحديد المذكورة مع وصولها الى حدود الجزائر وأما الاستيلاء المعنوى فان كان المراد منه زيادة النفوذ وزيادة المتجر فسيأتى عليه الكلام فى المطلب الثامن ان شاء الله وان كان بالمعنى الذى مر نقله عن أحد الانكليزيين و بقاء مراسى القطر خالية فهو مدفوع بان السلع التى تؤدى عند دخولها الى فرانسا تصير تؤدى ذلك فى حدود الجزائر وغاية الامر ان يتبدل الطريق ومحل الاداء وأما ذات الاداء فهو واحد وبه يتحد ثمن البضائع سواء شحنت من هاته المراسى أم من هاته وقد اجتمعت فى موطن مع الوزير خير الدين بعد الاتفاق المذكور وشيوع ذلك الاعتراض بما تقدم ذكره فذاكرنى فى دفعه بما يقرب مما شرحناه وزاد فى الجواب وهو متبسم بان قال ان الاعتراض بان مآل ذلك الطريق هو اخلاء مراسى القطر التونسى وانحصار الشحن فى مراسى الجزائر (الخ) هو مما لا يقوله الا جاهل أو متجاهل بما ينشأ عن الطرق الحديدية من العمران وسهولة المواصلة مما يكفى فى البرهان عليه الوجود الخارجى فى الممالك الحاوية لتلك الطرق والخالية عنها فان ازدياد عمران الاولى وتوفر مكاسبها وعكس ذلك فى الثانية مما يغنى فيه العيان عن البيان فاما المتجاهل فالكلام معه ضرب فى العبث وأما الجاهل فجوابنا له ان المضرة من نقل البضائع بطريق الحديد الى الجزائر على ما قالوا لا يخلو اما ان تحصل للاهالى أو للحكومة فان قلنا انها للاهالى بالنظر اليهم فرادى فالجواب ان الافراد مدار نفعهم على زيادة أسعار بضائعهم بقطع النظر عن المحل المشحون منه وذلك لا يحصل الا بتسهيل النقل المنحصر فى طريق الحديد نعم اذا خشى من خروج النتايج الغلاء فى البلاد فللحكومة منع الاخراج من أى طريق كان سواء كان من مراسيها أو من الحدود البرية وان قلنا ان المضرة تحصل للاهالى بالنظر لمجموعهم من حيث نفع الوطن فهو يرجع (حينئذ) الى منع الحكومة فيكون الجواب شاملا لكليهما معا وهو ان مضرة الحكومة مندفعة بما تقدم شرحه من أخذها اداء الشحن الى خارج القطر سواء خرجت النتايج من المراسى أم من الحدود البرية على السواء بل نقول ان بالطريق الحديدية يحصل النفع ودفع الضرر فى خصوص الاداء المذكور بخلاف وقت انعدام الطريق و بيانه ان الحدود ما بين تونس والجزائر ممتدة على جميع طول الحد الغربى للقطر التونسى المتجاوز أربعمائة ميل وأغلب سكانه اعراب رحالة يتكسبون بما يحملونه على ظهور ابلهم فاذا وجدوا اثمان النتايج أغلا فى الجزائر لدخولها الى فرانسا

بدون اداء لا شك انهم ينقلون نتائجهم الى المحل الذى تسوى فيه أكثر من غيره كما هو واقع ويتحملون غلو الكراء بالحمل على الابل لاجل ذلك فاذا جعلت الحكومة مراكز لاخذ الاداء عند الاخراج من الحدود لا يخلو الحال اما ان تجعل المراكز على طول خط الحدود أو تجعلها فى اماكن مخصوصة هى أكثر مرورا وعمرانا من غيرها (فاما الاول) فهو ممتنع لكثرة ما يلزمه من الحراس الذين لا يوفى بمؤنتهم مدخول ذلك الاداء (واما الثانى) فلا يحصل منه المقصود لانه لما كانت جهات الحدود كلها سواء فصاحب النتائج يتحمل مسير نصف يوم زائد على جهة مركز الحراسة و يخرج نتائجه بدون اداء شئ فتلخص من ذلك ان النتائج تخرج الى الجزائر دون اداء للحكومة التونسية بخلاف ما اذا وجد طريق الحديد فان رخص الحمل فيه يعادل اضعاف الاداء على النتائج للحكومة فالاهالى تعدل عن الحمل على ظهور الابل لغلوها وتؤدى اداء الحكومة فى مركز الطريق الحديدية ولا يضرهم ذلك لانهم يربحون ما توفر لهم من الكراء مع قرب المسافة وقصر الوقت والحكومة يمكن لها ضبط مركز الاداء بجعل حراس عليه لانه متحد وبعد هذا كله اذا فرضنا توجه الاعتراض وصحته لماذا يحمل علينا وحدنا والحال ان المنحة انما أعطيت بمشاركة جميع الوزراء والمستشارين ممن تقدم بيانهم فاذا تشارك جماعة فى رأى فلماذا يحمل منكره على واحد منهم فقط لمجرد مباشرة تنفيذ ما استقر عليه رأى الجميع هذا كلامه على ان هذا كله مفروض عند وصل الطريق وقد علمنا اشتراط عدم وصله لمجرد الاسباب السياسية التى يأتى بيانها لا لما تقدم ذكره فلا يتأتى الاعتراض الا عند ذلك وسيأتى لهذا مزيد بيان فى موضعه ان شاء الله تعالى كما وقع الاعتراض على هذا الوزير فى كون الفائض جعل للدين أكثر من القسط الذى عينت مداخيله لذلك حتى لزم الحكومة اكمال الفائض فى بعض السنين من دخلها والاستقراض فى بعض السنين برهن مدبغة الجلد للايفاء بالفائض أيضا ومن المعلوم ان خلاص الدين بالدين يؤدى الى تفاقمه وأجيب عن هذا الاعتراض بما تقدم شرحه فى كيفية الوجه الذى أعمل فى الديون فقد علمت ان الفائض قد حط من عشرين مليونا فرنكا الى ستة ملايين ونصف بمشاركة نواب الدائنين ثم تأسيس ذلك المقدار على معدل الميزانية التى ارسلت من الوزارة السابقة التى وقع فيها الغلط فى تقدير فصل السرحات كما بيناه هنالك سيما وقد رأى الكومسيون الوفاء بذلك فى بعض السنين ورأى اقتدار الحكومة على الايفاء فى بعضها فلا يسلم صاحب المال فى

ربحه بسهولة الابعد تيقنه العجز ولا يحصل ذلك الا بعد اخلة قسم النظر من الكومسيون في أحوال ميزانية الحكومة الراجعة اصارفها الخاصة وربما كان ذلك غير ملائم لسياسة الحكومة لمزيد التضيق عليها والتحجير على تصرفاتها فاختير أخف الضررين الى ان يكشف الواقع على ماهو في الاقتدار حقيقة بطول المدة والتجربة وتنقاد وكلاء أصحاب الديون عن بينة لكن الوزير خير الدين خرج قبل حصول ذلك كما ان الوزير المذكور افراد قليلون من المتوظفين على عدم احيائه للقوانين لكن على ان تكون على غير الكيفية التي سبق بها العمل في تونس بل على وجه يندفع به الاعتراض الذي مر فيها بان تكون موافقة لاحكام الشرع والمباشرين للاحكام الشخصية هم نفس الحكام الشرعيين بضبط نفس الاحكام في قول واحد شرعي وجعل مجلس شورى لمصالح القطر اعضاؤه من جميع جهات القطر الى غير ذلك مما يناسب الحال من القوانين لما هو معلوم من ميله اليها كما مر في الكلام على قوانين عهد الامان وحاصل جوابه الذي علمناه منه عند ابلاغ الاعتراض اليه وهو بتونس هو ان الدول الاسلامية لا يتيسر ذلك فيها الا بارادة الملوك أو الامراء الذين لهم استقلال في الادارة وقد كان والي تونس اجراها ثم لما ابطلت بالكيفيات التي مر ذكرها كان الوالي المذكور أشد النافرين عنها فلا يصغى الى انشائها وليس في ذات الاهالي من يرغب فيها بالحاح في طلبها الا أفراد قليلون كما بان بالكاشف فيما وقع عند الغائها وكما بان بالاستخبار للاعيان عند اعلان الدولة العلية بالقانون الاساسي فلم يبق الا أحد شيئين وهما اما بقاء الوزير خير الدين في الخطة بدون القوانين لرفع ما يستطيعه بذاته أو انه لا يبقى في الخطة الا بوجود القوانين فاختار هو الوجه الاول بدعوى عدم امكان الوجه الثاني وهاته الدعوى المستندة لما تقدم ذكره ربح عند البعض خلافها لانه لو تيقن والي تونس في أول الامر اصرار الوزير على عدم البقاء في الخطة الا بوجود القوانين لكان يحصل المقصود وتدوم القوانين معمولا بها في الاقل مدة بقائه ولا لوم عليه بعد انفصاله ومن بلغ المجهود حق له العذر وقد كنا اطلعنا على تحرير للوزير المذكور بعد انفصاله عن الخطة بتونس في الجواب عن الاعتراض بما ذكر فائدتنا خلاصته هنا ليحكم المطالع بين الشقين وحاصله انه بلغنا ان أناسا لاموا على عدم تأسيسنا في مدة وزارتنا التنظيمات السياسية المعبر عنها بالكنستسيون التي كنا أوضحنا في كتابنا أقوم المسالك الادلة النقلية والعقلية على لزوم تأسيسها واجراء العمل بها ولما كان صدور مثل هذا اللوم منبئا عن عدم فهم من صدر منه لما كنا شرحناه في الكتاب المذكور

المذكور من الاحوال التي تنبني عليها التنظيمات وجب اعادة الكلام على ذلك وبذلك يتضح الجواب عما ذكر فنقول ان تأسيس التنظيمات السياسية الحاملة على اتباع المصلحة قد شوهد انها نشأت في الممالك المستقرة بها باحدى طريقتين احداهما ان يكون تأسيسها من الراعي وثانيتهما ان تطلبها الرعية والصورة الاولى هي الممكنة في الممالك الاسلامية اذا انتبه الراعي لفوائد التنظيمات فيسعى بجد واجتهاد في تأسيسها ويحمل الناس عليها مستعينا بالله وباهل الدراية والمروءة حتى تدرك العامة منافعها ويتمسكوا بها ويحصل لمن تسبب فيها الفخر والأجر من اسس ما يدوم به العدل الذي فضل الحكماء صاحبه على فاتح الاقاليم الكثيرة ووجه ذلك ظاهر وهو ان مصير الفتوحات المؤسسة على غير العدل الى التقاص والاختلال ومصير المملكة ذات العدل الى البسطة والاعتدال والحكيم من لاحظ العاقبة والمآل وعند ذلك تدوم معمولا بها اذا كان في العامة استعداد الى فهمها وقبولها وبدون ما تقدم لا يمكن اجراء ما ذكر فيما علمت فلا يكفي لذلك معرفة الوزير وحده بمصالحها وميله اليها ولا اظن أحدا من رجال السياسة العارفين باصول مبنى التنظيمات يخالفنا في هذا فكان الواجب على المعترضين ان يبحثوا اولا عن معرفة حال أمير تونس هل هو ممن يسعى في تأسيس ما ذكر على الوجه المذكور وعن حال الاهالي هل فيهم من يعتبر حفظها وقبولها وفي ظني ان كلا الامرين لا يوجد منه ما يسوغ الاقدام على تأسيس التنظيمات وفي يقيني عدم نجاحه بدون ذلك كما اعطته التجربة فان التنظيمات التي اسست في هذه المملكة سنة ١٢٧٧ المتقدم بيان أصولها الكافلة بتأمين السكان ابطلت عشيتها مع الحلف على اجرائها بسعي الوزير واتباعه حتى آل امر المملكة الى ما قد رأيت من تصرفات الحكومة زمن وزارة السيد مصطفى وما نشأ عنها من المضار في النفوس والاعراض والاموال ولم يتعرض أحد لذلك بادنى انكار (فلما) كان الحال ما ذكر ويئست من الوالي بتونس في تأسيس التنظيمات سعيت في تحسين ادارة المملكة وتأمين راحة السكان بقدر الطاقة والامكان مستعينا بالله وبمن كان من أهل المروءة من رجال الحكومة الى ان آل امري الى الاضطرار الى الخروج وان ترتب عليه ما حصل لنا بعده من الصعوبات بمنع الناس من مخالطتنا ولم أتحصل على الحقوق المشروعة الواجبة شرعا وطبعا مع ان ذلك وقع في حق رجل تقلب في سائر رياسات الحكومة وحصل على يده مصالح حسب الوسع ويسوغ له ان يقول حكاية للواقع انه

بإعانة الله وعنايته حمى وحده مدة وزارته جميع السكان من الظلم والتعدى عليهم بدليل انه بعد خروجه من الخطة رجع الامر لما كان عليه قبل ذلك لان الوالى فى الحكومة لازال هو بذاته وكذلك رجال الحكومة الذين خدموا معه وهم الذين خدموا مع السيد مصطفى أيضا لازالوا متوظفين وهؤلاء قسمان عفيف فى نفسه غير قادر على منع غيره من الظلم وظالم كان محجوزا بنا عن ظلمه فانطلق بخروجنا من الخطة هذا وانى لازلت أقول ان تونس لا تستقيم بدون تنظيمات وانها لا بد لاجرائها من الطريقة المار ذكرها والا فالتنظيمات فى تونس بدون ماذكر كالعنقاء اسم بلا مسمى فلا تغترن بقول من لا يدرك الحقائق والله تعالى يرشدنا واياهم الى ما يرضيه عنه آمين انتهى وبما تقدم من انتقاد بعض التصرفات وجد اضداد الوزير خير الدين السبيل الى ايقاع التنافر بينه وبين الوالى الا مسألة القوانين فلم يعرجوا عليها غير ان ذلك لم يفدهم لانه مدفوع بما تقدم شرحه والوالى على علم منه فلذلك نزعوا الى أوجه أخرى وبيانها يستدعى بيان منشاها واسبابها وحاصله ان الوزير خير الدين لما باشر الوظيفة بلقب وزير مباشر لم يكن له ضد فى نقض اعماله الا الوزير السابق مصطفى خزندار لكنه لم ينجح لتبصر الوالى فيه ومعرفة سائر المتوظفين والاهالى بتصرفاته التى نفروها حتى ذات خدمة الوالى فى نفسه وقصره فكان الجميع يدا واحدة مع الوزير خير الدين ولما زل الوزير السابق مصطفى خزندار وولى مكانه الوزير خير الدين واستقر أمره بعد الانفصال معه على ما مر شرحه طمحت نفسه للرجوع الى المنصب أو فى الاقل مواجهة الوالى واسقاط خير الدين عن الوزارة واستعان على ذلك بافراد من الاجانب وباحد خاصة الوالى وهو الوزير مصطفى بن اسمعيل واعتضد الجميع كل على حسب فوائده فتارة يقدحون فى التصرفات العامة واشاعة ذلك فى الصحف الاجنبية ويبلغونها بذاتها أو بتعريبها للوالى بواسطة خاصته المذكور لكن لما رأوا عدم نجاح المقصود بذلك لانه لا يروج على الاهالى لمشاهدتهم حسن ادارة الوزير رجعوا الى اشهار اراجيف تتعلق بالسياسة الخارجية فمنها ما يرجع الى تنفير الوالى وعائلته من الوزير خير الدين وأشهروا ان للمذكور اتفاقا سياسيا مع الدولة العلية ومنها ما يعود الى تنفير الاهالى من الوزير المذكور وفاشهروا ان مراده تسليم البلاد للفرانسيس ومنها ما يعود الى تخويف اصدقاء الوزير خير الدين وعموم الناس فاشهروا ان مراد الوالى ارجاع الوزير السابق مصطفى خزندار لخطة الوزارة حتى أثر كل قول فى أصحابه ونشأ عن الاخير التشويش فى عقول العامة

العامة وتجار أوروبا مما أوجب انحطاط اسعار الرقاع للدين التونسى عدة مرار للتخوف من تبديل السيرة فى السياسة الموجبة لتعطيل فائدة الدين حتى اعلن الوالى بتكذيب تلك الاشاعات فكتب للوزير خير الدين مكتوبا ونشره فى الرائد التونسى ونصه بعد الحمدلة والصلاة اما بعد السلام عليكم ورحمة الله تعالى فانه بلغ لحضرتنا ان بعض اشخاص كادت ان تكون اسماؤهم معروفة ممن كان لهم فى تصرف أمير الامراء ابننا مصطفى منافع شخصية تعطلت عنهم بسبب مساعيكم الجميلة بالادارة المنوطة بعهدتكم اشاعوا اراجيف لا حقيقة لها حملهم عليها الميل لما يوافق شهواتهم وهى وان كانت مما لا يترتب عليه أثر ولا يكون لها موقع لاولى الاحلام الا انها ربما توجب لمن كان خلى البال شغلا عما بعينه مع ان الاسباب التى اقتضت عزل المذكور لم تزل تعضدها انظارها والآثار التى أنتجتها مساعيكم الحميدة لم تزل تحمد اخبارها وتظهر للاعيان آثارها ولعلها اعانا فى شغل الاسماع ولهى الآذان بسماع هذه الاراجيف التى لا توصل قائلها الى مقصوده من اضاعة الوقت بنقلها والالتفات اليها حررنا لوزارتكم هذا الرقيم لينهى من يشتغل بذلك وليتحقق السكان ان استحساننا للادارة المنوطة بعهدتكم لم يزل والمنة لله تعالى متزايدا بتزايد آثارها وان ما ارجف به أولئك الاشخاص لا يجدون اليه مستندا وتشهر ذلك للسكان ليزول عنهم الشك الذى قصدوا ايقاعهم فيه وشغل بالهم به لارتياح افكار من يريد مصلحة وطنه ونجح خدمته فالعمل ان تجتهدوا بالاستمرار على تلك السيرة الحسنة التى ظهرت آثارها لدولتنا والله تعالى يحرسكم ويمدكم بحفظه واعانته والسلام من الفقير الى ربه تعالى المشير محمد الصادق باى وفقه الله تعالى بمنه كتب فى الثانى والعشرون من شهر رمضان المعظم سنة احدى وتسعين ومائتين والف (التوقيع) صح من كاتبه محمد الصادق باى فانت ترى ما صرح به الوالى من حسن نتيجة خدمة الوزير خير الدين وهو الذى تشهد به سكان الايالة على اختلاف اجناسهم ومع ذلك لازالت الاعداء تسعى بالفتن بين الوالى والوزير حتى كان فى خلال تلك المدة جميع رجال الحكومة فى كدر من خوف تفاقم النفرة بين الوالى ووزيره الموجبة لانفصال الوزير عن الوظيفة ولما تيقن الوالى ذلك دعى الوزير خير الدين ووعده بقطع التعرضات وامر مصطفى بن اسمعيل بالكف عن سيرته وموالاة الوزير خير الدين وكان ذلك أواخر سنة ١٢٩٢ فدام على نحو ذلك بضع أشهر ثم عادت الكرة فى أواسط سنة ١٢٩٣ واثرت الاقوال فى الوالى الى ان صار يستفهم من عمده عن

رأيهم فى فصل الوزير عن الخطة فرأى منهم استعظام الامور بما قال بعضهم ان بلدنا
صغيرة وليست بمتأنسة بفصل الوزراء على التتابع سيما مع رؤية الرعية لسيرة هذا
الوزير فربما نشأ من فصله ما يسوء العموم فاحجم الوالى عن فصله فى اثناء تلك المدة
وقال أحد المحبين للوزير خير الدين ان استناد الاضداد فى اختراعاتهم يؤول الى
الاستبداد منك على الوالى ورؤساء المتوظفين وذلك ينقطع بامرين أولا أن تتشارك مع
بقية المستشارين والوزراء فى اعطاء رأيهم مع مستشار القسم الاول من الوزارة ومع أعضاء
قسم العمل من الكومسيون بحيث يشترك الجميع فى الرأى عند تحرير ميزان الحكومة
فى الخرج فى رأس العام وثانيا تقسيم الادارة فى الرسم تبعا لما هو جار فى المعنى فى أقسام
الوزارة حتى يكون مستشار كل قسم يلقب بوزير ويمضى هو على المكاتيب ويتحمل
مسؤلية ما يعود عليه ولما بلغ ذلك الكلام الوزير خير الدين لاحظ فيه ما يأتى وهو أن
الاول واقع بالفعل لانه بعد تحرير الميزان من قسم العمل ومستشار القسم الاول يعرض
على بقية الوزراء والمستشارين ويبدون ما يظهر لهم فيه ثم يعرض بعد ذلك على الوالى
للتروى فيه ويمضى ما يستقر عليه الرأى وأما الثانى فانه حالة ضيق القطر وصغر الادارة
لا تقتضى تعدد المصادر بل ربما أوجب ذلك التعاوض فى الاوامر لامور واحدة فى
حادثة واحدة مع ما فى ذلك من زيادة المصاريف بتعدد المامورين فى كل جهة وكل
قبيلة وذلك لا تطيقه مالية الحكومة ولا تتحمل الرعايا الزيادة عليهم هذا خلاصة
جوابه الذى لم يقنع الناصح حيث أن العرض فى الاول انما هو صورى والتضايق فى
الثانى مدفوع بالاقتصاد وحسن التقسيم مثل ما هو واقع بين المستشارين لكن الاهم من
جميع ما تقدم امتناع الوالى من اجراء المطلوب بدليل ما جرى من بعد خروج الوزير خير
الدين عن الوزارة واستمرار نوع الادارة على ما سبق من انحصارها فى شخصية الوزير
الاكبر كما نصح الوزير المشار اليه لابعاد التهم عنه بانه ينبغى له أن يسوى بين نواب الدول
فى المعاملة ولا يزيد فى تقريب نائب فرنسا وهو يقول ان معاملته مع ذاك النائب شخصية
لا تعلق لها بالادارة على انه لو قيل ان تلك المعاملة مما يقتضيها الحال فى دفع غائلة فرانسا
لما بعد ذلك لان ترجيح كفتها بتونس ضرورى وارتكاب اخف الضررين واجب فان لم تر
لنفسها رجحانا تكالبت الى أن تصل الى قصدها ولو بالتغلب على تلك البلاد كما
أوضحنا خلاصة سياستها سابقا ولما تقدم عادت المصافاة بين الوزير خير الدين والوالى
حتى كتب الوالى الى قنسل الفرانسيس بتكذيب ما أشيع تارة بعزمه على ابدال الوزارة

وتارة

وتارة بالعزم على التنقيص من مقدار الفائض مما أوجب عدم الاطمئنان بمالية
الحكومة وانحطت أثمان رقاع دينها فكتب اليه فى جمادى سنة ١٢٩٢ بما نصه
الحمد لله وحده اما بعد فقد رأينا فى الجرنالات الفرنساوية ذكر ظنون ابرزت فى صورة
مقدمات مسلمة واستخراج نتائج منها يريد صاحبها التنفير من ادارة دولتنا وتنقيص ثقة
حاملى الرقاع بما بايديهم من رقاع الدولة مع أن تلك الظنون لا حقيقة لها فى الواقع ولا
أصل وما استخرج منها ترده الادلة المشاهدة زيادة على كونه مبنيا على غير الواقع وهذه
الاراجيف وان كانت باطلة عند المنصف وعند من يعلم حقيقة الواقع ولم يترتب عليها
ما قصده من الامور السياسية فانه نشأ عنها الغير من ذكر وان لا اعتناء له الا بالتحفظ على
ماله بمراعاة كل ما يطرق سمعه خوف ترتب عليه بعض انحطاط فى سعر الرقاع مع أن
كوبونها يدفع فى أوقاته كاملا وادارة مداخيله جارية على الوجه الكافل بحفظه وغير
خفى على جنابكم ما يلحق كلا من الدولة والمتجر من ضرر هذا الارجاف الذى مع
كونه لا حقيقة له ومضاد للواقع لا داعى اليه الا اغراض غير خفية ولما كنا على يقين من
أن جنابكم يود الخير لبلادنا كاتبناكم بهذا مؤملا منكم السعى الجميل بحسن وساطتكم فى
ايقاف هذا الضرر اذ لا شك فى أن المتصدى لنشر ذلك والحالة هذه لم يكن له قصد الا
ما ذكرناه ولحرصه على ترويج ما أبرزه تكلف ما يظن انه يعينه على مقاصده وهو توزيع
نسخ من الجرنال وتبليغها لمساكن اناس لا معرفة لهم به ولا اشتراك لهم فيه مجانا من غير
أن يطلب منهم عوضا عنه خلافا للعادة ونشر ما هو من فروع مقصده بغيره فتعين بما
أشرنا اليه ان ذلك لم يكن للارشاد ولا للنصح اللذين ابرز كلامه فى صورتهما وانما هو
للقصد المشار اليه الذى نتحقق ان جنابكم لا يرضاه ويبذل الجهد فى تعطيله ولو باشهار
هذه الاعانة لنا بما تقتضيه المودة على ما املناه من الخير وتأييد الحق باظهار الواقع كما هو
المقطوع به من انصافكم ومحبتكم ودمتم فى أمن الله وكتب فى ٢٠ جمادى الثانية
سنة ١٢٩٣ ألف ومائتين ثلاثة وتسعين ثم حدث بعد ذلك فى الاستانة ولاية السلطان
مراد فتوجه الى تهنئته من تونس على لسان الوالى وزير الحرب رستم وله مودة اقتضتها
المعاشرة الطويلة مع الوزير خير الدين كما له معه مصاهرة حيث أن الاول زوج بنت
الثانى وكان ذلك فى جمادى الثانية سنة ١٢٩٣ وحصلت اذ ذاك الحرب بين الدولة العلية
والصرب فظهر من جهات الاسلام الاعانة للدولة العلية بالمال لضيق ماليتها او بمقتضى
الحقوق الدينية والارتباط السياسى بين تونس والدولة لزمت الاعانة بالمال أيضا من

تونس وكان حال الحكومة فى ضيق المالية وعدم امكان القرض ما علمت فاجتهد الوزير
خير الدين بعد الاستشارة والمفاوضة فى حصول الاعانة بالمال من الاهالى عن طيب نفس
وصدرت بذلك مكاتيب الوالى والوزير الى الجهات من الحرص فى التعجيل فظهر من
الاهالى غاية الرغبة الى ان حصل مقدار مليون وأربعمائة ألف فرنك مع مصاريف
الصرب والحوالات لارسال المال سكة رائجة فى الآستانة وقدر ما دفعته الاهالى
ريالات ٢٣٨٤٠٤٣ ونشر حسابه فى الصحيفة الرسمية ووصل بتمامه للباب العالى
وفى اثناء ذلك رجع وزير الحرب رستم المذكور ثم حصل فى الدولة العلية صعود سلطاننا
المعظم عبد الحميد على تخت السلطنة وأعيد ارسال وزير الحرب المذكور للتهنئة أيضا وأقام
بالآستانة ثمانية أشهر لتثبيطه من الباب لاحضار جوابه واحضار ما تتفضل به الحضرة
السلطانية على الوالى مع كثرة شغل الدولة اذ ذاك بحرب الصرب والجبل الاسود
والبلغار وهرسك وبوسنه وبالمؤتمر الذى عقد فى الآستانة وبانجاز القانون الاساسى ثم
بحرب الروسية وكان وزير الحرب اثناء اقامته بالآستانة فى المدة الاخيرة قدر شهرين
أو ثلاثة لم يرسل مكاتيب تبين سبب تأخره لان كل أسبوع يظن انه يرجع فيه وطالت
غيبة المكاتيب وجاءتها ذوو الاغراض على ما سيتلى (ثم طلبت) الدولة العلية الاعانة
العسكرية لحرب الروسيا ولم يكن لحكومة تونس من العساكر التى تحت السلاح الا
مقدار ما يكفى لحفظ الراحة فى القطر كما أن المال الضرورى لذلك حاله ما علمت فرأى
الوزير خير الدين المسئلة مهمة جدا ولم يكتف برأى الوزراء ورؤساء الحكومة
وطلب من الوالى عقد مجلس عام من ولى العهد فى الحكومة وأهل المجلس الشرعى
والوزراء وأعضاء جمعية الاوقاف والمجلس البلدى ورؤساء سائر أقسام الادارات ورؤساء
الكتبة والمستشارين وضباط العساكر من أمراء الالوية والفريقان وأعيان الاهالى
ورؤساء ديانة اليهود وكبرائهم العرفيين فاسعف الوالى على ذلك وانعقد المجلس تحت
رياسة الوالى نفسه وأذن وزيره خير الدين بالقاء المراد على المجلس فقال ما معناه ان الدولة
العلية قد أعلمت الوالى بان الروسيا أعلنت عليها حربا وان لها فى الحدود للمدافعة عن
الخلافة الاسلامية والوطن نحو ستمائة ألف وانها مع ذلك لازالت محتاجة الى كثرة العدد
والعدد وانها تطلب من الولايات ارسال العسكر ولعله سمع ذات التلغراف الوارد من
الدولة ثم قرر أن للدولة حقوقا على تونس وان تونس لها عادات مع الدولة لا محيص عنها
وان حالة الحكومة فى العسكر وفى المال معروفة للجميع وان الوالى جمع هذا المجلس
ليشير

ليشير عليه بما يراه فى الطرق الموصلة للمقصود فخاض المجلس فى الكلام وطالت
المذاكرات وحصل التشاحن فى الرأى الى ان علت الاصوات وحاصل آراء المجلس هو ان
بعضهم يرى ارسال العسكر بالمقدار الذى يطيقه القطر من العسكر النظامى المسرح
أكثره وتقريبه نحو ستة عشر الفا لكن فيهم من عجز فلا أقل من وجود ستة آلاف
تقدر الاهالى على القيام بهم بما يلزم من الكسوة والقوت واما السلاح فللحكومة من
المدافع من الانواع الجديدة أزيد من بطرية كما لها من المكاحل المسدسة أزيد من
عشرة آلاف وان كانت تعمر من أفواهها من النوع العتيق فالحكومة حينئذ تقوم
بالسلاح وتعين مليون من المال الذى لها ان تستقرضه من خزنة مجلس الادارة لمدة
ستة أشهر بلا فائض وترجعه بالاقتصاد من مرتبات ذوى المرتبات كل على ما يقتضيه
حاله فان بعضهم اراد اسقاط جميع مرتبه لذلك ويتم التجهيز وترسل العساكر ويجعل
على الاهالى تقسيط ما يقوم بهم يدفعونه منجما مع جريان الاقتصاد من الحكومة على
نحو ما تقدم مع الاعلان بان كل من أراد القتال بنفسه فله ذلك ويعلل هذا القسم رأيه
بان احكام الدين قاضية بذلك مع ان نص فرمان سنة ١٢٨٨ مصرح بشرط ذلك
وانه على فرض الاعانة بالمال الذى يمكن ان يوازى مصروف العسكر فلا يزال
التبكيت على القطر بانه لم يوف بشرطه وأصحاب هذا الرأى قليلون وبعضهم يرى ان
الاعانة انما تجب بالابدان واما المال فلا يجب على أحد شئ ومن قدر ببدنه وماله
فعليه ان يذهب وليس على هذا الرأى الا اثنان وجميع العلماء والعامة ضدهما وسقط
اعتبارهما وقتئذ من اعين بعض رؤساء الحكومة سيما الوزير خير الدين وبعضهم يرى
ان العسكر يحتاج الى التدريب والى السلاح الجديد وبدونه العسكر كالعدم والمال
لاقامة ذلك غير موجود لان الغصب على أخذ المال من الرعية غير سائغ لما هم عليه والجهل
الحال فى الملا والفقر فلذلك يلزم ان يوكل الامر الى الاختيار كل بما يستطيع وبهاته
الصورة لا يعلم مقدار ما يحصل حتى يمكن الاعتماد عليه وتجهز العساكر على مقداره
وعلى فرض حصول شئ أولا فلا تحقق لجريانه فى المستقبل للقيام بالعسكر فى المؤنة
والذخائر ولذلك يكون اللازم هو احضار المال لاعانة الدولة العلية بالمال واعانتها
واجبة لا محالة غير ان جمع المال يوكل الى اختيار الدافع واجتهاده كما حصل فى اعانة
الحرب مع الصرب وهذا هو الرأى الغالب الذى استقر عليه أمرهم وهذا القسم يدفع
تعليل القسم الاول من شرط الفرمان بوجوب ارسال العسكر بان شرطه الطبيعى ان

يكون ذلك فى الامكان وقد تبين ان الامكان غير موجود وعمل بهذا الرأى لانه رأى
الغالب وحكم المسئلة شرعا أفردناه برسالة فيما كتبناه على باب الجهاد من صحيح البخارى
جامعة لحكم المذهب الحنفى والمالكى ثم جمعت الاعانة المالية على نحو ما تقدم وارسل
بعضها فى مدة وزارة خير الدين وقدره ٣٠٠٠٠٠ فرنك ولم يعلم حسابها بالتحقيق
لان الوزير خير الدين خرج قبل نهايتها وبعده لم ينشر حسابها مثلما انشر حساب السابقة
ثم أرسلت الدولة العثمانية بطلب ستمائة بغل لجر الاثقال الحربية وان كانت خيلا
وبغالا فلا بأس به فعمل الوزير خير الدين خرصه فى طلبها من أعيان المتوظفين وقبائل
العربان والبلدان بان عين لكل فرد ما يدفعه من عدد البغال أو الخيل وكذلك القبائل
والبلدان على ان يسعر ما يدفعه أهل البلدان والقبائل من الحيوانات بالمال ويقسط
ثمنه على جميع الاهالى على حسب الجدة ويدفع الثمن لصاحب الحيوان بحيث لا يناله من
المال الا امثال غيره فتسابقت الناس الى ذلك وتنافسوا فيه وكثير من أصحاب
الحيوانات فى القبائل والبلدان امتنع من أخذ الثمن وجعلها فى سبيل الله واحضرت
الحيوانات وبقيت تنتظر سفن الدولة لحملها الان حملها فى السفن التجارية غير مأمون
عليه خشية تعرض سفن المحارب الذى اشاعه من يريد اجتناب تونس من الدولة
العثمانية وشحنت تلك الحيوانات للآستانة بعد خروج الوزير خير الدين من الوزارة
ببضعة أيام وفى مبداء الحرب سأل أحد نواب الدول الوالى والوزير عن قصد الحكومة
فى التداخل فى الحرب وحذرها من عواقب قدوم الاسطول الروسى الى مراسيها
وخسارتها من ذلك مع عدم كبر الفائدة من اعانتها للدولة فاجابه الوزير بان الوالى
لا يستطيع ربط نفسه بالكلام فى عدم التداخل فى الحرب ثم جاء قنسل الروسيا وانذر
واحتج بان الوالى صرح بانه لا يتداخل فى الحرب فكذبه الوزير وان الوالى لم يصرح
بشئ ينزع حريته كما ان الرائد التونسى نشر من المقالات السياسية المنتصرة للدولة
العلية ما هو مشهور وهو لا ينشر الا ما يوافق مشرب الحكومة لانه هو الصحيفة الرسمية
لها والوزير هو الذى يشير بالمقاصد التى تنشر فيه فمن جميع ما تقدم اتخذه اضداد
الوزير خير الدين سبيلا لتنفير الوالى منه واسقاطه من الوزارة فقالوا ان وزير الحرب كان
سبب طول مكثه فى الآستانة السعى بما يضر بالوالى وانه يكاتب الوزير خير الدين وهو
لا يظهر مكاتيبه للوالى لانها ضده وان زيادة ميله للدولة العثمانية ظاهرة مما تقدم
بيانه والوزير يقول ان تأخر وزير الحرب لا علم له بسببه لان واقعه فى نفس الامر هو
ما

ماتقدم شرحه وانه لو تروى القائل فى قوله لوجده غير صحيح لانه لو كان بينهما شئ
حقيقة للزم ان يأتى من وزير الحرب مكاتيب صورية ليطلع عليها الوالى ولما ساغ
عدم اظهار ولا مكتوب واحد حتى يتفطن الوالى مما لا يفعله عاقل فدل ذلك على بطلان
أهل التهمة وقد حققه الخارج كما يقول الوزير ان ما فعل مع الدولة العلية هو الواجب
بمقتضى فرمان سنة ١٢٨٨ وهو الواجب ديانة ولا قصد الا حفظها ولكن لم
يجب ذلك فى السعاية بل أثرت فى الوالى لانه كان حصل قبيل تلك المدة نازلة ادعاء
مصطفى بن اسمعيل على يوسف بن عطار أحد تجار اليهود بتونس انه يطالبه بسبعة
ملايين أو أزيد من جهة رقاع مالية ومصوغ اعطاه اله للتجارة بها وأنكره المدعى عليه
واستظهر وكيل مصطفى بن اسمعيل بحجة ثبت فى الوزارة زورها على ما يسرد تفصيله فى
المطلب الثامن وأراد الطالب ان يكون هو الخصم والحكم ورفع المطلوب أمره للوزير
بهروبه الى قنسلاتو انكلترة وحمايتها له وتداخل القنسل فى النازلة له فرأى الوزير
ان يعقد لفصلها مجلسا وانف من ذلك الطالب ووافقه الوالى وامتنع الوزير من الحكم فى
النازلة تجنبا من الكلام فيها من الجهتين فازداد حنق مصطفى بن اسمعيل من الوزير
ومن ذلك التاريخ اشتدت الوشاية واشاعوا ان الوالى نفر من الوزير بسبب ما تقدم
وانه بلغه عدم ارتضاء رؤساء الحكومة بسيرة الوزير مستندين الى ما سبقت الاشارة اليه
ثم اشاعوا ان الوزير يريد تسليم البلاد الى فرانسا مستندين بسكة الحديد المار ذكرها
والى عدم ارسال العسكر الى اعانة الدولة العثمانية وازداد اشاعة هذا بعد انفصال
الوزير خير الدين عن الوزارة لقصد تنفير الاهالى منه حيث ان الوجه الاول لم يؤثر فيهم
والوزير يجيب بنفس الوقائع وأدلتها مما وقع فى الخارج واستوفينا ذكره وكثر الكلام
فى هذه المنحى الى ان خاطب الوزير الوالى بحكاية مضمون ما تقدم شرحه من كثرة ما أشيع
فى شأنه وان الاشاعات صادرة من خاصته وان ذلك مما يقدح فى نفس المنصب ويعطل
الادارة وانه يلزم أحد شيئين اما توثق الوالى به ورفع العوائق أو استعفاؤه وقد كان الوالى
اذ ذاك صمم على قبول استعفائه لا لاعتقاده ما أشيع بل لان مصطفى بن اسمعيل غير
متداخل فى الادارة بما يرضيه لان الوزير ممانع له لما يراه من تصرفاته حسبما يأتى ان
شاء الله فى المطلب الثامن وعلم ان الحامل للوالى هو ما ذكر بما صرح به مصطفى بن
اسمعيل عند ولايته فانه قال ما معناه لو ان الوزير خير الدين ساعفنى لما خرج عن الوزارة
فلما ذكر اجاب الوالى الوزير خير الدين بسؤاله عن رأيه فى النازلة فاجابه بان رأيه

ماذكره فقال اعد على الكلام يوم السبت عند اجتماع الوزراء بعد الاشارة الى ان
أوداءه خانوه بما أوقعه فى تلك الحال وذلك مما يؤيد القول بان الوشايات لم يصدقها
حقيقة وان يريد تغيير الصدور بينه وبين أحبته فاجتمع الوزير خير الدين بالوزراء
والمشارين قبل الدخول على الوالى وقص عليهم الخبر مما كان ذكره لهم فرادى
ومجتمعين وكان مآل كلامهم ان الاولى به تحمل المشقة وعدم فتح باب الكلام فى
الاستعفاء وقال الوزير محمد الذى تولى بعده وكان معلوما عند جميع الناس انه هو
الذى يتولى باشاعة المعرض المتقدم ذكره واتباعه بان لهم اتفاقا مع الوزير محمد على ولايته
وابلغوا للوالى رضاه بذلك وكان على بن الزى صاحب مصطفى بن اسمعيل الخاص
كثير التردد على جهات مسكن الوزير محمد ليظهر للناس صدق الدعوى فقال الوزير
محمد للوزير خير الدين اما انا فانى لا اتولى مكانك ولو دقت عظامى ولكنى اخدم مع كل
من يوليه الوالى كذا شاع وجعل كلامه ذلك على تكذيب ما شاع عنه ولما دخلوا
على الوالى اعاد الوزير خير الدين الكلام فى الاستعفاء على نحو ما مر فاجابه الوالى بانه هو
أبو عائلة وقد حصل له التعب ومحتاج للراحة فيأمره ببقاءه مرتاحا فى محله فرجع
لدستانه بقرطاجنه وكان ذلك فى رجب سنة ١٢٩٤ ومنع الوالى المتوظفين من
الاجتماع بالوزير خير الدين حتى خواص احمائه بل واتباعه الذين على ايديهم
متعلقات كسبه الى ان خرج من القطر للآستانة ولم يعمل حسابه معهم وفى عشية يوم
انفصاله عن الوزارة تذاكر بعض رؤساء المتوظفين فى زيارة الوزير المذكور وذكر أحدهم
من أبلغ اليه النهى بواسطة انه عازم على زيارته تلك العشية متغافلا عما بلغه فحذره
الحاضرون من الوزراء والمستشارين من وقوع ذلك قبل الاستشارة وانهم هم فى
أنفسهم عازمون على مثل ذلك وانما علقوه على استشارة الوزير الجديد فلما استأذنوه
احالهم على اذن الوالى ولما استأذنوه اعلن بالمنع وجعلت عيون على كل من يقدم اليه
فبقى منفردا وتكاثرت الاقوال فى الخوف عليه ونازلة الشهيد بن اسمعيل السنى ورشيد
لم تبرح من البال وكان هو متجلدا متغافلا عما يظهر اليه من الغضب وطلب مواجهة
الوالى لمجرد الزيارة فاضطرب فى أمره ثم اذن له فى وقت خاص ووقع بين الوالى وقنسل
الفرانسيس كلام سأل فيه القنسل الوالى عن سبب خروج الوزير خير الدين عن
الوزارة فاجابه بان خروجه ليس كخروج الوزير السابق لان الوزير السابق ارتكب
ما يشين العرض واما خير الدين فلا سبب لخروجه الا الخلاف السياسى الواقع بينى وبينه
وأنت

وأنت تعرفه وهو اشارته الى ميل الوزير للدولة العلية لان الوالى كان تحقق لوم قنصل
فرنسا على سياسة الوزير مع الدولة العلية والا فما هو الخلاف السياسى الذى يعلمه
القنصل دون غيره وهذا يؤيد الكلام السابق فى حقيقة أسباب انفصال الوزير المذكور
عن الوزارة ولما تفاقم التنافر طلب الوزير خير الدين السفر لمداواة مرض عصبى فاذن
له بعد التصعب التام وودع الوالى ولما استقر فى أوروبا حذر من العود خوفا عليه فكاتب
هو الوزير محمد بما مضمونه انه كان أرسل اليه مكتوبا جوابا عن مكتوبه بان الوالى سأل
عن حاله وعن وقت رجوعه وانه انما كان سافر لاجل التداوى أولا وثانيا لاجل
التباعد عن القيل والقال وهو المقتضى لتطويل الغيبة فاذا رأى رجوعه لا بأس فيه
فليأمر الوالى به لان غاية مراده هو ان يعيش فى بلاده مع عائلته تحت ظل الوالى مع حريته
الشخصية من غير ان يتداخل فى شئ من الامور كما هى عادته عند انفصاله من الوظائف
بدليل سيرته فى التسعة سنين السابقة التى بقى فيها بلا مأمورية وانه كان ينتظر الجواب
عن ذلك المكتوب الذى تضمن الاعلام بعزمه على السكنى بالقطر خلافا لما يشيعه
المغرضون متعهدا بعدم التداخل فى شئ من الامور السياسية وانه طالب حريته الشخصية
حيث صدر الاذن للاهالى والمتوظفين باجتنابه ومع انتظاره للجواب مدة من الزمن لم يرد
له الجواب الا بكون رجوعه لا يتوقف على اذن مع التغافل عن الموجبات المشار اليها مع
انه لم يطلب الا ما كان الوالى سمح به للوزير مصطفى خزندار فى صفر سنة ١٢٩٢ من
الرخصة فى مخالطة من يشاء والسفر الخ مع ان ذلك الوزير كان مطالبا بمال جسيم وليس
خروجهما من الوظيف سواء لاختلاف الاسباب وما طلبه الوزير صاحب المكتوب هو
ضرورى فى حقه لما صدر من الاذن فى المنع من الاجتماع به حتى ان وكيله المالى
امتنع من القدوم اليه هذا زيادة على الصعوبات التى وقعت عند ارادته السفر ولم يجب
عن هذا المكتوب وكان القصد من اضداده الجاؤه على عدم العود أو انه اذا عاد
يتسبب له بايقاعه فى محذور وخيم ومع ذلك قدم الوزير خير الدين لتونس عندما شاع ان
بعض بواخر الروسيا قادمة الى تونس وكانت حالته مع الوالى أشد مما سبق فارسل اليه بان
يقصر من القدوم اليه الا باذن متعللا بان الوزير مصطفى خزندار تشكى من منعه هو من
زيارة الوالى مع عدم منع الوزير خير الدين وقال كثير من الناس هو قياس مع الفارق
ثم عاد الوزير خير الدين الى السفر أواسط سنة ١٢٩٥ ورجع الى ان أتاه اذن بسلك
الاشارة من الاعتاب السلطانية بالقدوم الى الآستانة فاستأذن الوالى وامتنع من

الاذن له حتى دعا القناصل المعتبرين واستشارهم في ذلك فكلهم اشاروا عليه بان لا وجه في منعه والاوفق له الاذن بطيب نفس منه فاذن له عن كره ومنعه من وداعه وسافر في رمضان سنة ١٢٩٥ وترقى في عناية الخليفة به الى ان صار صدرا أعظم في ذي الحجة من تلك السنة وجاءت عائلته في باخرة سلطانية ومن ذلك الوقت خرج الكلام على هذا الوزير عن موضوعنا الذي نحن في صدده وقد انحصرت دعوى اعداء خير الدين في أمرين احداهما ارادته تسليم البلاد للفرانسيس والثاني ميله الى الدولة العلية فلا شك ان الخلاف السياسي الذي ذكره الوالي لقنسل فرنسا لا يتعلق بالدعوى الاولى وعليه فلا سبب الا الثاني وعلى كل فقد أشهد الوالي قنصل الفرانسيس بعد خروج الوزير خير الدين من الخطة باستحسان سيرته الا الخلاف المذكور فعلى الواقف المتأمل في ذلك اذا الحق ما شهدت به الاعداء فعداوة الوالي لخير الدين بعد خروجه من الخطة لا يجهلها أحد والحجة القطعية في ذلك امتناعه من مقابلته عند صدور الاذن بالقدوم لدار الخلافة وطلب الوداع (المطلب السابع) في وزارة محمد خزندار (اعلم) ان هذا الوزير أصله من اليونان وحضر الى تونس في ولاية حسين باشا وربي في الحكومة وتعلم الفروض العينية والقراءة والكتابة ونشأ على صفة التعفف عن الرشا موسوما بحسن الرأي جيد الطبع كثير الصمت صبورا محبا للسادة الاشراف صاهره أحمد باشا بالمولى الشريف سيدي محمد الشريف على ابنته صاحب صدقات سرية متباعدا عن الشفوف متحد السيرة كان قربه الوالي حسين باشا بما راعاه به صاحب التصرف اذذاك شاكير صاحب الطابع وصار من خواصه وزادت به عناية الوالي المذكور حتى أولاه خزندار وكذلك أخوه من بعده مصطفى باشا في استنجابه الى ان قيل انه حصلت غيرة منه لشاكير صاحب الطابع المذكور واتهم بانه أغرى بعض خواصه به في المعسكر الذي توجه تحت رياسة صاحب الطابع المذكور لثورة أهل جبل باجة فاطلق على الوزير محمد الرصاص في واقعة حربية هنالك فاصيب في رجله وعوفي مع بقاء تأثيرها ثم استنجبه أحمد باشا وولاه عاملا على الساحل وحسنت فيه سيرته وطالت مدة ولايته عليه من حدود سنة ١٢٥٣ الى سنة ١٢٨٠ ودافع عن أهله ما استطاع من تعديات محمود بن عياد بتكفله بخلاص كلما يطلب منهم ابن عياد على أن لا يباشرهم ابن عياد بتوجيه أعوان لخلاص الملتزمات التي يطلبها منهم وأعان على مصاريف عسكر حرب القريم بالف قفيز من الشعير ووجهه أحمد

باشا

باشا رسولا عنه للدولة العلية في استطلاع نيتها في ترتيب الاداء على تونس والاعتذار اليها ثم وجهه أيضا لاحضار مهمات العسكر في حرب القريم ثم عاد مع العسكر وأقام هنالك مدة ثم رجع ولما ولي محمد باشا أرسله بالهدية والنجدة الثانية من العسكر وطلب تقرير ولايته فقضى مأموريته وعاد وكان في عزم الوالي المذكور تقديمه لوزارة الداخلية فعاقه عنه ما تقدم في ابقاء الوزير مصطفى خزندار ولكن الوالي المذكور قربه واعتمده ورفع شأنه وأرسله رئيسا على المعسكر الموجه الى الاعراض والجريد لجلب رئيس قومه من اعراب طرابلس المسمى غومة عند ثورته على الدولة العلية هنالك ثم التجائه الى تونس عند خشية الاستيلاء عليه وأحدث في أطراف الجهة الجنوبية من قطر تونس شيأ من الاختلال فوجه عليه الوالي المذكور معسكرا تحت امرة الوزير محمد المذكور ولقبه في تلك الوجهة باميرالاعراض واستقال الوزير محمد من اللقب ولم يساعفه الوالي وفي ولاية الصادق باشا ولي الوزير محمد وزارة الحرب عند استعفاء وزيرها منذ ولاية احمد باشا وهو مصطفى أغا ثم ولي عوضا عنها وزارة الداخلية ثم عوضها بوزارة البحر كما ولي رئيسا ثانيا بالمجلس الاكبر عند وجود القوانين حينما استعفى الوزير خير الدين ثم لما حدثت الثورة العامة سنة ١٢٨٠ بقي الوزير محمد في زوايا الخمول الى ان حدث الكومسيون المالي فولي فيه عضوا وأرجعت اليه الولاية على الساحل وابلى في التخفيف على أهله من مصاعب الديون ما تقدم شرحه باعانته للوزير خير الدين ثم سنة ١٢٩٠ ولي مستشار القسم الثاني من الوزارة الكبرى مع التلقب بوزير الاستشارة ولما حصلت مبادي استعفاء الوزير خير الدين شاع التعاضد بالوزير محمد لقصد تقليده الوزارة الكبرى حيث كانوا على علم بان نقل الوزارة من خير الدين الى ابن اسماعيل صعب عظيم في اعين العامة والخاصة ويلزم مدة الاستئناس بمباشرة مصطفى ابن اسماعيل للسياسة تحت رياسة غيره فلما استعفى خير الدين قلد الوالي الوزارة الكبرى للوزير محمد خزندار بعد ان استقاله منها وبكى واعتذر بكبر السن ومرض البدن فلم يساعفه الوالي فتلقاها وألبس نيشان البيت الحسيني وطلب من الوالي أن لا تتغير سيرته عن الطور المعتاد له في الابهة اللازمة لرياسة الوزارة كما قلد أيضا رياسة الكومسيون وكان ذلك في رجب سنة ١٢٩٤ وولي في وظائفه التي كانت بيده مصطفى ابن اسماعيل وبقي الوزير محمد في الوزارة متحفظا في ما يستطيعه على ابقاء ما كان على ما كان وصاحب النفوذ هو غيره على ما سيأتي شرحه ومع أكثر الجزئيات التي تعرض له

لا يبدى فيها أمرا الا بالاستشارة ولم يحدث فى مدته شئ جديد سوى حرص الدولة العلية
على ارسال العسكر فاعتذر اليها بان غاية ما فى الوسع هو الاعانة المالية للاسباب التى مر
شرحها فلم تصغ لذلك و زادت الحاحا وتهديدا بلزوم العسكر وطالت المراجعات
والاعتذارات من تونس الى ان صرحوا للدولة العلية بان غاية ما فى الوسع والقدرة هو
احضار أربعة آلاف من النفوس بلباسهم فقط وسلاحهم من النوع القديم وما عدا
ذلك يلزم أن يكون جميعه على الدولة فرضيت بذلك وأعلمت بانها ترسل الى حملهم على
محل سفنها فتحتم المبادرة باحضارهم فاحضروا وصرف على كسوتهم ولوازمهم مدة
حضورهم وانتظارهم للسفن مما جمع من الاعانة المالية من الاهالى التى سبق
ذكرها فى وزارة خير الدين وانعقد الصلح قبل سفرهم فورد الاذن بسراحهم وكذلك
حدثت نازلة انتهاء اجل الكنت دى صانسى لكنها لما كان كل من الحرص فيها وانتهاء
خصامها فى مدة الوزير مصطفى ابن اسماعيل وهكذا نازلة وصل الطريقة الحديدية المار
ذكرها بطريق الجزائر فانها وان وقعت فى وزارة الوزير محمد لكنها فى الواقع منسوبة
لسعى مصطفى ابن اسماعيل حيث كانت التصرفات بين هذين الوزيرين فى مدة وزارة
محمد مثل التصرفات بين الوزير مصطفى خزندار والوزير خير الدين بعد ولاية هذا
وظيفة وزير مباشر وغاية الفرق بينهما ان وزارة محمد وابن اسماعيل لم يظهر فيها جهرة
التباين والعناد ووزارة خزندار وخير الدين بخلاف ذلك فليس من الانصاف نسبة
مساعى احد الرجلين الى الآخر كما ذكرنا مثل ذلك سابقا سيما مهم المسائل الخارجية
فقد كادت ان ينفرد بها الوزير ابن اسماعيل وليس للوزير محمد فيها الا الاجراء ودام
الوزير محمد على ذلك متجنبا الكل صعوبة مقتصرا على امتناعه من الرشا وبيع الوظائف فى
نفسه مشيرا بلطف الى استقباحها لمن يريدها مداريا لسائر المتوظفين الى ان احس بالكلام
بارادة استعفائه بعد ولايته بستة اشهر فعرض بذلك للوالى متعللا بالعجز والمرض فاشار
عليه الوالى بالتحمل والبقاء فى الخطة الى الوقت الذى يشير عليه الوالى بالاستعفاء فعمل
بذلك وفى ربيع الاول من سنة ١٢٩٥ كثر الكلام فى عود الوزير الاسبق مصطفى
خزندار فكذبته الحكومة بنشرها فى صحيفتها الرسمية فصلا طويلا فى ان ذلك
الكلام مما يشوش على السكان ويحير الافكار وانه بهتان والوالى لا يعمل به وانه من
الافتراء والارجاف وذلك فى عدد ١١ من الرائد فى ١٦ ربيع الاول سنة
١٢٩٥ وانما ذكرنا ذلك ليتيقن ان نفرة الوالى للوزير المذكور لاعماله حقيقية

لا

لا كما قيل من أنها بسعى الوزير خير الدين حيث انه فى ذلك التاريخ بعيد عن الوالى
واشغاله ثم ان الوزير محمدا بقى منتظرا الاشارة لاستعفائه كما بقى من جهة طالب المنصب
وصاحب الولاية انتظارا عادته هو للاستعفاء أو التعريض به و بقى هكذا الحال كل شق
ينتظر صاحبه مدة أشهر الى أن أظهر الوالى كثرة الكلام فى الرغبة فى استعفاء الوزير
وأحضر نيشان آل بيته الذى صار علامة ملازمة للوزارة الكبرى وفطن بذلك الوزير
محمد فقدم للوالى معرضا بالاستعفاء على حذر حيث اعتمد الوصاية بان الوالى هو الذى
يشير عليه فقبل بالرحب والبشر وأوصاه بان يكتب غدا مكتوب الاستعفاء فلما حضر
الجميع الى قصر المملكة من الغد امر الوالى قبل أن يصل اليه مكتوب الاستعفاء الوزير
محمدا بان يستصحب معه الوزير مصطفى بن اسماعيل الى محل الوزارة و يعلن لجميع
المتوظفين بعد جمعهم بان الوالى أولى مصطفى الوزارة الكبرى ورياسة الكومسيون بعد
أن ألبس الوزير مصطفى نيشان البيت ولاطف الوالى الوزير محمدا وأمره بان يعود
اليه بعد ذلك الموكب مصاحبا للوزير الجديد فعمل بذلك على هيئة استغربت
اذ لم يعهد مثلها و بعد ذلك كتبت مكاتيب الاستعفاء وقبوله ونشرت فى الرائد وكان
ذلك فى شعبان سنة ١٢٩٥ فمدة وزارة محمد عام وشهر ولقب فى ذلك الوقت بوزير
الاستشارة و جعل له مرتب عمرى وقدره ستون ألفا فى السنة وأمره الوالى بان يقدم
اليه فى كل أسبوع فى يوم السبت مع جملة المتوظفين أو عندما تدعو حاجة لحضوره
وجعل منزلة حضوره فى موكب الوالى فوق منزلة الوزير الحالى بحيث لم ينزل عن مرتبته
ثم استقال هو من ذلك ونزل تحت الوزير ثم ولى عضوا فى مجلس الشورى الآتى ذكره
وبقى على ذلك الى الآن (المطلب الثامن) فى وزارة مصطفى بن اسماعيل هذا
الوزير من الناشئين فى حاضرة تونس ولما شب رباه أحد متوظفى قصر الحكومة الملقب
بزهير حتى نسب اليه فى اللقب ثم أخذه منه الصادق باشا الوالى الحالى وصار من خدمته
وقربه ورقاه الى رتبة أميرلواء مع انضمام رتبة أميرلواء ثانيا فى عسته العسكرية الخاصة
وهى وظيفة مقصورة عليه لم تكن من قبل ولا بقيت من بعد ومن حدود تلك المدة عرف
بلقب ابن اسماعيل نسبة الى والده الذى يقال انه مسمى بذلك وهو متواضع بشوش
كثير التردد على الصالحين وزيارتهم شديد الاعتقاد فيهن ينتمى الى علوم الحدثان شره
على الاشياء الجديدة كثير الانفاق على ما يعود الى لذاته محب للتجمل بالملابس المجوهرة
حتى تتعدد الخواتيم المكللة باصبعه وترى المجوهرات على صدره وسلسلة ساعته

عارفا باخلاق سيده ملائما في سيرته معه لرضائه حتى تمكن ميله اليه واشتدت
رغبته في استرضائه الى أن قدمه على معاصريه وأبناء جنسه فبلغ الى الرتبة المشار
اليها ثم رقاه الى رتبة أميرلواء العسة وأبطلت الرتبة الثانية المشار اليها وفي أوان خمود
التنافر بين الوزير خير الدين ومصطفى خزندار انتهزت تلك الفرصة الى التنويه بشأن
مصطفى بن اسمعيل ورقي الى رتبة الفريق وأرسل من الوالي كما تقدم الى مالطه لابلاغ
العناية بالوزير خير الدين وكان يظهر الميز عن مصطفى خزندار ثم ولي عاملا على
الوطن القبلي أوان خمود مصطفى خزندار وأخذ مستلزمات العمل المذكور بقيها
اليه بدون انتهاء مدة من كانت بيده وامتدت الايدي الى ارزاق أهالي العمل المذكور
بارتشاء الاحكام وغيرها حتى قال كثير من أهله لقد زال العناء عن أهالي القطر الا نحن
فانا لم نر شيأ من اثر ذلك لاغضاء الوزير خير الدين النظر عنه لمعاضدته اياه واستولت
بعض حواشيه على الاوقاف ببلد سليمان الى أن آل أمرها لما كنا شرحنا بعضه فان
جامع الحنفية والمدرسة ببلد سليمان لم يكتف فيهما باخذ دخل الوقف واهمال الموقوف
عليه حتى خرب وتعطل جريان الشعائر بل نقل منهما مهمات من الرخام وغيره الى دار
المتولي كما قيمت في ذلك حجج من أهالي البلد وقدموها الى جمعية الاوقاف وجرى على
الاهالي من المتاعب ما بلغ الى قتل النفس كما ذكر وادلك في قتل حميده بايوض أحد أهل
الحاضرة الذي انتقل بالسكنى الى هنالك وذهب دمه هدرا وسودت في موته رقعة على
انه مات حتف أنفه تبرئة عند الحكومة ومنعا من دمه وشدد على الاعيان من أهل
الحاضرة وغيرهم في خلاص قانون الزيتون الذي كان مرتبا على الوطن القبلي الذي
مر ذكره وتحملوا من مباشري الخلاص اهانات لم تعهد لهم حتى ان بعضهم كان جالسا
بحانوت أحد أصحابه في العطارين فجاءه المستخلص وألزمه بالخلاص حالا مع ان العمر
عمومي فضلا عن كون الرجل لم يكن مستعدا ولا مالك مهو ولا سعه فأهين بما أذرف دموع
المشاهدين من ذلك الملأ ومثل ذلك متعدد ثم ولي الوزير ابن اسمعيل وظيفة صاحب
الطابع أواسط سنة ١٢٩٠ ويوم ولاية الوزير خير الدين الوزارة الكبرى ولي
الوزير ابن اسمعيل وزارة البحر غير انه لم يباشرها بل الوظيفة في محل الوزارة وانما جعل
ما يتوقف على امضائه يحمل اليه أين كان ليمضيه حتى يقال انه انفصل عنها وهو
لا يعلم مضمون تلك الوظيفة اذ لم يكن لتصرف على مواردته ولا به متعمد من يفيه من
غير احتساب عليه ثم عزل من ولاية الوطن القبلي لان الوزير خير الدين قد استقر في
الوزارة

الوزارة الكبرى وظن انه غني عن معاضدة ابن اسمعيل حينئذ فاقتحم مع الوالي صعوبة
الالحاح بعزله ومن ذلك التاريخ برح الخفاء فيما كان كامنا من منافرة الوزير ابن
اسمعيل للوزير خير الدين وان اظهار الميل اليه لم يكن حقيقيا والتفت عليه عصبة الوزير
السابق خزندار من الاجانب وبعض المأمورين ترويج اغراضهم مما تقدم شرحه
وفي اثناء تلك المدة كانت أموال الوالي وذخائر الحكومة من الجوهرات والياقوت
الابيض الذي تركه محمد باشا كلها في تصرفات الوزير ابن اسمعيل المذكور الا
ما أخرج من ذلك مما أرسله في هدايا الدولة العلية وما اعطاه الوالي الى الوزير خزندار
وله قسط وافر او غيره وكان التحم في تلك المدة بالوزير ابن اسمعيل شخص من سكان
الحاضرة يقال له علي ابن لزى كانت الناس تتقيه من قبل ثم ازدادوا منه اتقاء لما
التحم بالمذكور وتفصيل حالة هذا الشخص لا تناسب هذا التأليف على ان من شاهدها
لا يمنع ما نذكره لما يعلمه ومن لم يشاهدها لا يكاد يصدق بوجودها ولذلك لا نذكر
الا ما يتعلق به من حوادث سيده فمنها انه حسن اليه معاطاة التجارة في رقاع ديون
الدول وراد له تاجر بعد تاجر الى ان استقر أمره مع أحد تجار الاقمشة الحريرية من يهود
الحاضرة المسمى بيوسف بن عطار وأرسله الى فرانسا للتجارة هنالك ثم لما عاد التاجر
حصلت بينه وبين علي ابن الزى نفرة فأغرى به سيده لارادة استئصاله وسجن
التاجر في سجن الضابطية لان الضابطية كانت لا تسأله عمن يريد سجنه وانما
حسب التنفيذ لما يراه وادعى على التاجر بخمسة ملايين فرنكا أو تزيد بين مال
ومصوغ وحجارة كريمة من الياقوت الابيض على انها من أعلى نوع وانه سافر بذلك
الى فرانسا ولم يؤخذ منه حجة في بيانها وانه أرجع اليهم بالارسال من فرانسا مقدارا
وافرا من الياقوت الابيض من النوع الردئ على انه لم يبع مما تسلمه منهم وقبلوا ذلك
وبقي التاجر الى ان احضر بالضابطية وأخذت منه حجة على انها بتصحيحه وأنكرها
هو وطال الامر الى ان تخلص التاجر من السجن وهرب الى قنسلات الانكليز محتميا بها
طالبا اجراء الانصاف في نازلته وتداخل القنسل الانكليزي مع الحكومة في انصاف
الرجل ولاحت علائم الزور على الحجة ولم يكن معها من القرائن أو الاسلوب التجاري
ما يؤيدها سيما في مبلغ وافر مثل ذلك بل ربما كان معها من القرائن عكس الدعوى
اذ ان المدعى به عليه من الياقوت هو من أعلى نوع وهو المصرح به في الحجة ثم النوع
الذي أرجعه اليهم وقبلوه وارسلوا له فيه مكاتيب بوصوله من غير انكار لكونه من نوع

ما اعطوه ولا تعويض بذلك مع ان ذلك المقدار البليغ يعطى لانسان من غير بيان ولا حجة ولا دفتر ولا تؤخذ عليه الحجة الا بعد رجوعه بمدة وهو تحت الغضب زيادة عما كان عند انتهائها فان جميعه يؤيد كلام التاجر فانه بعد ان رفعت النازلة الى الوزير خير الدين وارادته تشكيل مجلس للنظر فيها وامتناع الوزير ابن اسمعيل من ذلك حسبما تقدمت الاشارة اليه وبقى التاجر محتميا بالقنسلاتو تصالح معه الوزير ابن اسمعيل بمائة ألف فرنك وعشرين ألف فرنك وتعجب كل من سمع بالدعوى التى هى نحو ثمانية ملايين كيف يصالح عنها بذلك القدر لو كانت حقا والنازلة مقررة فى الوزارة وفى القنسلاتو ولو نظرنا الى ما وقع فى النازلة من الكلام على ألسنة الناس الذى منه ان مما قاله على ابن الزى الى الوزير ابن اسمعيل ان التاجر المذكور لما عاد من فرانسا ارجع له مصوغا أو أتاه بمصوغ بقيمة بليغة من المال وانه اكتشف عن حالة المصوغ بعد الانفصال بالصلح مع التاجر فاذا هو من البلور المقلد على الياقوت فاذنه الوزير ابن اسمعيل ببيعه حيث لم يكن فيه من فائدة فاخبره بانه بيع ببضع آلاف وأدخلها له فى حسابه ولما وقعت الواقعة الآتى بيانها مع ابن الزى تبين ان عين ذلك المصوغ لم يزل بخزائنه وانه من الياقوت حقيقة وامثال ذلك لطال الكلام فى النازلة لكن لا داعى لنا فى ذكر ما يقال على ألسنة الناس سيما وهو مما يعود الى ما بين الخادم والمخدوم وانما الداعى الى ذكر ما تقدم هو بيان كونه سببا فى خروج عائلة التاجر المذكور من رعايا تونس وصيرورتها تحت الحماية الانكليزية كما أنها كانت سببا فى تمكن النفرة واظهارها بين الوزير خير الدين والوزير ابن اسمعيل وميل الوالى الى معاضدة هذا لانه مكنه من جميع أمواله حتى ان نفقته ونفقة عياله كانت على يده وقد نشرت أخبار متواردة فى الصحف الخبرية عربية وغيرها فيما اقتحمه العائلة من تباعة ذلك ولم يقع تكذيبه وحيث كان من الخصوصيات فلا نجلبه هنا أيضا وانما أشرنا اليه لتعلم خلاصة التصرفات المالية وبما تقدم وغيره حصلت الاشاعات التى أشرنا اليها فى أسباب استعفاء الوزير خير الدين وقرائن الحال دلت على انه كان القصد توجيه الوزارة الى الوزير مصطفى ابن اسمعيل غير ان معرفة حال المتوظفين والاهالى فى التسليم لذلك كانت مجهولة فقدم للوزارة الوزير محمد وقدم الى استشارة القسم الثانى من الوزارة الوزير مصطفى ابن اسمعيل لكى يباشر العمال والاهالى فى شكاياتهم ويتأنس بمباشرة التصرفات العامة فكان لا يتعرض لتصرفات الحاضرين

من

من اتباع الحكومة عند ورود الدعوى الان تكون نازلة له بها خبرة بواسطة أحد علائقه وتقررت له من قبل قدومها الى الوزارة فحينئذ يأذن فيها بما كان وقع عليه الانفصال وحصلت فى اثناء هاته المدة الرشوة التى كادت تتناسى سيما فى توظيف العمال ولم يقتدر الوزير محمد على دفاعها غير انها لم تتفاحش اذذاك كما ولى الوزير مصطفى ابن اسمعيل عاملا على الساحل لاستعفاء الوزير محمد عنه فجرى أول الامر العمل فيه على ما كان ثم ولى على المستير رجلا نائبا عن العامل بجعل ينيف عن المائة ألف وكان ذلك الرجل مدينا للاجانب من قبل واشترى الوظيفة لخلاص ما اشتراه به ولخلاص دينه وتكسبه وامتدت يده الى الاهالى والى النواب الذين تحت نظره وتفاقم الامر مع شدة الضعف المالى فى الساحل واشتكت رعايا الاجانب الى قناسلهم هناك لان أهل الساحل لم يزالوا فى رق دينهم فما يتحصل لهم من المال عوض ان يدفع لدائنهم صاروا يدفعونه الى المتولى وبقى أمرهم على ذلك الى نحو ما سيرد خبره وفى أول مدة تداخله فى الادارة وجه قصده الى التداخل فى المسائل الخارجية والمداخلة مع نواب الدول فاستعطفه أحد نواب الاجانب على أمير اللواء الياس المصلى لعلاقة بينهما ذاتية على ارجاع المذكور الى خطته التى كان فيها وهى وظيفة مستشار ثان فى الوزارة الخارجية وقد كان عزل عنها فى أواخر وزارة خزندار اثناء ولاية خير الدين وزيرا مباشرا بسبب واقعة وهى ان احدى الجمعيات الاجنبية التى تجمع المال لنوع من أنواع المرحمة توسطت اذذاك بقنسل فرانسا لتعينها الحكومة التونسية بشئ من المال على وجه المرحمة فارسلت الحكومة بواسطة المستشار المذكور مقدارا من المال ولما اجتمع القنسل بالوزير شكر صنعه وذكر له المقدار الواصل لتلك الجمعية فاذا هو غير مطابق لما أعطته الحكومة ووقع التحقق فى النازلة الى ان عزل المستشار المذكور وبقى بلا وظيفة ولا مرتب الى ان قدم من الاجانب من عطف على المذكور فتوسط له لدى الوزير خير الدين فى وظيفة فافهمه ان ذلك غير لائق لما تقدم فألح على ان يحصل له نفع ونال بواسطته مرتبا سنويا قدره ستة آلاف ريال وقطعة من أرض مقدار ما يبنى بها دار للمذكور وكبر ذلك على الوزير ابن اسمعيل اذذاك وجعلها هجيراه فلما تعاطى هو الاشغال السياسية وتوسط لديه فى ارجاع المذكور للخطة السابقة بادر بالاجابة بالقبول ولما انتهى الامر للوالى استفظع النازلة سيما وقد سمع بعض القناسل بذلك وأوغر بالانكار بل ربما قال بعضهم انه يعد ذلك اهانة لهم وحصل من المتوسط أيضا

التشديد في الاتمام بمقتضى القبول الذي اجابه الوزير بن اسمعيل وهو وان لم يكن
اذذاك وزير الخارجية الا انه علم ان كلامه رسمي مثل وزير الخارجية وانكر ابن
اسمعيل التعهد بالقبول وانما قال اني وعدت بابلاغ الوالي المطالب فقط وتمادى الخلاف
الى ان استرضى الطالب ووظف المذكور وظيفة مخترعة وهي كاتب سر الوالي
بالفرانساوي وجعل له مرتب اثنا عشر الفا سنويا ثم ابتدأت نازلة الكاف التي صادى
فالح الوزير بن اسمعيل في تعجيل فصلها اذ كان فيها ما سيرد خبره ثم جاءت نازلة وصل
السكة الحديدية التونسية بسكة الجزائر وذلك ان الشركة التي بيدها المنحة وشرعت في
العمل بها بعد ان قربت ان تصل بها باجة لزمها وصل السكة المذكورة بسكة الجزائر لانها
ان لم تصلها تتوقع الخسارة وبفوتها تبقى ربح الخمسة في المائة لان دولة فرانسا ضمنت
للشركة المذكورة ربح الخمسة في المائة على ما تنشئه من الطرق الحديدية بافريقية
وتتصل بالجزائر ودولة فرانسا انما ضمنت ذلك لانه مما يعمل به كثيرا في الممالك
الاوروباوية لترغيب أرباب الاموال في انشاء المنافع العامة مع تحقق الربح من أموالهم وهي
لا يثقل عليها مثل ذلك لغناها وكثرة مواردها من الطرق الحديدية فعلى فرض خسران
جهة من الجهات في الطرق يعدل بالربح الحاصل من الجهات الاخرى واذا بقيت طريق
تونس غير متصلة بالجزائر لا تحصل الشركة على الضمانة المذكورة فلذلك قدم الى
تونس زعماؤها طالبا وصل السكة مستندين الى الفصل الثالث عشر من الاتفاق الذي
بايديهم في اصل المنحة من ان الشركة وهو ان الشركة يسوغ لها مد فروع يمينا وشمالا
عن الخط الاصلي بعد الاتفاق مع الحكومة على جهة المركز الواصل له الفرع وعلى
جهة مروره وان المقدار الذي بين نهاية الخط الاصلي وبين حدود الجزائر لا يبلغ الى
مقدار طول الفرع الذي لهم الرخصة فيه وهو خمسون كيلومتر وأي نحو خمسة وأربعين
ميلا وانهم غاية ما يطلبون الاتفاق على تعيين المركز المنتهى اليه وتعيين جهة المرور كما
يطلبون مد فرع الى جهة الكاف بمقتضى الرخصة الاولى أيضا فنالت النازلة في البلاد
وعند رجال الحكومة أهمية تامة لا بالنظر الى فرع بلد الكاف لانه خال عن كل شائبة
وليس فيه الا النفع وانما الاهمية من حيث وصل الطريق بالجزائر وكثرت الاقوال في
وجود مليون ومائتي الف فرنك لتيسير أسباب الوصول الى المقصود وتولى أمر الحرص
فيها الوزير ابن اسمعيل وكان القنسل الفرانساوي معينا الى الشركة على غير الطريقة
الرسمية وانما هو من باب المجاملة والنصح ويود فصل النازلة من غير ان تدعو الى مداخله
الرسمي

الرسمي باستنجاده من الشركة على ما يمكن ان تدعيه فيبرأ الوزير محمد اذ ذاك من تحمل
العبء وعقد لها مجلسا تحت رياسة مستشار الخارجية واعضاؤه ثلاثة تونسيون واثنان
فرانساويان واثنان طليانيان وكاتب انكليزي والجميع من موظفي الحكومة
فتفاوضوا في المسألة لكن مع الاشارات المتواردة بالتعجيل واختلف رأي المجلس هل ان
الفصل ١٣ المستند اليه من الامتياز يقتضي ذلك أم لا لانه بالنظر للخريطة يتبين ان
المقدار المطلوب ليس بفرع بل هو تطويل لاصل الخط حيث يتجاوز منتهاه لنقطة الاصلية
المنتهى اليها الخط الاصلي في العقد ولكن الذي ترجح عند أغلب المجلس أنه يصدق عليه
انه فرع اذ لم يقيد الفرع بعدم تجاوزه نقطة الاصل ومع هذا فان الاستناد الى ذلك الفصل
لا ينتج المطلوب لانه وان تضمن امكان امداد أحد الفروع ضمنا يعارضه التصريح
القطعي بفصل خاص وهو أن الوصل بطريق الجزائر ليس للشركة عمله ولا رخصة لها فيه
الا باتفاق جديد ولهذا خصص ايضا بان الحكومة ليس لها اعطاؤه لغير الشركة المذكورة
وهو شرط قطعية بان ايصال الطريق الحديد لحدود الجزائر لم يعط مدة وزارة خير الدين بل
انه شرط عدم الايصال للحدود وان اعطاء الرخصة للشركة الفرانساوية في ايصال
الطريق للحدود هو امتياز جديد أعطته الحكومة التونسية بعد خروج الوزير خير
الدين من خطة الوزارة ولهذا انتقل الكلام الى أن الوصل هل للحكومة عمله أم لا فتذاكر
الجميع في منافعه ودفع الاعتراضات والمضرات الناشئة منه بما تقدم بيانه عند الكلام
على وزارة خير الدين بل زاد بعضهم ان قال انه اذا لم يوصل تتحقق المضرة المالية للحكومة
بان ما يصل الى المركز النهائي يقرب من الحدود مع عدم انحصار جهة الخروج منها
فتحمل البضائع على ظهور الحيوانات وتخرج الى الجزائر من غير اداء الضرائب للحكومة
الى غير ذلك من المصالح ودفع المضار ومما عساه ان يقع من الارتباكات السياسية عند
الامتناع من الوصل ولما كنت أحد أعضاء ذلك المجلس وافقت على ما ذكر غير اني
لاحظت شيئين (أولهما) ان الوصل الى الحدود يلزم منه تعيين الحد وهو واقع فيه
خلاف وطال النزاع فيه مدة أحمد باشا وليس للحكومة أن تعين الحد وانما ذلك متوقف
على اعلام الدولة العثمانية وهي التي تعين الحد (وثانيهما) ان وصل الطريق ينشأ عنه
كثرة القادمين من رعايا الجزائر لسهولة الانتقال وقرب الوقت ورخص المصروف وذلك
هو موجب رواج التجارة وان الخلق من كل نوع فيهم المستقيم وغيره فاذا كثر الوارد
من رعايا الفرانسيس وحصلت كثرة المخالطة استدعى ذلك كثرة الخصومات الطبيعية

وليس لحكام تونس الحكم في نوازلهم بل النوازل ترفع الى القناسل وأين هذا في قبائل
العربان التي يمر بها الطريق بل وفي نفس البلدان ليس لاتباع الحكام وضع اليد
على المطلوب فيفعل المتعدي مايريد ويركب ويرجع الى بلاده قبل أن يصل العلم الى
حاكمه فيجر ذلك الى ضياع الحقوق سواء كانت للأهالي وهم الاكثر أو لغيرهم
ويضطرون الى اعمال وجوه يتوصلون بها الى حقوقهم ربما أوقعت البلاد
في ارتباك أو خروج الرعية عن حكمها ولا مندوحة عن هذا الا باتحاد الحكم وقد كان
السعي فيه من قبل ودولة فرانسا موافقة على أصله فلم يبق الانجازه ولذلك
لا تمكن الموافقة على وصل الطريق الا بالوجهين المذكورين فقيل لي ان لهاته
المسئلة التجارية من تعلقها بمسئلة الحكم وهل ترضى باتحاد الحكم جميع الدول حتى
تدخل فرانسا معهم اذ لا ترضى بذلك وحدها فقلت ان كانت نازلة الطريق تجارية
محضة فلا ضرورة لنا تحملنا على اقتحام المسئلتين السياسيتين المشار اليهما الا بعد التخلص
منهما ومضرتهما تعدل وتفوق على المنافع المشار اليها أولا وان كانت النازلة فيها شائبة
سياسية ففرانسا تعيننا فيما يتعلق بها بجلب موافقة الدول على اتحاد الحكم وتبدأ
بنفسها الان الداعي مهما وهو اتصال المملكتين وسهولة الوصلة بالطريق الحديدي على
ما مر شرحه لا تشاركها فيها بقية الدول فاذا رأوا اجريان العمل بذلك مع جلبها الوفاقهم
يغلب على الظن توافق الجميع وكانت هذه الملاحظات هي مبدؤ رميي بضدية قوم
ومعاكسة آخرين وأغلب الاعضاء انصفها وتكررت المذاكرات حسبما هو طبيعي
في تعدد الآراء وكلف في اثناء ذلك أحد الاعضاء بصورة الشروط التي يمكن أن يقع
عليها التعاقد وبينما المجلس يوما في اثناء المذاكرات واذا بالخبر بان الوزير بن اسماعيل
أخبر بان القنسل قادم على الوالي ذلك اليوم للحرص على النازلة وانها لا تحتمل زيادة
الطول فمن ذلك التاريخ خرجت النازلة عن كونها شورية حقيقية وعدلت الشروط
المشار اليها في أقرب وقت ودفعت أولى الملاحظات المشار اليها بالنص على أن مركز القمرق
لا يكون علامة على الحدود وانظر هل يجدي ذلك أم لا كما دفعت الملاحظة الثانية بان تكتب
بانفرادها في أوراق الوزارة لتكون اشارة على الحكومة في السعي على مقتضاها وأبقيت
في خزانتها مع تقرير كل ما وقع في المجلس وأمضيت المنحة وسمع ممن ناجزها وسعى فيها انها
من تصرفات الوزير خير الدين والواقف على كل ما قررناه يحكم بانصافه ثم أرسل هذا الوزير
من الوالي لتهنئة ملك ايطاليا أمبيرتو بالولاية عوضا عن والده ثم سافر الى معرض باريس
واحتفل

واحتفل به الوالي العام بالجزائر واجتمع في باريس برئيس الجمهورية ورجال السياسة
وذاكر بعضهم في فتح البحر بالصحراء الكبيرة من خليج قابس وعدد له منافع تنشأ من
ذلك للجريد وذكر له أوصاف الجريد التي هو عليها الآن فتخلص الوزير بن اسمعيل
من الخوض في النازلة لانه يخشى من المذاكرات السياسية بانه كان في سن الصغر لما
كان الوالي يسافر الى تلك الجهات ولذلك لم يكن يعرفها وان المذاكرة في النازلة تجري
في الوزارة بتونس فتعجب المخاطب من الجواب ثم شاع الخبر بالاستعانة ببعض
نواب الدول على توجيه الوزارة الكبرى الى الوزير بن اسمعيل وان بعض النصحاء صرح
له بان الوظيفة ما آلها اليه لتوجه عناية الوالي اليه فلا داعي الى الاستعانة بالاجانب
على ذلك لانه يفتح بابا غير مناسب فان الذي يستطيع ان يعين على الولاية يستطيع
ضدها عند ما يريد فلم يفد ذلك ثم استقرت ولاية الوزير بن اسمعيل الوزارة الكبرى
في شعبان سنة ١٢٩٥ على الكيفية التي تقدم ذكرها في استعفاء الوزير محمد
واستبد الوزير بن اسمعيل بالتصرفات وحصلت في البلاد تزيينات تشبها بما وقع عند
عزل الوزير خزندار وقد علموا ما بعثهم على ذلك اذ ذاك وأماهاته فكانت امتثالا لما
أشير به عليهم بالايعاز من الاتباع فحدث في هاته المدة أمور في الحكومة والقطر
(فمنها تفاقم) الامر في نازلة دي صانسي وخلاصتها ان هذا الرجل الفرانساوي كان
منح في وزارة مصطفى خزندار ان تعطى له أرض قدرها اربعمائة ماشية كل ماشية كيل
مائة واثنين وتسعين حبلا وكل حبل طوله خمسون ذراعا على ان تكون الارض قابلة
للزرع والسقي ويعطى له ذلك المقدار على أربعة أقساط مهما وفى بشروطه في سنة
يعطى له قسط وعلى ان تعفيه الحكومة من جميع الاداآت واشترط عليه ان يربي في
الارض المذكورة أنواعا ثلاثة من الحيوانات وهي الخيل والبقر والغنم في كل مائة
ماشية عدد خاص من الانواع المذكورة على ان تكون الانواع من أحسن الموجود في
القطر أو خارجه الى غير ذلك من شروطه وهو يبيعها لمن شاء وليس للحكومة شئ في
عوض ذلك الا تحسين الانواع المذكورة في القطر فمضت آجال منذ قبوله للارض
الاولى وادعت الحكومة عدم وفائه بالشروط وادعى هو التعلل بانها هي لم توف له أيضا
حيث طلب الاعفاء من الاداآت التي بواسطتها أيضا وكان ذلك في مدة وزارة الوزير خير
الدين فآل الامر بعد ان كادت ان تفصل النازلة بالمرة وبعد ان عقد لها مجلس من
موظفي الحكومة الى اجراء مطلبه وأخذه القسط الثاني من الارض واسقاطه كل

دعوى فيما تقدم تاريخه فلم يوف بما اشترط عليه أيضا وادعى ان سبب ذلك تداخل
تونس فى حرب الروسيا وان الارض التى أخذها ليست كاملة المقدار وانها ليست
بكاملة الصفات وانها لم تعف مما هو مشروط وان الحكومة لم تحم حقوقه من التعدى
عليه من الاهالى فعقد لذلك مجلس تحت رئاسة الوزير ابن اسمعيل فى مدة وزارة الوزير
محمد وطالت المراجعات بين الحكومة وبين دى صانسى والقنسلاتو الى أن ولى الوزير
ابن اسمعيل الوزارة الكبرى فحرص فى اتمام النازلة وتخليص الارض من يد المذكور
وانعقد لذلك مجلس من متوظفى الحكومة من الاهالى والفرنساويين وتكررت
المراجعات الى ان استقر الرأى على ان لا حق للكنت المذكور فارسل الوزير ثلاثة من
متوظفى الحكومة مع مصاحبة قنسل أوستريا لحوز الارض المذكورة والشهادة على
كيفية الحوز وقبيل ارساله أعلمه قنسل فرانسا بان الاولى الصلح فى النازلة بان يضرب
لصاحب المنحة أجل ثان للوفاء بشروطه ويسقط جميع دعواه فان لم يوف تخلص
دولة فرانسا الارض منه وترجعها لحكومة تونس وبدون ذلك لا يمكن تسليم الارض
الا بمجلس تحكيم مختلط وانه لا يسمح لاتباع الحكومة بالدخول الى الارض وان أتوا
للاستيلاء يجدون من يعارضهم من أتباع القنسلاتو فلم يقبل منه ذلك وعند وصول
الرسل منعهم أتباع القنسلاتو من الدخول بالكلام فرجعوا وكتبوا التسجيل حالا فورد
من قنسل فرانسا طلب (أربعة) مطالب (أولها) طلب الترضية من الحكومة (ثانيها)
القاء المسؤلية على من تسبب فى النازلة (ثالثها) عقد مجلس مختلط للنظر فى اثبات
دعاوى دى صانسى أو عدمها (رابعها) الجواب عن ذلك قبل مضى يومين والا فانه
يقطع الخلطة وشاع بالايعاز ان المراد بالقاء المسؤلية هو عزل الوزير فاضطرب الوالى
والوزير واشتد الخوف وقال بعض الاجانب ان قطع الخلطة لا يعقبه الحرب فتربصوا
حتى تعلم الدول ولعله يكون منهم التداخل فتنفصل النازلة بوجه آخر ولم يقع من أحد
القناسل جواب مقنع فى عدم خوف الحكومة لعدم وصول الاخبار التلغرافية وضيق
الوقت ولم يعلموا الدولة العثمانية وسعى أمير اللواء الياس عند القنسل بالوجه
المخصوص بان يكون الوزير فى امان ويجاب لجميع المطالب على ان يعزل الكاتب
الذى توجه فى النازلة وهو الحاذق الفطن المتفنن دايدسنطليانه الذى على صغر
سنه كان يحسن سبع لغات ومطلع على السياسة ونصوح لتونس كاعز النصحاء ووفى بجميع
لوازم وظيفته ويقال ان سبب الرضا بعزله هو شخصيات نفسانية فارسل الكاتب
استعفاءه

استعفاءه قبل العزل وقبل ووقع الرضا الشفاهى بان يكون ذلك نهاية المسؤلية التى
هى احدى المطالب ووقعت الاجابة الى المطالب من الوالى بعد ان كتب تلغرافا الى وزير
خارجية فرانسا بانه يريد ان يرسل له رسولا خاصا ليشرح له النازلة فأجيب
بواسطة القنسل بان لا فائدة والحالة هاته فى ذلك وان القنسل معتمد من قبل دولته
فاجاب الوالى حينئذ بالقبول ونزل الوزير ابن اسمعيل الى القنسلاتو باللباس الرسمى
ترضية عن الواقعة ثم عقد مجلس يرأسه موسيو فولون أحد أعيان الحكام الفرانساويين
وكان رئيس مجلس التحقيق بالجزائر وهو رجل منصف عفيف واعضاء المجلس اثنان
تونسيان واثنان فرانساويان وبعد التروى فى مجرد دعاوى دى صانسى هل هى
واقعة أم لا عدا دعوى التعطيل بالحرب استقر الرأى على ان مقدار الارض بالقيس
الهندسى الذى لم يجر بكيفيته العمل فى تونس هو ناقص وان صفتها مطابقة للشروط
وان الاعفاء لم يقع لان شروطه لم تقع وان حماية الحقوق موفاة من جهة الحكومة
ثم بقيت الارض بيد دى صانسى الى الآن وعند قبول الشروط كوفئ أمير اللواء الياس
بولايته مستشارا ثانيا بالوزارة الخارجية ومما حصل أيضا انه ورد على تونس أحد
الفرانساويين وطلب انشاء مرسى أمنية للسفن على شاطئ قرطاجنة قرب حلق
الوادى والح على ذلك وتخوف من منعه فاعطى خمسة وعشرين الف فرنك لكى
لا يتشدد وأعطى الى أمير اللواء الياس عشرة آلاف ريال لتوسطه عنده بان يرضى ولا
تعطى المرسى وكذب فى الصحيفة الرسمية ان كون اعطاء المال كان بسبب طلب قنسل
فرانسا (ومنها) جعل موكب لاحراق تذاكر الكبون أى الفائض الذى استخلص من
مبدء الكومسيون الى ذلك الوقت وجازى الوالى الوزير ابن اسمعيل على ذلك الاحراق
بالسيف المرصع الذى أنعم به من طرف الخلافة (ومنها) ان أحد العمال من اشراف
مساكن ولى على قبيلة المثاليث فادعى عليه بانه أخذ منهم زائدا عن موظفات الحكومة
نيفا ومائتى ألف ريال ولم يجر الحساب على مقتضى الانصاف المطلوب فطلب
تحرير الحساب بمحضر أعيان من ثقات الحكومة فلم يجب وقبض به اثنان من اعوان
الوزير ومنعوه من الخروج من داره الى ان تخلص منهم بحيلة ورمى بنفسه من احدى
طواقى علوه والتجأ جاريا الى قنسلاتو انكلترة فدخل بابها صائحا مستغيثا وأغمى عليه
ولما أفاق سأله القنسل عن سبب حاله فقرر انه عذب بربط يديه واحراق الحطب
فى وسط بيته والسكر فيها وصب الخمر أو القاذورة على رأسه وغير ذلك من أنواع التعذيب

ليؤدي المال وأخذوا منه اجرا على ذلك خمسة عشر ألف ريال وآل الامر الى طلب
القنسل اعادة الحساب فامتنع الوزير من ذلك وحصلت بينه وبين القنسل نفرة ودامت
مدة الى ان ابدل القنسل المذكور لفراغ مدة خدمته بالسن وهو مسر يتشاردوود ورقته
دولته ثم جاء خلفه وصولح العامل المذكور باقل من ربع ما ادعى عليه يدفعه على اقساط
(ومنها) ان أحد اغنياء الساحل الملقب بابن الحفصية ادعى عليه بانه اشترى زيتا من
الوزير وكتب عليه حجة بنحو ثلاثين ألف ريال فتلطف بالتخلص فلم يفد ثم طلب ان
يتوجه الى جهة الافرنج ليستقرض منهم ويدفع فارسل معه أحد الاتباع لمراقبته
ولما وصل تجاه قنسلاتو فرانسا دخلها مستغيثا فتلقته أعوان القنسلاتو وقرروا نازلته
واجتهد القنسل في حمايته لما ثبت عنده ظلمه وحماه من ذلك ولم يخرج من هنالك
الا وهو وجميع عائلته تحت الحماية الفرانساوية وتفاقم الامر في الساحل على ذلك
النوع الى ان كتب أحد القناسل الى نوابه بقبول كل من يلتجي اليهم وكتب تقريرا فيما
هو واقع فاحس الوزير ابن اسمعيل بذلك فاستعفى من ولايته عاملا على الساحل
وتلطف للقنسل بان يكون ذلك ختام النازلة فانفصلت على ذلك (ومنها) ان أحد
التجار الملقب بالصباغ الذي تقدم ذكره عند الكلام على الوزير مصطفى خزندار
اقرض أهل مساكن في نكبة الساحل العامة سنة ١٢٨٠ اموالا اسلما على
الزيت وتضاعف أمرها الى ان عجزوا وسجنوا مدة طويلة فلما ولى الوزير ابن اسمعيل
على الساحل توسط في الصلح مع التاجر على ان يتحمل هوله بما يطالبه منهم وهم يدفعون
ذلك للوزير على اقساط فسرحوا على ذلك ونقل الناس عن التاجر المذكور ان المال
اسقطه هو عن الوزير ابن اسمعيل لتوسطه في ارجاع بستان الوزير مصطفى خزندار
بمنوبة الذي كان دفعه في الصلح عن مطالب الحكومة منه كما سبق ذكره وان لم يرجع
البستان الا لورثة خزندار عند موته وانما فعل التاجر ذلك للعلاقة بينه وبين خزندار
المذكور وبقي الوزير ابن اسمعيل يستخلص المال من أهل مساكن شيأ فشيأ هكذا
شاع عند من سمع من الصباغ (ومنها) ان أحد اتباع الوزير ولى على قبائل جلاص
فالبث فيهم مدة الا واقبل منهم فوج عظيم شاكين الى الوالي بانهم ضربت عليهم غرامة
بنحو مائتي ألف ريال زيادة على أموال الحكومة ووقع في النازلة مبادي هرج
الى أن صولحوا برفع الغرامة وابقاء العامل (ومنها) تكاثر الجعائل على الوظائف
من العمال فقسمت لذلك بعض القبائل كالهمامة وهادما تخوف الناس منه من

امتداد

امتداد الايدي الى الاموال حتى أشاع بعض العمال انه شريك للوزير فيما يستلزمه من
أنواع الدخل وبسبب ذلك انحطت بعض المداخيل فلزمة غابة الزيتون سنة ١٢٩٧
أخذها تابع الوزير ابن اسمعيل بسبعة وعشرين الف مطر زيتا واحجم عن الزيادة
عليه سائر الاهالي لما أعلن التابع ان أخذه لها شركة مع الوزير وليست هاته
مما يتقدم اليها الاجانب الذين لا يخشونه لانها تحتاج الى ممارسة الاعراب ولم تسبق
لهم عادة باستلزامها (ومنها) ان قبيلة تسمى بالقوازين من المنتسبين الى أحد
الصالحين وعددهم لا يبلغ الى الثلاثمائة رجل يسكنون في الجهة الجنوبية في حدود
الصحراء كانت الحكومة منذ قديم معفية لهم من الاداء لقلتهم وقلة كسبهم واستمر الامر
على ذلك الى سنة ١٢٩٦ فاريد الزامهم بالاداء فامتنعوا متعللين بالعادة والحال فالح
عليهم وتهددوا بالغصب فتحملوا باداء شيء من المال سنويا على انهم يوزعونه على أنفسهم
من غير أن يتداخل العامل في عددهم وتوزيع المال عليهم مثل ما هو جار في بعض
القبائل المتوحشين كورغمه ودهماطه وشبههما وكان الفرق بين ما يمكن ان تحصل عليه
وبين ما أرادوه هم اعطاءه بانفسهم لا يتجاوز الالفي ريال على ما قرره أحد العارفين بهم
فامتنع الوزير من مساعفتهم وأذن بغصبهم واستعمل لذلك بعض القبائل الذين لهم معهم
عداوة مع بعض العساكر الخيالة الغير المنضمين المعروفين بالحوانب والصبائحية فعاثوا
فيهم وقتل منهم كثير حتى النساء والاطفال بتمزيق جثثهم رحمهم الله (ومنها) ان رئيس
أطباء الوالي طلب أن يكون بالحاضرة مستشفى على النحو الاروباوي فتم ذلك بمال
الاوقاف وانتظم أمره وقد وفيت فيه بكل ما تحتاج اليه المرضى وتتم به راحتهم حيث
كنت أنا المباشر الى انشائه وجعلت فيه قسما منفردا خاصا بالنساء وكل ما يصرف على
الداخل من المستشفى يكون من فواضل مال الاوقاف ولا يعطى المريض شيأ ولهذا
اشترط أن يكون الداخل اليه فقيرا كما جعلت به قسما منفردا خاصا بالاغنياء ويقوم
المستشفى بجميع لوازمهم على أحسن حال علاجا وسكنا ويعطون عوض ذلك قدرا
زهيدا من المال وجميع أدوات هذا القسم من الاسرة والخدم والفرش مماثل لحالة بيوت
الاغنياء المقتصدين في مصاريفهم وفائدة هذا القسم ان كثيرا من أهالي الحاضرة اذا مرض
لا يجد من يوفي له بواجبات العلاج للجهل من العائلة مع انهم يستكثرون أجرة الطبيب
فيندفع عنهم ذلك في المستشفى وهنالك فائدة أكبر من هاته وهي أن أغلب بلدان القطر
خالية عن الاطباء وكثيرا ما يأتي منهم أناس للتداوي بالحاضرة فلا يجدون مأوى سوى

منازل المسافرين التى تسمى وكائل وهى غير صالحة لمثل ذلك فتحصل لهؤلاء هاته الثمرة
مع الاشتراك فى الفائدة المقررة لاهل الحاضرة (ومنها) أن الوزير ابن اسماعيل استوهب
من الوالى الاوقاف التى كان حبسها على باشا الثانى على الاناث من ذريته فسعى فى جعل
بينات تشهد بملكيتها فى مدة وزارة خير الدين وعطلها اذذاك الوزير المذكور ثم بعد
خروجه تمت الهبة وبقيت الاوقاف عنده بالهبة ولما تكاثرت عنده الاراضى المسماة
بالهناشير المختلفة كبرا وصغرا باع منها عددا وافرا الى لجنة فرانساوية وغيرها (ومنها)
انه استوهب من الوالى أيضا مصيدة السمك ببلد المستير المسماة بالتنارة ثم احالها الى لجنة
أخرى كذا شاع أيضا (ومنها) عمل طريق بين باب البنات وباب سويقة من الحاضرة قرب
دار الوزير وفيها أكثر مروره الى جهة باب البحر (ومنها) أن أحد الاغنياء من الاهالى
توظف فى الحكومة المسمى بمحمد صريف توفى رحمه الله عن غير ولد وكانت له بنات من
ابنه فاوقف كسبه عليهن وعلى من يتزايد له وبعد وفاته وضعت زوجة حملها فكان
ولدا ذكرا ثم توفى فى أثر ذلك وكان للمتوفى ابن عم فتعاضد مع الزوجة وأرادا أن يبطلا الوقف
المذكور ليصير المخلف ارثا فيرثان أغلبه واستعانا بتابع الوزير المسمى على ابن الزى على
مواعيد له وقد كان القاضى جعل وصيا على البنات وحفظ الوقف والمنقول فطلب التابع
ان ينقل حكم النازلة من الشريعة الى الوزارة على خلاف الديانة والعادة من تحكيم
الشرع فى المواريث والاوقاف وارسل الوزير الى القاضى مكتوبا بان يسلم رسوم الوقف
الى كاتبين أحدهما من خواص الوزير والثانى من الوزارة مع الوعد فى المكتوب بان
الوزارة بعد الاطلاع على الرسوم ترجعها وكان المتسلم لها أبو الزوجة وهو وكيلها مع أحد
الكاتبين فطال الزمن وأبلغ الوصى الى القاضى التخوف على الرسوم اذ شاع انها سيقع فيها
تغيير فارسل الى أبى الزوجة والى الكاتب اللذين تسلما الرسوم بطلب ترجيع الرسوم
فأبيا فاحضرهما فامتنعا فسجن ابا الزوجة حيث انه هو المتسلم وأخبر بان الرسوم بعلو فى
داخل المحكمة الشرعية هو محل اشتغال الكاتب المذكور حيث كان من شهود الاوقاف
وذلك العلو هو مكان اجتماعهم فبعد أن الح القاضى على الكاتب وامتناعه أمر بان يمنع
من دخول العلو خشية اخراج الرسوم منه وبقى القاضى بجعل حكمه على الهيئة الشرعية
حسبما سبق التعريف بذلك من كون أهل الشرع بتونس لهم من التعظيم والتوقير
قريبا مما كان عليه الحال فى الاعصر المعظمين للديانة وشعائرها فما كان غير بعيد الا
وعلى ابن الزى المذكور قارم فضرب باب العلو برجله وكسر قفله وأمر الكاتب بالصعود
واخراج

واخراج الرسوم واخرج المسجون وامره بالذهاب حيث شاء وقدم على القاضى وباشره بما
لا يناسب ذكره وفشا الخبر وعظم الامر عند العلماء والعامة الى درجة لم تعهد فأبطلت
الدروس من الجامع الاعظم واغلقت دار الشريعة وكثر اللغط وسرى الى خارج الحاضرة
وأبلغ أمر النازلة الى الوزير ابن اسماعيل فاراد أن يهون النازلة بمنع تابعه من القدوم الى
تونس وأرسل معلما الى القاضى بانه سجنه فلم يلتفت لذلك العلماء وتقدم الشيخ أحمد بن
الخوجه شيخ الاسلام وجمع العلماء مرارا واظهر أشد الانتصار للشرع وكتب جميع
المجلس الشرعى مكتوبا وأرسلوه الى الوالى قصدا بلا واسطة الوزير على خلاف
المعتاد وقدم به رسولهم على الوالى فى مجلسه العام فقرئ عليه فاذا فيه تفصيل الواقع
والاشارة الى ان الخطب عظيم فاهتز الوالى وتوقى عاقبة الامر وأحضر الجانى وأمر
بنزع رتبته وحبسه ثم نفيه الى حصن جربه وقدم على أهل المجلس باشكاتب
ووزير الشورى وتأسف لهم على ما وقع وهدد أبالهم بما صدر من الحكم فاقتنعوا فى
الجانى بما وقع ولكنهم طلبوا مواجهة الوالى وقصوا على باشكاتب المذكور ما هو
حال بالقطر مما تقدم شئ منه الى أن بلغ الحال الى تلك الدرجة وتوقعهم لما هو أعظم
وكان شيخ الاسلام يبكى على حالة من لا أرب له فى الدنيا وكل تكلم بما بداله من فظاعة
الحال فابلغ باشكاتب ما سمع وما رأى فاضطربت أفكار الوالى وتكاثر الكلام فى
الناس وكانوا كلهم على كلمة واحدة فى اتباع أهل المجلس الشرعى ومما ذكر ارادتهم انهاء
الامر والشكاية الى خليفة المسلمين وطلب اجراء ما تضمنه الفرمان المؤرخ فى شعبان سنة
١٢٨٨ من اجراء العدل والانصاف فى الرعايا وبلغ الوالى قصد العلماء وهو طلب
تشكيل مجلس للنظر فى المصالح وفى أعمال المأمورين لكى لا يقع مثل ما وقع وخشى
مما شاع من تداخل الخلافة الكبرى لظنهم ان السلطان لا يرضى بضياع أهالى تونس
لمخالفة السيرة الادارية لما هو مشروط فى الفرمان السلطانى سيما وقد بلغ الامر الى ما هو
راجع الى الشرع وحمايته وان ذلك أيضا يجرى الى تداخل بقية الدول العالمين بقبح
السيرة مع كون الصدر بالدولة العثمانية اذذاك هو خير الدين باشا الذى يراه عدوا له
فارسل الوالى الى العلماء ثانيا يقول لهم أمهلونى بضع أيام فان جعلت ترتيبا سياسيا يقنعكم
فاقدموا الى حينئذ شاكرين والا فلكم ان تبدوا ما يظهر لكم وكان هذا رأى أشير به
على الوزير بان يعمل كما قيل بيدى لا بيد عمرو وخشية تفاقم المطالب على ذلك النحو ووقع اذ
ذلك مبادى انحلال فى عزم أهل مجالس الشريعة لان رئيسهم تقرب اليه الوزير سرا فانحط

حرصه وتوجهت أطماع البعض الى المسابقة لارضاء الوزير فاجابوه بنعم ثم جمع الوالى
وزراءه وأعلمهم متأسفا من مطالب أهل الشريعة بانه يريد ان يجعل مجلسا مركبا منهم أى من
الوزراء ورؤساء الادارة دون غيرهم من الاهالى للنظر فى المصالح وجريان السياسة فاجابوه
بان ما يظهر له حسن فهو حسن و كان هذا الجمع من الوزراء والمستشارين مشتملا على
جميعهم حتى ان الوزير حسين كان اذذاك قدم من ايطاليا لمصالح فى مأموريته فصادف
الواقعة وكان ممن وافق الوالى على رأيه فى جعل المحتسب والمحتسب عليه واحدا خلافا
للمعقول ولما يعلم من طبعه من لزوم الاحتساب الحقيقى على تصرف المأمورين بثقات من
الاهالى الى غير ذلك من أوجه العدل ومع هاته الموافقة فلم يسلم من القدح ثم ان
الوالى أرسل لاهل الشريعة يعلمهم بانه أنشأ مجلسا مؤلفا من عشرة أعضاء تحت
رياسة الوزير ابن اسماعيل وأعضاؤهم الوزراء والمستشارون وبعض رؤساء
الادارة ولما بلغ لاهل الشريعة ذلك قالوا ليس قصدنا المتوظفين لانهم دائما تحت
الامر ولا خبرة لهم بما فى أطراف القطر وانما المراد أن يكون المجلس من المتوظفين
والعلماء واعيان من البلاد والعربان ولا أقل أن يكون عددهم ثلاثين عضوا
وانهم لا يقصدون الا مصلحة البلاد لانهم ليس لهم غرض الا هناء القطر وهناء الوالى
وقيل أن قنسل فرانسا صرح بانه لا يتعرف بالمجلس وانه ان أراد الوالى الاستعانة بعساكره
لردع الطالبين فهو حاضر له حيث أن طريقة الوزير هى التى تبلغه الى قصده كما ذكرناه
فى محله ثم لما بلغ الوالى جواب العلماء أرسل اليهم بانه يزيد اثنين من رؤساء المتوظفين
وأن هذا المجلس ينظر فيما يقتضيه الحال من الكيفية و يجرى العمل به وكان فى اثناء
هاته الايام دبت السعاية بالترغيب لبعض العلماء والترهيب لهم من تداخل الاجنبى
بلا مستند فرضى عددهم بذلك وكان سببا فى تمكن الغيض على من زيد حيث انتهى رضاء
المقترحين عند ذلك وصرح الوالى بما يشف عن ذلك والله المطلع على السرائر ثم جعل
هذا المجلس فى نفس الامر اذا اجتمع يعرض عليه ما يريد الوزير والاغلب أن يكون
المعروض هو بعض النوازل التى تعرض بقلة ولما كان أغلب الاعضاء يسايرون الوزير
لم يظهر لوجوده من أثر اذ لا يتداخل فى نصب ولا فى عزل ولا سيرة عامل او رشا وشاهد
ذلك الخارج فانه لم يمض عليه شهران حتى وردت الرسل على شيخ الاسلام بان يتشفع فى
الجانى على الشرع فلم يوافق جهرة بل أظهر زيادة الامتناع ثم سودت سرا بطاقة الى
المنفى ليكتب على نمطها مكتوبا لاهل المجلس الشرعى ولما ورد مكتوبه على نحوها

كتبوا

كتبوا الى الوالى مستشفعين بعد ان امتنع بعضهم وقيل عندما علم بذلك ليت شعرى
ما هو وجه كتمهم مع علمهم بالحقائق ومنها انه شرع الوزير اثر ما تقدم فى بناء دار
شيخ الاسلام المذكور بتونس وكذلك داره بجبل المنار وكثر تردد تابعه الجانى المذكور
عليه حتى نشأ عنه قيل وقال يسوء جانب العلم والخطة ومنها انه اشتكى بعض
السكان فى مطالب له من تابع الوزير المذكور الى القاضى فلما دعى للجواب امتنع وورد
الاذن الى القاضى الشرعى بان المذكور لا ترفع نوازله الا للوزارة فليس له النظر فيها
وقد علمت سابقا ما هى حالة احترام الشريعة وحكامها ومنها بناء محل للكرنتينة
أى الاحتماء للواردين من الاقطار التى يكون بها مرض عام معدى وبنى ذلك بحسب
رغبة الاجانب وحرص رئيس أطباء الوالى وجعل له طبيب خاص وكان بناؤه باحدى
المراسى المسماة غار الملح ومنها حصول الهرج فى القبائل بالجهة الغربية حتى ادعى
قبائل الجزائر التعدى من قبيله وشنانه التونسية فأرسل عليهم الوزير بعض أتباع
الحكومة وشاع انهم اغتصبوا منهم نحو ثمانمائة راس من البقر أعطوهم الى قبائل
الجزائر وأخذوا لانفسهم وكبيرهم خمسمائة راس من البقر ومنها ان تابع الوزير
بن اسمعيل استلزم لزمة الصاغة أى دخل الحكومة مما يؤخذ على المصوغ المباع من
الفضة فادعى على أحد أهالى القيروان الاغنياء من الذين يتعاطون التجارة بانه أخفى
ما يلزم الاداء عليه فألزم وسجن وكاد أن يفلس وزاد لنفسه وجها للسعاية فى المستقبل
ومنها ان شركة طليانية طلبت مد سلك كهربائى بين تونس وايطاليا ولم يجبها الوزير
الى ذلك وكان ذلك سببا فى تعكير المخالطة مع ايطاليا بدعوى ان شروط أصل انشاء
التلغراف لا يقتضى منعهم ومنها جعل اداء على العجلات التى فى الحاضرة حسبما هو
جار فى سائر البلدان لاصلاح الطرق ومنها منح لجنة فرنساوية لانشاء مرسى فى شاطئ
البحيرة بالحاضرة بعد ان طلبت ان تكون المرسى حول حلق الوادى مع انشاء طريق
حديدية اليها من الحاضرة مارة على طريق رادس فمانعت فى ذلك الشركة الطليانية
التى اشترت من الشركة الانكليزية الطريق الحديدية الواصلة بين تونس وحلق
الوادى المارة على العوينة مستندة الى شروطها وكاد ان يتفاقم الخلاف الى ان أرسى على
ما تقدم ومنها منح اللجنة الفرانساوية المذكورة وهى صاحبة طريق الحديد الواصلة
الى الجزائر بان تنشى طريقا حديدية الى الساحل وأخرى الى ابن زرت وان تستبد
بالطرق الحديدية فى المستقبل الى أى جهة ومنها ان أحد أقارب صهر الوزير ابن

اسمعيل قتل حلاقا باطلاق مكحلة عليه فى دكانه لمشاجرة بينهما ولم يقتص منه ومنها ان أحد التجار الطليانية كان يدعى بان جده كان أتى لمحمود باشا الذى توفى سنة ١٢٣٩ بشئ من السلع ولم يأخذ ثمنه وهو نحو خمسة عشر ألفا وكانت نشرت النازلة مرارا ولم تقبل حتى عند الكومسيون المالى المختلط وحفيد ذلك التاجر هو لامير اللواء الياس المتقدم ذكره فاعطى حينئذ ما يطلب ولما كانت مالية الحكومة ضيقة والكومسيون غير متعرف بالدعوى أعطى الطالب أرضا قيل ان قيمتها نحو ستين الفا ولما ورد الاذن من الوزير على الكومسيون بان يأذن وكيل أملاك الحكومة بتسليم الارض المذكورة للطالب توقف المحتسب العام الفرنساوى فى وجه ذلك ولكن قد تمكن الطالب من الارض ومنها ان فى راس سنة ١٢٩٧ صنع بعض أتباع الوزير مصحفين على النحو الذى تقدم فى وزارة خير الدين وقدموهما للوالى والوزير بن اسمعيل فى موكب باسم الاهداء من الاهالى وانظر ماهى الخصلة التى كانت سببا لذلك ثم فى ربيع الاول من تلك السنة قدموا للوزير أيضا مثل ما تقدم سيفا مجوهرا ثم فى شوال من تلك السنة قدموا له أيضا دواة مجوهرة بقلمها باسم اليهود من الاهالى لكن الخصلة التى استحقت ذلك لم تعين ولا فى واحدة من تلك الاشياء ومنها ان أحد المهندسين الفرانساويين كان ادعى انه مطالب للحكومة بمال مدة وزارة مصطفى خزندار وتوممات مطالبه فلم تقبلها الحكومة وكذلك عند انتصاب الكومسيون المالى عرضت عليه تلك المطالب واستقر الامر على عدم قبولها ومهما ادعى بها لم تقبل ولا وجدت فناسله مستندا لتدعيم دعواه ففى وزارة الوزير بن اسمعيل قبل ان يجعل فيها تحكيم وعقد لذلك مجلس مختلط من التونسيين والفرانساويين ورئس عليه أولا أحد رؤساء الاحكام فلون الذى تقدم ذكره فى نازلة دى صانس غير انه لم يقبل كانه علم غيرملائمتها لما هو عليه فقدم للرياسة غيره وصدر الحكم على الحكومة باداتها المذكور نحو ثلاثمائة ألف وخمسة وخمسين ألف فرنك ومنها ان التاجر الصباغ الذى تقدم ذكره أيضا كانت له دعوى من نوع السابقة ولم تقبل لا من الحكومة ولا من الكومسيون المالى فكذلك الوزير بن اسمعيل قبل فيها التحكيم وصدر الحكم باداء الحكومة نحو أربعمائة ألف وخمسين ألف فرنك والحال ان الحكم كان صدر من الكومسيون المالى الذى هو مختلط من تونسيين وفرانساويين وطليانيين وانكليزيين وفيه أحد كبراء الموظفين من دولة فرانسا وانتصابه باتفاق الدول المذكورة على التراضى به فى جميع النوازل المالية ورده وكلا

من المطالب المارذكرها واستمرا لعمل بذلك أزيد من عشرة سنين مع مافيه الحكومة من العسر المالى كما تقدم شرحه وأضيف اليه استهاب مابقى على ملك الحكومة من مهم الاملاك للوزير بن اسمعيل حتى تم مابقى مما يعتبر منها عندما تزايد له مولود بل حتى الاحباس التى أوقفتها الحكومة على المدرسة الصادقية اراد ان يأخذ منها أهمها هو وبعض من المقربين عنده بوجه الانزال أى الكراء المؤبد وعند امتناع القاضى من ذلك جعلت الاوقاف المذكورة من أملاك الحكومة وخوطب بذلك رئيس الفتوى من المالكية فانزلوها على يده فالعمال يشترون الوظائف والاهالى تتحمل أعمالهم المالية والسياسية والشرعية على ماتقدم ذكره وآخر المنح التى بلغتنا انها حصلت فى هذا العهد ان وقع الالتزام الى دولة فرانسا بان لا يحدث شئ جديد فى القطر من الاعمال العامة النافعة الا بعد عرضه على الفرانساويين فان لم يوجد منهم من يريد عمله فاذ ذاك يسوغ ان يباشره غيرهم بحيث وقع التقييد فى ذلك بارادتهم وهذه خلاصة التاريخ فى القطر التونسى الى هذا العهد وهو مبدؤ سنة ١٢٩٨

تنبيه قبل طبع هذا الجزء طرأ الحادث العظيم على القطر وسنفرده بذيل خاص فى الجزء الثالث ان شاء الله تعالى عند الكلام على سياسة فرانسا الخارجية

(فصل فى بعض عوائد أهل القطر وصفاتهم)

(مطلب فى الاوصاف العامة) قد تقدم ان السكان مسلمون الا ماقل من يهود ونصارى الذين مجموعهم نحو مائة ألف وأما التبصر فى أحوال الديانة فانما هو فى المدن وبعض القرى وأما فى القبائل الساكنين بالخيام فلهم معرفة اجمالية خصوصا ذوى الثروة والذين تنشأ فى أوطانهم زوايا لبعض الصالحين فيرشدهم مشايخ الطرق وأما باقيهم فيعرفون من عقائد الاسلام الوحدانية لله ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم صادقة وربما كان بعضهم لا يعرف عدد أوقات الصلوات وغيرها من الفروض العينية وكانى باثمهم يتحمل به من يعلم حالهم ولا يرشدهم والكل على مذهب الامام مالك رضى الله عنه الا القليل منهم على مذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه والجميع أهل سنة الا بعض أهل جربة فهم على مذهب الاعتزال ولهم علماء ومساجد خاصة وللاهالى تعظيم لشعائر الدين ومنها الحياء فان الابن سيما من الاعيان لا يجلس أمام والده الا باذنه ولا يستنشق التبغ ولا يدخن به أمامه أبدا وكذلك أمام والدته هذا فضلا عن الكلام الفاحش أو خطاب زوجته بل حتى اذا كان له ابن صغير فانه لا يحمله ولا يلاطفه أمام

والديه ويقبلون أيدي والديهم في السلام عليهم وربما كان ذلك كل صباح وهي تحية التلامذة لمشايخهم وتحية السادات الاشراف ولجميع الاهالي تعظيم كامل لهم وأما سلام الاكفاء فهو التقبيل في الكتف الا الاعراب فان بعضهم يقبل يد بعض أو رأسه ولا تكاد تسمع أحدا من ذوي المروءة يغني فضلا عن النساء اللاتي صوتهن عورة بل لهاته الصناعة أناس خاصون وفيهم من النسوة عاهرات وهن يسكن بديار في حارات مخصوصة وما ذكر من الغناء ومثله الرقص خاص بالحاضرة وأكثر البلدان بخلاف الاعراب فعندهم ذلك غير معيب كما ان الاكل في الطريق أو في الاماكن المكشوفة للمارة معيب تسقط به العدالة وكذلك دخول القهاوي تتجنبه أصحاب المروءة حتى ان الاعيان ليس لهم محل اجتماع عمومي وغاية تفسحهم بالمشي في الطرق النزهة أو أماكنهم الخاصة مع أحبابهم نعم يتساهلون في دخول القهاوي في أماكن النزهة خارج الحاضرة ولكن أعيان الاعيان لا يدخلونها أيضا والتدخين بالتبغ لا زال معيبا عند ذوي المروءة وليس ذلك الا مجرد اتباع للعادة والا فلا فرق بينه وبين النشوق مع كثرة استعمالهم لهذا جهرة وحكم الجميع شرعا على مذهبنا الحنفي الجواز وكذلك المعمول به من المذهب المالكي لابتنائه على مسئلة الاصل في الاشياء الاباحة وهي مسئلة خلافية فقالت طائفة الاصل الاباحة حتى يرد المحرم وقالت طائفة بالمنع حتى يأتي المبيح وقالت طائفة بالتوقف والصحيح الاول لقوله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا فجميع ما في الارض خلق لمنفعتنا فنستعمل كل شيء في محله الا ما ورد فيه المنع ويشهد له أيضا قول النبي صلى الله عليه وسلم ان أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته وقوله عليه الصلاة والسلام دعوني ما تركتكم فانما أهلك من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم وكل من الحديثين منقول في الصحيح وكان ورود الحديث عقب السؤال عن أشياء لم يرد فيها حكم بالتحريم فدل على الاباحة وهذا التبغ لم يكن معروفا زمن البعثة وانما عرف بعد الاكتشاف على أمريكا كما تقدم فيكون حكمه هو الاباحة الاصلية وكان الاستحياء من استعمال التدخين مطلقا أو النشوق أمام الوالد والكبراء مبني على أصل آخر غير التحريم وهو انه لما كان فيه خلاف فالورع تركه اذ الورع هو ترك ما لا بأس به حذرا مما به البأس ولما كان الاصل في المؤمنين هو السلوك على أكمل الصفات فكأن أهل تونس يستحون من ترك الورع أمام ذوي المقام كما انه لا يوجد في الحاضرة أماكن

للاهي

للاهي أي الملاعب الا في رمضان فتكون فيها أماكن للصبيان ليلا يلعب فيها بتصاوير من وراء الستار بالخيال من الصور في نور المصابيح ويسمى المكان خيال الظل وربما أحضر فيها نوع من السماع وصورة اللعب هي تشخيص حكاية بصور من الجلد على هيئة المحكي عنه واللاعب يتكلم على لسانها والجميع من وراء الستار بحيث يشخص للناظرين من خارج الستار كان الواقعة مشاهدة وان كانت الصور صغيرة طولها قدر شبر والاغلب أن تكون الاماكن وسخة ولا يدخلها الا الصبيان وبعض من لا مروءة له من الرعاع لتقضية الاوقات فيما لا فائدة فيه سوى السخرية والضحك واضاعة الزمان والاغلب في الحكايات أن تكون مضحكة مما يدركه الصبيان وربما شخصوا المستحيلات العادية كالغول والشيطان اذ هذا لا يرى ولا تعرف صورته بحيث يصح أن يقال ان تلك الملاهي لا ثمرة فيها الا مجرد لهو الصبيان وكان الاصل في اساغتها ما نص عليه فقهاؤنا في كتاب الحضر والاباحة من جواز شراء اللعبة للصبيان فقاسوا عليه اتخاذ ملاهي لهم ليلا في رمضان لكي يسهروا ولا يستيقظوا مبكرين فيوقظون والديهم اذ عادة الناس في رمضان هي السهر أغلب الليل ومنهم من يستغرق جميع الليل بحيث لا يشتغلون الا قرب نصف النهار وكان هاته عادة مبنية على العبادة اذ قيام ليالي رمضان بالعبادة مندوب اليه بيد أن الكثير يشتغل بالملاهي كسماع آلات الطرب في القهاوي أو لعب الورق المسمى بالكارطة وهو الكثير ولهم منه أنواع شتى أشهرها ما يسمى بالترسيتي أو لعب النرد أو الدامة أو الشطرنج وهي الالعاب الموجودة في القطر ويوجد أيضا لعب المنقلة والخربقة بقلة في الحاضرة وبكثرة في غيرها لكن الاعيان انما يسهرون في رمضان أو غيره بديارهم أو ديار أصدقائهم وبعضهم بعد صلاة التراويح يسردون كتابا في السير أو الحديث ثم يتسامرون بالكلام وبعضهم يتعاطى أحد الالعاب المذكورة وأما في غير رمضان فعموم الناس يبكرون الى أشغالهم ولا يرجعون الى ديارهم الا عند الظهر للفطور ثم يعودون الى اشغالهم الى قرب الغروب وبعضهم ممن تكون ديارهم بعيدة عن محل اشغالهم يفطرون في حوانيتهم ويوجد في حارات الافرنج ملاهي على نحو ملاهي أوربا كما يوجد فيها قهاوي كثيرة على نحو قهاوي أوربا ومنازل للمسافرين مثلها ولكن أعيان الاهالي يتحاشون عن الدخول الى الجميع وان كانت مخالطتهم مع الاجانب وغيرهم حسنة وقد كان لعموم الاهالي ولوع بالفروسية ولهم في مسابقة الخيل مواكب تسمى ملاعب يعقدها كبراء الحكومة أو كبار العمال ومن له انتساب الى الاعراب

خارج الحاضرة في احدى الجهات المتسعة ويستدعون اليها الفرسان فيأتون باحسن
الملابس والسروج المزركشة بالذهب والفضة والسلاح مثل ذلك وتارة يلبس الفارس
على رأسه شيأ من ريش النعام يسمى عروج والاصل فيه تعليم النبي صلى الله عليه
وسلم لسيدنا حمزة في احدى الغزوات بريش كما في عيون التواريخ والحاصل ان لبس
الفرسان جميل جدا ولهم براعة في الحركات الحربية فترى الفارس في حال السباق
يطلق ويعمر مكحلته عدة مرار وتارة يطلق أربعة مكاحل كل بجعبتين ثم يطلق قرابينه
ثم أربعة طبانجات ثم يخترط سيفه وجميع ذلك السلاح محمول عليه ولا يعطل له شيأ من
خفة حركاته وتراه اذا اخترط السيف يصير بين كروفر وبعضهم في حالة السباق يدلي يده الى
الارض فيحمل منها قبضة من تراب وبعضهم يفرش له بمحاذاة ميدان السباق رداه
من حرير في نهاية الصفاقة ففي حالة الركض النهائي يمد يده ويرفع طرف الرداء ثم وسطه
ثم آخره وبعضهم يركض فرسه وبينما هو في حالة السباق واذا بالفارس يقف على رجليه
فوق السرج ويطلق البارود ثم يجلس ويلتصق بدير الفرس ثم يلتصق بحزام الفرس ثم
يقف على رأسه ويديه فوق السرج ورجلاه الى فوق وعليه مكحلة ثم يدفع المكحلة
ويلتقفها بيده ويجلس ويطلقها كل ذلك والحصان في نهاية ركضه وجميع أعماله في
بعض دقائق وهذا العمل الاخير من النادر في الفرسان ومنهم من يلعب في دائرة لا يتجاوز
قطرها عشرة اذرع والحصان في حالة الرباع بل رايت من يركب على حصانه ويركز
الحصان رجليه في الارض ويرفع يديه معا ويلتفت يمينا فيطلق فارسه القرابينة ثم يرفع
يديه كذلك ويلتفت شمالا فيطلق فارسه القرابينة أيضا والحال انه عمرها في حصة رفع
الحصان يديه ويستمر ذلك كذلك بالتتابع نحو نصف ساعة وليس بين الطلقة والطلقة
الا بضع ثوان من الدقائق الزمانية على غاية من السرعة والتتابع وهذا أيضا نادر ومنهم
من يخترط السيف ويصير مع راجل أو فارس مثله في غاية الطعان والكر والفر والحاصل
انهم يشخصون حالات الحرب بالخيل على أنواع شتى وتكون اذ ذاك طبول الحرب
تعزف ومعها مزامير للعربان وذلك أعظم العاب الاهالي التي يفتخرون عليها ويتبادرون
في اتقانها وذلك مبني على أمر ديني وهو ما ورد من ان كل لهو حرام الا ثلاث منها ملاعبة
الفارس لفرسه وورد أيضا الحث على الفروسية وعلى السباق وأبيح فيه المخاطرة اذا
كانت مع ثالث فلذلك كانت هاته الخلة مما يتنافس فيها من رجال الحكومة
وغيرهم في جميع القطر لكن في هاته المدة الاخيرة تناقص الامر منذ كثرت الكراريس

وربما

وربما صار الكبراء يتنزهون عن اللعب بخيلهم جهرة نعم بقي ركوب الخيل مرغوب فيه
كما ان الصفات الاولى لا زالت عامة في البلدان والاعراب وهو الحق لانها من صفات
الرجولية والدين ومما يشملها قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط
الخيل) وهاته الخلة تستلزم الرماية التي هي من مشمولات القوة المأمور بها في الآية
الكريمة وقد تجرد منها أغلب أهل الحاضرة حتى ان بعضهم لا يكاد يستطيع ان يطلق
طبانجة كما انه لا زال في الحاضرة وبعض البلدان تعليم الخيل والبغال من نوع الهملجة
وهي ان يرفع الحيوان يدا ورجلا معا من أحد شقيه على الاستقامة ثم الشق الآخر
ليكون سيرها لينا لا يتعب الراكب بخلاف الخبب ثم يتقنون ذلك التعليم الى أن يصير
الحيوان به يجاري الراكض ولهم في ذلك اعتناء بحيث تجد منهم جماعات يخرجون
كل عشية صيفا وخريفا الى حد الاماكن القريبة من الحاضرة النزهة كسيدي فتح الله
قرب شوشة رادس أو منوبة في قهوة سيدي ابن الابيض أو سبالة الاحواش وبعد
الاستراحة هنالك يركبون ويتسابقون بالسير المذكور وربما اعتنى بعض غير الاعيان
حتى بالمسابقة على الحمير بالسير وقد يوجد بعض منها يسابق الخيل والبغال مع ان هاته
يمكن ان تجاري الحصان في ركضه اذا لم يكن شديد الجري والخيل على حسنها في القطر
يعتنون بتربيتها وتهذيب أخلاقها كي تصير مساعدة للفارس في جميع أغراضه ثم
ان الاهالي ينقسمون الى ثمانية أقسام فالاول الاصليون من البربر والثاني العرب
وهم الذين قدموا عند الفتح ثم بعده على أجيال عديدة والثالث الاندلسيون
وهم الذين قدموا عند تغلب الاسبنيول على بلادهم والرابع الترك وهم الذين وردوا
عند الاستيلاء على تونس ثم من ورد منهم بعد ذلك والخامس السودان وهم الذين
جلبوا من دواخل أفريقية لبيعهم والسادس الجزائريون الذين رحلوا بعد استيلاء
الفرانسيس على الجزائر والسابع اليهود وهم قدماء في السكنى والثامن الوافدون
من أوربا فالاقسام الستة الاول تخالط نسلهم ولم يبق تمييز بينهم الا قليلا من البربر في
جهات الاعراض لا زالوا يستعملون لغتهم وكذلك قليل من السودان متميزون بلونهم
وقليل من أهل الجزائر يتميزون بمجرد نحلتهم وانتمائهم واللون الغالب على الجميع هو
لون البياض المشوب بسمرة ومنظرهم جميل يكثر فيهم الحسن وهم أقوياء ليمون أهل
مروءة وتواضع وبشاشة وحسن معاشرة

(مطلب في التجارة) اعلم ان أغلب الاهالي تقاصروا في هذا الميدان وقصارى

الامرانهم يتجرون فى البضائع التى تنفق فى البلاد الاسلامية باخراجها اليها ويجلب
ما يروج من بضائعها فى القطر مع ان أغلب الخارج منه والمجلوب اليه من بلاد أوربا
وكله منحصر فى الاوربا ويين الا نادرا من الاهالى ثم ان قيمة التجارة بين الداخل والخارج
لا يتجاوز معدلها الاربعين مليون فرنكا فى السنة فاما البضائع الخارجة فهى
الحبوب من قمح وشعير وفول وغيرها وكذلك الزيت والصوف الساذجة والمنسوجة
والقطن والاسفنج وبيض السمك ولحم نوع منه ومنسوجات الحرير والقطن
والشاشية وأشياء أخر زهيدة وأما البضائع الداخلة فهى كثيرة فمنها المنسوجات
القطنية والحريرية والصوفية وانواع الاخشاب والحديد والقرمد والسكر والقهوة
وأوانى النحاس وغير ذلك مما هو محتاج اليه فى الحضارة ولا وجود له من نتائج البلاد
وحمل السلع الى خارج القطر فى السفن البحرية وقد أرسى باعظم مراسى القطر
وهو حلق الوادى فى سنة ١٢٩٥ مايتان وسبعة وخمسون باخرة وأربعمائة
وثمانون سفينة شراعية كلها للاجانب الا عددا يسيرا وأغلب الاجانب رواجا
فى التجارة هى التجارة الفرانساوية والطليانية وأما حمل السلع فى البر فهو على ظهور
الابل والخيل والبغال والحمير والعجلات المسماة بالكرطونات وواسطة المواصلة هم فرق
من تجار القطر يسمون بالجمارة تكون لهم دواب وافية ويكونون ذوى عرض وامان تسلم
اليهم التجار البضائع وهم يبلغونها الى جهاتها بعدت أو قربت ولكل جهة جمارون
مخصوصون ولا يكون ذلك الا بين البلدان وأما القبائل الاعراب فلهم قوافل يجتمعون
عند قصد احدى البلدان أو الاسواق التى تقام فى أيام من الاسبوع باحدى الجهات
كسوق الخميس قرب الركبة وامثاله ويحملون على دوابهم ما اشتروه ويرجعون الى
أماكنهم ولما كانت الطرق الصناعية قليلة تعطل أغلب التجارة زمن الشتاء فى
دواخل القطر لكن الطريق الحديدية المارة الى الجزائر سهلت التجارة الى الجهات
الغربية كما انه رتبت بواخر للبريد والسلع بين مراسى القطر الشهيرة زيادة على البرد التى
هى ثمانية تأتى أسبوعيا من أوربا فاثنان الى فرانسا والجزائر واثنان الى ايطاليا
وأربع الى مالطا وقد يأتى غيرها على غير انتظام وليس للاهالى من السفن شئ الا قليلا
من ذات الشراعى لاهل جربة وصفاقس والساحل

(مطلب فى ترتيب الاحكام والادارة) الآن الوالى يجلس يوم السبت فى كل اسبوع غالبا
بمحل من قصر الادارة الكائن فى بلد باردو ويسمى هذا المحل بالمحكمة وهو بيت كبير
مستطيل

مستطيل وبصدره كرسى ذو درج مموه بالذهب وعليه تاج معلق والدرج مكسوة بالحبر
نوع من منسوج الحرير الثمين الغالى يجلس عليه الوالى ويوضع بجنبه زوج طبانجة
ويقف عن يمينه وشماله على الدرج من حضر من اهل بيته ويقف الوزير عن يمينه من
اسفل الدرج بحيث يكون مواجها الى الجهة اليسرى من الوالى ويليه بقية الوزراء على
حسب اسبقيتهم فى الوظيفة ثم يليهم كبراء العساكر النظامية ثم رؤساء العساكر الخيالة
غير النظامية المسمون بالاغوات ثم العمال والاطاباشية والكواهى أى الصنف الثانى
والثالث من رؤساء العساكر الخيالة الغير النظامية وعند نهاية الصف عن اليمين يتممون
الصف عن اليسار فان زادوا جعلوا صفا ثانيا وراء الصف الاول ويجلس باشكاتب على
مسطبة على يسار الوالى مقابلا للاول الصف الايمن ثم يليه مسطبة طويلة يجلس عليها
كتبة من أقسام الوزارات على حسب رتبهم ثم يقف تجاه الوالى عن بعد فى آخر الصفوف
مخوصة رجال يسمون شواش السلام والشطار بلباس أحمر مقصب بالفضة وعلى رؤسهم
شواش حمر وشراباتها فضة وعليها مما يلى الجبهة قطع من النحاس الاصفر ومغروز فيها
أنواع من ريش أجنحة الطير الطويل وبايديهم معاول طوال من النحاس الاصفر
يركزونها ويتكؤن عليها وعند جلوس الوالى فى ذلك المجلس يرفع صوته كبير هؤلاء
الشواش بكلام باللغة التركية معناه دعاء بالنصر والتأييد للوالى ثم يرفع صوته بقوله
سلام ورحمة الله ثم يقف وراء هؤلاء رؤساء البوابة أى اصحاب الباب وتعزف الموسيقى
العسكرية عند دخول الوالى لذلك المحل ويأذن اذ ذاك الوالى بادخال أصحاب الشكايات
فيرفع صوته رئيس البوابة بقوله باش حانبه اى يا رئيس الحوانب ادخل وهو الترجمان
بين الوالى والمشتكين لا لكون الوالى يحتاج الى فهم لغة المشتكين بل لكونهم بعيدين
فى الوقوف عنه وربما يكون بعضهم لا يحسن الالقاء لدعوته لرهبة أو انخفاض صوته
فيبلغ باش حانبه للوالى معنى كلام المشتكى وهاته الوظيفة لها كبيران احدهما من
العرب والآخر من ابناء الترك وللاول تقدم على الثانى فالمشتكى ان كان من المالكية
يمسكه الاول وهو الذى يتولى الوساطة فى امره وان كان من الحنفية رجع الى الثانى
ولكن لهؤلاء هيئة أخرى فى القاء الشكاية فان باش حانبه لا يمسكه ويقدمه الى قريب
من الوالى وبعد استقرار باش حانبة بنوعيه أمام الوالى يرفع صوته بقوله باش بواب
شكاية أى يا كبير أصحاب الباب أدخل المشتكين فيرفع صوته هذا خارج باب المحل
بقوله ياسعد ثم يدخل المشتكون فردا فردا على حسب الصدفة وتقدم المشتكى

بالازدحام وربما صار التقديم باعطاء شيء من المال لكنه لا يتجاوز عشرة ريالات فادونها
وكل مشتك فى حال شكايته فى ذلك الموكب الهائل زيادة عن باش حانبه المقبض به تكون
محدقة به الحوانب والاوظاباشية واذا كانت له حجة مكتوبة قدمها واخذها من يده
باش حانبة ومكنها الباشكاتب و يؤخر اذاك المشتكى و يؤتى بغيره وبعد قراءة باشكاتب
للحجة يقول مضمونها للوالى مع الاشارة الى صحتها أو فسادها فيأمر الوالى بما يراه وتنفصل
بذلك النحو عدة خصومات فى نحو ساعة أو ساعتين اذا طال المجلس وربما أنهيت فى ساعة
واحدة ستون نازلة بلا تعقيب للحكم وكثيرا ما يستشير الوالى وزيره سرا فى النوازل أو يسأله
عما يعلم فيها كما ان الوزير كثيرا ما يشير عليه فى بعض النوازل ابتداء و كثيرا ما يأمر
الوالى بارجاع بعض النوازل الى الشرع أو الوزارة واذا كان هنالك بعض من يحكم عليه
بالقتل فانه يؤخر دخوله الى آخر المجلس والغالب ان يكون هذا النوع اما حكم عليه فى
مجلس الشريعة ورفع للوالى لينفذ الحكم المكتتب بعد اجراء جميع اللوازم الشرعية
وطول مدة المناضلة والمدافعة لدى المجلس الشرعى أو يكون قد حررت نازلته فى
الوزارة وفى النادر ان يؤتى بالمشتكى به من ذلك النوع بديهة للمحكمة و يصدر الحكم
بقتله فى الحين فيخرج فى اثر المحكوم عليه بالقتل أحد الشطار أى الجلادين و يقطع رأسه
قدام باب باردو أو باب العلوة التى فيها الوالى او يشنق هنالك فى مشنقة من خشب وهو ان
يربط عنقه فى حبل وتكتف يداه و يعلق من عنقه فيختنق وتارة يعلق كذلك فى سور
المدينة القديم قرب باب سويقة وعند انتهاء المشتكين أو ملل الوالى يقول يا باش حانبة
عافيه فيرفع صوته بها باش حانبة فيرفع صوته بها باش بواب و يقوم الوالى و ينفصل
الموطن فيجرى اذذاك باش حانبة ما أمره به الوالى من ارسال الاعوان لجلب المدعى
عليهم أو خلاصهم وكذلك باشكاتب يحضر المكاتيب التى صدر بها الاذن ولا تحضر الا من
غد فيختمها الوالى على نحو ما سيأتى وجميع من حضر فى ذلك الموكب من المتوظفين
يكون بلباسه الاعتيادى الا من له رتبة عسكرية فانه يتقلد سيفا فى منطقته وقبل دخول
الوالى للمحكمة يجلس فى بيت أنيق فى سراية الحكومة على كرسى أصغر مما سبق ويدخل
عليه الوزير وحده أو أنه يأتى معه من قصر سكناه ثم يجلس الوزير عن يمينه وأهل بيت
الوالى عن شماله وقوفا ثم يأذن للمتوظفين بالدخول فيدخل أولا الوزراء وبعض مشيخة
المتوظفين الكبار المتقاعدين وكل من وصل منهم الى الوالى قبل يده وأذنه بالجلوس
فيجلسون يمينا وشمالا وأعلاهم شمالا باشكاتب وأصحاب اليمين يجلسون دون الوزير ثم

يدخل

يدخل كبار المتوظفين على صف واحد وكل من انتهى الى الوالى قبل يده ورجع خارجا
ثم الذين يلونهم ثم وثم الى ان يصل الوالى اصغر المتوظفين كالاعوان الذين يرسلون لجلب
المدعى عليهم والهيئة المتقدمة فى المحكمة هى الهيئة فى سائر المواكب الكبار كالاعياد غير
ان هاته تكون فيها الناس باللباس الرسمى المزركش بالفضة والنياشين وتكون ايضا
فى محل آخر أكبر من المحكمة وهو بيت عظيم يصعد اليه بدرج كثيرة مكسوة بالحلف نوع
من المنسوج الصوفى الاحمر والبيت مفروش بالزرابى والستائر الحريرية الرفيعة
وكرسى الوالى أكبر وأضخم من السابق والكتاب لا يجلسون فى هذا الموكب والناس
كلهم وقوف ومتولى ادارته هو أمير لواء العسة وعوضا عن دخول المشتكين يدخل
المعيدون أفواجا أفواجا على نحو ما تقدم فى تقبيل يد الوالى من المتوظفين و يجرى ذلك
على كل القادمين من جميع المتوظفين وأصحاب الرتب العسكرية النظامية وغيرها
والاهالى والتجار الا أهل المجلس الشرعى وخواص السادات الاشراف والمدرسين فان
الوالى يجلس لهم مجلسا خاصا بعد الموكب العام بحصة يسيرة فى بيت أنيق أسفل الاول
ويدخل عليه كل فرقة من الفرق الثلاث وحدها واولها أهل المجلس الشرعى معا الاول
فالاول فيقف اليهم و يتقدم لهم خطوات و يتعانقوا ويقبل كل منهم كتف الاخر ثم يجلس
و يجلسون الحنفية عن اليمين والمالكية عن الشمال و يؤتى اليهم باطباق من الفضة
فيها شيء من الحلو و يطعمه الوالى معهم ثم يرشون بالطيب ويقرؤن الفاتحة ويقوم الوالى
لوداعهم و يقبلونه أيضا مثل ما صار عند دخولهم و ينصرفون وهكذا غيرهم غير انهم
لا يقوم لهم الوالى و يقبلون ذراعه الا بعضا من السادات الاشراف فانهم يقبلونه مثل اهل
المجلس الشرعى و بعض المدرسين من الطبقة الثانية يقبلون كفه كسائر الناس وكذلك
لا يجلسون ولا يأكلون وانما بعد فراغ آخرهم من التقبيل وأولهم وقوف يمينا وشمالا
يقرؤن الفاتحة و ينصرفون وهكذا كل فرقة دخلت عليه فى الموكب الاول الا المتوظفين
فانهم يقفون و يزدحم بهم الموكب لانه يجتمع فيه أغلب المتوظفين ولو من جميع جهات
القطر والذين يقفون هم أصحاب الرتب من العسكرية أو الكبار من غيرهم وموكب المعايدة
يدوم يومان أولهما أعظم من الثانى وكلاهما صباحا وفى اليوم الثانى يقدم عليه قناسل
الدول و يدخلون عليه على حسب أسبقيتهم فى الوظيفة وكل منهم معه متوظفو قنسلاته
فيجدونه واقفا و يصافح القنسل و يتخاطبون بالترجمان بكلمات فى التهنئة والموكب
محتفل كما سبق ذكره الى أن يتم وافجلاس الوالى على كرسيه و يتم بقية الاهالى على نحو

ماسبق ولا يختص هذا الموكب باعيان الاهالى بل حتى أصحاب الصناعات وفى بقية
ايام يكون الوالى فى قصره لا يجتمع به الا الوزير الاكبر يوميا بل هو الآن ساكن معه
فى قصر واحد وفى يوم الاثنين قرب الزوال يقدم عليه الوزير ومن كان فى الوزارة
من المتوظفين واذا كانت هناك نوازل تلزم فيها المذاكرة أمام الوالى تكون فى أحد
ذينك اليومين أعنى يوم السبت والاثنين أو يدعوهم الوزير بالخصوص ليوم معين
وجميع الولايات انما تكون باذن الوالى وكتبه لرقعة فى ذلك تسمى أمرا وأما كيفية
ادارة الوزارة فقد سبق ذكرها فى الكلام على وزارة خير الدين باشا ولا زالت على تلك
الهيئة والمتوظفون يأتون فى بكرة النهار الى الوزارة يوميا الا يومى الخميس والجمعة وينفصلون
منها عند الزوال وعندما يأتى الوزير ويجلس فى البيت الخاص به يقدم الى السلام عليه
جميع كبراء الاقسام ثم يتوجه كل الى محل مأموريته وكل فى بيت خاص يجمعها قصر
واحد فى ناحية من قصر الوالى لادارة الحكومة ولكل من اقسام الوزارة كتاب
وأعوان وتكتب فى النوازل سجلات ويمضى الوزير على الرأى فيها ثم تعرض على الوالى
وهو يمضى على ما يراه الوزير وتسمى تلك السجلات معاريض وتجرى على مقتضاها
الامور وكثيرا ما تجرى بامر الوزير شفاهيا وترسل تلك المعاريض مع بطاقات الاوامر فى
ظرف مختوم ليمضيها الوالى بخطه فى المعاريض وختمه فى الاوامر ولكل عمل من الاعمال
التى مر ذكرها عامل خاص الا الحاضرة فحاكمها يلقب رئيس الضابطية والغالب أن
يسكن العامل فى محل عمله وله نائب يلقب بالخليفة وتحته مشايخ على عدد أفخاذ القبائل
ولكل عامل أعوان على حسب كبر عمله وصغره وترفع اليه الشكايات فيحكم فيها برأيه
وكذلك خليفته والشيخ عند مغيب العامل ولا يختص حكمهم بنوع من أنواع الخصومات
وانما الغالب ان نوازل صحة التملك فى غير المنقول والزواج والاوقاف والمواريث
يرجعون للحكام الشرعيين وهؤلاء لهم مجلس فى الحاضرة فيه قاض حنفى ومثله مالكى
ومفتيان حنفيان وخمسة مالكية ورئيس للحنفية يلقب شيخ الاسلام ومثله للمالكية
يلقب أحيانا أيضا بذلك وقد يزاد أو ينقص من عدد المفتيين ولهم محل خاص يسمى دار
الشريعة يجلس به يوميا صباحا القاضيان ومفتيان من المذهبين على التناوب وفى يوم
الخميس يجتمع جميع المجلس ببيت كبير وينضم اليهم رئيس الضابطية للشورة فى النوازل التى
يريد الخصم فيها العرض على المجلس ولا يرضى بحكم القاضى أو المفتى وحده ورئيس
الضابطية ينفذ ما يلزم فيه قوة الغصب الا القتل فانه يرفع الى الوالى وفى كل من بلدان

القيروان

القيروان وسوسة والمستير وصفاقس والاعراض وتوزر ونفطة والكاف وباجة مجلس
شرعى أقل ائتلافه من قاض ومفتى ورئيس فتوى يجرى به العمل مثل ما هو فى الحاضرة
لاجراء التحقيق فيها من مجلس الشريعة والمنفذ هو العامل كما أن فى نابل والمهدية وجربة
وقفصة مفتى مع القاضى وبقية الاعمال ان كانت كبيرة ففيها قاض فقط وللوالى
التصرف فى جميع النوازل نقضا أو ابراما وكذلك الوزير وأما القابض لاموال الحكومة
أو العمال فهو من اليهود الا قليلا من العمال لمجرد عادة فى ذلك ويتوظف منهم مترجمون
ونظار على الصاغة ودار السكة كما يتوظف من النصارى فى الترجمة وغيرها الا الاعمال
والوظائف الدينية ثم ان جميع العقود التى تحتاج الى الشهادة وكذلك كتب الحجج
وصكوك الاملاك لها طائفة من العلماء والمنتسبين الى العلم يوليهم الوالى ويسمون
الشهود أو العدول وهم بالخصوص الذين يباشرون ما ذكر ولا غالبهم حوانيت مفتوحة لهاته
الصناعة فى سائر البلدان وكذلك قبائل الاعراب ويوجد فى خصوص الحاضرة مجلس
بلدى لمصالح الطرقات والبناآت ومجلس مختلط للاحكام بين أغلب الاجانب والاهالى
فيما دون الالف ريال وجمعية للاوقاف ولها نواب فى سائر القطر ومجلس تجارة ومجلس
لحفظ الصحة أعضاؤه القناسل ومستشار الخارجية ورئيس المجلس البلدى وشيخ المدينة
ولكل من المدينة والربضين شيخ لبعض النوازل العرفية وحفظ الامن ليلا واما الضابطية
فهى موجودة غير منتظمة وأمور المعاش يقومها القاضى المالكى ولها أمناء
يطوفون عليها لحراستها من الغش وأما بقية المملكة فليس فيها الا الحكام المار ذكرهم
أو بعض امناء على الصنائع أو المعاش

(مطلب فى المعارف) الموجودة الآن ومناخها جامع الزيتونة من الحاضرة هى العلوم
الدينية ووسائلها وهى القرآن والتفسير والمصطلح والحديث رواية ودراية والعقائد
وأصول الفقه حنفية ومالكية وشافعية والفقه الحنفى والمالكى والمنطق والمعانى
والبيان والنحو والصرف والاشتقاق والعروض والادب والتاريخ والحساب والهيئة
والفلك واللغة ولكل كتب معينة للاقراء بما لها من الحواشى كما هو معين فى قانونها الذى
أحدث فى وزارة خير الدين باشا ومنها فنون وكتب لا بد من وجود اقرائها كما أن مواد
المطالعة والتحصيل سهلة بخزائن الكتب المعروفة فى الاسلام الا ما ندر مما هو فى اللسان
العربى وقليل جدا بالتركى والفارسى والفرانساوى ومشايخ جامع الزيتونة الموظفون
ولهم مرتب مائة وخمسون ريالا شهريا عددهم ثلاثون مدرسا والطبقة الثانية مرتبها

تسعون ريالا شهريا وعددها اثناعشر مدرسا والذين لا مرتب لهم وانما لهم اعانات سنوية مما يحصل من تخلف المدرسين والخصم عليهم من مرتباتهم عددهم نحو ستين وهم يزيدون وينقصون وعدد التلامذة بالجامع المذكور نحو الثمانمائة ويزيدون وينقصون أيضا وكيفية الدرس حسنة الالقاء والسؤال والجواب ولا يطول الدرس أكثر من ساعة كما توجد مدارس نحو الخمسة عشر مدرسة يقرأ بكل منها درس أو درسان من الفنون المذكورة وكذلك بعض جوامع بها قليل من الدروس وتوجد المدرسة الصادقية تقرئ مبادى فنون الديانة واللغة مما مر ذكره وتقرئ الفنون الرياضية واللغات التركية والفرانساوية والطليانية ومن الرياضيات الحساب والجبر والهندسة والهيئة والفلك والجغرافية ومبادى الطبيعيات وهى تعلم مجانا المائة وخمسين تلميذا وتقوم باكلهم نهارا ومنهم خمسون تقوم بهم حتى فى السكنى واللباس وكذلك يوجد مكتب أنشأه قسيسو الفرانسيس فى صان لويس يعلم العلوم الرياضية واللسان العربى والفرانساوى والطليانى وتلامذته لا يبلغون الخمسين الآن ويوجد مكتبان للفرانساويين أيضا بالحاضرة يسميان مكتبا الفرير تلامذتهما نحو اربعمائة وكذلك مكتب للطليان به نحو مائتى تلميذ وكذلك مكتب لجمعية اليهود به نحو تسعمائة تلميذ كلها تعلم مبادى الرياضيات واللغة الفرانساوية والطليانية والعربية ويعلم بعضا من الصنائع كشئ من الفلاحة والموسيقى ويعلم اللغة العبرانية وكلها تعلم الاغنياء بالمال وبعضها يعلم الفقراء مجانا كما يوجد فيها مكتب للبروتستنت من الانكليزية نحو مائتى تلميذ كما يوجد بالحاضرة نحو مائة واحدى عشر مكتبا للقرآن العظيم وللكتابة العربية نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة تلميذ وأما جهات القطر فلا يوجد الا فى قليل من البلدان شئ من العلوم الدينية كالفقه والعقائد على قلة والنحو وأشهر البلدان بذلك القيروان وصفاقس والمستير وسوسة وجربة والاعراض والكاف وباجة وابن زرت وبعضها نزيد بشئ من الادب والحديث كما يوجد فى بعض زوايا الصالحين بالقبائل شئ من القراءة والكتابة والفقه وجميع الجهات انما يقرأ فيها الفقه المالكى الا المهدية والمستير فيوجد أحيانا الفقه الحنفى أما غير ذلك فلا نعم توجد مكاتب للقرآن ومبادى الكتابة العربية فى جميع البلدان والقرى بحيث لا تخلو قرية عن ذلك فضلا عن بلد ويقرب جميع تلامذتها بنحو اثنى عشر ألف تلميذ لكن هيئة التعليم قاصرة للغاية فى هاته المكاتب الابتدائية ولو فى الحاضرة بحيث يمكن أن يبقى التلميذ فيها عشر سنين

ولا

ولا يحصل على حسن القراءة والكتابة وانما النجيب منهم يخرج حافظا للقرآن المجيد فقط وأما بقية التعاليم المار ذكرها فهى جيدة سيما العلوم الدينية بجامع الزيتونة نجبت منه فحول تزين المسلمين ولهم براعة فى كل الفنون سيما الانشاء بالعربية الذى كاد أن يشبه أسلوب الاعجام فى عدة جهات فان علماء تونس لهم براعة فى ذلك وهم محافظون على الاسلوب العربى ومحترزون عن اللحن وان وجد فى الكتبة أو الشهود من يلحن فذلك من تقليد الوظيف لغير المستحق كما أن أصحاب الاقلام أو الشهود مطلقا محافظون على الشعائر الدينية فى كتابتهم بحيث يفتتحون كتبهم بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد وآله ومن ولاه

(مطلب فى الصنائع) أهم صنائع الاهالى هى الفلاحة ومازالت آلاتها على الطرز القديم ويأخذونها عن بعضهم بالمشاهدة مع ان فيها كتبا عديدة بخزائن الكتب لا يلتفت اليها احد ولذلك انحطت رتبة هذه الصناعة عما كانت وقل العمران مع انضمام أسباب سياسية كما تقدم شرحه وصناعة التلقيح فى الاشجار لا يعلمها الا القليل ولذلك حصل الاوروباويون على تقدم عظيم فى القطر فى هاته الصناعة ولو فى زرع الحبوب وكانوا فيها أكثر ربحا من الاهالى وكذلك من أعظم مكاسب أهل القطر زيت الزيتون فاما جمعه واستخراج زيته فهو بيد الاهالى ثم يبيعونه اما للاهالى أو للتجار الاجانب واما التجارة فيه لخارج القطر فهى بيد الاجانب الا قليلا من الاهالى كما انه دخل فى جمعه واستخراج زيته قليل من الاجانب عندما استخدمت المعامل بالبخار لاخراج الزيت وهى قليلة بل ليس منها الا واحدة فى الحاضرة وهناك قليل من المعاصر على النحو المخترع فى أوربا والاكثر على النحو القديم الذى صنعه الاندلس أو نوع آخر أقدم منه وكلاهما لا يتقن اخراج الزيت من زيتونه واما صناعة الشاشية فانها كانت هى عيال أكثر اهل الحاضرة ومنذ صنعت الشاشية بالمعامل فى أوربا رخصت ولازال صناعها فى تونس متمسكين بالآلات القديمة وهى تكلفها غالية فلازالت فى تناقص الى أن كادت أن تكون مقصورة على أهالى القطر وقليل من غيرهم وبقى من حوانيتها نحو ثلاثين أعنى الذين يخدمون حقيقة بعد أن كانت حوانيت هاته الصناعة تبلغ نحو الالاف وبسبب ذلك بقى أكثر الناس فى الحاضرة بلا صناعة ويوجد من الصنائع فى الحاضرة صنعة البلغة وهى نوع من الاحذية وهى رائجة وصناعة الكنترة نوع مما ذكر وهى رائجة وهى بيد اليهود والافرنج وأصحاب صناعة السباط التى هى نوع مما ذكر أفلسوا الا انهم لا زالوا

متمسكين بخياطتها على الهيئة القديمة والناس تركوها وأنفوا من جعلها على أسلوب
الكنترة لمجرد الاعتياد الى أن أفلسوا ولم يجدوا هاديا يحملهم على مصلحتهم وكذلك
توجد صناعة العطارين أى الطيب والحرائرية أى نساجى الحرير وصناعتهم متقنة
وفيها بعض رواج ويصنعون أشياء مخلوطة من الحرير وخيوط الفضة ونوعا من الحرير
الصرف المسمى بالمختم وفى بعض أنواعها رغبة فى حواضر أوروبا ويوجد لها مروج سيما
الطيلسانات ويوجد أيضا صناعة التوارزية أى الخياطين ولهم براعة فى خياطة الابريسم
على اشكال من النوار بديعة فى سراويل النساء وغيرها وكذلك صناعة الحياكة
للمنسوجات الصوفية وفيها رواج كبير لاوروبا وغيرها ولو تجد المروج لكانت من أعظم
اسباب الرفاهية للقطر وتوجد صناعة الصاغة وصناعة السروج ولاصحابها براعة
فى الطرز فى الحرير والفضة والعدس اى قطع من الفضة مموهة بالذهب مثقوبة الوسط
ليمسكها خيط الطرز وكذلك صناعة الحدادة وهى قاصرة ولمن وفد من الاروباويين
التقدم التام على الاهالى وكذلك صناعة النجارة أى نحت الاخشاب ولاهلها براعة فيها
وكذلك البناية وكذلك النقاشة أى نحت الاحجار وكذلك صناعة طرز الحرير والصوف
والخيط والقطن والفضة والعدس على المنسوجات وهى خاصة فى النساء وزدن فى هاته
المدة تقدما فيها بما تعلمن من الاوروباويين حتى صارت تقوم بها آلات وتوجد صنائع
السلاح بأنواعه لكنها متأخرة ويوجد معمل للمدافع وآخر للسفن وكلاهما معطل
وتوجد معامل كثيرة للكراريس وكذلك توجد صناعة النسج للقطن وهى ضعيفة
رديئة وكذلك صناعة تجليد الكتب وهى حسناء وصناعة النسخ وهى قليلة وكذلك
صناعة نقش حديدة أى النقش فى الجص التى هى من أبدع الصناعات التحسينية
على الجدران وكذلك صناعة الدهن أى التلوين وصناعة الفخارين أى صنع الاوانى
من الطين وكذلك نوع يسمى بالجليز مما يلصق على الجدران وعلى أراضى البيوت
ولكن نوعه ردىء ولاهله اقتدار على ايصاله للحسن المعهود فى أوروبا اذ كان عندهم
قديما أحسن منه وانما يحتاجون الى الاعانة وأما الموسيقى فلهم مهرة فى معرفة
الالحان يأخذونها على قواعد وانما هى بالسماع من بعضهم ويعتنون لاخذها فى
بعض الزوايا التى تعقد فيها اجتماعات لاجل الذكر كسرد البردة ومدائح قادرية وهذا
العمل اختلف فى جوازه لكن الراجح جوازه شرعا ان لم يكن فيه تشويق لمحرم فالتحريم
على كل حال ليس لذاته وانما هو لما يتوصل به اليه ثم بعد الجواز ليس هو بطاعة كما

يظن العوام وسيأتى للمسئلة بسط فى الخاتمة ان شاء الله تعالى كما أن لهم معرفة فى فن
الموسيقى أى دق آلاتها ويأخذونها عن بعضهم والآلات هى الرباب والعود والجرانة
وكلها من ذات الاوتار والطار والدف والدربوكة وهى أكبر منه والطبل والجميع من
نوعه والكرنيطة والناى والغيطة والشبابة والصفارة والفحل وكلها من آلات النفخ
ويضربونها بدون أوراق امامهم بل من حفظهم وفيهم المهرة وهاته الصناعة فى الموسيقى
قد ذكر فى الاغانى انها كانت محفوظة على نمط واحد بحيث لا يخرجون عما كان مسموعا
من الطرق يأخذها الخلف عن السلف الى أن دخل فيهم ابراهيم ابن المهدى عندما أراد
الامن على نفسه بتنصله من سمات الخلافة فزاد فيها ونقص على حسب ما يستلذه هو
ثم جعل من اتبعه يسلك ما يستلذه السامع ولو خالف الطرق الاصلية وتمادى الامر على
ذلك الى أن فقد الآن ما يعرف به الالحان التى كانت تستعمل فى تلك الاعصار ولهذا
لا يمكن فهم ما يشير اليه فى كتابه الاغانى من الطرق والالحان ثم ان حكم سماع آلات
اللهو عندنا حرام الا الدف وما كان على شاكلته مما لا وتر فيه اذا ضرب فى الافراح
الجائزة لكن رأيت رسالة لسيدى عبد الغنى النابلسى مال فيها للجواز ان لم تؤد الى محرم
مقطوع به كما رأيت سؤالا للالوسى فى أيما أشد حرمة الغيبة أو السماع لآلات اللهو
أجاب عنه بان لا مقايسة بين الامرين فان الغيبة محرمة باجماع بخلاف سماع آلات
الطرب فانه مختلف فيه وللمقلد سعة بالتمسك بقول أحد المجتهدين ثم توجد بقية الصنائع
الضرورية كالبقالين والجزارين والقصابين والفحامين والحلاقين وغيرها بحيث يقال
ان أغلب الصنائع الحاجية معروفة ولكنها غير موفية بالاستغناء عن جلب المصنوعات
من خارج القطر بحيث من نظر الى لباس أهل المدن ومسكنهم وفرشهم يجد أغلبها من
مصنوعات الاجانب وذلك موجب لفقر المملكة وأما خارج الحاضرة فالمدن يوجد فيها
ما يقرب مما تقدم بأقل بدرجات الا بعض صنائع فلها فيها التقدم على الحاضرة فمن ذلك
منسوجات الفرش فى الجريد فان ما يصنع منه فى طوزر هو من أرفع ما يوجد فى العالم
وكذلك يصنع فى جربة ولها نوع يسمى بالسوسى من الصوف والحرير صفيق من أرفع
المنسوجات وكذلك يصنع فى القيروان الاوانى النحاس وفى نابل أنواع من الطين الرفيع
المرغوب فى كثير من الجهات وكذلك يصنع فى الكاف نوع من البرنس رفيع وأما أهل
البوادى فلا يعرفون الا صناعة الفلاحة المتداولة والرعى للحيوان والفروسية والصيد
ولاهل جبل باجة وماطر معرفة بصناعة البارود وسائر القبائل تعرف نساءهم صناعة

تنسج الصوف لفرشهم ولباسهم وتنسج بيوت الخيام من شعر المعز والابل والعدل كما ان لبعضهم اتقانا فى صناعة البسط من الصوف كقبائل دريد وجلاص ومثلهم القيروان وبخصوص أهل الجريد اتقان كلى فى الاردية التى تتردى بها الرجال من الحرير والصوف

﴿مطلب فى المساكن والطرقات﴾ الحاضرة ذات بطحاوت وطرق صناعية محصبة أو محجرة بحجارة منحوتة لا تعب فيها على الماشى ولا الراكب حسنة المنظر وقليل من طرقها المتسعة أشجار يمينا وشمالا وجميع البناآت من حجر مبنى بطين الرمل والجير وتارة يبنى بالآجر والقرميد وهو أقل من الاول وتارة يعوض الطين بالجص وهو أيضا أقل ثم ان دورها اما ذات طبقة واحدة أو طبقتين وقليل ما يزيد على ذلك وصورة الدار ان تدخل من الباب الذى على الطريق فتجد محلا مسقفا ان كان كبيرا سمى دريبة أى دهليزا والا سمى سقيفة ثم آخر اصغر منه ثم وسط الدار والاغلب أن تكون الابواب المدخول منها اليه غير متقابلة لكى لا يكون مكشوفا من السقيفة وهو محل مربع الشكل مكشوف الى السماء وبه أبواب وشبابيك الى البيوت وهو مفروش الارض اما بالرخام أى المرمر الابيض أو الكذال والجميع على شكل مربع متقن الاثبات فى الارض حتى يصير كأنه قطعة واحدة مخطط فى المنظر بخطوط الحدود وحيوطه مكسوة بالزليز اما الى نهايتها واما الى النصف والنصف الاعلى مطلى بالجص الابيض وبه نقش حديدة ونهاية الحيطان عليها قرميد أخضر والابواب التى به من الاربعة الى الاثنى عشر يدخل منها الى بيوت ومرافق والبيوت غالبا بعضها أحسن من بعض وأكبرها على شكلين فالشكل الاول أن يكون اذا دخلت من الباب تجد البيت طويلا يمينا وشمالا وقبالة الباب بهو ذو قوس مرتفع وفى نهاية أرجل القوس تجد مرفعا أى شيأ من الخشب المتقن النقش المزوق بالالوان دائرا مع حيطان البهو وتوضع عليه أوانى رفيعة من الخزف والصينى والبلور وفى نهاية البيت يمينا وشمالا تجد اسرة عليها فرش النوم مسواة باتقان وأمامها مساطب ومتكآت وجميع الحيطان على نحو ما مر فى وسط الدار مع زيادة اتقان النقش والابواب كلها ذات زواية كاملة ليست بمقوسة الا الباب الذى به ثم لكل باب أو شباك عواضد من الاربع جهات من الرخام أو الكذال أو الخشب كل جهة فى قطعة واحدة غالبا وعرض العاضدة من شبر ونصف الا العواضد السفلى فى الابواب فانها تكون منخفضة لا ترتفع على الارض أكثر من أصبعين وأغلب ارتفاع السقف

من

من الستة الى اثنى عشر ذراعا وهى أى السقوف ما بين بناء بالآجر أو الحجر المعقود أو أعمدة من حديد وآجر أو قرميد أو انها خشب مما يجلب من السويد المسمى بالالواح الطرطوشى والبندقى من النمسا وعلى أى نوع كانت فانها ان كانت من الخشب نقشت وزوقت والا طليت بالجص ونقشت وزوقت وتارة يطلى النوعان بالفضة المموهة بالذهب على اشكال بديعة مع التزويق بالالوان والاغلب فى سقوف الخشب ان تكون على هيئة خشبات ممدودة على عرض البيت وعمقها نحو شبرين أو شبر ونصف وعرضها نحو ثمانية أصابع وكل الابواب ذو دفتين وتارة يكون ذا أربع دفف وهذا فى خصوص أبواب البيوت وأما غيرها فلا أكثر من دفتين ثم عن يمين البهو وشماله مقاصير اثنان فما فوق اما للنوم أو الجلوس أو المرافق وعلى الابواب جميعا ستارات متعددة على حسب الرفاهية ويوضع فى البيت أيضا مرايات كبيرة على المرفع وراءه قطع البلور والخزف وكذلك حول اسطوانتى البهو وهذان يوضع أمامهما خزنتان من خشب الجوز المتقنة الصنعة وعليها ساعتان وفوانيس بأوانى من الزهور المصنوعة وغير ذلك من التحف وفى الشتاء تفرش أرض البيت بحصير وعليها بسط صوفية وأما الشكل الثانى فى البيوت فانه يكون مراحا واحدا اما مربع أو به استطالة والحيوط والسقف والفرش كلها على نوع واحد غير أنه يغلب فى هذا الشكل أن يكون السقف من خشب وعيدانه مغطاة من أسفل مما يلى البيت بألواح من خشب مزوقة أيضا حتى ترى كأنها قطعة واحدة والاغلب لحسن المنظر وعدم ظهور القطع بين الالواح أن تغطى الالواح من أسفل بمنسوج من الكتان أو القطن على عكس امتداد الالواح وتدق بمسامير ثم تلون وتزوق كما مر وفى وسط هاته السقوف على أى نوع كانت توضع قطع من خشب مرتفعة منقوشة باشكال بديعة مذهبة وتمسك فى السقف بقضيب حديد مناسب ويعلق فيها ثريات من البلور وما دون ذلك من البيوت يكون أقل اتقانا فى طلى الحيطان ومفروش الارض والستائر فقط أما أصل الطلى وتبليط الارض بنوع صلب فلا بد منه وفى قليل من الديار الكبرى للاغنياء يوجد بيت واحد ذو ثلاث بهوات أو أربع ووسطه مربع والجميع فى أعلى نوع من اتقان المواد والصناعة وكذلك يوجد بقلة جنائن فى الديار وانما كثرت بعد وجود ماء زغوان فى الحاضرة وكل دار لا بد فيها من بئر ومأجل ومطبخ وبيت لخزن القوت وأدواته ولا بد أن يكون خارجها مخزن للدواب أو بعض الضروريات ولا أقل أن يكون أسفل وسط الدار أو السقيفة دهليز لذلك ان لم يكن لها مخزن وقليل أن يكون لها علو

بابه فى السقيفة الخارجية أو الدريبة خاص بالرجال والواردين على أصحاب الدار والاغلب
أن يكون ذلك للاعيان ويكون العلو تام المرافق والفرش وأكثر من ذلك أن يكون
فى عوضه بيت واحد يجلس به صاحب المحل ومن يفد عليه من الرجال واذا كانت الدار
ذات طبقتين فان الهيئة المارذكرها هى هى ولا يزاد فيها سوى رواقين أو أربعة أمام
البيوت فى صحن الدار تكون مرفوعة السقوف على حيطان وجوه البيوت من جهة ومن
الجهة الثانية على أقواس مستندة على اسطوانات من الرخام الابيض المتقن أو من
حجارة الكذال والاقواس مطلية بالجص المنقوش بالنقش حديدة وفوق هاته الرواقات
رواشن للطبقة العليا ولها درابزين من الجهة المطلة على صحن الدار ومن تلك الرواشن
يدخل للبيوت التى فى الطبقة العليا وهى مبنية على البيوت السفلى وهيئة البناء والفرش
على النحو الاسفل سواء ويصعد الى هاتيك الطبقة بدرج فى أحد الابواب التى بوسط الدار
والاغلب فى الدرج القديمة أن تكون على هيئة غير مناسبة لبقية بناء الدار لانهم
لا يعتنون بها سوى كونها موصلة للاعلى فتارة تكون ضيقة وتارة تكون مرتفعة تتعب
الصاعد لكن فى الابنية الجديدة صارت الدرج متقنة الهيئة من الاتساع والارتفاع
المناسب بحيث لا يكون ارتفاع الدرجة أزيد من شبر وعرضها قدم ونصف وطولها
ستة أقدام فما فوق وعلى أى هيئة كانت فلا بد لها من التبليط بالزليز أو الرخام وكثيرا
ما تكون كل درجة من قطعة واحدة من الرخام الابيض أو الاسود أو الكذال أو
الصوان وجميع الحيطان اما مكسوة بالجليز أو مطلية بالجص ولا يكون فى السفلى ولا شباك
واحد على الطريق وان احتيج الى الضوء ولا بد تجعل له منافذ قرب السقف لكى
لا يسمع صوت النساء نعم فى الطبقات العليا توجد شبابيك على الطرق ولها أبواب غير
منفكة من المقصب الخشب وجميع الشبابيك سواء كانت لوسط الدار أو للطريق لابد لها
من قطع من الحديد على أشكال مربعة وفى القديم كانت جميع الاشكال مربعة هذا
فى أماكن النساء وأما أماكن جلوس الرجال فليس فى شبابيكها مقصب الخشب نعم
للشبابيك مطلقا أبواب من الخشب وأبواب بساطر من خشب وطيقانها من البلور أو
الزجاج والحاصل ان الديار من داخلها فى غاية الاتقان والنظافة على حسب الرفاهية
لكن خارجها لا يعتنى باتقانه فوجه الحيوط مما يلى الطرق كثيرا ما يكون غير مجصص
وانما يبيضونها بالجير والسطوح كلها مستوية وتبيض سنويا بالجير فلذلك لم يكن منظر
البلاد فى الطرق جميلا مثل ما هو فى الدار هذا كله فى غير حارات الافرنج أما هى فانها

على النحو الاروباوى الذى سيأتى شرحه ولذلك كانت أنظر ونظافة الطرقات متوسطة
بحيث انها ليست بعفنة ولا انها متقنة النظافة وفى الشتاء يحصل فى بعض الطرق التى لم
تبلط كثير من الوحل والطين وهذه لم تبق الا نادرا فى المدينة وأما فى الربطين فهى لازالت
كثيرة وبواسطة المجلس البلدى لازال يتدارك فى تبليطها وتحصيبها وقد عمت الطرق
الاكثر مرورا سيما للعجلات والطرق خارج الحاضرة ليس منها طرق صناعية سوى طريق
بين تونس وحمام الانف وأخرى الى باردو ومنوبة وأخرى الى جهة العوينة وطريق
حديدية الى حلق الوادى وأخرى الى الجزائر ويراد مد أخرى الى الساحل وأخرى الى ابن
زرت وأما فى الحاضرة فالطرق منقسمة الى مناهج وهى متسعة أقلها تمر فيه عجلتان
متحاذيتان وهى قليلة والى طرق وهى لا تمر فيها الا عجلة واحدة وهى أكثر من الاولى
وكثيرا ما تتعارض فيها العجلات ويوجد بها بعض جهات متسعة لرفع ذلك التعارض
والى زناق وهى التى لا تمر فيها العجلة بل بعضها لا يمر فيها الا انسان واحد وأغلب هاته فى
وسط الحارات ولازال المجلس البلدى يوسع فى الكل مهما خرب حائط على الطريق الأخذ
من محله توسعة للطريق وأغلب أنواع الطرق غير مستقيم بل فيها تعاريج وانعطافات
وتحت الطرق خنادق تجرى فيها القذورات والمياه الخارجة من الديار تحت الارض
وأكثرها غير متقن البناء والتسقيف ولذلك يكثر فى الشتاء خرابها فتتعطل الطرق عن
مرور الحيوانات والعجلات وتلك الخنادق تصب فى البحيرة التى هى فى الجهة الشرقية
من الحاضرة هذا واما قصور الوالى وعائلته والوزراء والاعيان فانها وان كانت بعضها
على نحو ما تقدم وبعضها على النحو الاروباوى لكنها تفوق غيرها فى اتقان البناء والكبر
وحسن الفرش والتزويق والتزيين وكذلك بساتينهم واما الحوانيت والاسواق
فليست بجميلة المنظر لان أغلب الاسواق ضيق الطريق ومسقف بالخشب الغير المنظم
وبعضها مسقف بالاجر وهو أحسن منظرا لكن الجميع لا يتأنقون فى نظافة الحوانيت
وحسن هيئتها وأغلبها صغير نحو أربعة أذرع فى مثلها وأرضها مرتفعة على أرض
الطريق فى البناء نحو ذراع وبعضها أبوابه من خشب غير منحوت وهى قطع مفرقة يضع
صاحبها لوحة حذو أخرى الى ان يمتلئ عرض الباب فيجعل قفلا على الوسطى من تلك
الالواح يمسكها بالعواضد فى الفرض التى تدخل منها الالواح ويكون المسك بواسطة
حلق صغيرة بعضها فى الواح وبعضها فى العتبة بالتخالف فى الوضع ويدخل القفل فى تلك
الحلق ثم يقفل بالمفتاح وصورة القفل فى الاغلب على الشكل العتيق وهو قضيب من

حديد فارغ الوسط به لواب ينجذب وينـدفع بواسطة ادارة المفتاح الذي يدخل
في فراغ ذلك القضيب وهناك في خارج القضيب قوس يدخل في تلك الحلق ويدخل
طرفه في ثقب في طرف ذلك القضيب ثم يدار المفتاح الى ان ينجذب اللواب ويدخل
في ثقب في طرف القوس الذي أدخل في القضيب ثم ينزع المفتاح ولكن لازال هذا
الشكل يتناقص ويجعل على النحو المتعارف في أغلب المدن في الابواب وبسبب ذلك مع
وجود الخراب في عدة جهات وعدم تبييض جميع الحيطان كل عام لم يكن منظر البلاد
اجمالا جميلا لمن رأى المدن الجميلة والاقواس أغلبها نصف دائرة والسقوف البنائية
لابد فيها من شيء من الانحداب ثم في المدة الاخيرة حدثت الاقواس والسقوف المبنية
المبسوطة هذا وأما منازل المسافرين ففي حارة الافرنج منازل مثل ما هو في أوربا
وقل ان يسكنها أحد المسلمين وانما يسكنون في خانات وفنادق وسخة فيها بيوت لا فرش
لها ولا مطابخ فيلقى المسافر العناء من ذلك الا اذا تعود على السفر لبلاد المسلمين
فان الجميع فيها متماثل وكان السبب في هذا مع كثرة أسفار المسلمين هو خصلة دينية
وهي ان الكرم والضيافة مندوب اليها فمهما دخل المسافر بلدا للمسلمين الا كان
حقا على اخوانه ان يستضيفوه فلم يكن من داع لاتقان محلات المسافرين اذ غايتها
هو وضع الدواب والسلع التجارية (وكان ذلك هو سبب) عدم وجود لفظ مفرد عربي
دال على نزل المسافر لما جبلت عليه العرب من الكرم والضيافة ولكن حيث تغيرت
الطباع اليوم فينبغي الاعتناء بمثل تلك المنازل وما ذكر جار في سائر انحاء القطر وعلى
نحو ما تقدم في هيئة الحاضرة بقية المدن والقرى لكنها على حسبها في التمصير والغنى
غير ان الطرق الصناعية لا توجد في غير الحاضرة نعم ان البلاد ان التي احدثها
الاندلسيون هي انظم طرقات من غيرها اذ طرقاتها مستقيمة متسعة متقابلة بل
بعضها يراعى فيها حتى تقابل أبواب الديار وفي غير المدن لا تجد البناء الا من طبقة واحدة
بل وهو الاغلب حتى في المدن وكثرة الخرابات في بعض البلدان سيما القرى وعدم
تبييض وتجصيص الحيطان من خارج تجعل الرائي يحسب الجميع خرابا وكثيرا ما تكون
ديار القرى غير مبلطة وانما تمهد بالطين والجير المسوى (وأما البطروى) فمساكنهم
خيام من شعر المعز والابل تنسجها الاهالي وتارة تجلب من طرابلس وللاغنياء
خيام من ذلك النوع في غاية الاتساع والارتفاع بحيث يقدر ان يدخلها الراكب
على فرسه ويقسم البيت لاقسام بأردية وستارات قسم للنوم وآخر للمؤنة وآخر لاولادهم

وآخر

وآخر لاولاد بعض حيواناتهم وأهل الغنى يجعل لكل نوع من ذلك بيوتا خاصة كما ان
للضيوف وجلوس صاحب المكان بيتا خاصا ويفرشون بيوتهم بنحو ما يفرشه أهالي
الحاضرة الاعيان من المرايات والساعات والتحف الخزفية والمفروشات الحريرية
والاسرة المذهبة والفوانيس والشموع الى غير ذلك من أنواع الحضارات لكن العموم
يفرشون في أرض البيت حصيرا وفراشهم أردية من الصوف مثل ما يلبسونها وسادات
وغطاء وبيات الرجل وزوجته وأولاده كلهم في فراش واحد ويطبخون في فم البيت أو
أمامه وكثير منهم من لا ينور في الليل الا بما يوقد من الحطب وبعض القبائل يسكن في
خصوص أو بناء شبهها

(مطلب في اللبس) لباس الحكومة والعساكر النظامية هو اللباس
الافرنجي غير ان للعساكر علامات على الرتب وهي صورة نجم من فضة خالصة
لرتبة الفريق ويجعل ستة نجوم في رقبة سترته ثلاثة من كل جهة وهو نهاية رتبة
يعطيها الوالي ثم أمير اللواء له أربعة ولامير الالاي اثنان وللقائم مقام والامين
آلاي ستة من طرز خيط الفضة المذهبة وللبيمباشي أربعة وللقولاسي اثنان ثم للرتب
التي تليه ثلاثة من الفضة الغير المذهبة وهكذا من يليه على النحو السابق وهاته
الرتب تعطى أيضا بعينها لغير العسكر من ذوي الوظائف السياسية اذ ليس هناك رتب
ملكية وفي المواكب يلبسون اللباس الرسمي المطروز بقصب الفضة المذهبة
الا الضابطية فطرزهم من غير المذهبة وتعلق في صدورهم النياشين التي هي من
الفضة المزوقة بالمينا وللصنف الاكبر منها له شريط أخضر ولنيشان العهد شريط
أبيض على نحو ما سبق ذكره في الكلام على أحمد باشا والصادق باشا والوالي
يلبس بشاشيته ثلاثة نياشين كبار أحدها كانت الدولة العلية أعطته لاحمد باشا
عندما كان ذلك من رسوم المشير ثم زاده ثانيا مثله ثم زاد الصادق باشا ثالثا مثله
وهي نياشين من ذهب على صورة أوراق من النبات وبوسطها ترصيع بالياقوت
الابيض كما يلبس نيشان المشير المرصع الذي كان أيضا من رسوم الدولة العلية
ويلبس نيشان آل بيته المرصع والعهد المرصع والصنف الاكبر المرصع والغير المرصع
وجميع نياشين الدول التي اهدتها له مع شرطانها وكذلك جميع المتوظفين كل منهم
يلبس ما عنده من النياشين ثم كل من له رتبة أميرآلاي فما دون له علامة تلصق
بشاشيته من نحاس على صورة شارة الحكومة مكتوب بها اسم الوالي الصادق

باشا اذ هو مخترعها واما أهل المجلس الشرعي بالحاضرة فيلبسون قلانس بيضا
مكورة غير ان المالكية قلانسهم مفلطحة والحنفية مرتفعة ويلبسون عليها طيلسانا
من الكشمير ويلبسون جبابا كمامها واسعة وهي طويلة الى الكعب أو قريبه وهنالك
فرق بين جباب الحنفية والمالكية فالاول جبابهم مشقوقة الجيوب الى أسفل
والاخر مشقوقة الى السرة فقط ويزيد المالكية برنسا واسعا من الجوخ الصوفي
له حواشي وشرابات من الحرير وفي أرجل الجميع حذاء من النوع المسمى بشمق
وريحية لونه أصفر وهو لبس لا يتحمل المشي به في الطين ولو قليلا اذ هو أشبه شيء بالنعل
لكن له وجه على اصابع القدم ويلزم للمشي به تعلم وتعود لكي تمسكه أصابع
الرجل اذا رفعت الرجل سيما اذا كان مع الريحية فيقع الازدلاق بين ملوسة جلد
البشمق وجلدها مع ان منظره جميل وأما أهالي الحاضرة فيلبس الرجال قميصا
وصدرية وأخرى تسمى فرملة غير انها بلا صدر ومثنان أي صدرية بلا صدر ولها ايدي
ضيقة الى الرسغ وتارة يكون في هاته الايدي فتح من أسفل قرب الرسغ وتارة لا وتارة
تكون قصيرة الى أسفل المرفق فقط وتسمى كنترة وسراويل رجلاها أسفل الركبة
بيسير ووسطها كبير معتدل لا كثيرا ولا مرتفع كثيرا وهي عريضة بحيث اذا لبست كان فيها
انكماشات بين الرجلين ولا يبلغ تدليها الى الركبتين واحذيتهم من أنواع فمنها
الكنترة وهو من لباس الافرنج على أنواع شتى ومنها البلغة ولونها أصفر ومنها الصباط
الاحمر أو الاسود لبعضها شرابات من الجلد وبعض الاعيان يلبسون البشمق والريحية
وعلى رؤسهم شواشي حمر لها شرابات من الحرير الاسود وعليها عمائم ملوية
اما بيض أو مطرزة بطرز الهند أو بطرز البلاد وعلى الجميع برنس شتاء وصيفا غير ان
كيفية استعماله كانه حمل لا لبس اذ يلقونه على أكتافهم بميل لاحد الشقين فقط وهيئة
البرنس هو رداء متسع طويل الى القدمين وله رأس يسمى بالطربوش وكله في قطعة
واحدة وأسفله مقصوص معرج على هيئة نصف الدائرة ثم ان الاعيان والاواسط
يزيدون تحت البرنس جبة مشقوقة الى السرة فقط وليس لها كمام بل انها مشقوقة
من أعلى الجنبين لاخراج اليدين منها فهي عباءة غير مشقوقة الاسفل ويلبسون أيضا
الجورب من القطن فقط أو مع الصوف من تحته وبعض قليل يلبس الجوخة والقفطان
وهما جبتان ضيقتان مشقوقتان الى أسفل ولا فرق بينهما غير ان ما تلبس من أعلى
اكمامها مدورة قصيرة الى قرب المرفقين وأسفلها مما يتحزم عليها بالحزام الذي لا بد منه لكل
احد

أحد كما ان البرنس لا يمكن خروج الانسان في الطريق بدونه وغاية الفرق بين لباس
الاغنياء وغيرهم هو رفعة المنسوجات وحسنها وكلاهما مع ما مفروشات الديار من الصنائع
الاجنبية الا البرانس والشاشية وبعض أنواع حريرية كما يحمل الاعيان والاواسط
ساعات بسلاسلها من الذهب أو الفضة أو النحاس واما التختم فقليل جدا وكثيرا ما يعدونه
من سمات ذوي الدناءة الا لبعض اعيان الاعيان ومع ذلك كثير منهم يتحاشا عنه ومثل
هذا اللباس لباس أغلب المدن والقرى أو قريب منهم وبعضهم يلبس جبة من
الصوف وسراويل منها كلها من صناعة الاهالي وعوضا عن البرنس يلبسون
كبوطا وهو شبه البرنس غير انه ضيق وله ايدي وقصير الى الحزام فقط وهو أيضا
لا بد من لبسه لسائق العجلات للاعيان في الحاضرة غير انه من نوع الجوخ المطرز
بخيوط الفضة وله منظر جميل واما البوادي فلباسهم قميص ورداء من الصوف
يسمى بالحرام وبرنس من الصوف غير انه يلبس لسابان يدخل الرجل رأسه في
الطربوشة وتارة يبقيها على رأسه وتارة يلقيها الى ورائه على كتفيه وهما من صوفهم
وعلى رؤسهم شواشي وعمائم من خيوط من وبر الابل أو صوف الغنم الاسود أو الاحمر
وفي أرجلهم البلغة والاعيان منهم يلبسون فوق القميص مثل لباس أهل الحواضر
وحرامهم يكون من الصوف الجيد الرفيع والحرير وكذلك عمائمهم مثل الحواضر
ومثلهم أهالي بعض البلدان كبلدان الجريد والكاف وباجة وتبرسق وأما لباس النساء
ففي الحاضرة يلبسون القميص لكنه قصير الى أعلى الفخذ وفوقه مثل الصدرية بلا
صدر ويتأنقن في اتقانها وتحليتها بالفضة أو الحرير أو العدس وتسمى فرملة وفوقها
جبة ضيقة بعض الضيق بلا أكمام وقصيرة مثل القميص المذكور وسراويل ضيقة جدا
مثل سراويل رجال الافرنج لكنها مخروطة الرجلين مع اتقان تحليتها والتغالي فيها
وعلى رؤسهن على الشعر منديل حرير أسود يسمى تقريطة وفوقه قوفية أي نوع من
العراقية محلاة ولها جبين مرتفع من أصبعين الى الثمانية أصابع صلب بالطرز بالحرير
الاسود على خيطان من الكتان الصلب وفي مؤخرها ذيل من الحرير مدلى الى قرب ذيل
الجبة ويطرز بانواع جميلة من الفضة والحرير ثم تلف رأسها ورقبتها بلثام من أنواع
الحرير والقطن ويطرز أيضا كما مر على هيئة متقنة وتعصب على الجميع بتقريطة ملزنة
أو مزوقة بالفضة بعد طيها على عرض أربعة أصابع بحيث يكون ما فوق القحف من
غطاء الرأس مكشوفا من تلك التقريطة وتربط أطرافها من جهة الجبهة على هيئة

تكون بصورة التاج ممسوكة بمساسك من النحاس دقيقة صغيرة ويكن أذرعهن مكشوفات ويلبسن في أرجلهن أنواع الاحذية الافرنجية والاعيان يلبسن الجوارب والخادمات يلبسن على نصفهن الاسفل فوق جميع الثياب ازارا من القطن أو مخلوطا بالحرير أو الحرير الصرف ملون أغلب ألوانه مائلة الى السواد لتحمل الوسخ ولما تقدم لم يكن شكل النسوة جميلا من لبسهن واذا خرجن للطريق فالاعيان يلتحفن برداء أو طيلسان واسع ثم يدخلن في الكروسة وتدخل أي الكروسة الى داخل الدهاليز لتركب المرأة فيها ثم تسدل ستارات الكروسة بحيث لا يرى من ركب فيها ونسوة الاواسط يلبسن عند الخروج رداء عريضا بالغا قرب القدم ومغط للرأس على هيئة ساترة لجميع أجزائها وعلى وجهها بحار من الحرير الاسود وأطرافه مزروقة مغروز في غطاء رأسها بمساسك وتمسك طرفيه بيدها مع لفهما في ردائها وعلى رجليها ساقان عريضان من منسوج ثخين مطرز ونعلها خاص بالخروج وأما الاسافل فهن مثل ذلك أيضا سوى البحار فيعوض بلثام أسود ملفوف على الوجه ثخين لا تظهر منه البشرة ولا تبان الا عيناها ونسوة اليهود مثل ذلك الا ستر الوجه فهن مكشوفات وأما لباس نسوة البلدان فهو على ذلك النحو غير انه ساترا كثر لانه متدلي الى قرب الكعب والجبة أوسع وبعضهن يتمنطقن بحزام وأما نسوة الاعراب فهن مثل ذلك أيضا سوى الجبة فعوضها رداء واسع تمسكه المرأة بمساسك كبار من فضة أو ذهب أو نحاس حذو كتفيها مما يلي الصدر وتتمنطق عليه بحزام ويكون ساترا حتى الى القدمين مع الاتساع غير انهن لا يلبسن السراويل ولا يتقنعن على رقابهن فغطاء رؤسهن أجمل من نسوة الحواضر وكثير من نسوة القرى مثلهن والجميع يلبسن من الحلي أنواعا شتى من القرط في الاذنين بعد ثقبهما منذ صغر البنت والاساور والخواتم والتيجان وغير ذلك من الجوهرات الثمينة والمكللة بالياقوت والزمرد واللؤلؤ وبعض الحواضر والقرى والاعراب يتخلخلن في أرجلهن أيضا كل على حسب الثروة واليسار

(مطلب في الاكل) أما أهل الحاضرة فاكلهم جامع بين أنواع أكل أهل المشرق والمغرب والاوربايين بحيث لهم من كل أحسنه سيما الاعيان والغالب في البلاد واعرابها وسائر بلدانها هو طعام الكسكوس أو العصيدة وتزيد البلدان بالشكشوكة طعام من زيت وقديد وبصل وطماطم وفلفل واغلب السكان يأكلون الطعام الحريف المسمى عندهم بالحار من الفلفل ويكثرون من الابزار الا البوادي فاغلب طعامهم بسيط

من

من دقيق القمح أو الشعير أو الذرة واللبن واللحم المشوي وفي ولائم الاعراس بالحواضر يكثرون أنواع الحلويات وهيئة الاكل عموما هي الجلوس على الارض اما على متكآت أو بسط أو حصير ويوضع الطعام جملة ويأكلون من اناء واحد ثم غيره وهكذا والغالب طعام واحد وأهل البلدان يصنعون مائدة يوضع الطعام عليها وهي من خشب مدورة ارتفاعها عن الارض نحو شبر وبعضهم يجعل عليها أو على كرسي مثلها طبق من النحاس وفي بعض الاعيان وموظفي الحكومة صارت هيئة الاكل كما هي عند الافرنج وبعضهم صيرها بين بين بحيث يؤكل من اناء واحد لكن بالشوكات والسكاكين والخبز له أنواع ففي العربان اما أن يكون منضجا في فرن يسمى الطابونة وهو حسن جدا سيما السميذ منه واما أن يكون العجين غير مخمر ويشوي في اناء من الطين وهو ردىء لقلة نضجه وعدم تخميره وكلا النوعين موجود في البلدان الا الحواضر فيوجد الاول بقلة عند الاعيان على وجه التفكه والخبز الغالب في المدن هو خبز مرتفع صغير قليل النضج مخمر لذيذ ينضج في الفرن المعتاد ونوع آخر كبير وهو الذي يصنع في الديار أنضج من الاول والاول لا يأكله الا من لا عائلة له أو الفقراء ذوو العيال وأما خصوص الحاضرة ففيها اثنا عشر نوعا من الخبز كلها جيدة سليمة ناضجة على النحو الذي يعرف في المشرق بالافرنجي وعادة الجميع في الطبخ ان النسوة هن المكلفات به ويطبخن في اليوم مرتين فطورا وهو عند الزوال وعشاء وهو بعد الغروب كما توجد مطابخ في الاسواق يطبخ بها الرجال لمن لا عائلة له أو داره بعيدة عن محل صناعته وأغلب طبخها رديء الا قليلا ومن طعام السوق الجيد القليل النظير بريك البيض فيشتريه حتى الاعيان في ديارهم للذة أكله والغالب ان الاهالي زمن الصيف يدخرون مؤنة السنة من الكسكسو ونوع مثله يسمى المحمص والقديد والابزار وأما الحطب فانما يخزن في أواخر الشتاء عند تنقية شجر الزيتون لانه هو أغلب الحطب والفحم لا يطبخ به الا قليلا وبقية المأكولات تشترى يوميا كاللحم والخضراوات ومنها شهريا أو أسبوعيا كالزيت والسكر والقهوة

(مطلب في الاعراس والمواكب) أول المواكب في عيد الاضحى والفطر وقدم كيفية التعييد على الوالي وأما الاهالي فيتزاورون لبعضهم أربعة أيام ويحصل من ذلك تعب كثير سيما اذا لم يجد الزائر المزور فانه يعود اليه ولو مرارا ويعطى للزائر قهوة والاقارب يعطى لهم أنواع من الحلويات وفي جميع المواكب التحية بالتقبيل فالعظماء بتقبيل أكفهم ثم من دونهم بتقبيل المرافق ثم المتساويان في الاكتاف وقليلا في الافواه

وبعض الاعراب يقبل كل يد صاحبه وتارة رأسه وكذلك يحصل موكب فى المولد
النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام على نحو ما مر تفصيله فى الكلام على السياسة
وأما بقية المواسم فلا موكب فيها وانما فيها الصدقات والقرا آت والتوسع على العيال وفى
عاشوراء تطلق النيران والبارود اعتقادا انها من تفريح الصبيان وكانها نعرة باقية من
آثار الخوارج الذين كانوا بالقطر وفى رمضان تتأنق أهل الحواضر سيما القاعدة فى
الاكل وكل يدعو أحباءه للعشاء عنده ولا أقل أن يتعشى ولو انسان واحد مع صاحب
الدار ويصرفون فى ذلك زيادة على العادة وأما الختان فانهم يجعلون له وليمة مثل
العرس وسيأتى بيانها وفى هذا زيادة وهى ان الطفل المختون يؤتى به قبل الختن من
مكتبه وهو لابس لاجل لباسه الذى كثيرا ما يكون مقصبا بالفضة أو مطرزا بطراز
السراجين ومعه تلامذة المكتب بملابس جميلة أو نظيفة ويرفع رجل على رأس المختون
لوحا مزوقا ويطوفون فى حوالى حارتهم وأمامهم أو خلفهم فرقة من الرجال يذكرون
قصائد فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم وتجيبهم التلامذة ببيت القصيد على الحان
جيدة رافعين أصواتهم الى ان يصلوا الى دار المختون فيقدم لهم موائد من الحلويات ثم
يختن الولد أحد الحلاقين المجاز لهم فى ذلك بمقص من حديد ثم يوضع فى فراشه المرونق
ثم يهدى اليه من أقاربه وأوداء أبيه اما مال أو مصوغ وأعلى الهدية قدر أربعمائة ريال
فما دون وقد دقت هاته العادة فصار الختان أكثره مخفيا بدون هدية ولا غيرها
ويتناقلون فى اخفائه روايات منها قولهم أعلنوا النكاح وأخفوا الختان ولم توجد فى
كتب الصحيح ولم نر نصا لاصحابنا فى المسئلة سوى انى رأيت فى الاحياء للغزالى الذى
هو شافعى انه عد فى أنواع السماع الجائز السماع عند الختان وعند حفظ القرآن
الخ فهو دال على ان اشهار الختان غير منهى عنه كما انه غير مندوب لقوله وهو أى السماع
مباح ان كان ذلك السرور مباحا كالغناء فى العيد وفى العرس وفى وقت قدوم الغائب وفى
وقت الوليمة والعقيقة وعند ولادة المولود وعند ختانه الخ فهو دال على عدم النهى عن
اشهاره فقط وأما الاعراس فان الزوج بعد الخطبة يرسل المهر وأعلاه ألف ريال الا
الامراء والوزراء فيزيدون على ذلك الى العشرين ألفا ثم يرسل مع المهر هدية تسمى
الملاك وهو صندوق صغير مجلد بصفائح الفضة أو خشب مرصع بالصدف وفيه المهر
مصرور فى مناديل من حرير مخاط بالفضة ثم صندوق آخر أصغر من الاول من فضة أو
ذهب أحيانا مقسم الوسط به قنينات مملوءة اعطارا وأسفلها أنواع من طيب البخور العنبر
والقمارى

والقمارى ثم حقة من ذهب أو فضة فيها قطعة كبيرة من سكة الذهب اما دبلون من
سكة الاسبنيول أو قطعة مائة ريال ذهبا لتوضع فى كف العروس عند وضع الحناء ثم حصير
أو أزيد مملوءة بالحناء الورق مخيطة على شكل مدور لكى تحفظ وتلف الحصير فى ملاحف
من قطن أو حرير ثم صحن من الزجاج أو الفضة به شكل كالعصيدة من الحناء موضوع فى
طبق من الزعف مكسو بمنسوج من الحرير أو الفضة مغطى بمنديل مثل ذلك ثم قطعة من
مصوغ مكلل بالاحجار ثم حزم من الشمع الابيض كل معصبة بالنقارط الحريرية أو الفضة
من ثلاثة حزم الى العشرين ثم شمعتان أو أكثر كبيرتان نحو الاسطوانة معصبة أيضا
مثل ما ذكر ثم خمسة أى شمعة صورة كف ادمى كبيرة طولها نحو ذراعين فما فوق وتارة
تكون أزيد من واحدة كلها من الشمع معصبة كما ذكر بأشكال حسنة ثم أطباق
كبار من الزعف بها قنطار فما فوق من السكر الابيض ويرسل ذلك الى دار العروس
مع أقارب الزوج من النساء عشية وفى الليل تسرج دار العروس التى قد زينت وتدعى
اليها النسوة من الاقارب والاحبة وتزين العروس باجمل لباس ويوضع على رأسها رداء
من منسوج الفضة الثخينة وعلى وجهها برقع من الحرير الصفيق وتوقد تلك الشموع
المهداة لها وتجلس فى بيت أبيها على مسطبة ومتكئات من الحرير أو الفضة ثم يهدى
اليها ممن حضر مال لا أزيد فيه من مائة ريال ثم تحنى يداها بالحنة المهداة بعد وضع قطعة
الذهب فى كفها الايمن وينفصل الموكب بعد ان تتعشى النسوة الضيوف ويفطرن صباحا
ويتهيأ أبو العروس الى انفاق الاموال فيجعل لابنته ملبوسات لا تلبس الا يوما كالقمجة
الكبرى وما والاها وهى جبة كبرى من نوع من الفضة المنسوجة ثخينة ثقيلة تتكلف
بنحو ألف ريال ويتبعها سراويل مثلها وهكذا مما لا يلبس الا يوما أو يومين مع ألبسة
أخرى معتادة للتجمل والعادة مما يكفيها سنة أو أزيد مع كسوة لبيت زوجها من فرش
الصوف والاردية والستائر للابواب والاسرة والمتكئات كلها من نوع القمجة من
الفضة والعدس الذى لا تكتسى به البيت الا أسبوعا واحدا فيصرف أبوها أضعاف
اضعاف من المهر وبعد أسبوع من عرسها تباع تلك الاشياء بما لا يبلغ الربع من ثمنها
الاصلى وعند العرس يحضر الزوج داره ويبقى بيته فارغا الا أحد مقاصيره فلا يجعل
فيه ما لا تأتى به المرأة كما يجعل الاسرة فى البيت والساعات والمرايات والبساط وقبل
ليلة العرس بيومين تستدعى الاحباب من كل على ان تكون الملاقاة فى أحد
المساجد عند صلاة العصر ان دعاه الزوج وأما المدعوون من أب الزوجة فيقدمون الى

داره ثم يقدم أب الزوج أو وكيله مع من دعاه لدار الزوجة وبعد الجلوس والدار
مزينة و يوسطها جميع الجهاز الذي أحضر للعروس ليرفع لداره على هيئة منظمة
يخطب الخطيب وهو أحد الشهود المتخذين الشهادة صناعة وتارة لبعض الاعيان
يخطب أحد أهل المجلس الشرعي أو غيرهم من العلماء و يقع الايجاب والقبول ولا يكون
من الزوج والزوجة بأنفسهما بل ان كان لهما أب فهو أو ولي أو ولي آخر أو وكيل وبعد
ذلك تقرأ الفاتحة من الحاضرين الذين يبلغون أحيانا الى ألف فما دونها وتضيق بهم
دار الزوجة وربما لا تحملهم الدار لانه كثيرا ما لا يتفاهم الاصهار على عدد المدعوين
وان وقع التفاهم وكانت الدار لا تحملهم جعل العقد في أحد المساجد ليسع الجميع ثم
يسقى الحاضرون ماء محلى بالسكر فيه أنواع الطيب ثم يرشون بماء الطيب و ينصرفون
الا الخواص من الاحباء فيرفعون الجهاز على حيوانات و يطاف به في البلاد ليرى ويبصر
ويسمع واع وتفرش به بيت الزوج وقبل ليلة العرس بيوم تصنع وليمة بالحلويات
الخفيفة على مائدة مستطيلة كبيرة في احدى البيوت حولها كراسي و يدعى اليها مئات
من الناس من أول النهار الى ما بعد نصفه كلما جاء فوج أدخل أعيانه ليرى بيت الزوج
ثم أدخلوا جميعا الى المائدة فيأكل كل شيئا يسيرا من الحلو ويشرب قليلا من المشروبات
الملونة الحلوة و يقرؤن الفاتحة و ينصرفون ثم ترفع المأكولات والمشروبات لتعود
كأصلها و يدخل اليها فوج آخر وهكذا الى الختام وقد يعوض عنها بعشاء في النصف
الثاني من النهار وهو يحتوي على مطبوخ من اللحم والطير والسمك والحلويات على
مائدة واحدة وتدخل عليه الناس أيضا كما مر غير ان الاكل منه أكثر من السابق وان لم
يكن حقيقيا لا شبع وقد يعوض عن الجميع بوليمة ليلة العرس لمجرد أحباء الزوج
وأقربائه ثم يؤتى بالعروس بعد الغروب هي وقرابتها في كرار يس يرسلها الزوج أو وليه
و يذهب للاتيان بها أحد قرابات الزوج و يهدى الى العروس في ليلة العرس ما يسمى
قصان الدلال والهدية على أقرباء الزوج وكذلك في ليلة الوطئة الكبرى وهي قبل
العرس بثلاثة أيام للحنة للعروس والمهدى قرابة العروس كما تهدى العروس للزوج
و بعض الرجال من قرابته كأبيه وأخيه شيئا من الملبوس و بعد خروج العروس من دار
أبيها تجتمع حثالة النسوة اللاتي يرون الذهاب لدار الزوج و يوقدن تلك الشموع
ويذهب معهن أقرباء العروس من الرجال ومن أتى لمصاحبتهم من أقارب الزوج لكن
هؤلاء يمشون في مقدم الموكب والآخرون في آخره والنسوة في الوسط و يصرن يولولن
في

في الطريق ويدققن الابواب و يصرخن يا سعد يا سعد ثم يدخل الزوج على عروسه
و يعمل الخلوة الصحيحة ويخرج ولا يبات ولا يعرسون الا ليلة الجمعة والاثنين والخميس
ولا يعرسون في المحرم تشاؤما و بسبب ما تقدم من كثرة المصاريف عضلت بنات من
يخشى على عرضه وتفقرت أقوام ولا حول ولا قوة الا بالله وقريب مما مر ما يقع في البلدان
والقرى يخرج فيه ذلك بعادات العربان وهي ان بعد الخطبة والعقد يرسل المهر ومعه
شئ من الملبوس أو المصوغ والطيب ثم أبو الزوجة يكسو ابنته وعليه شئ من لباس
الزوج ثم يأتي بالعروس لبيت زوجها في محفل على ظهر جمل مزين بالثياب الرفيعة
والحلي وحوله أفواج من قرابة الزوجين بأحسن لباسهم والطبل يعزف والبارود
يصرخ وتارة الخيل والفرسان تلعب الى ان تصل لبيت زوجها و يجعل لهم أبو الزوج
وليمة قسم للرجال وقسم للنساء فيعطى لكل شخص لحمة في يده من رجل أو امرأة
واللحم موضوع في قفة ثم تقدم قصع الكسكسو وان أخذ لحمة فوجدها عظما أن
يردها و يأخذ غيرها ثم يدخل الزوج على عروسه و يتزوجها واذ ذاك يطلق البارود
وتعلن النسوة بالولولة ثم يبقون بين غناء وسرور والغناء من الغنائين والرجال تعطيهم
بالمال شيئا فشيئا لكن يعطون قطعا من النحاس فلا يصرفون كثيرا غالبا والنسوة
ضاربات خمورهن على جيوبهن وهن منصتات وتارة يغنين والرجال يسمعون كما ان
اهل الحاضرة يحضرون اهل الموسيقى في ليلة العرس وعند الوليمة وتحضر معهم عاهرات
مغنيات اذ مطلق النسوة لا تغنين أبدا ولو بين ايدي ازواجهن والغالب على اصحاب
الموسيقى ان يكونوا من اليهود لان أكثر المسلمين يتحاشون منها لما تقدم في مطلب
الصنائع وذلك كله في غير الموسيقى العسكرية فانها على النحو الاروباوي ومثلها
موسيقى الاروباويين في تونس و يصنع مثل ما تقدم ايضا ليلة السابع من العرس وهي
ختامه وتارة تجعل ولائم للولادة ومتى حضر احد كبار العلماء أسكتت الموسيقى
لكن وقع التساهل في ذلك الآن واما المأتم فاذا مات انسان بكى عليه النسوة برفع
صوت وتارة ينحن عليه وقد قل ذلك ولله الحمد والمنة وعند خروج الجنازة يفعلن مثل
ذلك ثم عند الاتيان بما يغطى به النعش بعد الدفن يفعلن ذلك وعند الموت يفرغ بيت
الرجل مما بها من الاثاث واما المرأة فلا ثم يحضر قراء يقرؤن القرآن حوله وهو مكروه
شرعا للاجتماع على صوت واحد ولانه قبل غسل الميت ثم عند الغسل يؤتى بخواجات
يكبرون و يهللون بصوت عال وهو من البدع ثم يؤتى بالقراء والمنتسبين الى زوايا

الصالحين بعد التكفين وكل يقرأ اما القرآن أو أورادا للشيخ المنتسبين اليه وهو من البدع ثم يحمل على نعش وتارة يوضع فى تابوت من خشب و يحمل على النعش و يصير كل من أولئك الفرق يصيحون بالقراءة والتكبير وغير ذلك وهو حرام أو مكروه اذ قراءة القرآن فى الطريق لا تجوز لما فيه من النجاسة المحققة سيما بعض الطرق فى الحاضرة ثم يصلى عليه فى صحن المسجد أو عند القبر وهو الافضل ثم يدفن وتقف أقرباؤه للعزاء فيتعبون و يتعبون من تقبيل كل من قدم للجنازة وقيم الحلقة يصيح بقوله أثابكم الله كل خطوة بحسنة الخ من البدع ثم فى اليوم الثالث والسادس والخامس عشر والاربعين والعام يجعل فى دار الميت موكب تجمع فيه النسوة للبكاء سرا وتارة جهرا وتجتمع الرجال بالاستدعاء الا فى اليومين الاولين لمشاهدة قراءة القرآن والبردة وتارة تكون بتغن والحاصل أن جميع ما يفعل فى ذلك هو من البدع المحرمة لابتداعها فضلا عما تشتمل عليه من الافعال المحرمة لذاتها الا ما كان منها مشروعا كالغسل والكفن والصلاة والدفن واهداء الاكل لاهل الميت أيام موته لا فى السادس وما بعده وما أحق ذلك الموطن باتباع الشرع اذ هو واجب فى كل حال فضلا عن حال هو أول درجة من درجات الآخرة ومن ملحقات ذلك البناء لذات القبر و بناء القباب والرخام والاسرافات فى المقابر وهى أغلبها خارج البلدان الا قليلا فى الحاضرة وهاتيك البدع قليلة فى قبائل العربان لكن فيهم النائحات والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

﴿مطلب فى اللغة﴾ لغة جميع أهل القطر هى العربية وهم أفصح من رأيت على العموم بالنطق بجميع الاحرف العربية الا القاف فيبدلها غير الحواضر بكاف أعجمية وقد ورد أنها لغة و يستند بعضهم حتى الى حديث لكنه مروى مناما ومن المعلوم أن مثل ذلك لا يبنى عليه حكم ثم اللسان وان كان عربيا فقد أدخلت فيه كلمات كثيرة بربرية أو أعجمية فمنها ما كان من أصل لغة السكان البربر كلفظ كشطة أى عمامة وتو أى الآن وللا أى سيده ولا زالت لغتهم فى جهات جبال و رغمة من الاعراض وجربة مستعملة فيما بينهم ومنها ما كان من لغة الطليان كالفاظ فينو أى جيد وبركاتى أى تاجر كبير وكارته أى ورق اللعب ومنها ما كان من لغة الترك كقولهم هم كذا وهم كذا وقولهم فى النسبة قهواجى و بلغاجى وحماجى الى غير ذلك ومنها تحريف للاختصار كقولهم ما نحبش أصلها ما نحب شيأ ولهذا كثر استعمال الشين فى لسانهم حتى كاد أن تكون عندهم كشكة مع أنهم ينقدون بالساكن والحاصل أن لسانهم عربى محرف وفى الحواضر

لا

لا يذكر الانسان غيره الا بزيادة لفظ سى فيقول سى فلان وكأنها مختصرة من سيدى ثم فى المكاتبات الناس على ثلاث درجات فيكتب الاكفاء لبعضهم سيدى فلان ومن كان دونه بيسير يكتب له السيد فلان ثم الاسفل يكتب له سى فلان واما اذا كان خادمه أو تابعه فيكتب ابننا أو ولدنا فلان وهى اصطلاح خطاب الوالى فى جميع مكاتباته الا العلماء فيكتب الشيخ سى فلان ثم ان اللقب لا بد منه فى الكتابة بحيث لا تجد انسانا بدون لقب والشهودين يدون فى كتابتهم الكنية لكن بالكنية العامة مثلا كل من اسمه على يكنى أبا الحسن وهكذا (واما) البوادى وغالب القرى فمخاطباتهم وكتاباتهم من دون تسييد ولا لقب وانما ينسبون الى الاباء فيقال فلان بن فلان وأغلب البلدان لهم نحلة فى لغتهم يكاد الماهر ان يعلم بها المتكلم من أى بلدة والغريب أن ذلك كائن ولو مع تقارب البلدان فان اريانة التى لا تبعد عن الحاضرة أربعة أميال لغة أهلها فيها نحلة بعيدة عن لغة أهل الحاضرة بل الاغرب أن اليهود الساكنين فى الحاضرة مع أهلها الحارة جنب الحارة ترى لغتهم فيها تمييز كبير عن لغة المسلمين فى كلمات كثيرة كقولهم الحين بفتح النون أى الآن و بلغة أهل تونس تو وكقلبهم الشين سينا وغير ذلك وأظن أن العلة فى ذلك هى التربية من الصغر فى الدار فيجرى عليها اللسان ولو بعد الكبر والمخالطة وهذا واقع فى اللغات الاخرى أيضا فاصل اللغة وان كان واحدا لكن النحلة مختلفة كما فى أهل مرسيليا وباريس فى اللغة الفرانساوية وكما فى لغة أهل الاستانة و بقية الاناطولى فى اللغة التركية بل هذا موجود حتى فى أصل اللغة العربية فان قبائلها كل منهم له نحلة ولغة لا تفهم عند غيرهم وقد عد من معجزات نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معرفته بالجميع بل وقيل حتى فى غير اللغات العربية وليس ذلك بغريب ومما ثبت فى الصحيح فى اللغات العربية ما رواه القاضى عياض فى الشفاء حيث قال فصل وأما فصاحة اللسان و بلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الافضل والموضع الذى لا يجهل سلاسة طبع و براعة منزع وايجاز مقطع وفصاحة لفظ و جزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أوتى جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها و يحاورها بلغاتها و يباريها فى منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسئلونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه وليس كلامه مع قريش والانصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذى المشعار الهمدانى

وطهفة الهندى وقطن بن حارثة العليمى والاشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندى وغيرهم من قبائل حضرموت وملوك اليمن * وانظر كتابه الى همدان ان لكم فراعها ووهاطها وعزازها تأكلون علافها وترعون عفاءها لنا من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والامانة ولهم من الصدقة الثلب والناب والفصيل والفارض والداجن والكبش الحورى وعليهم فيها الصالغ والقارح * وقوله صلى الله عليه وسلم لنهد اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها ومذقها وابعث راعيها فى الدثر وافجر له الثمد وبارك له فى المال والولد من أقام الصلاة كان مسلما ومن آتى الزكاة كان محسنا ومن شهد أن لا اله الا الله كان مخلصا لكم يا بنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك لا تلطط فى الزكاة ولا تلحد فى الحياة ولا تتثاقل عن الصلوات وكتب لهم فى الوظيفة الفريضة ولكم الفارض والفريش وذو العنان الركوب والفلو الضبيس لا يمنع سرحكم ولا يعضد طلحكم ولا يحبس دركم مالم تضمروا الاماق وتأكلوا الرباق من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى فعليه الربوة وفى كتابه لوائل بن حجر الى الاقيال العباهلة والارواع المشابيب وفيه فى التيعة شاة لا مقورة الالياط ولا ضناك وأنطوا الثبجة وفى السيوب الخمس ومن زنى مم بكر فاصقعوه مائة واستوفضوه عاما ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالاضاميم ولا توصيم فى الدين ولا غمة فى فرائض الله وكل مسكر حرام ووائل بن حجر يترفل على الاقيال أين هذا من كتابه صلى الله عليه وسلم لانس فى الصدقة المشهور ولما كان كلام هؤلاء على هذا الحد وبلاغتهم هذا النمط وأكثر استعمالهم هذه الالفاظ استعملها معهم ليبين للناس ما نزل اليهم وليحدث الناس بما يعلمون وكقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث عطية السعدى فان اليد العليا هى المنطية واليد السفلى هى المنطاة فكلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغتنا وقوله عليه السلام فى حديث العامرى حين سأله فقال له النبى صلى الله عليه وسلم سل عنك أى سل عما شئت وهى لغة بنى عامر وأما كلامه المعتاد صلى الله عليه وسلم وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين وجمعت فى ألفاظها ومعانيها الكتب ومنها ما لا يوازى فصاحة ولا يبارى بلاغة كقوله عليه الصلاة والسلام المسلمون تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم وقوله صلى الله عليه وسلم الناس كاسنان المشط والمرء مع من أحب ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له والناس معادن وما هلك امرؤ عرف قدره والمستشار مؤتمن وهو بالخيار مالم يتكلم ورحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم وقوله عليه

عليه الصلاة والسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان أحبكم الى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وقوله لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه وقوله صلى الله عليه وسلم ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها ونهيه عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال ومنع وهات وعقوق الامهات ووأد البنات وقوله صلى الله عليه وسلم اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن الى أن قال وقد جمعت من كلماته التى لم يسبق اليها ولا قدر أحد أن يفرغ فى قالبه عليها كقوله عليه الصلاة والسلام حمى الوطيس ومات حتف أنفه ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين الخ كيف لا وقد أوتى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ومنابع الحكم عليه أفضل الصلوات وأزكى التحيات

فصل فى قوة الحكومة الحربية والمالية

نفـــرا

٠٢٠٠٠ العساكر النظامية العاملة
٠٠٥٠٠ الخيالة غير النظامية العاملة
٠٠٣٠٠ العساكر المعروفين بزواوة العاملين
٠٠٢٠٠ العساكر المعروفين بالحنفية العاملين وكل هذين غير نظامى
١٤٠٠٠ الرديف النظامى
٠٢٠٠٠ الرديف من الخيالة
٠٧٠٠٠ الرديف من الزواوة
٠٤٠٠٠ الرديف من الحنفيه وكل الاعداد على التقريب لان الضبط غير متيسر
٠١٥٠٠ العساكر البحريه

٣١٥٠٠

٠٠٠٠٢ السفن الحربية باخرتان من نوع الكرويت

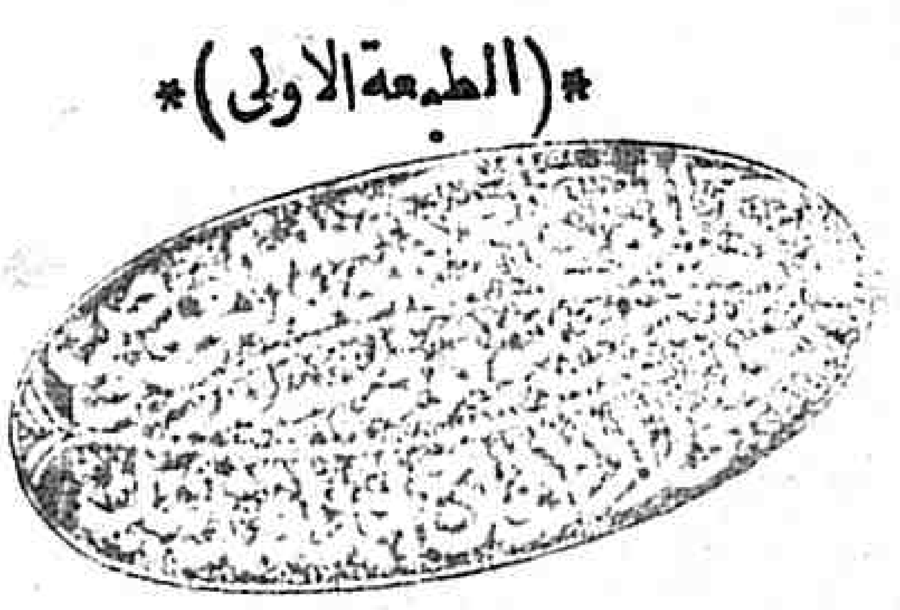
فرنـــك

١٤٠٠٠٠٠٠ دخل الحكومة مع انضمام القسم المعطى لاصحاب الديون ودخل الاوقاف
١٤٠٠٠٠٠٠ خرجها الا قليلا من فواضل الاوقاف
٤٠٠٠٠٠٠٠ قيمة متجر القطر الداخل والخارج

قد انتهى طبع هذا الجزء من صفوة الاعتبار وهو الثانى
بتاريخ أوائل المحرم الحرام سنة ثلاث وثلاثمائة وألف
فى المطبعة الاعلامية لصاحب التأليف الشيخ
محمد بيرم افندى الخامس وتحرر تصحيحه
على يد الفقير اليه تعالى
مصطفى محمد
قشيشه

ويليه الجزء الثالث افتتاحه الباب الثالث فى ايطاليا

(الطبعة الاولى)





(بالمطبعة الاعلاميه بمصر سنة ١٣٠٣)

(تنبيه)

يوجد فى جدول الاحصاآت بالجزء الاول ميم مفردة وهى علامة على مجهول و (لا) وهى علامة على معدوم أى لا وجود له وقد غفلنا عن اثبات ذلك فى محله فأثبتناه هنا لتنبيه القارئ

(فهرست الجزء الثانى من صفوة الاعتبار)

صحيفة

صحيفة

صحيفه

﴿تمت﴾

